











# يوميّات في زمن الكورونا



مجموعة مؤلفين

من نصوص مسابقة

(كل مرّ سيمر 2020)

يوميات
في زمن الكورونا

• يوميات في زمن الكورونا
• قصص
• مجموعة كتّاب
• الناشر وزارة الثقافة
عمان ـ الأردن
شارع وصفي التل
ص. ب 6140 ـ عمّان
تلفون: 5699054/5696218
فاكس: 5696598
بريد إلكتروني: info@culture.gov.jo

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٥١٦٩/١٢/٢٠٢٠

٨١٨,٠٥
يوميات في زمن الكورونا/ محمد نايف العامري ...[وآخرون] ـ عمّان:
وزارة الثقافة، ٢٠٢٠
(٥٣٥) ص
ر.أ. ٥١٦٩/ ١٢/ ٢٠٢٠
**الواصفات: / اليوميات/ / المنوعات الأدبية/ / الأدب العربي/**
❖ يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفة ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

• الإخراج الفني: إحسان الناطور
رقم الردمك (0- 618 - 94 -9957 - 978)

قصص

# يوميات
# في زمن الكورونا

2020

# يوميّات رجل التابوت الأزرق

## يوميات موحشة في زمن كورونا

**محمد العامري**

*التواصل الحقيقي بين الكائنات لا يتّم إلّا عن طريق الحضور الصامت، عن طريق اللاتواصل الظاهر، عن طريق التبادل الُملغز والخالي من الكلام، الشبيه بالصلاة الباطنية.*

**إميل سيوران**

**فنان، كاتب، فيلسوف (1911 ـ 1995)**

## 1
## مصحّة الصمت

كنتُ دائما أتذمّر من الضَّجيج، وأسمّيه التّلوّث السمعيّ، يشكل لي إحدى العذابات المجانية واليومية، أجفلُ من الضجيج والحشود معاً، فروحي أقرب إلى برية ساكتة، لا تتحدث إلا همساً، في أيام الحَجْر الصّحيّ انتبهتُ إلى الصّمت الهائل في شوارع عمان، شوارع فارغة من الخُطى، وهسيس أشجار تبحث عن سكّانها، شعرت أنّ الضجيج

يعاني من مرض ما، مرض الصمت، تصورت لو أنني أجد مصحّة للصمت ربما ينطق بالخُطى التي تيبست في البيوت، خطىً تعطلت مفاصلها عن المشي، أقرب إلى أرجل دُمىً تحتاج من يحركها في مسرح البيت.

لم تعد تلك الأرجل ليّنة، تحتاج إلى زيت الرصيف، تحلم بالمشي على الماء تعاني من ربقة المساحات الصغيرة، كانت خُطاي تختنق كأنها غارقة في بركة صمت عميقة، انتبهت لضرورات الضجيج، لم أدرك أهميته إلا بمفارقات الصمت الجاف، الصمت القسري، الذي وقعت أقدامه في كل زاوية من المكان، توقف كل شيء عن الحركة، ارتطام لعقرب الساعة بحجر في الطريق، صدأ الوقت وثقله في ظلال الأشجار، حرية القطط وتسكّع مجموعة من الكلاب في الشارع، أصبح الشارع أقرب إلى برية للحيوانات التي عانت طويلاً من قسوة الإنسان.




**ماعز جبلي يتجول في شوارع لاندودنو Llandudno**

أنظر بسعادة كبيرة رغم قسوة الوقت في الحَجْر الصحي إلى تلك الحيوانات التي تجول في شوارع المدن المغلقة بحرية كبيرة، عشقت الماعز الجبلي الذي يمرح من دون ذعر في شوارع «لاندودنو» أنظر إلى تلك القرون العظمية التي تزين رأسه وهي تبقر جسد الصمت في المدن الفارغة، وعجبت كيف لوباء قاسٍ أن ينتصرَ للحيوان دونما قصد، لقد تنفست الأرض من ربقة أدخنة المصانع فاقتربت من بريتها الطازجة.

تمنيت أنْ أكون قطّاً بريّاً كي أتجول بحريتي في شوارع عمان، كنت أغبط تلك الكائنات الحرة حين أقبض عليها من نافذة بيتي في المدينة الرياضية، وهي تتمختر بلا خوف أو وجل.

كرهت الصمت وأصبحت أستدرج ضجيجاً كنت أنبذه بالأمس.

## 2

## تابوت أزرق

صارت الكنبة الطويلة بلونها الأزرق المائل إلى دكنة اللون الباذنجانيّ هي المكان المفضل في البيت، بل صارت بيتي الذي أحب، حيث أقضي جُلَّ وقتي المملّ على ظهرها منبطحاً وأمامي مجموعة من الألوان المائية وأوراق الرسم، ودفترٌ لأيّة فكرة تداهمني بشكل مباغت، إلى جانب ذلك كلِّه سجائري وكأسٌ من الشاي، شعرت للحظة بأنَّ

الكنبة أقرب إلى تابوت أزرق يلمُّ جسدي، حيث أقضي ساعات طوال وأنا أمتطي تلك الكنبة، أحسّها حماراً من القطن، أو صندوقاً لعاجز يمارس التحديق في ساعة الحائط، صرت أشعر ببرودة الأشياء المحيطة بي، الدقائق ثقيلةٌ تمشي في طواف غريب في جوف الساعة المستديرة، الظلُّ يجف على الجدران، تضميد فيه كثير من التحايل لتفتيت الوقت، أية مساحة هذه التي تتحول إلى منزل مليء بالأسئلة الخائفة، أسئلة عن الإيمان والموت والقدرات الكونية الخارقة الأقرب إلى خرافات الجدّات؟!

واجهتُ ذلك كلّه متحصِّناً بما قرأت من كتب وأسئلة فلسفية عن الطاقة والانسجام.

لكن عائلتي أصبحت تكثر من الصَّلوات، فوجدتني في مساحة للعبادة، فلم يعد المنزل كما عرفته من قبل، سؤال لم أصرّح به، لكنه يطحنني كصرير آلة صدئة.

لم أتحرك من تابوتي الأزرق، فكان المكان الأكثر أماناً بالنسبة لي، الكنبة الزرقاء ذات الملمس الطريّ، هي وحدها حماري الذي يحملني للأحلام بعيداً عن الخوف الذي يحيط بي من كل جانب.

## 3

## ظلال تجف على الحائط

وقت يكتنفه الوقت، مستطيلُ الشاشة التي تبثُّ بيانات الموتى جرّاء فيروس كورونا، تصريحات ترامب، مؤتمرات صحافية عن بيانات الوباء في المحافظات الأردنية، لقاءات الخبراء على شاشة الجزيرة، جغرافيا الفيس بوك التي تحولت إلى مصحات للعلاج واقتراحات هائلة للأعشاب الطبية، الأعشاب التي كانت تجففها جدتي على قماشة ملونة في مصطبة الدار، صيدليات متنقلة ونفايات كثيرة من الكلام.

صامت أمام وباء القول، ومتحفِّظٌ كذلك، رجعت بذاكرتي إلى رواية الطاعون لألبير كاميه Albert Camus التي صدرت في عام 1947 من القرن الفارط، تلك الرواية التي تروي قصة عاملين في المجال الطبي يتآزران في عملهما زمن الطاعون بمدينة وهران الجزائرية، استرجعت أحداث الرواية التي تطرح أسئلة حول ماهية القدر والوضعية الإنسانية، إلى جانب الطبقات الاجتماعية المختلفة التي تعرضُها الرواية من طبقة الأطباء إلى المطلوبين للعدالة، بكون الوباء وقع على الطبقة المسحوقة، لربما أجد جواباً تاريخانيّاً على هذا الهذيان كلّه، تذكرت مباشرة الإفراج عن السجناء في مركز سواقة في الأردن؛ إذ يصبح الوباء عدلاً لهؤلاء ولو بشكل واهم.

الشاشة لم تتوقف عن بث الخوف في جوف المنزل، العائلة كلّها

عبارة عن كومة من الخوف تتكوم على الكنبات، رَدْمٌ هائلٌ بين المعرفة والفكرة الغيبية، أرى ظلّي وقد جف على الحائط حيث بدا يابساً لا حراكَ فيه.

أوقات مشفوعة بالشكوك، مدينة خانت المشاة، لتراكم معتزلاتنا بدُكْنَة الواقع حتى في سرير النوم والأحلام، فربما توفّر لي رواية ألبير كاميه جزءاً من العزاء لهذا العالم، كل شيء يتوقف فجأة عند سماع خبر يؤثث مضمونه جلستنا بالموتى وازدياد أعدادهم في كل لحظة.

الخوف يتسارع ويسيح في زوايا البيت مثل ماسورة ماء مثقوبة، كنت أُرمِّمُ هذا البؤس كلَّه بالذهاب إلى المطبخ لأعبث بالأواني كي تمدني بصوتها المعدني من باب كسر فكرة الصمت، أصنع قهوتي وأعود إلى سجائري التي بدت كجثث بيضاء في المنفضة.

صار الوقت أكثر رمادية من رماد سجائري، حيث لا وضوح في صفات هذا الفايروس، ولا أفق في العثور على الترياق. مرة أخرى، يقترب الخوف مني ليصبح لصيقاً بي، لا شيء في خارج المعتزل، سوى نواح كلبٍ هجرته المدينة، نواح أقرب إلى استغاثات ذئب في إبط الجبل، محاولات دؤوبة للتملّص من السّأم الجارح، محاولاً تفكيكَ شيفرة السأم طامحاً بانتصار وهمي، كما لو أنني مربوطٌ بصخرة صلدة لا فكاك منها، مكابداتٌ لا تنتهي من ضاغطات الوقت والنشرة

الإخبارية التـــي تنـز موتاً في كلِّ لحظة، كأنني أمام طريق مخاتل لا نهاية له.

أعبث في تفاصيل المنزل كلّها محاولاً تغيير مواقع الأشياء، لكنها تبدو ثابتة تماماً كجسدي الممدّد على الكنبة الزرقاء.

يبدو أن ماكينة الأشياء قد تعطلت، حيث لا عثور على ما أبحث عنه في سكوت الوقت وقسوته المناكفة لوجودي.

أنا أنت أيها الظل الذي جفَّ على الجدران لا ضوء يحركني في ردوم السقيفة.

## 4

## وحدتي الفتّاكة

اليوم ما بعد منتصف الليل تحديداً في الساعة الثالثة والنصف فجراً، أدرك في وحدتي العودة المظفّرة لبشاعة العالم، عودة متخفية في تيجان كورونا الأقرب إلى زهرة الخرفيش، فالشكل الكوروني كما ظهر في عدسات المايكروسكوب يذكرني بوردة نبتت على كومة من النفايات، لقد كان حقيقيّاً لوتريامين Comte de Lautréamont في أناشيده عندما مجّد القُبحَ، وجعلَ منه رسالة كونية تغريك في التفاعل مع أناشيده المالدورية Les Chants de Maldoror، شعرت بقشعريرة

حين تأملت ذلك الشكل الكوروني الجميل وقوة بشاعته وفتكه غير المسبوق في العالم.

كانت وحدتي أبشع من وحدة لوتريامين وتوصيفاته الدقيقة للقبح والعَدم، كدت أبكي من هشاشة الكون الذي نعيش فيه، فالقوة المفرطة للوباء أعادت الأرض كلّها إلى الشجرة، وما جاورها من أعشاب خشنة وناعمة، أدركت حقيقة اغتراب أرضنا عنا، فقد عبثنا بها بجهالة لا توصف عندما صنعنا جائحة لشدة طمعنا بامتلاك الأشياء، احتضارٌ رماديٌّ لكلِّ شيء تقع عليه عينك: خشونة النوم، وكوابيس حمراء تحرق حلمك، نهايات غير مؤكدة.

اندثار خطىً كانت بالأمس تحرث شوارع المدينة.

وحدي الآن تردمني فأس الفكرة، مسارات وعلائق ساكتة، ريبة من شارع نسي سكانه.

أيُّ فجرٍ هذا الذي لم أسمع فيه سوى هسيس لجارة خجولة في فجرها الداكن؟!

مصائرُ ورزنامةٌ فقدت أعصابها من بطء الأرقام والتواريخ التي تنزُّ موتاً، لم ترمم وحدتي سوى مجموعة من اللوحات التي تزيِّن حائط الغرفة، كانت ألوانها تشعُّ بالحياة، تناكف الموت وتبث طاقة لونية وموسيقية هائلة، تؤنسني تلك الأعمال، حيث يكاد الحصان أنْ يخرج من الإطار ليقودني إلى فراغ حرّ، المرأة التي رسمتها قبل عشرين عاماً

كانت على وشك النهوض، كلُّ شيءٍ من حولي باردٌ، فلم يَعُدْ كأسُ الشاي يجد مسوّغات الدفء في تلك الوحشة الغاشمة، والمزهرية في الركن القريب من مكتبتي فقدت مشمومها، وصارت محض بتلات ذابلة وكاسدة، مثخناً بصمت ثقيل، لا لسان لهذا الفجر الغامق.

خيبات تتوالد بتسارع عجيب، غرق بلا بحر، وجروحٌ بيضاءُ لا دم فيها.

أمضي وحدي إلى المتاهات، لم أجد ثقباً واحداً كي أُمرّر فيه بعض بكائي، لكني بقيت أمكث في الكرسي أمرجح أقدامي في الاتجاهات كلّها، تماماً كهذا العالم الذي يتمرجح في وبائه المستجد.

## 5

## كائن يحلم بالمشي

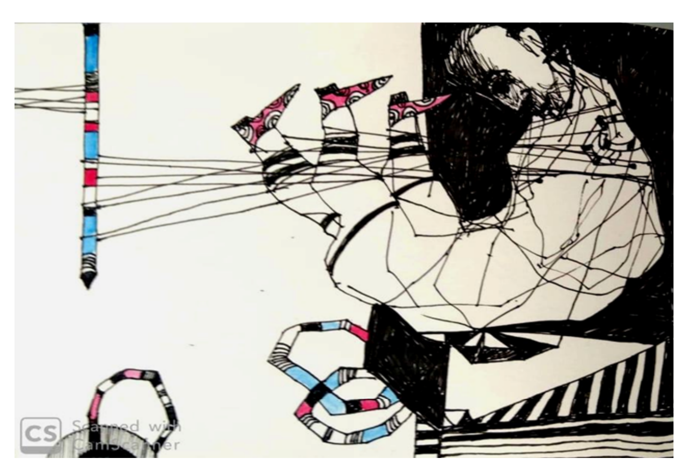
في المعتزل كنت دائم المحاولة في تخيّل الركض وإطلاق أرجلي في الفراغ، لم أتخيل هذا الأمر من قبل، لكنه هجم عليّ جراء المعتزل القسري، فهي تهيؤاتُ سجينٍ يحلم بالرصيف والضوء، يبدو لي أنّ طبيعة الفعل الآني والمتكرر للجسد تنتج رغباتٍ لم يعتد عليها جسدك من قبل، هي غريزة كامنة حين تنقصك تواجهك وتطالبك بتلبية تلك الرغبات.

نعم أحلم بالرصيف،

أحلم بالمشي والقفز كقطٍّ بريّ،
أحلم بهواء غير معلَّب،
أحلم بشمس خفيفة تضرب وجهي،
حاصرتني الجدران بظلالها الباردة،
أصابتني بقشعريرة الموت، وهذيان الخروج،

كما لو أنني في خزّان أسمنتي شديد البياض، لا تعرّجات فيه، جدران استاتيكية صامتة، لا شيء سوى روائح الأطعمة التي تتسلل إليك من باب المطبخ، حيث أصبح الطعام مساحة لوظائف المعدة، ومحركات معوية كسولة تشبه تجمّد أرجلك على الكنبة.

رسمت تخطيطاً سورياليّاً لرجل مكبَّل الأقدام، رجل يحلم بالرصيف هو أنا بهيئة أخرى.



**تخطيط حبر ـ كائن يحلم بالمشي**

سائراً وسط البيت، أحكُّ الجدران لعلها تتحرك، كتفي ترتطم بخزانةٍ لا داعي لها، حيث انتهت مهمّة الملابس، لا خروج ولا دخول، اجْلِسْ أيُّها الحالم بالمشي، فقد خسرت ديمقراطية الجسد، جسدي حبيس الفكرة، وسط البيت نفسه والأحداث الفاقدة للدهشة نفسها، كأنني أحاولُ بين لحظة وأخرى استرجاع ذاكرة الأقدام، فَقَدتْ أقدامي ذاكرتها وأصيبت «بكوما» مرشومة بالثآليل.

كوفيد وضعنا أمام مرآة الأعمار الموحشة، فصرنا بمثابة أزرار إلكترونية نبني وهماً افتراضيّاً للجيران والأحبة.

نستقبل يومياً مئات من باقات الورد إلكترونياً، باقات بلا رائحة أو ملمس، ما زلت أحلم بالرصيف، أتغزل بجماله عبر زجاج النافذة التي تطلّ على وجهه الشّحوبي.

رصيفٌ خالٍ من أقدامي، وتحولاتِ ظلي في منعرجاته، طافحٌ بالوحشة والريبة المشفرة، لم يهرش جسده المُشاة والعُشّاق منذ زمن ليس بقليل.

فالحظر كمائن للأقدام، كمينٌ لعاشقين اشتاقا للقاء اليد باليد، لم ندرك من قبل ضرورات ملمس اليد إلا حين غادرتها المصافحة، كلُّ شيء تعطلت وظيفته،

أنفاسك المكمَّمة،

يدك التي تصحّرت من نأي المصافحة،

أقدامك التي نسيت القفز،
ليلك نهارك ونهارك ليلك،
ظلك الذي غاب في ظلال بيتك،
ذقنك الذي امتلأ بهشير الشَّعْر،
صوتك الخفيض،
كل شيء تعطّل حتى أحلامك.

## 6
## أشجارٌ خارج البيت

النافذة التي تُطلُّ على فراغ الشارع هي الأنف الوحيد الذي أتنفّسُ منه الإيقاعَ الهامد في الخارج، أنف البيت هو أنفي، ومستطيل النافذة هو عيني التي أرقب عبرها ما تيسّر من ظلٍّ ميِّتٍ على حافة جدران الجيران.

أغرتني تلك المفاصل والفروع لأشجار تقف لتحرس صمتنا في الرصيف، أشجار تمدُّ أذرعها الخضراء نحو النوافذ، تحاول أنْ تُسجّلَ أصواتاً كانت بالأمس تحتها، وأنْ ترصدَ همسات عشاق حرستهم من تلصّص المارّة.

في جسد الشجرة مفاصلُ وتقاطعاتٌ وخطوطٌ، تكتب بصوتها الخفيض تاريخاً من السّكوت، كنا بالأمس نحكُّ أكتافنا في جذوعها،

نتعربش بأغصانها ونخدش جسدها كي نسجل أسماءنا التي نامت في ألياف جذعها، اليوم تباعدنا قسراً ولم يَعُدْ بمقدورنا التحرُّشُ بظلها، ننظر إليها من نافذة عالية في الطابق الثالث، ونمدُّ لهاثنا كحبل مبلل بالتعب إلى أغصانها، لعلها تسجّل أنين معتزلاتنا الغارقة بالارتباك.

تلك الأشجار الواقفة التي تموسق الريح بخشخشة أوراقها الرطبة، لتقول شيئاً عن الحبّ أضحت كئيبةً بعد أنْ حبست العزلةُ عُشّاقها وغدوا لا يقوون على سماعها،

فَمٌ مغْلَقٌ بمغاليق الحجر،
ويَدٌ كفّتْ عن تحسّس الثمرة،
مصراعُ بابٍ لم يفتح فمه إلا قليلاً،
غيابٌ فَذٌّ لفضائل الدهشة،
نأيٌ للعبور إلى ضفّة الرَّصيف.

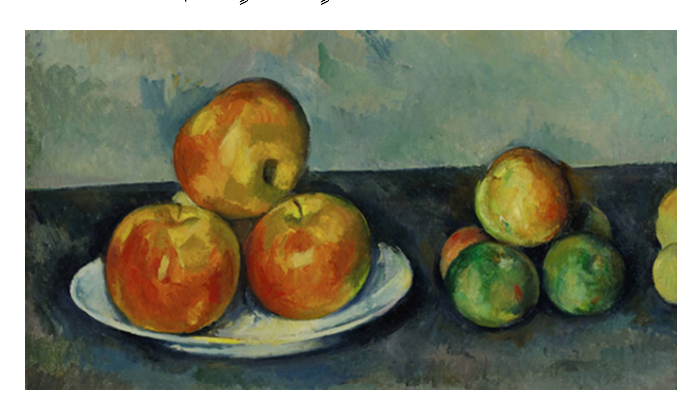
انسرابُ روائحِ الكحول إلى السرير، وزهورٌ نائمةٌ في نسيج الأغطية.

كلُّ شيءٍ في المعتزل يخافك وتخافه، كما لو أنك في حقلٍ من شوك الصبار، فأنت ساكنٌ في فداحة المخيلة التي تشتغل كماكينة شرسة تفرم واقعاً مؤلماً لتنجو منه.

صرتُ أقارنُ بين تفاصيل الشجرة المرسومة على الجدار والشجرة التي تتراقص على كتف الرصيف، كأنني بين وهم وواقع نتمناه.

شجرةُ الرّصيف تهمس وتلثغ بموسيقى الهواء، لكنَّ الشجرةَ في إطار اللوحة متوقفةٌ بحركة واحدة أراد لها الرسّام ذلك، شجرةٌ لا يُستظلُّ بها لكنّها تمنحك في إطارها المصلوب على الحائط وهماً بالحياة والظلال، ولعّل ما يعاظمُ فداحة الرؤيا أنها غير صالحة للعمشقة، تماماً كما رسم الفرنسي بول سيزان Paul Cézanne تفاحاتهِ المشهورة وهي مِن ثَمَّ تفاحاتٌ غير صالحة للأكل، تفاحاتُ سيزان تحيلك إلى عافية الشجرة التي طرحت تلك التفاحات، يعني صحة الحياة ووفرة الجداول، كانت تلك التفاحات تمريناً قاسياً للحياة في الأشياء الصامتة.

هي مقاربات لكائن يحدق في التفاصيل الصّغيرة جراءَ الحَجْر الصّحي، حيث تصبح المسافة بينك وبين الأشياء قريبة منك حد الالتصاق، تضيقُ المساحة فتصبحُ أقلّ من حقيقتها الواقعية، فمساحة البيت النفسية في المعتزل مساحة غرفةٍ واحدةٍ رغمَ تعدد الحجرات.



**تفاحات سيزان**

كأن البيت عاد إلى صفاته الأولى، صخرة الكهف التي كانت تنام في فم الجبل، كل شي يشبه الحَجَر، قاسٍ بصفاته، فالوقت حجر وكذلك الظلال بدت ككتل ليلية متجمدة، تمنيت لو أني ذلك الحجر الذي يعتلي جبلاً في البرية، حجر ينعم بحرية الهواء ودفء الشمس، وكان الشاعر تميم بن مقبل على حق حين قال:

**ما أطيب العيش لو أن الفتى حجر**

**تنبو الحوادث عنه وهو ملمومُ**

أشعرُ باحتشاد الفراغ في مساحة البيت كلّها، أكادُ أصرخ من قُطعان الظّلال التي تكاثرت في أنحاء البيت، أركضُ إلى النّافذة وأرى الشجرةَ لم تزل ترقصُ مع جوقة الريح بتناغم أغبطها عليه، ليتني تلك الشجرة التي تنام على كتف الرصيف.

## 7

## خزائن معطلة

خزانتي شجرة تئن من فأس الحطاب، تماماً كروحي تئن من ثقل الوقت.

لم أحلم بالمشي من قبل مثل هذه الأيام، أيام الحجر الصحي وتداعياته المؤلمة، صحيح أنّ عادتي شبه اليومية المشي في غابة المدينة

الرياضية، حُرِمت من هذه العادة التي كانت تدوزن يومي كلّه، لقد غبت عن أشجار الغابة وتفاصيل أعشابها، وتلك الروائح للأعشاب الجافة المندّاة فجراً.

في المعتزل صارت هوايتي اليومية العبث بتفاصيل الأشياء، حيث هجمت على ذاكرتي خزانة الأحذية كجزء من هواياتي، جمع الأحذية، فحين أكتئب أشتري حذاء ولا أعلم ما هو ارتباط الكآبة بشراء الأحذية فبحثت بالأمر فوجدت كوندليزا رايس Condoleezza Rice تعاني من مسألة الاكتئاب نفسها.

ما جعلني أعبث بخزانة الأحذية هو الفضول لكسر العزلة، والانشغال بأشياء أحبها، فالوقت في المعتزل يستطيل ويصبح مملاً، تذكرت في خضم مشاهدتي لأحذيتي ما رسمه فان كوخ Vincent van Gogh لأحذيته التي اشْتُهرت في كثير من أعماله.

أحذيتي النائمة في جوف الخزانة، بدت كأنها فقدت وظيفتها التي صُنِعتْ من أجلها، فالمشي لدي مقترن بالتفكير بمشاريع إبداعية، حيث تثيرني تلك الظلال التي تتحرك في الغابة.

يثيرني المشي باكتشافات جديدة ومفاجئة، اكتشاف فكرة غائبة تحضر بقوة وبشكل مفاجئ.

لقد هجم على ذاكرتي روسو JeanJacques Rousseau الذي

كان يقدّس المشي طويلاً، روسو الذي دشّن الرومانطيقية، حيث كان يمشي بلا هدف محدد، وكثيراً ما كنت أتوقف أمام مشهد لظلال عشبة مجاورة لصخرة أو حجر، كان المشي بالنسبة لي بسرعات مختلفة، السريع والبطيء، الصاعد والهابط، متعةً فقدتها عندما نظرت إلى أحذيتي التي بدت ككائنات جلدية ميتة.

كل حذاء يتّكئ على الآخر، أنظر إلى ذلك الحذاء الأسود الذي بدا فاغراً فمه ظمئاً للمشي، تذكرت أحذية فان كوخ الذي وثّق مجموعة من الأحذية بكونه الفنان الأكثر رسماً للأحذية، كانت أحذية فان كوخ تعبر عن أحذية الفقراء والمُزارعين، أحذية لها تاريخٌ طويلٌ في المشي وذاكرةٌ في التّسكع.

لكن أحذيتي لا تتشابه والأحذية التي رسمها كوخ، فقد اشتريتها أثناء سفري إلى بلدان مختلفة في العالم، فكلُّ حذاء يذكّرني ببلد سافرت إليه.

أحذية ذاوية في ظلال الخزانة، لا تقوى على الحركة، صامتة، وفارطة أربطتها لتبدو كلعاب يسيل على شدقي الأحذية.



**زوج أحذية ـ فان كوخ**

أنظر إليها وفي ذهني ما ذهب إليه فريدريك غرو Frédéric Gros في كتابه «المشي فلسفة» تلك الأحذية التي نُزعت منها فلسفة وجودها عبر التاريخ منذ الخُفّ إلى آلاف التصاميم العبقرية لهذا الكائن.

أحذية نُزِعت منها فضائلُ المشي واللمعان في وضوح الشمس، وأذكر لجوء فريديريك غرو أيضاً إلى استعمال الأدب والتاريخ والفلسفة، إنه يتحدث عن آرثور رامبو Arthur Rimbaud و«إغراء الهرب» المستمر لديه مدفوعاً إلى المشي حين تقوده قدماه تعبيراً عن «حاجة إلى الحرية وإلى الشمس».

وفي نهاية الأمر يغدو المشي صورة أخرى من أنواع متعة الهروب من السكونية إلى الحركة، وممارسة الحرية المطلقة مع الطبيعة بتنوعها الطلق.

وأذكر هنا كتاباً للكاتب الراحل خيري منصور بعنوان «الكتابة بالقدمين»، وما قاله نيتشه Friedrich Nietzsche: «إن أصابع القدم تنتصب كي تستمع».

أحذية تحولت إلى ظلال جثث كانت بالأمس تقفز في الغابة، لكنها اليوم قد نامت نوماً طويلاً كما لو أنها تعاني من «كوما»، إذ لا تصحو إلا حين تخترقها قدماي كي تتحرك بهما، قدماي اللتان تعانيان من أُميّة المشي، فقد نسيتا تلك القفزات والتعثرات المباغتة.

أصبحت تلك الأحذية أشباح خُطىً تتوارى في عتمة الخزانة، تماماً كما وصف جاك دريدا Jacques Derrida أحذية فان كوخ بقوله: «إن أحذية فان كوخ تحتوي أشباحاً».

فحين نهجر أحذيتنا تفقد قيمة وجودها وتصبح فكرة ماضوية للخطأ، تحمل تاريخاً من الأمكنة وأنواع الأتربة والهواء والماء وطبيعة السُّرعات التي يمارسها الكائن في مشيته.

أحذيتي النائمة تنتظر خطاي التي كربسها الحجر الصحي.

## 8

## حين تغفو الأمكنة

هل الأمكنة تغفو وتغطُّ في سبات عميق؟

هكذا شعرت حين واجهت تلك الأمكنة الساكتة أمام نافذتي ليلاً،

أعتقد أنها تتنفس بصعوبة بالغة التعقيد، هل كانت تلك الأمكنة تحلم؟ أم أنها تختبئُ في ذاتها من شراسة الخوف؟

اعتقدت أنني أهذي وأتخيل ذلك كلّه، لكنني أحسست بقوة صمتها، عمائر مكمّمة لا تقوى على الكلام، كنت أشبه تلك العمائر الرابضة ليلاً على أكتاف الرصيف، أتكئُ على حافة نافذتي، حافة «النايكل» الصقيل والبارد أُداري وحدتي بالتّحديق في ليل اشتدّتْ دُكْنَتُه.

غامق هذا الليل وأكحل،
ساكت ومنفيّ كعشٍّ هجرته الطيور،
لا شيء هنا ولا شيء هناك كذلك،
ليل يتكاثر في سريرتي، وجواح ساخن لا صوت فيه.
بكاء لا يبلل شدقي،
أحتاج إلى منديل أبيض من غير سوء كي أكشط كُحل الليل.

## 9

## ثلاثة وجوه لرجل واحد

تحسّست وجهي الذي اخشوشن كحقل هشير مهجور مررت على منحنياته بأصابعي رغم التعليمات المرعبة التي تحذر الاقتراب من الأنف والعينين والفمّ، لكنه وجهي الذي يصاحبي في الحياة والموت.

مرآتي المنعكسة في وجوه الناس، صارت أصابعي تتفقد هذا الوجه، كما لو أنّ أصابعي عمياء تريد أنْ تجدَ طريقاً لملامحي التي تعرفها تلك الأصابع.

كانت أصابع مستهجنة، تحاول قراءة الملمس الجديد، حيث تحول وجهي إلى حقل من الشوك الناعم، أقلب وجهي في الاتجاهات كلّها كي أراه برؤوس أصابع يدي، لكني اكتشفت وقد نبت لي وجهٌ جديدٌ غير الذي عَرَفَتْه المرآة، اتّجهت مباشرة إلى المرآة لأتأكد من ملامحي التي تعيش معي منذ ولادتي وستموت معي أيضا تاركة خلفها ضحكات تجمّدت في ألبوم الصور.

شيء خفيٌّ سحبني إلى مستطيل المرآة فوجدت وجهي وقد ملأته الأحزان والأعشاب الداكنة والموشّاة باللون الأبيض، وجهي الأبلق لم يعد وجهي الذي أعرفه، بدا كوجه ناسك اعتزل الكون.

لن أترك شعره يطول هكذا، حلقت ذلك الهشير كلَّه الذي احتلّ وجهي وعاد وجهي الذي أعرفه بقليل من الصّفاء، صفاء الإقامة بالظلّ، حيث لا شمس تلفحه في الصباحات الطرية.

وحين حاولت الخروج من البيت إلى البقالة التي ترقد على مسافة قريبة من نافذتي، ارتديت كمامة وقفازين فنظرت إلى وجهي فرأيته قد صار وجهاً جديداً غير الذي عرفته، وجهٌ احتجبت ثلثا ملامحه جرّاء

هذا اللّجام القماشي، غاب أكثر من نصف وجهي في جوف الكمامة، أدركت أني الرجل الوحيد الذي يمتلك ثلاثة وجوه لرجل واحد.

## 10

## كوفيد 19 لا ينام

الليلُ هو اختبار لسقيفة الأحلام، حيث تهجم عليك تلك المركبات الحلمية في النوم، لكنها الآن تتحرك في ممرات الخوف من فايروس يقظ لا مكان للنوم عنده، فهو القائم في صورة اليقظة شبه المطلقة، يتحرك مختفياً على درجات البصر والبصيرة، يصطاد فرائسه بصفات التّخفي، كأنه يعلم بمرئيات الكائنات، رغم أنه مرصّع بالتيجان الحمراء، لكنها مجسّات للعقاب.

تساءلت كثيراً عن أسباب الأوبئة، فوجدتها نتاج خلل اقترفه الإنسان، سواء أكانت من القاذورات أم من تحطيب الطبيعة لتصبح صلعاء من صفاتها، فقد نواجه الآن ما اقترفناه من نفايات الفكر وعظمة الوهم، حيث نأينا عن موسيقى الوجود، لنصبح نتوءاً أشبه بدرن يكتنز بأوساخ التكنولوجيا، فتباعدنا في اليقظة والحلم معاً.

كوفيد 19 لا ينام أبداً فهو يعرف تماماً أننا في سُبات الطمع وطموحات السيطرة؛ السيطرة الجديرة بالطبيعة لا بالإنسان.

اختلّ الإيقاع فنمنا في توهان الفكرة، حيث انتفت فاعلية الفولاذ بمقذوفاته أمام المتخفي الذي أنتج بمدة قصيرة جغرافيا الخوف.

فلم يعد بمقدورنا عنونة الحياة بمسمَّاها الحقيقي، صارت الحياة بعناوين مشتتة وتائهة، المعتزل والحَجْر الصحي والتباعد الاجتماعي والتعقيمات والمكممات وساتر اليد، لتسطيل المسافة بينك وبين ذاتك.

صرت ثلاثة: أنا وظلي وهناك، كان «الهناك» آخر يتفرج عليك، وأنت قد انشطرت إلى صور في مرآة مفتتة، لا تقوى على تجميع ملامحك التي ذابت في السؤال الكوني، سؤال الوباء.

أنا لا أرغبُ أنْ تباغِتَني تلك التيجان الحمراء، في لحظة العناق مع الجدار، لا أريد تلك اللحظة المريبة التي من الممكن أنْ تتخذ من ثيابك مسكناً، حسب التعليمات سَدَدْت ثقوب جسدي كلَّها كي لا يتسلل المتخفي المريب، أنفي وفمي وعطلّتُ كذلك صفات اللمس في يديّ، تذكرت أنّ الطيور تكره الأقفاص رغم كثرة الثقوب، حتى أنا لم أحلم بقفص الطير المثقب، لقد سدت منافذي كلّها وأصبحت جسداً بلا نوافذ، مارست تسقيف جسدي حتى لا تقترفني الريبة، فصرت صندوقاً معتماً، لا هواء ولا نور فيه، جسدي وقد خنقته السدود الوقائية، بدأ يضعف ولا يقوى على الحب.

**11**

## ضجر الأريكة

في كثير من الأحيان لا أستطيع مغادرة الأريكة التي تتواجه مع التلفاز مباشرة، بجانبي دفتري الذي يتهيأ لفكرة مباغتة، الأريكة التي كرهتني من كثرة مكوثي فيها، حيث تحولت إلى دابة أركبها ولا أنزل عن ظهرها، أصبحت رفيقة ضجري من الحَجْر الصحي، حجر قسري مليء بسؤال الحركة.

لم يعد بمقدوري التعاطي مع صفات السقيفة الجديدة، سقيفة فائضة بالوقت، تماماً كساعة دالي Salvador Dalí السائلة، انتبهت لدفتري فرسمت كائناً ضجراً مكبلاً وصامتاً، إلى جانبه بعض فاكهة تتفرد في وجوهها، فاكهة أتقنت التباعد مثلي.



تخطيط ـ حبر على ورق ـ ضجر

هذا ضجري بالحبر الأسود، حيث يطوقني الرصيف المخطط بالأبيض والأسود، كأنّ الرصيف صفات لليلنا ونهارنا أيضاً، أحلم به في جلّ لحظاتي الضجرة، لكنه لا يأتيني إلا على دفتر الرسم، أمشي جواره بقلمي لأرسمه مرات ومرات علّه يصبح حقيقة في الدفتر.

## 12

## بيجاما مخططة

سلاماً من نوافذ القلب حين نطل بأعناقنا كغرانيق حزينة من شرفة البيت إلى الجارة المهزومة.

أريد للكوميديا السوداء أن تتوقف،

توجعُنا لحظة الفَقد وتحزّ رقابنا بنصال لها شهواتها الدموية، أريد لهذه الساعات أن تمرّ وتترك خلفها ضحكة ولو كاذبة.

أريد لهذا الصمت أن يخرج عن صمته ليصرخ: تحيا الحياة.

أريد لهذا النسغ أن يجري في مفاصل الخطى لنركض فرحين بشجرة هناك.

أريد لأمي أن تضمني كما عهدتها، غير مذعورة من تيجان كورونا.

أريد أن أمضي إلى «الهناك» لأصفّر للعصافير في حقل أبي.

تمنيت ذلك كلّه، لكنني لم أنج بعد من صورة الجارة صاحبة البيجاما

المخططة، التي تقبّبت ركبتاها وصارت أقرب إلى كرتين مخططتين تعانيان من بطء الركل وهزائم الأطراف.

أنظر من نافذتي إلى تلك الجارة العجوز وهي تتكئ على بقايا ظلال لجسد تآكل حتى صار كعرجون تقوس من شدة الصهد.

يبدو أن جارتي العجوز تمكث وحيدة بلا أحفاد، لا أحد يعيلها سوى صرامة الحجر الصحي، راق لي إصرارها على ممارسة الحياة، متحصنة بقوة الماضي التليد، حين كانت يافعة، تدفع بأقدامها كعربة صدئة لم تتحرك منذ سنين، لكنها تصر على أن الحياة أقوى من كوفيد 19 وأقوى من الأوبئة كلها.

جارتي لم تزل تمارس مهامها الصباحية في تَفقُّد الرصيف بالبيجاما المخططة ذاتها.

## 13

## لقاء غير حميم مع الصمت

حين تتصادق مع نقيضك في غرفة واحدة، لا بد من التفكير بأدوات تساعدك على التعايش مع هذا الصديق غير المرغوب به، صديقي القسري الذي فرضته عليّ الظروف الوبائية، حيث يصبح جسداً ضخماً وثقيلاً يجلس معك على المائدة.

ينام بجوارك ويقترح عليك طبائعه القاسية.

ينظر إليك بعين حمراء كما لو أنه القاتل الذي ينتظر أوامر التنفيذ لإنهاء حلمك.

يعتقلك من دون ريب أو شكوك، حيث يعود بك إلى نوع آخر من موتك في ظلال الغرفة.

يوم تتعطل ساعة الحائط عن لدغ مسننات الدقائق، وتهجم عليك أشياء أخرى لتتعطل فيك، حيث تصبح أشبه «بكراج» مهجور، يصفعك الصمت بيده الثقيلة على حين غرة، ليحطم فيك شهوة الكلام، وتصبح أمام سطوته قطيعاً من الأرانب المذعورة، يبتلعك ويقذف بك إلى فراغ الحجرة، لتهوي من دون مفازة أو أمل.

فلا مأوى لك سوى أن تلوذ بعذرك الخاص، لتحجم عن ارتكاب الحركة، تبدو مهيباً في حركتك كطائر البطريق، لكنك لا تقوى على طهو أحلامك في سؤال الحياة.

إذن سأرمم وجهي بقليل من صابون الحلاقة، حيث تبدو الرغوة كقناع أبيض احتل مرآتي، لكن الشفرة تجرف بياض الرغوة كلّه، لتكشف عن ملامح غارت في زجاج المرآة.

تكشط قناعك،

تكشط بقايا زمن نام في أخاديد وجهك،

تكشط ما التصق فيك من ضحكات سابقة،

تكشط ظلال أنفك الذي صار هدفاً للوباء،

فلا رغبة لي أبداً بتلك المرآة التي تكتب حقيقة يومي،
لا رغبة لي بتلك الصورة الرجراجة وهي تهتز في فضة الزجاج،
وجهي صار بقعة من الحبر الداكن،
يسيل على ورق سقط للتو من شجرة عجوز.

## 14
## مكياج يكشط الغياب

المرأة التي كانت تتحصن بالمكياج، كسرت مرآتها، فقد كشف الوباء تلك التعاريج الغائرة في وجهها، لم تعد «تتمكيج» كي تغري حبيبها في الشارع الموارب، كانت تؤثث كآبتها العارية ببعض الأشعار، لكن المرآة المكسورة احتفظت بتجاعيد وجهها فصارت تلك المرآة شاهدة على غيابها.

أحمر الشفاه لم ينكشف من خلف الكمامة،
كحلة العينين بَهُتَتْ،
قالت: كيف لي أن أصدق ولو للحظة وجهي الذي لم يتعرف عليّ؟
صارت تفتش عن ملابسها الملساء في خزانتها، فوجدت ليلاً ينبح مثل كلاب ضالة،
وجدت ظلاً ساكتاً يغطي قميص نومها،
وجدت شحوب أحذيتها،

على مهلها أدركتْ أن العمر كان يسرقها بلا استئذان،
قالت بصوت مبحوح وبطيء جداً:
هذا البكاءُ المختبئ بالخزانة لم أدركه قط، يبدو أن ملابسي كانت تغطيه بملاستها.
هذا بكائي هنا،
في المرآة والخزانة وعلبة المكياج،
في زمن لم يدركه أحد سواي،
زمن الغياب في مرآتي المكسورة.

## 15

## وردة وحيدة على الشرفة

تلك الوردة التي تشاركني وحدتي في المعتزل، صارت أنثى تهاتفني من شرفتها بروائح تتسلل إلى أنفي، روائح خجولة تماماً، مثل مراهقة لم تدرك بعد تأثير عطرها على مراهقها، الوردة تطل عليّ بأحمرها المشوب ببياض خافت، خِلتها العقيق الذي وقف في محراب النور، تنظرني وأناظرها من أسفل اللون إلى أعلاه.

الوردة دهان جَمُدَ في فراغ الشرفة، لم تزل تلك الوردة تؤثث فراغها بأحمر يضيء سراج روحي.

صورة كتبها في غابر الزمن مقري الوحش حين قال:

نار على ماء الحياة لم تجمد

والورد يحكي بالغصون مجامراً

أعيش هنا بعيداً عن أنفاس أمي، المعتزل صار خشناً، يشبه أشْولة القمح في موسم الحصاد، لا شيء معي الآن سوى وردة وحيدة في أصيصها، ترقد على شرفة المنزل في المدينة الرياضية، المسافة تطول يا أمي، لكنني أستحضر وشمك الأخضر على وجهك الوضّاح، ربما يعينني على احتمال تلك المدينة المحجورة.

تعالي لأريك تلك الطوابير أمام مخبز راغب بشهوة النار، مسمّرين بانتظار دورهم لابتياع رزمة من أرغفة ساخنة، يقفون بانتظام، كأرتال النمل وهي تحمل حبة من حنطة الأرض، لا شيء سواك أيتها الوردة، مصطّفون يتجاذبون الحديث على مسافة المتر الواحد،

من خلف لجام القماش، يستدرجون أحاديث الوباء بفزع الخبز، ورغم مسافة المتر، إلا أن ظلالهم تتعانق خلسة عنهم، كان الظل أكثر رؤماً من صاحبه.

صفَّقوا حين وصلت طرود الإعانة، كورونا حاضرة في بهو الروح، وجوههم محززة من كمامات صارت سلعة نادرة، كل شيء أصبح في تباعد غريب، أنا والوردة متلاصقان لا نسمح لتباعد يفصلنا.

أنا والوردة عطر لروح واحدة،

كأن كورونا قد استثنت النباتات الجميلة من التباعد،
تمنيت لو أني شجرة تحتك بصراخ الجيران.

## 16
## عصفور يخدش الفراغ

«أ»

صار الصمت جسداً أستطيع تحسسه بدقة، جسداً يشبه منحوتة ضخمة، مكعباً بأضلاع حادة، فهو الرابض على صدر كل شيء، صمت بعافية عالية يتكاثر بزيادة أيام الحجر الصحي، كأنه يتغذى على فراغ المدينة.

أيقنت أن هذا الوقت يتحرك بسرية عالية، فقدرته على تغيير الأشياء هائلة، تغيير سلوك الإنسان ليصبح أكثر سكونية وركوداً، هذا الفراغ ابن الصمت لم يزل يحفر في ظلال المدينة ويكنس سكانها ليضعهم في مكعب النفايات الإسمنتي، كمٌّ هائل من تراجيدية تتكاثر في زوايا المدينة.

لا شيء يعفيك من ارتكاب هذا الصمت فهو أكبر منك بكثير، فأصبْنا به كوباء مقطوع اللسان، كلماتك حصانك، لا كلام ولا اقتراب ولا مصافحة.

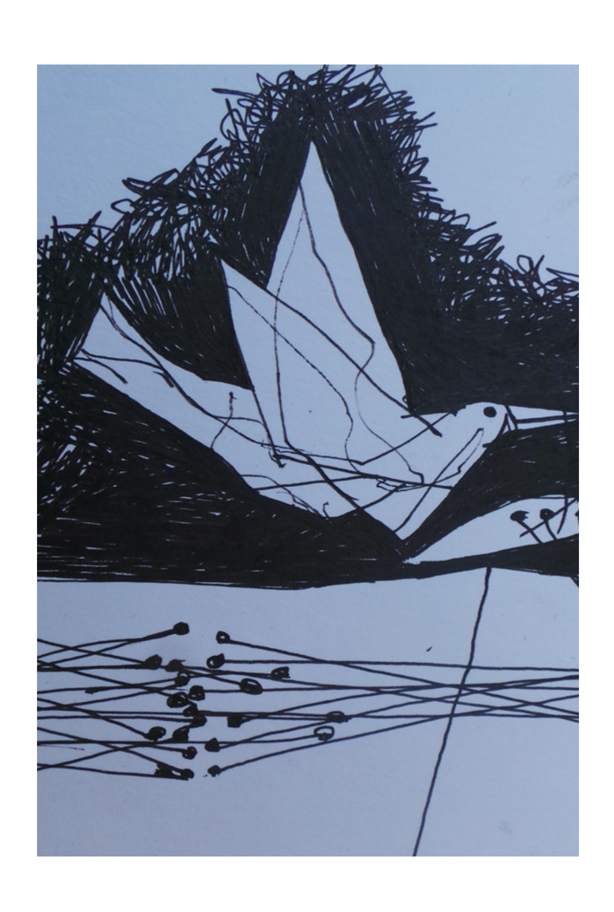
رطانة في مصفيات الصوت،

تغير الأصوات في هاتفي النقال، صديقي الذي كان يهدر في الهاتف صار صوته أكثر انخفاضاً جراء فلترة الكمامة.

كابوسية الفراغ تتحقق وتتّضح في معاني الفكرة، كدهان فسفوري قابل للرؤية عن بعد، حيث أشعر أنني على مرمى من سهامه القاتلة، ومخالبه اللامعة، لم يتحرك شيء إلى الآن في الشارع المجاور، سوى صوت حاد لعصفور تكاثرت فيه التغاريد، فلديه فائض من الاطمئنان، كانت تغريدة العصفور بمثابة فكرة مبجلة عن فضائل الحياة، لم يستطع الصمت أن يقبض على تلك التغريدة، فقد فلتت منه عنوة.

فكلما غرّد العصفور في تتابعية صوتية منغمة يتآكل جسد الصمت الثقيل، ويتحرك الفراغ بوهمية جميلة.

عصفور لا يتجاوز وزنه غرامات بسيطة استطاع أن يناكف الفراغ برفيفه وتغريداته، محا خصائص الحصار والوساوس والكآبة في المعتزل، بصوته كسر جدراناً وفك قضباناً صلدة عن روحي، لقد هشّم الفراغ بقليل من الريش المرقط.



**«ب»**

أنتج الحجر «توتاليتارية» جديدة تتخفى في مسامات الطمأنينة والخوف معاً، لاذعة في طعمها كفلفل هندي يعيد لك قيمة اللسان الذي فقد كثيراً من حروفه فأصبح ألْثغ.

فصاحة العصفور قادتني إلى فكرة الرقص في المعتزل، نعم هناك

من يحرك فيك نسغ الحياة ولو كان كائناً بسيطاً، فالقوة في تأثير الفعل وليس بضخامة الشكل.

كشف العصفور عورة الصمت، وأثث الفراغ بصوته ورفيفه الحرّيْن، تماماً كما كانت تفعل جدتي حين تضع لفائف الشَعْر في شقوق الجدار، لم يكن الزمن الذي أمضيته في الحجر الصحي بمعزل عن كآبات الأيام الفائتة التي أعطتني من فراغها الكثير من أسئلة تتشابك في معانيها في ما يخص فكرة الوجود نفسه.

العصفور الذي خدش الصمت غير معني ببيانات الوباء في شاشاتنا اليومية، له رزنامة تسطع على غصن شجرة، أو رفيف لجناحين لم يعرفا قط فكرة السكون.

عصفور قليل يدعو الكائنات لفعل الحياة،
يدعونا للغناء ومقاومة البؤس،
أثارني العصفور وهو يترنح على غصن غض لشجرة ثابتة،
أعطاني من غنائه نسغاً لتحريك ذاكرة الجسد،
أعطاني رقصة رشيقة على مسرح غص بفراغ المدينة.

**17**

## أوقات ومثاقيل

تلك المدينة التي بدت من نافذة ترفرف من خلف ستارة مرقطة بالزخارف، كعجوز هجرها الأحفاد في سقيفة معبأة بأنين ساخن، مدينة صامتة كمُهْرة لَجَمها الغياب، لا شيء سوى ظلال تتكسر على رصيف فارغ من المشاة،

لا شيء يتحرك فيها غير حبل من الغسيل تضربه الريح كعقاب على تمرده في الحركة، الريح تعاقب قمصانه المنشورة على السطح،

تضرب عنقه وذراعيه وتقطف زهوراً كانت قد نبتت على أكمامه،

تضرب عجيزة البنطال الأزرق الذي اشتراه يوم خِطْبته من فتاة أحبها في الجامعة،

لم يسلم ذلك الحبل من عقابِ وقتٍ ثَقُلَ صمته، فأصبح كمعدن ساخن يلسعك حين تلمسه، مثاقيل فوق روحك تجثم،

وعمائر تركع في محراب صمتها،

عمائر تحصدها مناجل العزلة ولهاث ساكنيها،

حتى بدت تلك العمائر الحجرية كقبور عمودية، أطْفأت قناديلها وباتت في ظلمة وخيمة، هربت أصواتها لتتخفى في دياجير غائرة وبعيدة،

كل شيء أصبح مكوّراً،

الجسد في مقعده،
الوقت في بطن الساعة،
الظل في زاوية السقيفة،
الأيادي كذلك تكوّرت من نأي المصافحة،
أصبحنا كأجّنة معزولين في رحم الحياة.

## 18
## آلة موسيقية لم تتقطع أوتارها

أدهشني صوت الكمان الذي ينسرب بين ممرات العمارة التي أسكن فيها، الصوت الناعم والنائح يسيل على الدرج، لم أعرف أن أحد جيراني عازف كمان، ظللت في حيرة من أمري رغم تلذذي بتلك الأصوات النائحة للكمان، من هو هذا الكائن الذي لم تتوقف أصابعه عن دوزنة الليل، حيث لا مجال للحركة ولا الصراخ؟

توقعت أن العازف لم يمتلك الخبرة الكافية بالعزف، حيث كان يخرج عن مقامات السلم الموسيقي في بعض الأحيان، لكن تلك الأخطاء أكثر إثارة من الجمل الصحيحة في العزف، يبدو لي أن ضجره جعل منه خطّاءً موسيقياً.

جاءت أصابع العازف المجهول لدي ليحرك هواء يابساً في ممرات العمارة، كأنه يدعو الساكنين لحركة ما، أو لتمرد يتحرك في خياله، بدأت

أتتبع الموسيقى بالإصغاء الدقيق، كمن يمشي على رؤوس الأصابع، أدركت أن الموسيقى جاءت من الطابق الأول، عرفت أن ابن الجيران الذي كنت أشاهده صباحاً على عجالة من أمري هو ذلك الذي كسر صمت ليلي من دون أن يعلم، علا صوته بأغنية أحبها جداً للمغني كيني روجرز Kenny rogers ليدي «lady» جاء صوت الشاب خشناً إلى حد معقول يحاول تقليد روجرز، فصرت أغني معه في غرفتي من دون علمه، كأننا ثنائي في غناء تباعدي يتناسب والجائحة.

## سرّ الغرفة (46)

أحمد فراس الطراونة

لم تكن دقّات رقّاص الثواني لزجةً دبقة كما هي تلك الليلة، كانت تفلت من الزمن لتغيب في لحظة مؤلمة، ملامح الساعة الخشبية العتيقة المركونة على حافة الحائط تشبه وجه عجوز يجلس على حافة العمر يتسلّى في حَصر خرزات مسبحته حتى بلغ التاسعة والتسعين فأمسك بها خوفاً من النهاية.

جرس الغرفة بصوته الثقيل الذي يعلق بالهواء هو الآخر لم يتركني، وقع على مؤخرة رأسي كهراوة فتكت بوحدتي، أخرجني من بلادة الحياة، وأعاد لذاكرتي بعض الاتزان، لا أحد خلف بوابة الغرفة يهتم بأمري، وحيداً في مدينة لا تعرف أهلها.

«من؟».. سؤالٌ أخرق تاه في السرداب الوحيد المفضي إلى باب الغرفة، لم يسمعه الطارق، عدتُ أحدّق في اللا شيء، لحظة اغتراب في سرداب مدينة بلا ملامح، وزمن بلا ظلال تضبط إيقاعه، كنت أتمنى في تلك اللحظة أن يكون الكونُ كلّه، بكل خوفه وسخريته

من الخوف، بكل جماله وقبحه، بكل أسراره وفضائحه، بكل أرباحه وخسائره، تمنيت أن يكون زجاجةً صغيرة فألقيها من شبّاك الغرفة التي تتوسط الدورَ الأربعين في الفندق الباذخ لتتناثر إلى غير رجعة.

لم يتوقف قرع جرس الباب، لملمت أعضائي التي كانت موزّعة على أريكة متعَبة من أجساد العابرين، فتحت الباب، كان عامل الفندق، قال: «هذه ملابسك.. أحضرتها إليك في الوقت المحدد؛ لأنك أخبرتني أنك ستغادر الفندق بعد ساعة من الآن».

أخذتُ الملابس بعد أن شكرته، علّقتها خارج الخزانة، امتدّت يدي لا شعورياً إلى جهاز التحكم عن بعد، قلّبت قنوات التلفاز الواحدة تلو الأخرى، أوقفني خبر فيروس «كورونا» الذي ينتشر في الأرض كانتشار النار في الهشيم، لم أنتبه كثيراً، حاولت أن أسمع مرة أخرى، لا أريد، كأن الأخبار تأتي من مقبرة بعيدة، مقبرة واسعة الأرجاء كمقابر الحرب العالمية الثانية، المذيع مجوّف الرأس بربطة عنقه كركميّة اللّون والرائحة، يتكرر في جميع القنوات، اجتاحتني رغبة قوية في سحبه من ربطته لأريح العالم منه، وبنزق وسخرية قلت: «أستغفر الله».

رميت الجهاز جانباً وعدت إلى الشبّاك أتأمّل البشر الذين بدتْ ملامحهم من شبّاك غرفتي كأنهم بلا رؤوس، يسيرون في شارع بلا نهاية.

عدت لترتيب حقيبتي، تركت القميص الأزرق وبنطال (الجينز)

والحذاء الرياضي خارج الحقيبة، وأغلقت الحقيبة ووضعتها عند باب الغرفة، ارتديت ملابسي، وكعادتي في اللحظة الأخيرة، تفقّدت أشياء ثلاثة؛ محفظتي، وهاتفي، وجواز سفري.

نظرت في المرآة مرة أخيرة، اكتشفت أن هذا القميص من أكثر ملابسي ارتباطاً بالحظ السيّئ، تجاهلتُ الأمر، لكن ما جلب انتباهي هو غياب صورة وجهي في المرآة، كنت أبحث عنّي في زحام الشظايا التي قسمتني إلى صور قميئة.. «كأن المرآة لا تريد أن تراني!» تساءلت وأنا أسحب إصبعي على ما تبقّى من بخار نفثته على وجهها من فمي، تظاهرت أمام المرآة أنني لا أحفل بكل صورها، مَن قال إنّ الصور التي نراها تعكس دائماً حقيقة أصحابها؟!

أقفلت باب الغرفة (46) وسحبت الحقيبة إلى المصعد، لا أعرف إن كان ذلك نذيرَ شؤم، إذ يتوقف هذا الصندوق اللعين في معظم طوابق الفندق رغم تعدُّد المصاعد، لم أستطع أن أفسّر ما يدور في هذا الصندوق الذي يلغي الفوارق بين بني البشر كما هو هذا الوباء الذي يجتاح الزمان، رجل واحد وجدته داخل المصعد، استطاع أن يضبط إيقاع الحياة على مقياسه، كان يستغفر بشراهة، بينما الآخرون يصعدون وينزلون في الطوابق المختلفة، يسيطر على ثرثرتهم الخوف من هذا الذي يجتاح العالم بسرعة.

لفت انتباهي ذلك الآسيوي قصير القامة، وكأنه يتبع خطواتي

في بهو الفندق، اقترب من حقيبتي، رمقها بعينيه الصغيرتين مقارنة بوجهه الدائري الواسع، لم أعره اهتماماً كافياً، ثم غاب في الزحام بينما كنت أنهي الإجراءات لمغادرة الفندق.

تركت مكتب الاستقبال وعدت كي آخذ حقيبتي، فلم أجدها، صاعقة تخرجني من هذه البلادة كلها وتجعلني أهرول كالممسوس في ردهات البهو.. أسأل هنا وهناك، ولا إجابة، يبدو أنني سأعود إلى عمّان بخفّي حنين.

ما يؤلمني ليس محتويات الحقيبة من أغراض خاصة وملابس، وإنما الأوراق والعقود الخاصة بالصفقة التي جئت لإنجازها، فليس لدي أيّ نسخ عنها.. لم أعد أطيق هذا المساء الثقيل، ولا أعرف من أين تأتي هذه الكآبة، لكنها تفيض في صدري وفي المكان وفي الطرقات وحتى في وجوه الناس.

بينما كان سائق السيارة يسألني عن حقيبتي، لمحتُ الشاب الآسيوي مرة أخرى يمر أمامي، وقفتُ مسرعاً، مددت يدي إلى كتفه ثم تراجعت، كنت أريد أن أسأله عن الحقيبة، سمعته يهمس بالاستغفار.

«ما الذنوب الكبيرة التي اقترفها لتدفعه إلى هذا الاستغفار كله؟!» سألت نفسي وأنا أقف متردداً أتتبّع خطواته وهو يسير نحو بوابة الفندق.

فقدت الأمل بالعثور على الحقيبة، وأبلغت عنها المختصين، ثم غادرت الفندق متجهاً إلى المطار.

«الكورونا» تجتاح العالم، بينما تجتاحني اللامبالاة، تقرض أفكاري كفأرٍ بدين، أتفقد الأبراج العالية والطرقات الملتوية، يمتد الليل طويلاً بينما أنا غير آبهٍ بالأضواء حولي، الزمن يتجعّد على نافذة السيارة، وينز الضجر من زجاج الأبراج التي تتدلى من صفحة السماء كأذيال البرق، مذياع السيارة يثرثر بالوجع الذي يقرص أذن الأرض أو يحاول أن يعيدها إلى رتابتها، ذلك كله جعلني أفكر أن المكان الوحيد الذي تنام فيه من دون أن يفوتك موعدُ الإقلاع هو السيارة التي تقلّك إلى المطار.

تهدّلت أجفاني مؤذنةً بغيابٍ تام عن هذه الفوضى، أو هي ارتحال إلى فوضى أقصر زمناً، مال رأسي على حافة المقعد الخلفي للسيارة، لا أعرف من أين جاء سرب الخفافيش مسرعاً يخترق رأسي ويجعل أجنحته تصفّق في جمجمتي، قد يكون الخبر المشؤوم الذي ربط «كورونا» بالخفاش هو ما جعل هذا الكائن يرسخ في ذاكرتي كي أستدعيه في لحظة اللاوعي، لكن لماذا ظهر الشاب الآسيوي في الكابوس وكأنه هو من استثار الخفافيش دفعةً واحدة لتندفع في وجهي.

سائق السيارة أوصد الباب في وجه هذا السرب اللعين ليبقى أثر صفق أجنحته المسخ يقرع في ذاكراتي.

«وصلنا، هل تريد أن أساعدك في حمل حقيبتك؟! آه.. أعتذر، ليس

معك حقيبة!».. كلماته كأنها إبرة تُغرس في عيني، أعادتني إلى الحقيقة التي حاولت نسيانها، شعرت أنني في غابة، أصوات الناس كثغاء قطيع من الماعز يبحث عن صغاره، نداءات رتيبة في مطار يشبه عنقوداً من الأضواء تنزلق إليه الفراشات مسرعةً تبحث عن النور والحياة، لتقع في شِباك النهايات، أيُّ نهايات؟ لا أحد يعرف.. هل الفراشات تطرد خُطى النور، أم هو النور يقصّر خُطى الفراش حين يفيض عن الحاجة ويغدو قاتلاً؟! نعم.. النور حين يغدو قاتلاً!

أحاول أن أستعيد ذاتي وأنا أضع قدمي فوق ممر كهربائي يعبر بي إلى جوف المطار، يسير بي ببطء، تدور عيناي في محجريهما ككاميرا، يمر الشاب الآسيوي من جانبي يهرول مسرعاً وهو يتمتم مستغفراً، وأنا واقف على الممر الكهربائي أنتظر الوصول إلى غايتي.

أخيراً وصلت، اصطفّ الجميع في طابور طويل، الكلّ يخضع لفحص سريع يُعطي نتائج أولية حول الإصابة بالوباء الذي بدأ يرتّب البشر في قالب واحد، أشعل أحدهم الضوء في جبهتي، نظر في الشاشة الصغيرة ثم أومأ لي بتجاوز الخط الأصفر، لا أعرف لماذا كان الضجر هو ما دفعني للاستغفار.

«أستغفر الله».. عبارة لم أرددها في الرخاء، قلتها بنزق محتجّاً في داخلي على ما نمرُّ به من إجراءات مقيتة وغريبة للفحص.

أنهيت إجراءات الصعود إلى الطائرة، جلست على أحد المقاعد

قرب بوابة الدخول أنتظر أن تُفتح، فتحت الهاتف كي أستطلع آخر الأخبار، صفحة (الفيس بوك) بذبابها غير الملتزم بدت لي صحنَ سُكّر في يوم قائض، أصابني الدوار حين وقعت عيناي على خبر مفاده أن عمّان قد بدأت بتطبيق إجراءات الحجر الصحّي على جميع القادمين من المنافذ الجويّة والبحريّة والبريّة ومن جميع دول العالم من دون استثناء.

انحبس الهواء في صدري.. حاولت أن أكذّب الصور والخيالات التي قفزت أمام مخيلتي، أحسست بالاختناق، ففككت أزرار القميص الأزرق المشؤوم وأخرجت سيجارة وأشعلت رأسها.. «أستغفر الله العظيم»..

نفثت عُقد الدخان في سماء القاعة، أحد رجال أمن المطار يلتقف السيجارة من فمي بسرعة خاطفة.. التزمت الصمت بعد أن صمتت أوصالي مُقرّاً بالخطأ الفادح.

دقيقة صمت أربكتني، الساعة الثالثة ليلاً في المطار، الإقلاع إلى عمّان بعد نصف ساعة، الشاب الآسيوي نفسه يجلس على الكرسي نفسه، يرمقني بعينه ثم يُتبع ذلك بابتسامة لا تكاد تظهر في وجهه، هممت بسؤاله عن أشياء كثيرة، عن هذا الحجر المفاجئ، عن وجوده في هذه البلاد، عن سرّ زيارته للأردن، عن سرّ هذا الاستغفار العجيب الذي لا يغيب عن شفتيه، عن سرّ هذه الابتسامة التي لم تفارق وجهه، لكنني ترددت في ذلك.

اقترب الشاب مني ثم قال بلغة عربية سليمة: «السلام عليكم»، فرددت: «وعليك السلام ورحمة الله».

كانت تحيته قد أيقظت الأسئلة في داخلي من جديد، وأثارت رغبتي بالاقتراب منه ومعرفة أسراره.. هممت بذلك، لكن النداء الذي أعلن عن فتح بوابة الطائرة المتجهة إلى عمّان أجّل ذلك إلى إشعار آخر.

تجمهر الركاب عند البوابة، وبدأوا بالصعود.. الآسيوي يقف خلفي، أشعر بأنفاسه تخترقني، واستغفاره يكتظ في المساحة المضاءة أمام عيني ويراكم على أجفاني شيئاً يشبه الغيم الثقيل الغارق بالرطوبة، (20B) رقم مقعدي، رميت جسدي عليه، وكالعادة أرغب ألّا يجاورني أحد، لأنني شغوف بالمساحات الفارغة، لديّ رغبة في امتلاك فراغات الأرض كلها كي أترك فيها روحي التي بدت محصورة في علبة كبريت.

الآسيوي يقف مرة أخرى على رأسي، الاستغفار كالإبر والابتسامة الضائعة في صفحة الوجه الدائري تلاحقني، هززت رأسي، أريد أن أتخلّص من الرتابة التي بدت تجترّني في جوف هذه الطائرة اللعينة، أو قل في جوف هذا الكون.. مدّ إصبعه إلى المقعد الذي يجاورني، وطلب مني أن أفسح له المجال كي يجلس في المقعد (20A).

جلس بانتظام آلي ولملم نفسه داخل المساحة المخصصة له، بينما أنا أتناثر هنا وهناك.. أشيائي تتبعثر كالأفكار التي تفككني ثم تعيد ترتيبي من جديد، أردت أن أمدّ يدي إلى النافذة كي أفتحها، صفعتني

الآلة التي تختبئ في رأسي: «أنت لست في سيارة»! مددت رقبتي كي أرى الأرض، رأيت ناقلة الحقائب تمر من أسفل أجنحة الطائرة باتجاه المكان الذي توضع فيه، قلّبت الحقائب ببصري سريعاً، رأيت حقيبة تشبه حقيبتي.. هي؟! لا.. ليست هي.. ما الذي يأتي بها إلى هنا؟! لقد أقلعت على طائرة أخرى! كان الشاب الآسيوي يتابع حركاتي بطرف عينه، لم يمتعض، لم يُبْدِ أيّ اعتراض على أيٍّ من تصرفاتي، فقط كان يستغفر بهدوء، تكاد عبارة الاستغفار تخرج وكأنها تُسمَع من مذياع بعيد، يكررها بلا كلل أو ملل.. فكرت أن أفتح فمه كي أرى إن كان يخبئ مذياعاً في فمه!

«إلى أين ستسافر في الأردن؟»، باغتُّه بسؤال لم يكن يتوقّعه، فنظر إليّ بهدوء والابتسامة تملأ وجهه قبل أن يقول: «إلى عمّان، ومنها إلى جامعة مؤتة في مدينة الكرك، فأنا طالبٌ في السنة الرابعة في تخصص أصول الدين»، وأتبع ذلك بعبارة استغفار سريعة وكأن حديثنا قد أخذ من وقت استغفاره ويريد أن يعوّض ما فاته.

تركني قليلاً ليراقب لحظة الإقلاع، وحاولت أن أرفع رأسي قليلاً كي أقاسمه النافذة ببصري، بدت المدينة من الأعلى كلوحة فنية رسمتها لحظة انفجار ألعاب نارية في ليلٍ كانوني معتم، لتستقر الطائرة على ظهر الغيوم ويسمح طاقمها بفك أحزمة المقاعد، إيذاناً بالحرية والانفكاك من القيد، فأنا على عداوة مع حزام المقعد في الطائرة والسيارة معاً.

لم نمضِ وقتاً طويلاً قبل أن يغادر الشاب الآسيوي في نومه، لتبقى شفتاه ترتجّان مع كل استغفار يخرج من الماكينة المركونة في فمه، وأسدل النعاس ستارة ناعمة على وجهي أنا الآخر لأصحو على نداء ربط الأحزمة استعداداً للهبوط في مطار عمّان الدولي.

عدّلت المقعد وربطت نفسي من جديد، بينما شريط من الأحداث التي تنقر جمجمتي وتبعثر اتزاني يمرّ سريعاً؛ الحقيبة، أوراق الصفقة، الصفقة التي سافرت من أجلها هل ستتم في ظل هذه الظروف القاهرة؟ الحجر الصحي إن كان سيطبَّق فهو بحد ذاته كارثة.. أين سُيحجر علينا؟ حاولت أن أعيد ترتيب الأحداث.. وقررت أن أحاول الإفلات من الحجر بأي ثمن.

التفتُّ إلى محمد، طالب الشريعة وأصول الدين في جامعة مؤتة، وقلت له: «تتحدث العربية بجمال».

هكذا فتحت مغاليق الحديث معه، وأضفت قائلاً: «يبدو أنك علمت بالإجراءات التي تُتّخذ في المطارات؟»، فأجابني باقتضاب: «نعم، سنصل بإذن الله، قد يكون هنالك بعض الأزمة، لكننا حتماً سنصل الليلة إلى بيوتنا إذا أراد الله»، وأتبع إجابته بالاستغفار.

سكتنا برهة ثم طافت بي ذكرى اللقاء بالأهل، تمتمت: «إن شاء الله.. هذا إذا لم يُحجَر علينا، فهناك نيّة للحجر على القادمين على

اختلاف جنسياتهم لمدة أربعة عشر يوماً»، قال: «سيرتب الله لنا ما يشاء»، واستأنف استغفاره.

هبطت الطائرة ووقف الجميع لأخذ أمتعتهم، تذكرت أن لا حقيبة تنتظرني، حمل محمد حقيبته الصغيرة على ظهره ووقف خلفي مباشرة، دلف الاستغفار الرتيب يحفر طريقه ليكون مميزاً وسط أصوات الضوضاء التي تغزلها الهمسات والأسئلة ورنات الرسائل في الهواتف، تتسع الحفرة تحت طرقات الاستغفار، وكلما ازدادت طرقات الاستغفار ارتجف جدار الصلف الذي يعمي قلبي عن الاستغفار؟؟ نعم، الاستغفار الذي لم أكن أردّده إلّا في لحظة الغضب كردّة فعل.

وجدت نفسي بعد أن دلفت من بطن الطائرة وكأنني أُقذف من بطن حوت يونس عليه السلام إلى شاطئ الحياة من جديد، اصطفّ الجميع في طابور طويل، لماذا خُيّل إليّ أنّ الناس كخيط نمل على بيدر قمح؟ هل نحن نمل؟ «أستغفر الله، فنحن أصحاب رسالة» قلت لنفسي، لكن النمل أمم أمثالنا، ولها رسالة، لكنها لا تخلّ بموازين الكون، رضيتْ أن تكون سرّاً من أسراره.. أمّا نحن فمن فرط ذكائنا نريد أن نعيد ترتيب الكون على أهوائنا.

لا يستوي الكون إلا برغبة واحدة، فكيف إذا كان لكلٍّ منّا رغبة في تشكيله على هواه؟! هذا هو الفرق بين البشر والأمم الأخرى.

«اقترب دورنا لإجراء الفحص».. هكذا همس محمد في أذني

ليخرجني من لجة الصراع الذي يعصف برأسي، وأضاف قائلاً: «ألا تلاحظ أنهم يستخدمون للفحص الأداة نفسها المستخدَمة في المطار الذي قدمنا منه، لكن شكلها مختلف؟».

فجأةً أتى الصوت من بعيد:

ـ الجميع إلى الحجر الصحّي.

ومن دون مقدمات وجدت نفسي وحيداً على مقعد ثنائي في باص عسكري أخضر، لكن المفارقة الغريبة التي حدثت معي أن الباص قبل أن ينطلق، توقف قليلاً ثم فُتح الباب ليصعد محمد، الذي وقف في وسط الباص ثم أدار وجهه الدائري المزنّر بلحية صغيرة، ظل يتأمل المقاعد حتى وجد ضالّته فسار باتجاهي، وجلس إلى جواري من دون استئذان.

ساد صمت تخلّلته نظرات مغمورة بابتسامة غريبة، استلقى كالقتيل على الكرسي، قلت: «يبدو أن قدرنا واحد في هذه الرحلة يا محمد». فردّ قائلاً: «وهل تعتقد أننا نحن مَن يرتب الأقدار يا صديقي؟»، ثم استدار متمتماً بالاستغفار.

بدأت رحلتنا الجديدة، وبدأ الباص يغذّي الخُطى على الطريق المتعرجة باتجاه الغور، كأنه يغور في باطن الأرض، حوتٌ آخر يبتلعنا في جوفه! وكم من المدن ابتلعتها الأرض بخطايا أهلها، فخيالات سدوم وعمورة ما تزال تتراءى على حواف بحيرة لوط، البحر الذي

مات من الخطيئة.. تنعكس الشمس على صفحة الماء، فيبدو مغرب الأرض ذهباً ناصع الصفرة على وجهه الذي يخلو من أيّ شراع أو لثام.

وصلنا إلى الفندق المخصص للحجر، تقاطرَ الركاب واستقرّ كل واحد منّا في محجره بعد عناء، الغرفة رقم (46) مرةً أخرى، لكن في الطابق الرابع هذه المرّة، أي صدفة هذه!

جاءت التعليمات أننا سنبقى في هذا المكان أربعة عشر يوماً.

تواصلتُ مع عائلتي وأخبرتهم بما حدث معي.. طريق الألم في هذه الرحلة الشقية التي أوصلتنا عنوة إلى قاع الأرض.. تناولت فنجاناً من القهوة وخرجت إلى الشرفة الصغيرة وأنا أتساءل: كيف سأخرج من هذه الورطة؟! كيف سأخرج من هذا المكان؟!

البحر يأخذ لون الزمن، الوقت مساءً حين وقف محمد على شرفة غرفته المحاذية تماماً لغرفتي، لم يشاهدني، فصفحة البحر تعكس أشعة الشمس على وجوهنا، أخبرته بوجودي، فهذه المرة أنا من سيحدد اللقاء من عدمه، لن أترك للصدفة أيّ فرصة لترتيب ما تريد للالتقاء مع هذا الفتى الذي بدا غريباً في طقوسه.

أضاء وجهه عندما رآني في جواره، استرق لحظة من خيط الاستغفار غير المنتهي ليردّ تحيتي.

في اليوم التالي أحسست أن الزمن لا يتحرك، وأنّ هذا العالم الأمّي

الذي لا يتقن حروف الحياة قد دخل عنوةً في حرب عالمية ثالثة؛ جيوش من نمط جديد، وأسلحة مختلفة، وعدو غير مرئي، وإعلام هائج يهذي من دون معرفة.

البحر أيضاً بدا من الشرفة برزخاً يلبس ثوبه الأبيض الملائكي المطرّز بالأمواج ذات الأصوات الأكثر هدوءاً من صوت الفتى الآسيوي، وكأنها تستغفر، تعلن التوبة، أو هي أصوات الخطّائين من أهل المدن التي غارت في قاع الملح.. لا أعرف، اختلطت الأشياء، ووصلت إلى مرحلة من اليأس، خاصة وأن أعمالي تعطّلت، وما زلت غير متيقن من نجاح أمر الشحنة ومرورها.. لا أعرف عن أولادي شيئاً في هذا الظرف العصيب الذي يضرب العالم كلّه، بينما يبدو الآخرون أكثر فرحاً بهذا الحجْر الذي أعاد فيه الناس ترتيب أولوياتهم.. هل هو الخوف؟! أم هي الخلوة مع الذات أحياناً؟! لا أعرف!

طُرق باب الغرفة، أدرت المقبض بهدوء لأجد فريق الفحص الطبي أمامي.. أسئلة ذكّرتني بأسئلة القبر الأولى! ضحكت ضحكة صفراء سرعان ما تحولت إلى خوف، بادرني الطبيب الواقف عند باب غرفتي بالقول: «الفحص مجاني، والإجراء روتيني كي نتأكد من سلامتك».

ظهرت النتائج في اليوم الثاني إيجابية، وهذا يعني أني مصاب بالعدوى، ما الذي يحدث؟! لماذا شعرت كأنني إناء زجاجي تهشم مرّة واحدة ولا يمكن أن يعود إلى حاله؟! رنّ جرس الهاتف، فضحكت

ضحكة مؤلمة عندما رأيت كلمة «حبيبتي» تهتز على شاشته، وفاضت دمعة من عيني، لم أفتح الخط، بعد دقائق عاودَت الاتصالَ مرة أخرى.. «حبيبتي».. تساءلت بغصّة: «يا ترى هل سأراها أم لا؟!» قررت ألّا أرد.

حملت فنجان القهوة الباردة وخرجت إلى الشرفة.. محمد مرّة أخرى وأخرى، يستغفر من دون توقف، أرسلت له التحية على مضض، فسألني بعد أن ردّ بأحسن منها: «كنت أبحث عنك في الصباح، لقد فحصوني، وغداً تظهر النتيجة».

كان صوته كأزيز نحلة في شجرة كثيفة، أشحت بوجهي عنه إلى الفضاء العاري، كانت الحياة تغادر بصمت، والستائر المعلّقة على رؤوس الجبال تنسدل على وجه الأرض ببطء مؤذنة بالغياب، وبدأت أمواج البحر الذي يتباهى بالموت تترنح قبل أن تصل إلى الشاطئ فتنكسر بهدوء وهي تلثم حواف الملح.. اليأس يتسلل دفعة واحدة، والدمعة التي أسدلت غشاوة غريبة على عيني جعلت العالم كلّه خلف جدار زجاجي في ليل كانوني كئيب.

بحثت عن شيء يُخرجني من هذا الصمت ومن عزلتي القاتلة.. القنوات الفضائية البائسة تقذفني بأخبار سخيفة، «مونودراما»، «ميتاتياترو»، العالم شخص ثقيل الحركة يئنّ من وطأة الوجع على خشبة الحياة، وأنا شخص قميء لا عنوان يعرفني، بدأت أنفخ أنفاسي

على الزجاج وأصفّر الموسيقى من شفتي، فتحت صفحة الحياة الغارقة بالضباب وكتبت عليها المثل الشعبي الدارج في بلاد العرب «كَبْرَة على خازوق».. أشعلت الأضواء إيذاناً بنهاية العرض، صفّقت وحدي، نعم وحدي!

تعبت من هذا الروتين القاتل، حياة نمطية بائسة بين الغرفة والشرفة، أعود إلى الشرفة، أفتح جهاز الهاتف وأتصفّح خزعبلات الحياة، أخبارنا في مهاجع الحجز، فريق ينتقد وآخر يمدح، لا أحد يعرف تماماً ما يدور في حجراتنا المغلقة، نحن تماماً كفئران التجارب، نضحك على الشاشات ونتلوى خلفها، نتلوى لوعةً وغياباً.. كل غرفة يتقاسمها الفرح والألم، الخوف والرجاء، الأمل واليأس.. عقارب الوقت تنهض ببطء وكأنها سيقان سلحفاة.

أردت أن أقتل الوقت اللزج بقراءة أشياء كنت أسمع عنها ولا أرغب بقراءتها.. اشتريت رواية «عيون الظلام» لدين كونتز (أون لاين).. هرشت رأسي حين وقعت عيناي على «ووهان 400».. لم أكمل الرواية، فقد كانت فكرتها ساذجة ومكرورة، وبدا العالم أكثر وضوحاً منها.. سيطر على تفكيري أنها بُنيت على نظرية المؤامرة التي كانت تشتعل وقت كتابتها، لم أجد فيها ما يشبع نهمي في التعرف على العدو الذي يقف خلف الشبابيك، أو يتقلّب أسفل السرير، أو يراقبني أسفل المرآة ضاحكاً، أو يجلس على صفحة الهاتف يزدريني

وأنا أتتبع أخباره.. تركتها وحاولت أن أستمع لأنين الحرافيش وهم يزفّون جثث «الشوطة» في «القرافة»، استمعت لشيخ الحارة «عم حميدو» وهو ينادي بأهل الحي: «اسمعوا كلمة الحكومة، تجنّبوا الزحام.. النظافة.. اشربوا عصير الليمون والبصل.. ظِل الموت ممتد فوق الرؤوس، تذكّروا ربكم وارضوا بقضائه»..

«تذكروا ربكم وارضوا بقضائه»، كررتها أكثر من مرّة، قفزت كالملسوع، خرجت إلى الشرفة الصغيرة التي تشبه القبر، أردت أن أرى الآسيويَّ.. لم أجده.. منذ الصباح لم أرَه.. ماذا أصابه؟! هل غادر الغرفة؟! هل أصيب بالمرض اللعين فأخذوه؟! تساءلت بخوف، فقد كنت محتاجاً إليه.. هل يملك أن يقودني إلى الخلاص؟! لا أعرف.

في اليوم التالي أنهيت فيلم «كونتيجن»، ازددت رعباً، ثم أدرت القناة إلى قناة أخرى، استمعت عنوة إلى الناطق الرسمي للحكومة الذي أنهى حديثه بعبارة «حمى الله الإنسانية من هذا الوباء»، صرت أتفقّد أرض الغرفة بحثاً عن الإنسانية التي يدعو لها بالحماية.

وفي اليوم التالي خرجت باكراً كي أرى الآسيوي، وفور أن رأيته خُيّل إليّ أنّ وميضاً يلمع في عيني هذا الرجل لحظةَ سدّد لي نظرة اخترقتني عميقاً وهو يقول: «لماذا تحمل هذا الهمّ كله؟».

ثم استغفر قبل أن يضيف: «سيجعل الله لك من كل ضيق مخرجاً، ومن كل عسر يسراً، فقط داوم الاستغفار، ألم يُلزم الله نفسه أنه إذا

داوم عبده على الاستغفار أن يعطيه ما يريد؟ وهل بقي لك حجة لترك ذلك؟».

قلت باندهاش: «وكيف ذلك يا صديقي؟».

نادى بصوت مبحوح نديّ انغرس في خاصرة قلبي بألم عجيب: «ألم تسمع الآيات التي تقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (12)﴾».

فقلت له: «لقد قرأت القرآن عشرات المرّات يا صديقي، وكأنني أسمع هذه الآيات للمرة الأولى في حياتي»، وأضفت بانشداه: «أعدها يا محمد»، فأعادها على مسامعي من جديد، ثم قال: «داوم على الاستغفار يا صديقي، وسترى كيف تفتح في وجهك مغاليق الأبواب وخزائن السماء، وكيف سينشرح صدرك وتعلو همتك». وأضاف: «ألم تسمع قول رسول الله عليه السلام: (طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَاراً كَثِيراً)؟ فلا تبخل على نفسك».

تركته مسرعاً دونما استئذان ودخلت إلى غرفتي، اتصلت بزوجتي وأخبرتها بكل جَلَد وقوة عن خبر الاشتباه بإصابتي بمرض «الكورونا» الذي أخفيته عنها، وأن الطبيب قد طمأنني بأنني سأتعافى إذا التزمت بفترة الحجر واتّبعت التعليمات، وهذا ما يتقرر بعد نتائج الفحص

الثاني، لم تستطع أن تخفي صوت بكائها، لكنني لم أتورع في أن أطلب منها أن تستغفر الله في كل لحظة، فأنا منذ الآن سأبدأ بالاستغفار.

ابتسمتُ عندما سمعت الشاب محمد يقول لي إنّه يرى في هذا الحجر فرصة منحها الله له لكي يُنهي بحث تخرجه، وأن تأجيل الدوام في الجامعة كان أمنية لم يتخيّل أن تتحقّق، فهذه الفسحة في الزمان والمكان معاً لم تكن ستُتاح لولا هذا الحجر، أدركت حينها معنى «إن الله يرزق من يشاء بغير حساب».

داومت على الاستغفار، وأعدت ترتيب أولوياتي لتكون مرضاة الله في صدارتها، ونسيت كل شيء.. مرت الأيام بهدوء، وامتلأت حياتي بالقرآن والاستغفار، وما إن انتهى الأسبوع الأول من فترة الحجر حتى قُرع صوت الهاتف ليخبرني موظف المطار أن حقيبتي قد أصبحت في أمانات المطار، وبعدها بيومين تلقيت أخباراً سارّة عن وصول الشحنة التي سافرتُ من أجلها والتخليص عليها وأنّ فحوصاتها المخبرية قد مرّت بسلام.. ولكن الفرحة بذلك لم تشغلني عن قراءة القرآن والاستغفار من دون كلل أو ملل.

في مساء اليوم الثامن من أيام الحجر، قلّبتُ القرآن وجلست أتأمل ما جرى معي، وخرجت أنتظر الفتى الآسيوي، أريد أن أتحدث إليه، لأسمع منه صفو الحديث المغلّف بالاستغفار، فرأيته يجلس ويواصل

استغفاره.. عاجلته بالتحية، فوقف ونظر إليّ مبتسماً وهو يقول بهدوء وانشراح: «ما شاء الله، لم أرَ وجهك جميلاً متهللاً كما رأيته الآن، ماذا تعمل؟ وهل تعافيت مما أنت فيه؟».

نظرت إليه بمحبة لم أشعر بها من قبل، محبّة يغلفها شيء آخر لا علاقة له بالمشاعر التي مررت بها قبل ذلك، وقلت له: «لقد أحسنتَ إليّ إحساناً لن أنساه.. لقد زرعت بذار الاستغفار في قلبي فنبتت على شفتي أغصان تثمر كل يوم، وها أنا أتلقّى بفضل الله ورضوانه أخباراً تسرّ الخاطر.. وجدت حقيبتي، واليوم جاءني خبر أفرح قلبي بإتمام إجراءات بضاعتي ووصولها سالمة».

قاطعني قائلاً: «وغداً ستسمع الأخبار الطيبة بإذن الله، فقط لازم الاستغفار وسترى أن الله غفور رحيم، فهو الذي قال ـ ومَن أصدق منه قولاً ـ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (النساء: 110)».

في اليوم العاشر من أيام الحجر، طُرق الباب، وإذا بفريق من الأطباء والممرضين يقفون على بعد مترين من الباب، ورغم ارتجاف قلبي وشعوري بأنها النهاية وبأنهم جاءوا لنقلي إلى المستشفى لتلقّي العلاج، إلّا أنني تمالكت نفسي، وسرعان ما بادرني أحدهم بالسؤال: «أنت حسين؟!»، فأجبته بعد طول تأمل وانتظار وخوف: «نعم.. أنا

حسين». فقال: «يا حسين، نبشرك بأن نتيجة الفحص النهائي سلبية.. لستَ حاملاً للفيروس.. لكنك ستبقى هنا حتى إنهاء فترة الحجر، وستبقى في بيتك مدة أخرى سنُعلمك بها عندما تخرج».

هوت قدماي إلى الأرض، وضعتُ رأسي بين كفيّ، حاول أحد الممرضين أن يمسكني، لكنني رفعت يدي بوجهه ليتركني، وقد عرف الجميع حينها أنني بخير وأن ما حدث لي هو فرحة استقبالي للخبر، فأغلقوا الباب خلفهم وتركوني، وما إن تمالكت نفسي وأعصابي حتى خرجت أبحث عن محمد، الذي وجدته يجلس في عين الشمس، ويستغفر كعادته فقلت له: «انتهى كل شيء يا صديقي»، فقال لي بلغة الواثق: «لا، لم ينته كل شيء، ما نزال في البداية، فالذي جعل حلمي يتحقق ومأساتك تنتهي هو وعد الله لنا، الوعد الذي ننساه نحن، الوعد بأن نكون في زمرة المستغفرين، لنكون في زمرة الفائزين، فإياك أن تقول (انتهى كل شيء).. من هو الذي تنتهي حاجته عند الله؟ نحن ما نزال في أول الطريق يا صديقي، وما عليك إلا أن تستغفر الله وأن تبقي لسانك رطباً بذكره جلّت قدرته».

وبينما هو يتحدث باطمئنان تلقيتُ رسالة (واتس اب) تشرح آلية نقل المحجور عليهم إلى بيوتهم، وأنهم سيبدأون تطبيقها منذ صباح يوم غد وعلى دفعات.. عدت إلى غرفتي، وأمسكت ورقة وكتبت

عليها «أستغفر الله»، تأملت الحروف، واكتشفت حينها سرّ الرقم (46) الذي لازمني..

**انتهت**

**أ س ت غ ف ر ا ل ل ه**

## يوميات كورونا

إبراهيم محمد أبوحماد

**(السابع عشر من آذار إلى السابع من حزيران 2020)**

في البيت أَجلس، لا حزيناً لا سعيداً
لا أَنا، أَو لا أَحَدٌ
صُحُفٌ مُبَعْثَرَةٌ.. ووردُ المزهريَّةِ لا يذكِّرني
بمن قطفته لي.. فاليوم عطلتنا عن الذكرى!

انثوت عمان في منازلها، وردّت جدائلها، وأطفئ شمع مسارحها، جائحة كورونا «كوفيد 19»، يتسربل فيها الموت خفيّاً غير مرئيّ، كابوس يقضّ مضاجع البشرية، ملغّز كفيلم رعب عجائبيّ، فيلم مصّاصي الدماء وآكلي لحوم البشر، يسائل وجودنا ورعبنا وقلقنا وحزننا، يسمّم حياتنا، ويرخي بسدوله على ليالي عمان الطويلة.

تتابع عمان بقلق أولى الإصابات المستورَدة، يدبّ الذعر في جسم المملكة الممتدّ من عروس الشمال إلى سمسمية عروس البحر، وتحتضن

عمان أبناءها، ترحّل عصافيرها إلى أعشاشها مكسورةَ الفؤاد والجناح، كورونا الموت: إحصاءات الإصابات المتحقّقة والموتى والمتعافين، موتى بلا جنائز، مرضى بلا أسرّة، عمال بلا عمل؛ نزعت كورونا كلَّ جوهر.

عالم هشّ يجابه عدوّاً غير مرئيّ، موت.. وموت.. وموت، نستعير من لغتنا العسكرية لمواجهة حقد كورونا الأسود جنوداً بثوب أبيض، ملائكةً تواجه كورونا الأسود، تربض الدبابات في الشوارع، تعلو أصوات صفارات الإنذار، إغلاق للحياة شامل، حظر تجوال، معركة، انتصار، إصابة؛ فغدا كورونا رصاصةً محققةً في مقتل، فكيف نحتوي كورونا؟

**السيد X**: يجب تحقيق العزل الاجتماعي، في بقاء المواطنين في منازلهم، ولا يسمح لأحد بالخروج إلا بتصريح.

**السيد Y**: عذراً سيدي، ولكن حريات الناس، وحقهم بالعمل والاجتماع، إنه التباعد الاجتماعي لا العزل يا سيدي؟

**السيد X**: إنها الضرورات التي تبيح المحظورات، لن نستخدم مناعة القطيع، فالإنسان هو الأهمّ، وباقي الأمور المادية تفاصيل غير مهمّة.

**السيد Y**: ضعوا قيوداً صحية، فلا يمكن مكوث الناس في بيوتهم

بلا عمل، لا نملك تأمينات اجتماعية، فحتى المحامين يستصرخون النفقات في مواقع التواصل الاجتماعي.

**السيد X**: سنوازن بين المصالح، ونتدبر الأمر!

**السيد Y**: ليس لدينا برامج استثنائية لمواجهة الأزمات، ليس لدينا نفقات طارئة، قوانيننا قاصرة عن مواجهة ذلك القرار في سياقاته الاجتماعية والنفسية والاقتصادية.

**السيد X**: سندفع ذلك بأوامر عقابية، لتحقيق العزل!

في العالم يُقتَل الناس صبراً على أجهزة التنفس الصناعي، الجثث تُحرَق في إيطاليا، الفوبيا تختلج النفوس، يترقمَن العالم: التعليم من بعد، المنصات «STAY HOME»، لا تجوال، لا زيارات للوالدين، والمستشفيات تغلق، والمساجد لا يسمع من مآذنها إلا قول: «صلّوا في بيوتكم»، صراع الدين والوباء، المستقبل يتلاشى في اللامستقبل، في المجهول، يتبادل الناس السخرية عن العنف الأسريّ، فأعداد قضاياه ترتفع وتيرتها، ويقلق الأمين العام للأمم المتحدة على المعنّفات؛ فصواني الكنافة والفلافل تصنعها الزوجات، والأزواج ينتهكون حقوق الملكية، والموتى بلا بيوت عزاء، والجوع والوباء للفقراء، لمن لا يمتلكون قوت يومهم.

يرن الهاتف النقّال:

**السيد Y**: آلو مرحبا سيد W!

**السيد W**: تحياتي أستاذ Y، ماذا أفعل على ضوء أمر الدفاع السادس، لم أفهم منه شيئاً سوى «ط ع غ س ض أب
ك

ف م

ن»؟!

**السيد Y**: ههههههههههههه، رحم الله والديك! ما مشكلتك؟

**السيد W**: بلاد الله ضاقت على الفقراء، أغلقت علينا الدنيا، ولا أملك إلا خمسة عشر ديناراً، رمضان والعيد على الأبواب!

**السيد Y**: قدّم على المنصة للضمان والتنمية، وحقك مضمون بموجب أمر الدفاع، لا يجوز فصلك، ويجب عليه دفع أجرك.

**السيد W**: يعني قضيتي مضمونة، الله يجبر بخاطرك!

**السيد Y**: إن شاء الله! نحن نغسل، ونكفّن، لكننا لا نضمن الجنة، بالسلامة يا صديقي، مساء الهدوء والخير!

**السيد W**: مساء الهدوء والحب، تصبح على خبز وعمل، يا رفيق.

الناس تتناوشهم الرياحُ قلقاً، تتغيّر القوانين وأوامر الدفاع والبلاغات كما نغيّر قمصاننا، القلق يسيطر ويهيمن، تعتريني الكآبة، تتخدّر أقدامي، أذهب إلى النوم من دون جدوى، أقرأ في كتاب منير البعلبكي «في الكتابة العربية والسامية»، لم أودع احتياطيّ مثل الدول، لم نخبّئ ليومنا الأسود، الموظّف يعمل عن بعد، الكوادر الطبية

والأمن والجيش في ساحة المعركة يواجهون العدوّ الخفيّ، تتغيّر لغتنا: قفازات، كمامات، قناعات، الوجود يسيطر على لغتنا وخيالنا، يتبادل العالم الاتّهامات: أمريكا أم الصين؟ مؤامرة أم فيروس طبيعي؟!

يرنّ جرس الهاتف النقّال:

**السيد Y**: آلو، تحياتي يا صديقي المفضال.

**السيد T**: أهلاً أخي، أنا مدين بعشرين ألف بسبب أعمال البناء، هل ستنخفض قيمة العملة؟ هل ستفتح المحاكم؟ هل سيرفع العمال دعاوى؟ هل يمكن فصلهم؟

**السيد Y**: ما الذي يجول بخاطر السيد T، ليتّصل في هذه الساعة، لن يتركني إلا بعد ساعة، قاتل الله العزلة والوحشة.

لا تشغل بالك يا سيد T! «كل مرّ سيمرّ»، لن تنخفض قيمة العملة، ما لم يُسحَب الاحتياطي الدولي، وإذا انخفضت قيمة العملة فمن الأكيد أنك ستستفيد، وبعض العقود تتعدّل، لا تقلق يا عزيزي، العمال ستُدفَع نصف رواتبهم بموافقة الوزارة أو بالتفاهم معهم، والمحاكم الآن مغلقة، تنظر في مخالفات قانون الدفاع من دون تمثيل قانونيّ.

وتستغرق المكالمة نحو الساعة، في كل يوم يضجَر فيتّصل، كيف سأعيش؟ كيف سأهنأ بلقمة العيش، وأنا لا أعمل؟!

في الصباح أستيقظ، تتشارك الأسرة في إعداد الإفطار على طاولة

من الرخام، اتفقنا أن نواجه الكورونا بالحبّ، نواجه الموت بالرحمة، في شقة في منطقة الهاشمي الشمالي ـ حي نايفة، هذا الحي ساكن سكون الحجر، الربيع خلع ثوبه الزاهي، لكي لا نرتميَ في أحضانه، ولا نرفلَ في ثوبه القشيب الزاهي.

أغلقت المدينة أبوابها، يطلّ منزلي في الهاشمي الشمالي على مستشفى حمزة، هل نسماتك تبعث الكورونا؟! كان الناس يذرعون الشوارع، العائلات ترتاد المطاعم، رائحة الشاورما والكنافة، الأطفال يلهون في الحدائق بين شقائق النعمان، يتبادلون الياسمين الشاميّ الأبيض، والشركسيّ الأزرق، محلات الصرافة والتجارة والبنوك، والمساجد، ونوادي اللياقة.

الهاشمي مدينة الضوء والقمر، عند أقدامها يتربّع المسرح الروماني، وعمان القديمة، يجالسها أقدم رجل بشري في عين غزال، أكنتِ جنّة الأرض تتفجرين عيوناً؟ آلهة الفن بقرب الحوريات تستحمّ، وعلى محطة المسافرين الحجازية تودعين أمير الحجّ.

هدأت مدينة الهاشمي سكون سينما الأمير، والشباب والصبايا ذهبت ضحكاتهم في صمت كورونا، فهل ستعود؟! حقّاً إنه صباح الهدوء ومساؤه، لا تسمع سوى حفيف الأشجار، أوراق زهر الياسمين، الربيع حضر باكراً، تغرّد العصافير والحمام البلدي في كل حين، ويبقى الحنين لأمي التي حال التجوال دون رعايتها، فلا تجوال

لرعاية الوالدين، والتصاريح حظوظ كالأرزاق، نولد فتختارنا ولا نختارها.

انشغل الأطفال بالتعليم الإلكتروني، التعليم من بعد، كان الذهاب إلى مدرسة الوكالة في جبل عمان، وعمل أمهم في مدرسة الملكة زين، عروبة تتلوّى لزيارة الحاضنة، والقطة الغولة السوداء، والقطة لولو البيضاء، نعلّم أطفالنا تمييز الألوان.

جبل عمان يحتشد فيه الفقر والغنى، ثقافات التناقض، مدارس خاصة من زمن الإمارة، ومدارس حكومية، إنها اللامساواة ماثلة تخترق وعينا المحطّم المهشّم، نسير في شوارع جبل عمان، أرتاد مكتبة شومان والسينما، وحفلات توقيع الكتب، أمسك بيد طفلتي يافا ذات العامين، أداعب راحتي يديها الناعمتين لتضحك، فتقول لي: بابا..، بابا..، بابا! وتسحب يدها مبتسمة، تغمر قلبينا السعادة، ونضحك في الزحام.

هل كانت لدينا حياة نستحقّ أن نحياها؟! لم يعد مهرجان جرش والمسرح، لم يكن يرهقني سوى تكاليف الحياة وسأمها، التأويلات المضاعفة في القانون، والشطط في التفسير، وسطو الغنيّ على الفقير، مهما يكن، فحياتي وذكرياتي كلها، هي أنا، أنا، أنا!

قررت العودة إلى حياتي أنا؛ فما أنت فاعل يا صديقي؟ فرصة لتصفو نفسي، لأخلو إلى أفكاري وكتبي، لأتابع اللغة العربية، التي هجرها

أهلها؛ فلديك أنت ثلاث موادّ علمية في الدراسات العليا: البلاغة والنظرية النقدية، والرسم الكتابي ومشكلاته، واتجاهات الشعر العربي قديماً وحديثاً، قد تكون فرصة لا تعوّض ولا تعود، كم حذّروني بأنني لا أستطيع تجاوز أكثر من ستّ ساعات.

ففي الحبس المنزلي، أمارس الحب وكتبي العربية، وعاء الفكر الفلسفي والتاريخي والجمال والحضارة، فكما قال مصطفى الرافعي في «وحي القلم»: «ما ذلّ شعب إلا ذلّت لغتهم»، فكيف أيها العربي لا تجيد لغتك، ولا تجيد اللعب بالكلمات؟ ولكن لا تلعبها بالقانون، فالقانون لعبة لا تلاعبٌ لغويٌّ.

من رسالة الصحابة لابن المقفع التي تئن بالشكوى للخليفة بتناقض الأحكام، وإذا بتناقض الأحكام ليس باختلاف تدوين السنة، إنها مستمرة بتدوين القوانين وتذويتها، وما الخلاف في الفروع إلا اختلاف بالحلال والحرام، وهل بذلك اختلاف؟!

تجلس طفلتي في حضني، تبعثر ألعابها، فيما أنا أعبث بهاتفي النقّال، أقلّب صفحات فيسبوك، والواتساب، أتّصل بوالدتي، أشعر بالحنين والاشتياق، لكن التصاريح الفاسدة تنسيني كتبي، تتعذّب الروح وقد بانوا وبِنّا، فأضحى التنائي بديلاً من تدانينا، لا نريد الموت من دون عزاء، من دون صلوات ودعاء.

أفرُغ لكتبي في لغة الأنباط وثورة الكنعانيين الأولى في الأبجديات،

في دستور قرط حدشت، في تلك الأغنيات، في توهّج كنعان وأسطورة طائر الفينيق التي تنبعث في الرماد، في نقش ميشع، في تجدّد الحلم العربي لقربان مؤاب؛ لأتأمّل رسم المصحف الشريف وفروقات الكتابة والقراءات القرآنية.

يراسلنا دكتور الكتابة عبر الواتساب، ولكن التعليقات الجانبية تلتهم وقت المحاضرة، كنا نشعر بالمتعة ولذّة العلم، لنعلم فيما بعد أن التعليم عن بعد، ما هو إلا بعد عن التعليم.

جامعة اليرموك شجرة زيتون وحيدة تبكي لحاءها ونبكيها، تهمس لنا في الحنين: لماذا تتركوني وحيدة؟! يتواصل معنا مدير المكتبة في رواية «الطاعون» لكامي، ومسرح سعد الله ونّوس، الذي يقيم للعربية وزنها، فلا يقبل منك أن ترفع المنصوب، وتنصب الفاعل.

ومن المملكة المغربية تراودني الأفكار البرلمانية، أتلقّى دعوة للحديث عن مولودي الفكري الجديد «النظام القانوني للسلوك البرلماني الأردني: دراسة مقارنة» عبر تقنية «ZOOM»، فتنتابني الأسئلة: لماذا يختارني المنتدى الفيسبوكي في أول لقاء للمكتبة البرلمانية؟ هل لاحتفائي بتجربتهم؟ لاقى قبولاً لدى وزارة الثقافة، إنه منجز ثقافيّ قانونيّ، رفضته نقابتي؛ لأنها في اتّجاه معاكس للكتلة التاريخية، لا تحتفي بالثقافة، لا توزّع علينا حقنا في الجوائز التقديرية، فلا تقلْ إن نقابتك أعدمت الثقافة وأضاعتها، ألا تذكر قولك أنت في مرافعتك

المأزومة «حرث في بحر»؟! اعتقدتَ أنك تستخدم الألفاظ الفصيحة، فإذا هي وحشية غريبة، بكَت زميلتك، التي تخيّلت أنها حمار يحرث الأرض، فلا يحرث الأرض إلا الحمار!

يا من قتلتموني في معبدي، وأمتّم لغتي! أنتم لستم لغتي، أضعنا العربية، فالجوهر المادة، وما اللغة إلا الإصبع الذي يحجب القمر الصيني.. هكذا، ورثنا العربية، فمعلمي لم يكترث لأخطائي، فلمَ تذكرني بالعربية؟! فلا فرق بين الضاد والظاء، والهاء والتاء، والهمزة لا نعبأ بمشكلاتها، والترقيم غير عربي صميم، وذاك ابن الحزب القومي b هجر كلمة «ديباجة» تراوده معناها، وتماطله وتمانعه كقصيدة نثر، اللغة حجب وأفخاخ، فهل يتعالى خطابك أم تخاطب الناس على أفهامها؟ وهل العلوم الإنسانية إلا أفهام؟! وهل المجاز إلا لغة مُزاحة.

إنها طقطقة ملاعق المغرب، ولكل مقام مقال، شباب يأكلون الكتاب، يهضمونه في مسرح ثقافيّ، في غير سخرية عادل إمام، ومسرح غوار.

تقاطعني طفلتي، تعالي يا روح الروح، يا شوقي، يا طمأنينة القلب، لنناغي معاً، لنلهو ونتغنّى، أبتسم، تشدّني من يدي، ترفع نفسها، وتتطاول لأحملها على كتفي، فأمتنع، تتشبث بتلابيبي إلى غرفة أخيها، تشير إليّ: أباه..، أباه..، أباه، أتناول من المكتبة قصة للأطفال، أقرأ القصة على عجالة، أفسّرها بالأبِ الرمزيّ لعالم النفس «لاكان»،

أدرك أني أبٌ رمزيٌّ، وأن أباهم صنعهم، فأقول: وهل للكفاءة مكان؟ إنها الحظوة واللاعقل، ابن الوزير وزير، وابن النقيب نقيب.

أقرأ القصة، فتقول: آآآآآه، وتتظاهر بالفهم والكتابة، فأول علم الطفل تظاهر، إنني أتعلّم من القصة، وتستجيب سلوكاً، وأستجيب عقلاً ومعرفةً، كقارئ حاذق، فأقول: توتة توتة، خلصت الحدوتة، حلوة ولا فتفوتة؟ فتطلب مني الإعادة، فأقرأ لنلهو، ونتسامر، ونلعب الغميضة، ونضحك، فيسلو الحزن، ولا أنام إلا على طيف وجهها البلوري.

تصلني رسالة على الماسنجر: ماذا جرى بقروض المحامين؟ يتصل السيد E، يقول بصوت خافت: مرحباً يا صديقي!

**السيد Y**: أهلا يا صديقي المفضال!

**السيد E**: لقد ضاقت بي الدنيا، واشتد الكرب، والحلقة تضيق، أبعد عشرات السنين، تضيق بي الحال، قلبي يتمزّق، كيف ستعيش طفلتي؟ أين نقابتي؟ أريد أن أتقاعد!

**السيدY**: يا صديقي هوّن عليك، أليس لك من يعينك؟

**السيد E**: طالبت الجميع، لكن لا يوجد لي صديق، الجميع يتخلّى عنك.

**السيد Y**: نقابات بعض الدول صرفت للمحامين أجوراً، ونحن لا أجور ولا قروض! ستمرّ هذه الأيام، فنحن رواد الحرية، قد نموت

ما لم نتنفسها، سنعود أحراراً يا صديقي، ونشرب القهوة في غرف المحامين، وستغيّر الانتخابات الجميع «كلن يعني كلن».

**السيد E**: لو أننا بحلاوة لبنان لكان لنا ما كان!

**السيد Y**: هل كان لهم إلا الانهيار؟! عذراً سأقطع الاتّصال، لديّ مكالمة من لندن.

**السيد L**: السلام عليكم!

**السيد Y**: وعليكم السلام!

**السيد L**: جيد أنك نزّلت تطبيق إيمو (IMO)!

**السيد Y**: نزّلته لسماع صوتك الحنون يا حبيبُ، متى ستعود يا صديقي؟

**السيد L**: قريباً قريباً؛ فأنا عاشق عمان، خبّرني عن انتخابات النقابة؟

**السيد Y**: غداً لي لقاء مباشر على فيسبوك.

**السيد L**: متابع.

**السيد Y**: بكل سرور!

**السيد L**: تصبح على فرح!

**السيد Y**: تصبح على حبّ!

تغفو، فيخاصمك النوم، تشعر بآلام في الكتف اليمنى، فتتقلّب ذات اليسار، فيعاودك الألم لا يبرحك، تقرأ المعوّذات وآية الكرسي، تنهض من فراشك، يتساقط الحبّ العزيز في أيّار، ما هذا الوباء وتغيّر

المناخ؟ تساقطت الأمطار حتى تشعر أنه فيضان، لم نعد إلا نحن غرباء، في السلم نتصارع، وفي الحرب نموت، ضرائب وقانون يلزمك بالمكوث في المنزل، مطر وبرد وثلوج وموجات حرارة مرتفعة وباردة، تبعث على الحيرة، وكورونا، وعزل اجتماعي، في أيّ طبيعة نحن؟! وأي إنسانية على هذا الكوكب؟!

هل حين غاب الرضا؟!

غاب مجلس النواب، والقضاء في عطلة، ونقيب الحريات لا يهمس ببنت شفة، يخرج نقيب السائقين عن صمته، ونقيب الحريات في صمت مطبق!

يطلع الفجر «صلوا في بيوتكم»! اللهم ردّنا إليك، تصلّي وتنام، تستيقظ، تهرول في المنزل، نخرج نهاراً سيراً على الأقدام، تخفّف من كمّية المشتريات، تشدّ الأحزمة على البطون، فيقولون: أنفقوا، فأقول: لينفق ذو سعة من سعته.

تستعد للقاء المباشر على فيسبوك، يتصل الزميل O: يقدّمك للجمهور، فتقول: إنها النقابة المختطفة، تسرق كحل العين بكياسة، يوزعون بينهم الشركات بلباقة، سفر، ورموز، وقامات ترفع لها القبعات، رمز التحرّر العربي، ولبس العباءة، أينما كانت مصلحته تجده بكل رشاقة!

يذاع ويتداول في الإعلام الإلكتروني اللقاء الواعد في المغرب

العربي، كان جديراً باللقاء أن يكون بمقدار فلاسفة المغرب الجابري والعروي وطه عبد الرحمن، وأستاذ البلاغة الجديدة العمري، فضاء ثقافيّ واسع يتواصل الجميع به عقلانيّاً لا أداتيًّا، فهو برلمان ناجح طموح.

وتبحر مع كتاب «جمع الدرر في دلائل الإعجاز» للجرجاني، سحر البلاغة ومعنى المعنى، معاني النحو، تسهر معه أسبوعين، فلا تجد إلا شعراً يُنشَد، وحلاوةً تُتَذوَّق، تَضجر لصعوبته، إلا أن الفجوة واسعة بينه وبين لغتنا ولغة التراث، فمن يذل لك الصعاب؟!

وفي الشعر ونظريته المعرفية كلام لا ينتهي قديماً ولا حديثاً، فالشعر سيمفونية تعزفها القلوب، تنبض بالحياة، كلمة تغازل وتقاتل، وتحيا بها النفوس، فالشعر مغاليق تستعصي، ورموزٌ وأساطيرُ وتناصٌّ، والمعنى في بطن الشاعر.

وما زالت الكورونا تخرجنا مشياً على الأقدام، فلا تجوال ولا مركبات إلا باستثناء، ويهلّ رمضان بلا صلوات في المساجد، تطلب بنتي أن تكون إمامنا في الصلاة، فأقبل بذلك، نشعل الفوانيس، وتُكبّر المساجد لتذهب وحشة السجن الكوروني البغيض، وحتى المسلسل على قناة «رؤيا» «جلطة»، نتسامَر، نتقرّب إلى الله، ونبتهل لرفع الوباء.

محمود السعدني يطلّ على شاشات التلفاز، وتسجيلات الإذاعة

المصرية، على اليوتيوب، في الزمن القديم، ليخبرنا عن اللاحرية في الوطن العربي، فقد تُسجَن وأنت مؤيِّد، ولا تُسجن وأنت تعارِض، الولد الشقي، و«عمر الشقي بقي»، كم جميل لأتمعّن هذه الأعلام، لماذا عرفت أخاه صلاح «حسن النعماني أرابيسك»، هل لأنه ملك الدراما المصرية؟! الحارة المصرية التي شاهدتها في الأقصر والإسكندرية، وضحكات الفقراء في شارع المعزّ لدين الله الفاطمي في القاهرة، فنتذكّر طفولتنا ونحن نسعى بين المنازل لطلب حلوان العيد، ندقّ على الأبواب، نحضر السينما وأطفال الحارة في منزل الجيران، تلك الأيام الجميلة، كورونا تحبِس الأطفال، لم يعاودوا طلب الخروج من المنازل، إنه زمن العزلة حتى في العيد! فكل عام وأنتم بالسعادة ترفلون، وباعد عنكم الداء والوباء!

الحمد لله، لم أعد أستمع مذ مدة طويلة للإيجاز الصحفي حول كورونا، لن أتابع هذا المسلسل، والحرية والفقر في ظل كورونا، تداول بعضهم فيديوهات تظهر قمع الشرطة الهندية لمواطنيها باستخدام الهراوات لفرض الحجر المنزلي، وكان هذا التداول على سبيل السخرية، وانتشرت فيديوهات أخرى لممارسات شرطة إحدى دول أمريكا الجنوبية للقمع باستخدام عقوبة الضرب على الأرداف لكل من يخرج من منزله.

أكدت ترجمة فخري صالح لمقالة الأديبة الهندية «دوراتي» حدوث

هذه الوقائع في الهند، وبسبب فرض الحجر المنزلي في بعض الولايات التركية، فقد حدثت أعمال شغب، فاضطرَّ وزير الداخلية للاستقالة، هذه الإجراءات التي علقت عليها «دوراتي» بمنهجية التعامل مع الفقراء، وهشاشة الأنظمة.

أما الضريبة وكورونا فمن المفارقات الغريبة أن يتحمّل المواطن غرامات ضريبية تبلغ أربعة أمثال الضريبة، وفي الوقت ذاته يتحمّل عبء كورونا، بالنتيجة يتحمل الأعباء كلها؛ مما يشكّل خللاً كبيراً، إذ يعدّ الدستور الهندي من أكثر الصيغ العالمية تحضّراً، ولكن الأديبة الهندية تكشف واقعاً مغايراً لهذه النصوص.

لذا فإن تعديل السياسة الضريبية ومراجعتها حقّ وطنيّ، وربط الحديث عن التهرّب بالمساواة في الأعباء وتقديم الخدمات، وزيادة على ذلك غياب واضح لمؤسسة الضمان الاجتماعي في بداية الأزمة لصرف رواتب البطالة في ظلّ الإغلاق.

ينتشر الأدب اليومي لوباء كورونا، متى يكتب؟ من كتب عن الأدب الوبائي؟ كامي والطاعون، يوميات عادل الأسطة على صفحته في فيسبوك، وموقع أنطولوجيا المغربي.

تنظّم الجامعة تحليلاً لرواية كامي «الطاعون»، الفلسفة والدين والاجتماع والكورونا، عالم يتغيّر، يتراجع الوباء، نسجل والجمهورية

التونسية وفلسطين: لا إصابات في مراحل متفاوتة، على الرغم من اختلاف الإجراءات، وفي أمريكا وكيان الاحتلال الفيروس يتصاعد: ضمّ، وقضم، وصفقة قرن، قذف للعمال الفلسطينيين إلى المعابر، كورونا، وحصار، وبطالة، وفقر، تتعافى عمّان، يتداولون عبر التطبيقات الذكية مقاطع لوزير الصحة والإعلام، فيديوهات مفبركة، تسود النكتة، و«سائق الخناصري يضعنا في حوض النعنع».

يخرج وزير الداخلية ليتوعّد، ويعلن أمر الدفاع، فيخرج لنا «ص» المصاب من صيدليته، ويا ويل من لاكته الألسنة، وزير الصحة، الفارس الدنجوان، تنخفض شعبيته من الإغلاق، تخفّف القيود على السكان، يطالب الناس بمناعة القطيع؛ فكما هي نهاراً تكون ليلاً، كورونا مفبركة، إنها مؤامرة ضد كبار السنّ، ولكن لماذا معدّلات الحياة مرتفعة أكثر منّا؟

تبتلى أمريكا بالعنصرية والكورونا، تتبادل الاتهامات مع الصين، وترامب يقود العالم بعقلية القلعة إلى المجهول.

ونُمنَع من مغادرة المنزل، ويُسمح باستخدام المركبات في عمان متأخّراً، ولكن بنظام الفردي والزوجي، وتعلو صرخات المحامين لاستثنائهم من هذه القيود، فيُسمَح لهم بذلك من الساعة الثامنة إلى الثانية ظهراً، أي بعد أن يستيقظ النائمون ليصطادهم الحظر، ويدفعوا مئات الدنانير.

لا عيد والأطفال يشترون ملابس العيد بلا قياس في محلات الملابس، تنتشر رائحة الكعك، والفسيخ صباح العيد، الاستيقاظ بعد الظهر، واضطراب في ساعتك البيولوجية.

الناس يذهب خوفهم، ويقلّ عدد الإصابات، الحظر يجفّف قلوب الناس، ويجفّف مداخيلهم، والأسواق تزدحم، وتدبّ الحياة، لكن لا مال لديهم، يتوقّف الأفراد عن الدفع، والبطالة تزداد بالسماح بتسريح العمال: كساد وبطالة، وخصم من الأجور والرواتب، يمر العيد، وتطالب بأتعابك، لكن هناك من يماطلك، وهناك من يتذرّع بالمسامحة والخصميات، وتوقّف العمل.

يتكاسل النشاط التجاري، فيزداد الاقتصاد سوءاً، يحصل العمال على مبالغ تعويضية زهيدة، تبلغ مئتي دولار، النفقات تزداد، وأسعار البنزين تنخفض ثم تعاود الارتفاع، الذهب يرتفع، الأجور والبطالة تزداد مؤشراتها، وتدفع الضرائب؛ تناقض! تأخذ من هذا لذاك، يخسر الجميع، ويبقى الوطن!

يتصل البيك: آلو.. آلو.. آلو!

**السيد Y**: أهلاً يا بيك!

**البيك**: ماذا حصل في قضيتي؟!

**السيد Y**: منحونا إذن تمييز، ولكن لماذا تركتني وحدي في القضية، وأنت تعلم أنه حقّنا؟

**البيك**: هههه.. هههه.. هههه، لأنه لا يوجد لدي واسطة.

**السيد Y**: لماذا؟

**البيك**: هكذا، يا عزيزي. أين نحن من قاضي السماء، لا عدالة على الأرض! تابع يا صديقي، دوس، دوس.. إلى اللقاء.

**السيد Y**: إلى اللقاء!

في صباح الثامن من حزيران، مررنا استمرت ذكرى النكسة، والصفقة والصفعة، أترشّح لانتخابات مجلس النقابة، وفي البريد على فيسبوك، أصوّر الطلب، لأحصد الإعجابات عليه، وتشكّل التحالفات فتح، يسار، يمين، شمال، جنوب، أصدقاء مقربون، دوس..، دوس..، دوس..

أرتّب الامتحانات الإلكترونية، والقضايا الشعرية والكتابية والبلاغية، وتجاوز الامتحانات بمعدّل تراكمي «90٪»، يسرّني ذلك، وأشعر بالغبطة، تحصّل شيكاً بمئة دينار لمبيعات الكتب، تعزم أن تستمرّ في الكتابة، لتفرغَ ما في جعبتك من الكلام، لكي لا تنتهي القصة بعد!

تتحالف مع المرشح نقيباً رقميّاً، الأستاذ الكبير G، تدعمه لأنه يستحقّ، معجبون ومعلقون: تستحقّ.. تستحق، امنحوه الفرصة، فالانتخابات في زمن الكورونا تفرض استخدام وسائل متاحة، مثل: الوكالة، والبريد، والإيميل، وزيادة مراكز الاقتراع في جميع أنحاء

المملكة، وتُخلِص بفكرك لتطبيق القانون في زمن المحسوبية والفساد، فنعمُ، لمستقبلٍ أكثر عدالةً، تعود المساجد، وتفتح الأبواب، وكما يقول الشاعر:

**علّبوا الأمراض أعلوا سعرها**

**كي يصير الطب سمساراً أمينا**

فلا عودة عن تكيف العالم مع كورونا، ولبس الكمامات والقفازات، ولتستمرّ الأعمال والأفراح، لنكن أصدقاء يا كورونا، يا إيبولا.

# أحْدَبُ عمَّان

سهام أبو عواد

كم هو غريبٌ أن تخرجَ إلى شوارع اللويبدة التي اعتادت زحام أقدام الناس وضحكاتهم فلا تجدها، ولا تجدهم! شبّاك بيتي تحوّل فجأة إلى إطلالة على مسرح الشارع، عَرَضَ أمامي مشهداً كنتُ الغريبة الوحيدة فيه، وكأنَّني لم أعش آخر عقدٍ من عمري في بيوتها وأزقّتها، كأنني لم أرَ منها ما هو أبعد من قمّة الأنف.

ربَّما عرفتُ شوارعها ومقاهيها وبيوتها؛ لكنّي ما دخلتُ سوى بعضٍ منها لزيارةٍ أو عمل، حتى هذا الشبّاك (أقصد شبّاك بيتي الوحيد) لم يخطر ببالي ما كان يُفضي إليه لو أنني في يوم ما أشرعتُ له مصراعيه! كنتُ أعتقد أنَّ النَّظر إلى الخارج يسبِّب القلق لروّاد الشارع الآن، وبعد انطلاق صافرة الإنذار، صار كل شيء مختلفاً، وما كان عاديًّا ومكدّساً لسنوات أمام عينيّ صار أكثر من مجرَّد لوحات طبيعيّة ناطقة ومتحرِّكة.

سطح بيت الجيران وما عليه من أشياء؛ كرسي بثلاث أرجل، خزّان ماء مثقوب، بقايا طائرات ورقيّة فقدت خيْطَها الموصول بأصابع طفل ما، فاستقرَّت فوق قضبان الحديد لتعودَ وتنخزها أصابع الريح من دون جدوى، شبابيك الحكايات، شرفات لم أنتبه كيف تحوَّلَت إلى حدائق معلَّقة.

البيت المهجور من الخارج، كان في الحقيقة على غير ذلك، لأنَّ الستارة وشَت بشخص كان يستتر فيها من دون علم أصحابه، لذا وضعتُ ألف سيناريو لاحتمالات كثيرة حول الشخص الغريب.

المتسلّلون ليلاً ونهاراً أثناء ساعات الحَظْر كشفوا طبيعة الجيران الذين ما اعتقدتُ يوماً أنهم يسكنون حارتنا، بدأ الناس يفتحون نوافذهم من دون خوف من نظرات العابرين، صاروا يصعدون إلى أسطح البيوت، ويلقون التحيّة وبعض الأخبار العاجلة عبر تلويحة أو إشارة، حتى أنَّ إحدى النسوة دفعت بأحد أبنائها وهو يحمل طبقاً مغطّىً ليوصله إلى عمارة مجاورة، فيما تقفُ هي في شرفتها تراقب الطريق، تكرَّر المشهد، ليعودَ الصبيّ في كل مرَّة وفي يده صرّة صغيرة من تبغ النرجيلة، أو بعض السجائر.

ولشدَّة قرب شبّاكي من الشارع؛ كنتُ قادرة على رؤية يد الصبيّ، وربَّما عدد السجائر المُستعارة.

لم تعُد البيوت مبهمة ومغلقة، فالشبابيك والأبواب المغلقة فَتَحَها

حظْر التّجوال، ومنحَ الحارة دعوة مجانيّة للّقاء، والمقاهي التي كانت تقدِّم القهوة المدفوعة الثمن، أُغلقت حين أمسى فنجان القهوة مجانيًّا بين أبناء الحارة الواحدة، وتحوّلت ساحات البيوت إلى مضافات مؤقّتة.

بدأتُ أنتبه عند كل مساء أنَّ جمهور المسرح يتبدّل باستمرار، وأدركتُ سرَّ ذلك، فمعظم الضيوف كانوا يتنقّلون ومقاعدهم البلاستيكيّة بجعبتهم ليتسنّى لهم الجلوس أينما وجدوا تجمُّعاً جديداً.

الشبابيك هي المساحات المزوعة من بدن الحائط، ومُحال أن يَفيدَ منها الكفيف إلّا انتعاشاً بنسمةٍ عابرة، وهذه الجائحة أبدت لي كم كنتُ شفيفةً كفيفةً، وكم أعلَمتْني عنّي ما لم أكُن أعلمه، فعلى الرّغم من امتلاكي لعينين واسعتين وذاكرةٍ تجيد استحضار معالم الآخرين؛ إلّا أنّني وللمرّة الأولى أتعرّف على دواخل نفسي، وأسأل: «هل كنتُ أحتاج إلى هذا الاعتقال الجبريّ كله لأحرِّر مكنوناتي، ولأتجوّل أكثر داخل مساحات الوقت، وأن أضبط منبّهات التعب والإرهاق في جسدي؟ وماذا عن الأكل والشرب والنوم، والعيش في زمنٍ ممزوج بمزاج ومواقيت الآخرين؟»، أدركتُ أخيراً أنني لستُ شخصاً افتراضيًّا، ولم أُخلق كي أتوزَّع في مجازات خَلَقَها عقلي الروائيّ.

يبدأ اليوم وكأنَّ الوقت لي وحدي، والتقويم لي وحدي، كأنَّ المدى

ما عاد فيه إلّاي، قناة المملكة تذيع أخبارها على مدى الوقت، وقد صارت لي نافذةً جديدة.

قسراً، أسترقُ السّمع لبيت جارنا الحادّ المزاج، لم أنتبه قبلاً لصوتِه الجهوريّ، لم أكترث لحديثه الحادّ مع زوجته، فقبل الحَجْر، كنتُ أبدأ الصباح كما أبدأه الآن تماماً، أمدُّ يدي لأسكِتَ المنبِّه، أدري أنه سيفزعني بأجراسه في الثامنة صباحاً، وأدري أنني لن أخرج، وأنَّ أحداً لن يدقَّ الباب، وأنَّ الأشياء كلها تبدَّلت عدا فنجان القهوة، بالتأكيد كنتُ سأترك النوم لأنَّ منبِّه القهوة صار جزءاً من جسدي، أمّا الفارق الوحيد فهو في ترتيب الأشياء، سوف أمدُّ يدي أسكت منبِّهي، أجهِّز قهوتي وأجهز عليها، أنظر في ساعة الهاتف، أتأنَّق لمشواري الصباحيّ والذي لن يتعدّى الدكّان، سوف أخرج لألقي التحيّة على شارعي، على المقهى الذي يستوقفني، لا بل غالباً ما أقف، أتذكَّر هذه الكلمات: (إنْ أعادوا لك المقاهي، مَن يعيد لك الرفاق؟) أحياناً أبكي، ولشدّة قهري أعود أدراجي، تخيفني الأيّام المبهمة، يخيفني الشوق المجهول، فكرة علم الغيب، فهل يعود الماضي، على الرغم من أنَّنا نحلم بالمستقبل؟

أعود، فأستتر بممارسة الكسل من جديد، نوم وسط نهار مغلق، لا شيء يتبدَّل، سوى صفحات الرِّوايات التي أطويها وقد عشتُ كلّ حرف قرأته، أبدِّل طاولتي، أفتح حاسوبي وأبدأ بكتابة أسطر

وصفحات في روايتي الجديدة (دمى لقيطة)، الضوضاء داخل النص، وقع أقدام الحاضرين، أبواق السيارات، هموم أبطالها، كل هذا محشور داخل رأسي، ورأس الجهاز، يتجوَّلون بحريّة، يغادرون، يسافرون، يعودون، يتسوّقون، تدخل البطلة في ليلة زفافها، وقد احتشد الجمع خارجاً..... ياه، النص أكثر حياةً من كاتبِه.

بيتي صغير جداً، أشيائي قليلة هي لا تحتاج إلى الكثير من الوقت، حتى أرتِّبها، قد أتناول بعض الطعام، وهذا لا يأخذ منّي الكثير من الوقت، ما زال هناك ساعات ثلاث حتى تحين السادسة، أظنني سوف أخرج إلى الشارع مجدَّداً، في طريقي، ألمح فتاة صغيرة تحمل الورد تتقدَّم من رجل يسير وحده، تعرض ابتسامتها وهي تمدّ إليه وردة، المشهد صامت جداً، أظنّه يتجهّم، لا هو كذلك، فتجدِّد ابتسامتها، كأنَّها قالت، كي تحثّه على الشراء: «يا سيّدي أنا لا أبيع الورد أنا أشتري ابتسامتك».

خطوات قليلة من هذا المشهد، أنتبه على يساري إلى محلّ «عتيق»؛ هذه الأشياء المستعملة كلها، لا يستعملها أحد الآن، كأنّها صارت حكايات مستعملة، جُمعت من بيوت الأثرياء، اجتمعت حكايات كثيرة، لم تلتقِ سوى هنا في محلّ «عتيق»، أنتبهُ لتمثال باذخ، رجل طاعن بالسن، الغريب أنه ليس خائفاً من العدوى، لا يرتدي كمّامته،

وقف منهكاً، أظنُّ أنه لقّم بندقيّتـه وردة، أطلقها نحو الماضي وغادر التقويم.

أبتسم له، أرفع كمّامتي قليلاً كتحيّة وأغادر أيضاً، أواصل طريقي، وأنا أشاهد صفًّا من الألوان على جانبي الشارع، أناساً اصطفّوا بالدَّوْر أمام المحلّات التجاريّة، أحدّق في معظمهم، تراودني أسئلة تمنّيتُ أن يجيبني عنها كل واحد منهم، تُرى ما الذي تغيَّر في حياتهم؟ كم من خطط تبدَّلَت ووقفت على الدَّوْر مثلهم؟ كم شخصاً من هؤلاء نهض من نومه ذات صباح ليجد أنَّ برامجه كلها صارت مؤجَّلة؟.... هل تحوَّل تاريخ كل يوم إلى تاريخ العام 2020 فقط لشدَّة تشابُه الأيّام؟

أعود من حيث بدأت وموعد الصافرة يقترب، ولا أحمل في رأسي لهذا اليوم سوى ما قال عليه أفضل الصلاة والسلام، سيدنا محمد لصاحبه في الغار: (لا تحزن إنَّ الله معنا).

* * *

بعد ما يقارب الشهر، سمحت السلطات بتخفيف جزئي للحَظْر، ثم توالى شيئاً فشيئاً، لذا قرّرتُ أن أخرجَ للتجوُّل في أنحاء المكان، أخذتُ دفتري وقلمي ولم أكُن أعلم أنهما كلُّ ما أحتاجه الآن.

على الرّغم من برودة الطقس، إلا أنَّ فكرة الحريّة موقوتة... قبل السادسة يجب على الجميع العودة إلى منازلهم، وبما أنَّ قاع المدينة هو أقربُ البعيدِ إليَّ؛ مشيتُ إلى هناك، اقتربتُ من مبنى مستشفى

«لوزميلا» القابع في نهاية اللويبدة منذ زمن، وسلكتُ الطريق المحاذي له لأهبط من الدَّرَج العريض المؤدّي إلى «دارة خالد شومان»، هذا الدَّرَج هو الأكثر قرباً للهابطين من اللويبدة إلى وسط البلد ولِمَن لا يملكون تصريحاً خاصّاً للتجوُّل بالسيارات.

كانت العتبات خالية مِن لهاث الصاعدين إلى الدَّارة من السائحين، ولم يصادفني عاشقان يستظلّان بفكرة الأمان على عتبات مخبّأة بين جدارين! مَن الذي كشَّ العشاق عن هذه العتبات؟ أظنّه الخوف من الوباء اللّعين، أشعر بأنَّ هذا الوباء صار أشد سطوة من ألسنة الوشاة.

يُسلِّمكَ الدَّرَج إلى شارع مكتظّ بالسيارات الواقفات، يركضُ بكَ نزولاً إلى دَرَج «الكلحة» الشهير، حسبتُ وأنا على أوَّل العتبات بأنني وقعتُ أسيرة الرائحة التي كانت تشدّني في الصيف والشتاء، إنها قطائف «أبوعلي» الشهيّة، لكنّني كنتُ واهمةً... إنَّها مجرَّد رائحة الذكرى، باب الدكّان الأزرق الصغير موصد تماماً، وكلُّ ما تلاه كان موصداً... تُرى أين خبَّأت عمّان ألوانها وأصواتها؟ هل فعلَت هذا عمداً كي نرسلَ أنوفنا في طلب روائحها؟ هل صمتت لتَسْمَعنا من جديد، أم صمتت كي نستمع إلى شكواها وأنينها؟

ربَّما تريد لنا أن نتعلّم درساً في كسر بعض عاداتنا السيّئة، أو ربَّما تريد تجديد عادات تليق بنا كي ننجو ممّا هو قادم، أظنُّ أنَّ الأرض قرأت في كفِّنا ما لم نعلمه، عرَّافة الخوف قرأت خطوط شوارعها

وقالت: «انتبهي لأولادك»، فعاقبتنا عقاب الأمِّ لطفلها كي لا يعبث بالنار أكثر، وأضافت: «السماء استغاثت بالأرض».

قبيل انتهاء الدَّرَج، ابتعدتُ قليلاً كي لا أحترق بفحم النرجيلة المتّقد في كانون رجل المقهى الأسمر، اقتربتُ... لكنه لم يكُن هناك، لم أسمع خوار النّراجيل الخارج من مقهى «ذكريات البلد»، سمعتُ الهواء يصفِّر من شقٍّ صغيرٍ بين باب المقهى والحائط، كأنَّ الجنيّات احتللن المكان.

لا شيء سوى رجع الريح في المكان، كل شيء مغلق... المقهى، البريد، الحلّاق، ودار النشر هناك... وصلتُ أخيراً نهاية الدَّرَج، جميعها بدت كأنها جدران جاهزة للرَّسم، وددتُ لو استللتُ فرشاة الرَّسم من جفوني وفتحتُ تلك الأبواب، وحرَّرتُ المناديل والعباءات والأقدام والسيقان... والحياة.

ما أبشع الصَّمت في الأماكن التي تعوَّدت الضَّجيج! لكنَّ عزائي الوحيد أنني أحبُّ هذه البلاد، وأفعل أيّ شيء كي تبقى معافاة، لا أريد تمجيدها بعد موتها كما نفعل مع العظماء، أريدُ لها المجد والحياة.

كان قاع المدينة فارغاً إلّا من الجنود القائمين على مراقبة وسلامة العابرين... عدتُ أدراجي، وعدتُ أسترق السّمع لأحاديث الشبابيك والشرفات، كانت البيوت تتحدّث بأكثر من لغة، أصوات ساكنيها تشي بكلِّ شيء، لم يحدث هذا من قبل، بين بيتٍ وبيتٍ كانت تتدحرج

كلمة «كورونا»، لقد دخَلَت هذه الكلمة اللّعينة إلى كل مفرداتنا، أطباقنا، ملابسنا الشخصيّة، حقائب السفر، تذاكر العودة، لقمة الخبز، علّاقة مفاتيح السيارة، سلّة القمامة، مقبض الباب، مدارس الأطفال، جامعاتنا، دور العبادة، مشفى الولادة... كما أنّها نصبت شراكها حول جذورنا، حول مَن كانت الجنّة تحت أقدامهنَّ، يا الله!

وصلتُ قمَّة اللويبدة، «دوّار باريس» تحديداً، كنتُ محظوظة جداً إذ وجدتُ مقعداً فارغاً غير مكترث بالظلّ، قدَّمَتْه السماء مجاناً، بلونٍ فضيّ تارة، وأخرى ذهبيّ.

ـ هل أنتِ من هؤلاء؟

خاطبني رجلٌ يجلس على المقعد المقابل، رفعتُ رأسي مستغربة السؤال، مندهشةً مبتسمة وأنا أجيب:

ـ ممَّن؟

ـ مَن يسجِّلون الأسماء؟

ـ أيّة أسماء؟

ـ هؤلاء، أقصد العمّال.

ـ أتقصد عمّال المياومة؟

ـ أجل، أجل، هذه، فأنا لم أسجِّل لأنّي لا أعرف كيف ألفظ هذه الكلمة (المياومة)، كما أخبرني أحدهم أنَّ التسجيل يكون عبْر الهاتف المحمول، أليس كذلك؟

ـ جيد، فلماذا لم تسجِّل إذن؟ أنا معكَ بأنَّ لفظَها صعبٌ ومضحكٌ أيضاً، لكن عبْر الهاتف لا يجب عليكَ لفظها، ما عليك إلّا أنْ تكتبَ معلوماتك فقط.

يضحك، ثم يضيف وهو يقترب من مقعدي:

ـ هل تسمحين لي بالجلوس إلى جانبك، وبالطَّبع على مسافة آمنة..؟

جلسَ وهو يواصل ضحكته.

ضحكتُ، وقلتُ وأنا أعدِّل من جِلستي كي أراه جيداً:

ـ أنتَ جلستَ وانتهى الموضوع.

ـ يا سيدتي أنا لم أسجِّل لأنّي بالكاد أتذكَّر الأحرف.

تنهَّد وأكمل:

ـ ثم إنّني لا أملك هاتفاً، وغير هذا أنا لا أحبُّ أن أتعب الناس معي.

عيناه المتعبتان، تجيدان الوشاية بحاله، الشُّقوق في يديه كأنّها أثلام أيام من التعب، أصابعه معاول بدت مهترئة، لذا غرسها في جيبه حين انتبه لي وأنا أحدِّق بها.

ـ بالمناسبة، أنا اسمي سهام، وأنتَ؟

ـ أنا....؟

يصمت قليلاً وهو يدير لي ظهره: «أنا الأحدب، اسمي الأحدب».

ـ اسمك «أحدب»؟ لكن هذا ليس اسماً! يا أستاذ «أحدب».

ـ هذا حالي، والاسم يليق بشكلي، أخشى إذا ناديتِني بعد هذه الأعوام كلها باسمي لا أعرفُني.

ويضحك كما يبدو من دغدغة القهر الجاثم على ظهره.

ـ ماذا تعمل يا أستاذ «أحدب»؟

ينظر إليّ مستغرباً:

ـ أستاذ مرَّة واحدة؟

يرتِّب ياقة قميصه: «أعمل عتالاً».

أتردَّد في سؤاله، لكنّني أتابع: «ألا تزعجكَ هذه الحدبة؟ أقصد حين تحمل الأشياء؟».

يبتسم: «هذه هي الأشياء التي أعتلها».

ـ لا أفهم قصدك.

ـ أقصد هذه خلَقَتْها لي الأشياء التي عتلتُها في حياتي، هل تعلمين متى كبرَتْ إلى هذا الحدّ؟ حين سمعتُ أنَّ الكثير من اللاجئين هربوا نحو البلد، فذهبتُ ألقِّط رزقي من الحدود، ظننتُ أنَّ اللاجئين لا بدَّ لديهم حقائب كثيرة وقد أعينهم وألقِّط بعض الرزق، لكن لم تكن الحقائب الكثيرة، بل كبار السن، فكل ذي مرض أو مُسنّ حملتُه على ظهري كانت حدبتي تكبر معه قليلاً، انظري تكاد الآن تغطّي جسدي كلّه مع ازدياد عدد القادمين.

ـ ألا تفكر في إزالتها؟ أقصد هل يمكن استئصالها؟

ينظر باستهزاء قائلاً:

ـ هل تريدينني أنْ أستقيمَ فأنكسر؟

يضحك بصدق، يضحك جداً.

بعض عيوبنا مع الوقت تصبح صفة لنا، وإنْ حاولنا التخلُّص منها، إلّا أنَّها تلتصق فينا رغماً عنّا.

يُضيف بمنطق الكنغر، حين يقفز من حديث إلى آخر:

ـ هل تعلمين، الرفاهيّة البسيطة، كم تسعدني؟

أبتسم: «ماذا تقصد؟».

ـ حين أعتلُ أشياء؛ بالتحديد قطع أثاث، وغالباً ما تكون بحالة جيدة جداً، من بيوت الأغنياء، وألقيها بجانب الحاوية، أضعها برفق، لأنني أعلم أنَّ شخصاً ما سيلتقطها وكأنها هديّة من السماء، أترك تلك الأشياء، وفي بعض الأحيان أراقبها حتى يأتي مَن أظنُّ أنه بحاجتها، هل تصدِّقين، مع الوقت أصبحتُ أعرف بالضَّبط ما يحتاجه الفقير، وما لا يحتاجه الغنيّ، حتى أنني كثيراً ما كنتُ أنقل أشياء مسافات طويلة على رأسي، أتركها بالقرب من بيت أحدهم من دون أن يراني.....

يعود لضحكته: «أتصدَّق بالتَّعب فقط، التَّعب أيضاً صدقة جارية، فهذا كلُّ ما أملك؛ قوَّتي فقط»، يمسح شدقيه، ويسألني: «كم الساعة الآن؟».

ـ أليس لديك ساعة أيضاً؟

«لا أحتاجها، فالوقت عندي ليل، ونهار، برد، وشتاء»، يضحك: «وهنالك فصلان زائدان، قد قسمتهما بين الشتاء والصيف».

ـ أنتِ زوجي أم فردي؟

فأجيبه مبتسمة:

ـ أنا لا هذا ولا ذاك، لا أملك سيارة.

ـ إذن، سوف أبحث عن شخص غيركِ أنتِ لا تفيدينني في هذا، لا تملكين سيارة، أنا أصبحتُ أحفظ أرقام سيارات الحيّ، وأقسمها على أيام الأسبوع لأعرف مَن سيقلّني إلى جني رزقي.

«هل تعلمين يا سهام؟»، قالها من دون تكلُّف أو حواجز: «لقد غيَّر الإغلاق من حال الناس».

ـ كيف يا أستاذ «أحدب»؟

قبل أن أجيبك، «هل سجّلتِ؟».

ـ ماذا؟ آه تقصد بخصوص المياومة؟

ـ أجل، وسجِّلي أيضاً أنا عربي.

طلب غريب لم يضحكني بقدر ما هزّني: «هل تحفظ قصيدة محمود درويش؟».

ـ لا، لا، أقصد كان الجميع قبل الكورونا يتمنون الرحيل عن بلاد العرب إلى بلاد الغرب، وتبدَّلت الحال الآن....

نظرتُ عميقاً في وجه «أحدب» والحيرة تغتالني، كيف لهذا البسيط

أن يكون بهذا العمق؟ ترى لولا هذا الحصار هل كنتُ سأكتشف «أحدب»؟

ـ متزوِّج يا «أحدب»؟

ـ لا أنا أعزل.....

ويلي من هذا الرجل، سهلٌ ممتنع، يرجمني بكلمات تأتي كالصاعقة، ولا أدري إن كان يعنيها.

ـ غريب أمرك يا «أحدب»؟

ـ لِمَ يا سهام؟ لِمَ يا صديقتي؟

أبتسمُ فقد صار صديقي، عفواً أنا أصبحتُ صديقته.

ـ قُل لي كيف غيَّرَت كورونا الناس؟

ـ غيَّرتني أنا، ألا يكفي؟

هل تعلمين كم كنتُ أكره ارتداء أسناني الصناعيّة؟ الكمّامة سَتَرَت فمي المهجور.

أنتبهُ إلى فمه المهجور.

أصمت لأترك لهذا الأحدب الحديث كلّه، أكتفي بالإيماء ليُكمل.

ـ هل تعلمين يا سهام يا صديقتي؟ حين أسمع صافرة الإنذار أشعر بالحريّة، أظنُّ أنَّ الجميع مثلي، تشعر أنكَ تركتَ حدباتكَ كلّها على عتبة الدار، وأنكَ الآن عائدٌ إلى نفسك، لن يزعجكَ أحد، لديكَ الوقت الكافي لتفعل أمورك المؤجّلة كلها، لتفتح الشبّاك وتنام نوماً عميقاً،

فلن تمرّ سيّارة خضار، ولا غاز، ولن تصعقكَ كرة عابرة للحارات، يتقاذفها أبناء الحيّ. أنتَ ملكك.

يصمت، ينظر إلى وجهي، يريد أن يختبر انتباهي، وحين يجدني منصتةً يتابع:

ـ هل تعلمين يا صديقتي العزيزة؟

أبتسم.. فقد أصبحتُ عزيزةً، ربَّما لأنني الشخص الوحيد الذي ينصت له منذ أعوام، فأجيب: «لا أعلم، أخبرني ماذا؟».

ـ أنا لا أعمل عتّالاً فقط، في الحقيقة أعمل في كل شيء، قبل الكورونا، كنتُ أنظف حدائق بيوت عمّان الغربيّة، أصبحتُ مشهوراً هناك.

يحاول مدَّ يده إلى ظهره قائلاً:

ـ بفضلِها أصبح لي شُهرة، ولا أخفي عنكِ، شفقة بعضهم جعلتهم يختارونني دوناً عن باقي العمّال، ومع الوقت صاروا زبائني.

يُضحكني كيف ينسبهم لنفسه.

ـ هل تعلمين؟ بعض تلك البيوت، كنتُ أظنُّ أنَّ ساكنيها غير موجودين في البلد، لكن اكتشفتُ أنَّها تعجُّ بالناس، أحياناً أستغرب من كثرة الناس، أين كان هؤلاء كلّهم؟ أظن يا صديقتي....

توقَّف عن الكلام وراح يبكي، هزَّني بكاؤه.

ـ ما بكَ؟ هل حدث شيء؟ هل أزعجك أحد مالكي تلك البيوت؟

ـ بل اسمعي صوت المؤذِّن، بيت الله مَن يؤلمني، صلّوا في بيوتكم، صلّوا في.....

كان لا بدَّ من أن أخشع أمام دمعه، لا أشفق عليه، لكن خطر ببالي شيء آخر، حين تذكّرتُ نفسي... ترى كل هؤلاء الذين كتبتُ عنهم في رواياتي؛ كل الأبطال هناك، هل كانوا كالأحدب؟ هل كتبتُهُم كما أراهم، أم كما أراني؟ هل كنتُ بطلة قصة أحدهم؟ هل عرف عنّي ما لم أعرف؟ أيّ ثوب ألبسني؟ إذا كان الحيّ كلّه، بل البلد كله كان له وجهٌ آخر، فكيف جزمتُ أنّني كتبتُ عنهم كما يجب أن يُكتب؟

ـ أعتذر منكِ يا سيدتي، ما كان عليّ أن أبكي، بالمناسبة اسمي «سلامة» إن كنتِ ما زلتِ مهتمّة باسمي، وقد درستُ في الكليّة لمدة عام واحد، كنتُ أتمنى أن أدرس الطب، والهندسة، واللغة العربية، والمساحة والطب البيطري، وكل شيء كي أجيد ما أجيده الآن... كل شيء، غير أنَّ هذه الحدبة اللعينة، على ما يبدو قطعت رزق عقلي من بلوغ مبتغاه، وحتى من الزواج، فمَن هي التي ستقترن بمَن كان مثلي، أظنها ستقول: «لن أجد مكاناً لأضع عليه أحمالي، فكتف هذا الأحدب مكتظّة»، لكنَّ النساء لا يعلمن، هنَّ لا يعرفن كم قلبي كبير، وكم يمكنه أن يحتمل ويحمل.

عاد لضحكته الحمراء، فقد بدا فمه أحمر حين يضحك، مضيفاً: «أنتِ لستِ بالطبع «مُخبر»؟ صحيح؟ المُخبر لا يحمل ورقة وقلم؟

لم ألتقِ بامرأة «مُخبر» من قبل؟ وعلى الأكيد لستِ مدرِّسة، ففي هذه الأيام سمعتُ أنَّ الدفتر صار شاشة هاتف، سبحان الله، ولا أظنكِ صحفيّة، فالمكان هادئ جداً لصحفي، ربّما أنكِ روائيّة، أو لماذا لا أعتقد أنكِ اشتريتِ هذا الدفتر لابنك، وحين شعرتِ بالتعب جلستِ لترتاحي، فابتليتِ بي». يواصل الضحك.....

ـ بالمناسبة، تلك الكلمة لا أستطيع لفظَها فقط لأنّني بلا أسنان، فأنا لا أستطيع زمّ فمي كما ينبغي! لكنّني لم أسجِّل في ذلك البرنامج، قلتُ لنفسي ربّما أنَّ آخر يحتاج تلك النقود القليلة أكثر منّي، فما قلتُه عن تلك الكلمة التي حقاً لا أجيدُ لفظَها كان مجرّد حيلة كي أوقع بكِ فتواصلين الجلوس والحديث معي، أحسستُ بأنكِ تشعرين بالضَّجر مثلي، أو كي أكون صادقاً؛ كان كميناً لشخص مثقف، فالمثقفون يفهمون غايتي من الكلام، وأنا منذ أعوام لم أجد مَن يفهم غايتي، يحكم الناس على شكلي حتى من بعيد، ولكثرة ما نعتوني بالأبله أظنني صرت أبلهاً.

ـ ماذا أيضاً؟ أخبرني أكثر عن الدنيا يا «سلامة».

ينظر بغضب:

ـ لا تنادِني «سلامة»، أنا فقط أخبرتكِ به بسبب العيش والملح بيننا، لأجل صداقتنا... فقط.

ويلي من هذا الكائن الغريب، كيف ولَّد هذه العشرة، كيف اختزل

جهلي في تجربة واحدة، كأنَّ الدنيا تمرُّ من قربي ولا أراها.

ـ قُل لي يا «أحدب»، أخبرني أكثر عن كل ما يدور أثناء الحظر...

يجيب وكأنه يتجاهلني:

ـ أتمنى أن يطلقوا برنامجاً إذاعيّاً تحت اسم «ما يطلبه المحجورون».

ينظر إلي، فتكمل عيناه السؤال؛ «ترى ماذا تطلبين، يا سهام؟».

ـ ماذا تطلب أنتَ؟ إنه برنامجك.

ـ سوف أطلب أن تبقى المودّة بين الناس كما هي الآن في أيام الحجر، وأن تبقى السيارات زوجي وفردي، وألّا أرى أطنان الخبز ملقاة في القمامة، فأنا أصبحتُ أراقب ما يلقيه الناس في القمامة، لم تعُد مثل السابق، أصبح الناس ينتبهون لكلّ شيء، لم يعُد التخلُّص من بقايا الطعام كما كان سابقاً، تعلّموا احترام المسافة، تعرّفوا على جيرانهم، انتبهوا لأفراد أسرتهم، لقد عاد الناس إلى رشدهم، أو على الأقل أكثر الناس.

سوف أطلب أن يظهر المسؤول على شاشة التلفاز، ليجيبَ عن أسئلة الناس ويتواصل معهم.

أن تبقى فكرة البصمة مُبهمة، فالقفّازات جعلت الكل سواسية؛ لم تترك لشخص واحد أن يدَّعي أنه السَّبب في عمار هذا البلد، فالبصمات كلّها متشابهة.

يقاطع الحديث كعادته بضحكة: «هل تعتقدين أنها الكاميرا الخفيّة؟؟».

يضحكني هذا، بل أتورَّط في ضحكة توشك أن تبكيني.

ـ ويلي منكَ يا «أحدب»، كيف خطر لكَ هذا؟ تخيَّل أنَّ العالم بأسره، يخضع لمقلب الكاميرا الخفية؟!!

أضحكُ أكثر، يبتسمُ لضحكتي، أحسستُ أنه انتصر عليّ حين جعلني أضحكك بهذا الشكل المجنون، فحين خرجتُ من بيتي، حسبتُ حساب كل شيء، إلّا أن أضحك بهذا الشكل، فهل حقًّا أضحكتني كلماته؟ أم أنّني كنتُ أحتاج إلى عذر كي أفعلها؟ وكأنّها خطيئة.

لِمَ فكّرتُ بانتصارِه؟ هل كان خصماً منذ البداية؟ أيّ نوع من الخصوم؟ هل أحسده على حياة اللامبالاة هذه؟ أم ماذا؟

يزجُّ كلامه داخل ضحكتي، قائلاً: «كلّما أسعدتُ شخصاً ما أشعر أنَّ هذه الحدبة صارت أصغر، ليتَ أنّني أُسعدُ الناس كلّهم»، ثم يكمل:

ـ لكن بعض الناس لا يحبون السعادة، لا تنظري إليّ مستغربة، فالموضوع شائك، أقصد حين تستهتر بأمر عظيم مثل هذا الوباء، فإنك شخص مجرم وغير مكترث، حتى بنفسك، أجل، أجل، لا تعتقدي أنّني مجنون، لقد رأيتُ أمثلة كثيرة على أناس، كانوا يعدّون الإغلاق ضدّهم، وأنَّ الأمر شخصيّ، وأنَّ الحكومة قاصدة أن تعتقلهم في بيوتهم، وبعضهم كان يلعب لعبة القط والفأر، لم يستوعب

هؤلاء أنَّ الموضوع مختلف، لا ألومهم، فالفكرة غريبة على البلد، لكن ما يزعجني؛ لو كان الأمر أكبر من موضوع وباء، ترى هل سنجيد التعامل معه؟

ـ أجل يا صديقي، ما مرَّ به البلد كان أمراً عظيماً، حتى وإن ظهرت بعض التجاوزات، لكن هذا لا يمثِّل الأغلبية، قياساً على بلاد عظمى كانت بلادنا أكثر نجاحاً وأكثر تطوُّراً في مواجهة هذا الخطر العظيم، لا مقارنة حتى، نعم يا أحدب سوف أسجِّل أنَّكَ وأنَّني وأنَّنا (عربي) لكن من منظور آخر.

يقفز كعادته في الكلام عائداً للسؤال:

ـ وماذا عنكِ يا سهام؟ ماذا ستطلبين؟

ـ أنا سوف أبعث لكَ بسلامي أينما كنت.

تبتلُّ عيناه بالدُّموع، وهو ينظر إلي: «هل حقاً ستفعلين هذا؟».

ـ نعم، ولِمَ لا؟

ـ أخشى أنكِ سوف تنسينني حين تعود الحياة إلى طبيعتها، حين تعود السماء إلى التلوُّث بالغبار والدخان، وحين تبتلعكِ الفوضى ولا تجدين وقتاً للجلوس على هذا المقعد، لتتّحدثي طويلاً مع أحدب يظنّه الناس أبله.

ـ هل تعلمين يا صديقتي؟ أثناء منْع التجوال سمعتُ باب بيتي يدقّ في شهر واحد أكثر ممّا حصل في عشرة أعوام، ربّما لا تصدقينني،

حتى أثناء المنْع الكلّي، لقد تعرَّفتُ على أبناء حارتنا، بل وأصبحتُ أعرفُ مَن هي الجارة التي تطهو أفضل من الأخرى، أصبحتُ أعرف شكل أطباقهم، أسماءهم وجنسيّاتهم، لم أعُد خائفاً من الموت من دون أن يعلم بي أحد.

ربَّما كان مازحاً عندما أكمل:

ـ ما يقلقني شكل القبر فقط، فأنا أتمنّى أن أحصلَ على قبر يناسب شكلي، أريد أن أرتاح لو بالموت، أريدُ أن أُدفن وأنا مستلقٍ على ظهري كي أستطيع النَّظر إلى فوق، أشتاق يا صديقتي أن أرفعَ رأسي وأنظر إلى فوق، لكن هذه الحدبة اللّعينة، تغلُّ رأسي كلّما حاولت.

يبتسم: «لا يهمّ، أشعر بالرِّضا حين أتذكَّر أنَّ الله لا يشترط أن تنظر إليه في فوقه كي يراك، هو موجود في كل زاوية، يسمعني وإنْ كان فمي مكمّماً... لقد تحدَّثتُ كثيراً وأنتِ لم تتفوّهي بكلمة، هيا أخبريني مَن أنتِ؟».

يضحكني هذا الرجل، أقصد مَن أصبحت صديقته، فأجيبه:

«أنا فنانة تشكيليّة، وروائيّة، أعيش هنا منذ أعوام طويلة»، قاطعني قائلاً:

ـ هل لديكِ أولاد...؟ أكيد لديكِ عائلة كبيرة.

يبتسم:

ـ لن تخشي بعد عمر طويل، أن تموتي من دون أن ينتبه لموتكِ أحد،

بالطبع، مَن مثلكِ لديه مَن يكترث لأمره، مَن ينتظره حين يعود، صدِّقيني أنا لا أحسدكِ، بل أنا سعيد لأجلك.

لم أجبه، لكن كان عليَّ أنْ أجيبَ نفسي، لقد تجاوزتُ الخمسين الآن، بنيتُ قصوراً وبيوتاً وحارات، عمَّرتُ أوطاناً، وهدمتُ أخرى، أشعلتُ الحرائق، وأحييتُ أرواحاً وقتلتُ أخرى في رواياتي، كنتُ أمّاً، وزوجةً، وأختاً، تخرَّج من صفحات رواياتي ألف ابن، تزوّجوا، وصار لديهم أولاد وأحفاد، قدَّمت ابنتي عروساً لزوجها، شبكتُ يدي بيدها، ونظرتُ إلى عينيها وهي تغادر بيت العائلة، أمسكتُ بيد زوجي ونحن عائدان إلى بيتنا، لنحيا وحيدين كما بدأنا.

نهض من مكانه وهو يخفي وجهه، ملوّحاً بيده إلى الخلف... ومضى.

أنظر إليه، كان كلما ابتعد بدت حدبته أصغر، كأنما انفرطت سؤالاً تلو سؤال، وأسأل: هل كان ثوب ابنتي الأبيض سوى هذا الشيب الذي اشتعل في رأسي ولم أنتبه؟ هل حقاً كنتُ أمّاً لصبيٍّ من أبطال رواياتي؟ هل أصبحتُ جدَّة؟ هل غرستُ أشجاري المعمِّرة في أرض مستأجرة؟

كأنَّ هذا الأحدب ورَّثَني إيّاها وغادر، فتحتُ دفتري لكني لم أجد النّص، ابتسمتُ، ورصصتُ دفتري إلى جنبي.... وغادرت.

## «أحمد الجديد»

إياد حمّاد

**الأربعاء 25 آذار 2020، الساعة الثانية مساء**

ساعة الحائط اليتيمة منسية دوماً على جدار غرفتي، لا ألقي لها بالاً، حالة من الخصام كانت بيني وبينها، أكره دقاتها، تسرق تكتكاتها النوم من عيني، من كثرة مشاغلي لا أنظر إليها، حتى عندما أبدأ دراستي لامتحاناتي الجامعية أعتمد على توقيتي الداخلي لا إلى ما تشير إليه عقاربها.

منذ أسبوع تطوّرت العلاقة بيني وبين هذه الساعة، أصبحتُ أنظر إليها عشرات المرات في اليوم، حاولتُ أن أحسّن علاقتي بها، إلا أنّ عقاربها كانت تلسعني بمناسبة ومن دون مناسبة، وكأنها تعاقبني على إهمالي المتعمد لها منذ سنين، لم أدرك أنّ الوقت يمضي ببطء شديد.

بعد أسبوع من الحظر والبقاء في المنزل بسبب «كورونا» أدركتُ أنّ الساعة ستون دقيقة، وأنّ الدقيقة ستون ثانية، بل وأخذت أؤمن بأن

الثانية مقسّمة إلى وحدات أقل كما كان يقول لنا دكتور الفيزياء.

مع هذا الإحساس بالوقت نبع إحساس داخلي أنني يجب ألّا أضيّع هذه الثواني هدراً، يجب أن أشغل وقتي، بالدّراسة حيناً، وبأي شيء آخر يضيف شيئاً لشخصيتي التي ما زلت أحاول أن أتعرف عليها.

**الخميس 26 آذار 2020، الساعة السابعة مساء**

نفسي التي بين جنبيّ لا أعرفها، تبين لي أنّ التعرف على أهلي أسهل من التعرف على خبايا نفسي، في داخلي دهاليز كأنّها متاهة لا أعرف لها قراراً، ولكنّني في يوم ما سأسبر أغوارها ولا شك.

اليوم، واليوم فقط، بدأت أتعرّف على عائلتي أكثر، أقترب منهم أكثر، لم يعتد أبي الجلوس في البيت لأكثر من ساعات يقضي أغلبها بالنوم، ولم أعتد أنا أن أكون في البيت قبل منتصف الليل، كانت أمي تبقى في بيتها وحيدة، وعندما تعود شقيقتي الصغيرة «وعد» من مدرستها يشتعل البيت نشاطاً، وحركة لا تهدأ، كنت أهرب من هذا النشاط وهذه الحركة.

الحظر غيّر عاداتي، غيّر عاداتنا كلّنا، ما زلتُ أتضايق من الحبس المنزلي، لكن ما خففّ عنّي أنّني صرتُ أجلس إلى أبي كثيراً، أبي يجيد سرد القصص، لكلّ حدث لديه حكاية يقصّها، لا يتحدث بشكل مباشر، يروي القصة، ثم تكون مسؤوليتي أن أستخلص العبرة منها،

وأن أكتشف المقصود من سردها، أو أجد في ثناياها جواباً لسؤال سألته إياه.

لم تكن قصص أبي مملة أبداً، حيرتي الوحيدة أنّ قصصه كانت عميقة لذلك لم أكن أدرك مغزاه منها منذ الوهلة الأولى، فكل جانب من جوانب القصة يجرّ معه سيلاً من الفوائد والمقاصد، وبصراحة مطلقة كنتُ أحبّ قصص والدي وأشعر أنّها معجونة بعَرق الخبرة، وممزوجة بحكمة الحياة، بنظرة والدي العميقة للأمور.

أخبرني أبي اليوم عن رجل كان يُطلق أهالي قريتنا عليه اسم «حمود الفلتة»... «حمود» قبل أن يُضاف إلى اسمه لقب «الفلتة» كان مجرد صبيّ يبلغ من العمر عشر سنــوات، راعٍ للغنم، لا يفكّ الخط، في ذلك الوقت كانت المدارس قليلة جداً، وغير بعيدة عن قريتنا التي تتشبث في جبال السلط من ناحية الغرب، كانت أم المدارس الأردنية «مدرسة السلط الثانوية» تنطلق بقوة في عامها الرّابع، لكن أنّى للصبيّ «حمود» أن ينضم إليها، فوالده كان فقيراً معدماً، «حمود» كان يرعى الغنم في يوم الإثنين، كانت أكناف الجبال كلّها مرعى له، لكنّها على اتساعها كانت فقيرة العشب، فنحن في شهر تموز، وكان يوماً شديد الحر من أيام هذا الشهر، وهرباً من حرارة تموز التي تجعل الماء يغلي في «الكوز» لجأ «حمود» عصر ذلك اليوم إلى مغارة قريبة، وما أن دقّت الساعة معلنة الثالثة عصراً، حتّى مادت الأرض بالصبي واهتزت،

وتصدّعت المغارة، وسقطت من أعلاها حجارة كبيرة أغلقت المدخل عليه.

«حمود» لم يكن يعرف أن زلزالاً ضرب نابلس ـ غير البعيدة عن السلط ـ في ذلك العام (1927م)، ولم يعرف أنّ هذا الزلزال قتل أكثر من ألف شخص على جانبي ضفة نهر الأردن، كل ما كان يعرفه «حمود» أنه أصبح رهين المحبسين، المغارة والظلام، بقي «حمود» محبوساً في المغارة ستة أشهر، وفي يوم من الأيام سمع أحد رفاق مهنة «حمود» صوتاً من الجبل، فأخبر أهل القرية، تجمع أهل القرية وحفروا بأيديهم وبالمعاول، ووجدوا «حمود» ـ الذي ظنّوه ميتاً ـ على قيد الحياة، ازداد طولاً، واختفى السّمار الذي كان يعلو وجهه.

الغريب أنّ «حمود» خرج من المغارة وهو يقرأ، ويحفظ نصوصاً من متون أمّات الكتب، ويحفظ قصائد وأشعاراً لا يحفظها خريجو مدرسة السلط الثانوية، غاب في المغارة ستة أشهر ليعود «فلتة»!

أهل قريتنا ـ كعادتهم ـ لم يتفقوا على رواية واحدة، فمنهم من قال إنّه كان «مخاوي»، وإنه تعلّم من الجنّ، ومنهم من قال إنه ساحر، ومنهم من قال إنّه كان يتعلم قبل أن يُحبس في مغارته.

لم يلتفت أحد إلى رواية «حمود»، «حمود» كان يقول لهم إنّه التقى ناسكاً متعبداً داخل الجبل، أخذ هذا الناسك على عاتقه تعليمه،

واعتنى بطعامه وشرابه، أهل قريتنا لم يصدقوا «حمود» لأنهم بحثوا لاحقاً مرات عديدة في المغارة ومتاهاتها فلم يجدوا أثراً لهذا الناسك.

ومن يومها وهم يهابون «حمود» وأطلقوا عليه لقب «الفلتة»، فعندما خرج من المغارة لم يعد لرعي الغنم، وإنّما تفرّغ للدراسة ونبغ فيها وأصبح شيخ القرية ومرجعها في الملمات، كان الجميع يستشيرونه حتى في دقائق أمورهم، والبعض من أهل القرية كان يناديه «حمود المبروك»، فقد كانت آراؤه كلّها سديدة، و تعليقاته كلها مفيدة.

انتهت قصة أبي، طوال الليل وأنا أحاول أن أستنتج المغزى الذي أراد أبي أن يوصله إليّ من هذه القصة، لم أكن أقنع بالاستنتاج السهل، كان لزاماً عليّ أن أبحث عن شيء أعمق، حتى أنني تخيلت نفسي «حمود» وقمت فزعاً من كوابيسي كلما سقطت الحجارة وغطت مدخل المغارة، وما كان يفزعني أكثر أن المغارة كانت تغلق عليّ وأجد في كلّ زاوية منها كتاباً من كتبي الجامعية! وما جعلني أصحو كل حين أن صوت ابن أخي الرضيع «أوس» ينطلق كما صافرات الإنذار، الفرق بينه وبينها أن صوته كان ينطلق في أوقات غير متوقعة، وبصوت أعلى بكثير.

**الأحد 29 آذار 2020، وقت الظهيرة**

أخي الكبير، الدكتور «معاذ» تزوج منذ سنتين، وترك بيت العائلة ليعيش مع زوجته في بيت مستقل، رزقه الله «أوس»، طفلاً لا يعرف إلا الصراخ، اليوم «أوس» وأمه أتمّا مكوثهما في بيتنا أسبوعين كاملين.

طوال هذيْن الأسبوعين، لم أر أخي، لم أره لأنه لم يحضر إلى بيتنا ولا مرة واحدة، حقدتُ على أخي «معاذ»، كيف لرجل مثله أن يتخلى عن عائلته في أحلك الظروف؟ ثمّ أليس بيت أهل زوجته أولى بها وبرضيعها الذي لا يكف عن الصراخ؟ هل عمله في مستشفى حكومي يعطيه مبرراً لذلك؟

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فمنذ أن جاءت زوجة أخي إلى بيتنا احتلت غرفة شقيقتي الصغيرة، وانتقلت «وعد» لتقتحم عليّ خصوصيتي في غرفتي الخاصة، لم أكن أتحمل شقيقتي الصغيرة «وعد» سابقاً، التي تبين لي فيما بعد أنها من الملائكة إذا ما قورنت بالرضيع «أوس».

لكنني اكتشفت فيها عيباً كبيراً فهي تحب الثرثرة بشكل كبير، أسئلتها لا تتوقف، فضولها لا يعرف حدّاً، أصبحت أكره الجلوس في غرفتي، لم تعد غرفتي للأسف، شعرت أنني أتعرض إلى غزو على المستويات كلّها.

**الإثنين 30 آذار 2020، الساعة الرابعة عصراً**

اليوم قمتُ بمغامرة، صديقي «سامر» لم أره منذ أسبوعين، وهو يسكن في الحارة التي خلف بيتي، تسللتُ رغم الحظر، قطعت المسافة بين بيتي وبيته وأنا لا أكاد أبصر موقع خطاي، هاجس أن أقع في فخ التوقيت يحبس أنفاسي، كان الأدرينالين يضخ في جسمي بقوة، وصلتُ إليه، تصافحنا، ضممته، جلستُ عنده فترة، ثم حان وقت العودة، وحان وقت الأدرينالين مرة أخرى، عندما وصلتُ بيتي شعرتُ أنني بطل، بطل خارق! خارق بمعنى أنني أمتلك قوى خارقة، وخارق للقوانين، ولخرق القانون متعة جميلة!! لذا كرّرتها أكثر من مرة.

لم أكن أعي خطورة ما أقوم به، بل بصراحة أكبر لم أكن أعي خطورة فايروس «كورونا»، كنتُ أتعامل مع الأمر وكأنّه مزحة، وكأنه مشهد من فيلم أجنبي، سرعان ما ستنتهي أحداثه، وستزول العدوى كلمح البصر هكذا وحدها، وتتبخر، وتختفي كأنّها لم تكن.

**الأربعاء 1 نيسان 2020، الساعة الثانية عشرة ظهراً**

اليوم سأكتب في يومياتي كلمات كثيرة... أكثر مما اعتدتُ عليه، فاليوم ليس كغيره من الأيام! قبل عام منذ الآن اتّصلت بي شقيقتي «وعد» لتخبرني أنّ أمي نُقلت إلى المستشفى بسبب سكتة قلبية مفاجئة، لمّا وصلت المستشفى أخذت أبحث عن غرفتها كالمجنون، ما زلت

أتذكر الرقم (401)، دخلت الغرفة من دون استئذان، ولهول المفاجأة وجدتُ امرأة غير أمي تنام على سرير الغرفة الوحيد، صُعقت، وقعتُ في مكاني، أتكون أمي ماتت وأعطوا غرفتها لامرأة أخرى؟ أخذت أجري في أروقة المستشفى كما المجنون، استدعوا لي موظفي الأمن، لمّا سمعوا قصتي أشفقوا عليّ وأخذوني إلى موظفة الاستقبال، لم أصدّق موظفة الاستقبال عندما أصرّت أنه لا توجد امرأة باسم أمي ترقد في المستشفى، جعلتها تتأكد خمس مرات من دون فائدة.

اتصلت بشقيقتي «وعد»، ربما من صدمتي أخطأتُ في سماع اسم المستشفى، من دون أن أنتظر منها ردّاً شرحت لها بسرعة كبيرة، وبعصبية أكبر ما حدث معي، طلبتُ منها أن تعطيني اسم المستشفى مرّة أخرى، سمعتُ صوتها ينفجر ضاحكاً، توقف عقلي، لم أستوعب ما يحصل، هل أختي «وعد» جُنّت؟ هل أثّرت حادثة أمي على عقلها؟ صرختُ بها طالباً اسم المستشفى، لم أتبين من ردّها المختلط بضحكاتها العالية إلا كلمتين «كذبة نيسان»، وأنّ رقم «401» هو رمز للأول من نيسان! وقعتُ في مكاني أحاول التقاط أنفاسي... على قدر كمية الحقد الذي زرعته «وعد» في داخلي بتلك اللحظة إلا أنّني كنتُ أرقصُ فرحاً وطرباً، «أمي بخير»، «أمي بخير»، ما زلت أردّد هذه الكلمات حتى انفجرتُ باكياً.

أمي كانت مَلَكاً تجسّد على هيئة بشرية، ربما عُجن طينها بماء نبع

الحنان، أمي أغلى إنسانة لدي، وإن كنت لا أبوح لها بذلك، كنت أعدّ ذلك ضعفاً... ولعل سطوة الذكورة تشعل الأنا في نفسي، وعليّ أن أبقي حبي المقدس لها من دون بوح، فأنا «رجّال» ولستُ «دلوعة الماما»! كنتُ أزعجها بكثير من تصرفاتي، لم أكن أعطي وقتاً لأمي ولا لطلباتها، كنت أتهرب من طلباتها كلّها، حتى يئستْ، وأصبحتْ لا تطلب منّي شيئاً إلا إذا أصبح الأمر ملحّاً فيكون مشفوعاً منها بالرجاء.

أرادتْ «وعد» أن تسقيني من الكأس نفسها التي كنتُ أسقي منها الجميع، في مثل هذا اليوم من كل عام، كنتُ دائماً أسعى لعمل مقالب بأصدقائي، كانت «كذبة نيسان» فرصتي لأظهر إبداعاتي، وربما لأوقظ الشرّ النائم في داخلي.

كنت في كلّ سنة أبتكر مقلباً جديداً حتى لا يكشفني أصدقائي، ودائماً ما كنتُ أنجح في بثّ الرّعب في قلوبهم، ثم أضحك من كلّ قلبي على ردّات أفعالهم، وأتندّر على تعابير وجوههم.

أمي المسكينة لم تكن تسلم من مقالبي أيضاً، وكذلك الحال لباقي أسرتي، «وعد» العام الماضي حاولت أن ترد لي الصاع صاعيْن، كنتُ متيقّناً أن أمي لا تعرف شيئاً عن مقلب «وعد»، أمي لم تكذب عليّ ولا مرّة واحدة، ولم أكن حتى في أسوأ تصوراتي أتوقع أن تقوم أمي بعمل

مقلب بي، وكما تخيّلتُ كانت الفكرة والسيناريو والتنفيذ والبطولة كلّها لـ «وعد».

اليوم صحوتُ فزعاً على صوت «وعد» أنّ أمي سقطتْ في الحمّام، تعثرتْ، وسقطتْ، وأنّها بحاجة إلى إسعاف، رغم أنني نصف نائم إلا أنني أعجبتُ بذكائي، لن تضحك عليّ «وعد» مرتين، فاليوم الأول من نيسان، يوم الكذب، وقلتُ لها: «لعبتك مكشوفة، وخطتك مفضوحة، العبي غيرها يا شاطرة».

كنتُ قد آليتُ على نفسي ألّا أقوم بعمل مقالب في هذا اليوم منذ العام الماضي، ولكن من يجعل الآخرين يكفّون عن أكاذيبهم السّخيفة في هذا اليوم، عدت للنوم، لم آبه بصراخ «وعد» المستمر، بعد فترة سمعتُ صوت سيارة الإسعاف، ذكائي قادني إلى أنّ «وعد» أخرجتْ هذا الصوت عن طريق النت، من أحد فيديوهات اليوتيوب لتُحبك قصتها وتمررها عليّ، وعدتُ مجدّداً للنوم.

رنّ هاتفي، كان على الخط الآخر أخي الدكتور «معاذ»، كان يتحدثُ غاضباً: «كيف تترك أمك وهي بأمسّ الحاجة إليك؟ أيّ ابن أنت؟ «وعد» تخرج مع سيارة الإسعاف وأنت تنام في البيت كالأطفال الصّغار، يا عديم المسؤولية»، ولم يهدأ أخي الدكتور بل تابع: «أنا من سيقوم بتربيتك منذ الآن فصاعداً»، ثم أنهى المكالمة.

أول ردّة فعل لي كانت: «أيُعقل أن «معاذ» مشارك مع وعد في تنفيذ

مقلب هذا العام؟»، ثم تساءلتُ: «وأين أبي؟»، وأدركت بذكائي أنّه مقلب وعدتُ للنوم مرة ثالثة.

في النّهاية اكتشفتُ أن ذكائي خدعني، وأنّني بدوت تافهاً أمام ما حصل مع أمي فعلاً، وأنّ شقيقتي «وعد» تصرفت بروح مسؤولة عالية، وتذكرتُ أن أبي قد حصل على تصريح أمني للخروج أوقات الحظر، لأنّه يعمل في توزيع المواد الغذائية على البقالات، وأنّه غير موجود فعلاً في البيت.

لم أكن أخشى عقاب أخي الدكتور «معاذ»، فهو لم يأتِ لتفقد عائلته منذ أسبوعيْن، فلا أظنّ أنه سيأتي لمعاقبتي، أما أبي فسيعود متأخراً، ولن يقوى على تأنيبي بسبب تعبه الشديد، وأمي سأعتذر لها بكلمتيْن ناعمتيْن وسترضى عنّي كعادتها، خاصة أن قدمها لم تُكسر «إجت سليمة»، أما «وعد» فهي أصغر من أن تحاسبني، لكنّ صوتاً يكبر في داخلي كلّ لحظة لا يهدأ ولا يجعلني أستريح.

منذ عام وأنا أكتشف كلّ يوم أنني شخص بغيض، لا ألقي بالاً لأحد، أنانيّ، منغمس في حبي لذاتي، كما زهرة النرجس لا أرى حولي أحداً، ولا أسمع إلا صوتي، أو صدى صوتي فقط، أو ما يهمني، أما ما لا يهمني لم أكن أسمعه، كنت أتحوّل لحظتها إلى جماد لا يسمع ولا يعقل! منذ عام قررتُ أن أتغيّر، لكنّني لم أجد الوقت المناسب، لم أعرف ساعة الصفر التي سيكون ما بعدها مختلفاً عمّا قبلها، كنتُ

كعادتي ـ وربما كعادة أقراني ـ أسوّف كثيراً.

أشعر بأنّني يجب أن أتغيّر، لكننّي للأسف لا أرغب بالتغيّر، إمّا لأنّني اعتدتُ على شخصيّتي اللامبالية، ووجدتُ فيها المربع الذي أستقرّ فيه بارتياح، وإما لأنّ التغيير يحتاج «إرادة» و«إدارة» وشيئاً ثالثاً أهم، يحتاج وقتاً، كنتُ أملك الوقت بمجمله، لكنّني أضيّعه بأشياء غير ذات أهمية أكثر وأكثر، لذا كنت تحت انطباع أنني لا أملك وقتاً الآن، ربما بعد أن أتخرج من جامعتي أجد وقتاً.

الأدهى أنّني وجدت عذراً آخر، الآن أسمّيه عذراً أقبح من ذنب، نعم هو أقبح ليس من ذنب واحد، بل من الذنوب التي اقترفتها كلها! كنت أقول لنفسي: «من حولي هم من يتحملون مسؤولية عدم تغيّري، فهم لا يبالون بتغييري، لقد قبلوني على علّاتي، فلماذا أتغيّر؟»، ركنتُ إلى هذا التفسير كثيراً، لكنّي اليوم... اليوم تحديداً... ومع وجود جائحة «كورونا» أجد أنّ الفرصة سانحة للتغيير، وأنّني أملك من الوقت الشيء الكثير، بل أملك فائضاً منه، اليوم قررتُ أن الوقت حان للتغيير، وأن هذه اللحظة هي تذكرتي لمستقبل أفضل.

ضحكة شريرة انطلقت داخلي، لم أسمح لها أن تكبر، سمعت صوتاً يقول لي: «أنت تعرف ما هو اليوم، وأنا أعرف لماذا اخترت هذا اليوم للتغيير» فأردّ عليه ببلاهة: «لماذا؟» فيقول ضاحكاً، ساخراً، هازئاً، ويكرر على مسمعي: «اليوم كذبة نيسان يا شاطر».

**السبت 4 نيسان 2020، الساعة السادسة مساء**

مع انطلاقة صافرات الإنذار معلنة بدء وقت الحظر خرجتُ من غرفتي للمرّة الأولى منذ ثلاثة أيام، خرجتُ لأعلن عن بدء وقت تغيّري، خرجتُ من غرفتي شخصاً آخر، طوال الفترة السابقة حبستُ نفسي في غرفتي، في شرنقتي، كنتُ دودة قميئة، شكلها مقزز، نسجتُ حولي خيوطاً، أخفيتُ نفسي عن الأنظار، ثم انطلقتُ من شرنقتي فراشة باهرة الجمال، نعم تغيّرت، وسيرى الجميع أنني تغيّرتُ بمجرد النّظر إليّ، فالفراشة قد لا ترى جمال جناحيها، لكن من يراها يتعبّد في محراب جناحيها متذوقاً لهذا الجمال.

لن أزحف مرّة أخرى بعد هذا اليوم، فلم أعد دودة، بل سأحلّق بأجنحتي نحو الآفاق، سأترفّع عن تراب الأرض، لا تكبّراً ولكن بحثاً عن الأفضل، وستتعلّق هِمّتي بالسماء ونجومها لن أرضى أقلّ منها، الدودة تبحث عن الفضلات، والفراشة تبحث عن النّور، وأنا سأفرد جناحيّ باتجاه النّور، باتجاه الضوء الموجود في آخر هذا النفق، نفق «كورونا»، ونفق شخصيتي الذي تسلل إليه النور فلم يعدْ يرضى بغيره بديلاً.

**الثلاثاء 7 نيسان 2020، الساعة الرابعة عصراً**

الجميع لاحظ التغيير الإيجابي الذي بدا على تصرفاتي، الجميع انتبه إلى أنني لم أعد «أحمد» القديم، أصبحت «أحمد» آخر، رحبوا بهذا «الأحمد الجديد» بحذر شديد، اليوم «وعد» لم تحر جواباً على احتجاجي على تنمّر النّاس على أحد المصابين بـ «كورونا»، وكيف أنّه التحق بعمله وهو يعلم أنّه مصاب، كانتْ تتساءل «وعد» متى أصبحتُ حَملاً وديعا؟ فقبل أسبوع كنتُ من المتنمرين، لم أكن متنمّراً عادياً، كنتُ متنمّراً مع مخالب حادة، وأنياب مفترسة تطحن كل ما يقع تحتها، أبسط صفحتي على «الفيس بوك» لأستعرض عضلاتي، وأعيد إرسال كل ما يصلني على «الواتس آب» من دون تدقيق أو تمحيص، بل أضيف إليها من تعليقاتي التي عرفتُ لاحقاً أنّ أقل ما توصف به هذه التعليقات بأنّها جارحة.

«وعد» لم تصدّق عندما وجدتني منكباً على جهاز الحاسوب الخاص بي لأمسح وألغي كل التعليقات أو «البوستات» التي كانت تتنمر على الآخرين أو تنتقص من أهل منطقة ما أو من أيّ فئة تعمل في مجال معين.

كل حساباتي على صفحات التواصل الاجتماعي صفّيت حساباتي معها! فعادت صفحاتي بيضاء، تخلو من «تنمراتي» كيوم أنشأتُها!

**الثلاثاء 7 نيسان 2020، الساعة الثانية ظهراً**

اليوم ذهبتُ مع أمي لمراجعتها الدورية لطبيب العظام، إصابة والدتي كانتْ «شعرا» في عظم القدم اليسرى، لكن الطبيب آثر أن يضعها في الجبس زيادة في الأمان، ولأن أمي كبيرة في السن، وتحتاج وقتاً أطول للشفاء، بعد تصويرها طمأننا على سرعة شفائها وأنّه ربما يزيل الجبس بعد ثلاثة أيام.

فجأة ظهر أخي الدكتور «معاذ» ليطمئن على أمي، استغربتُ لأنه يعمل في مستشفى آخر، الحديث الجانبي بينه وبين الطبيب أضاف على قسمات أخي راحة هائلة، طلب مني أخي «معاذ» أن يتحدّث معي على انفراد، بصراحة خفتُ قليلاً، أخي «معاذ» يكبرني بعشر سنوات، وكانتْ علاقتي به علاقة الأخ الصغير مع أخيه الأكبر.

لم أجد بُدّاً من الذهاب معه، هذه المرّة كانت مختلفة لأكثر من سبب، تحدّث معي رجلاً لرجل، لم أشعر أنّه يكلمني كأخيه الصغير، ومدح تصرفاتي الجديدة، على ما يبدو أنّه كان على اطّلاع بما يدور في البيت عندنا بتفاصيله كافة. في نهاية حديثه الإيجابي والمشجّع أخبرني أنّه على تواصل مع والديّ يومياً عبر الهاتف، وأنه عزل زوجته وابنه خوفاً عليهما من انتقال وباء «كورونا» لهما، فهو يكافح المرض على خط التماس الأول معه، واحتمالية إصابته عالية جداً لمخالطته المرضى بهذا الوباء، وأنّه لا يزور والديّ لأن مضاعفات «كورونا» وتأثيراتها تظهر

على كبار السّن أكبر من الصغار، وأنّه لا يرغب بأن يكون هو سبب معاناة والديّ.

عيناه كانتا تفضحانه، أخي الذي لا أذكره إلا عصبيّاً، قاسي القلب، اكتشفتُ اليوم أنّه رقيق، إنسان بمعنى الكلمة، دققتُ النّظر في وجهه اكتشفتُ فيه خطوطاً جديدة، من الواضح أنّ ما صنع هذه الخطوط و«الحزوز» لبسه الكمامة طوال الوقت في عمله.

نظرتُ مليّاً إلى خد أخي الشاب، دققتُ في جلده المُتغضن، لا أعرف لماذا تذكرت «الثلوم» في أرضنا المحروثة، هذه «الثلوم» التي ستمتلئ بالحبوب، وستُزهر، وستنمو في هذه الشقوق سنابل القمح والبقوليات التي ستتحول إلى أطايب الطعام، وكأنني أقول لأخي «صبراً آل معاذ، سُتزهر هذه «الحزوز» في خدّك قريباً».

شعرتُ برغبة عارمة لألقي نفسي بحضنه، أحسّ بما يدور في خلدي، لكنه منعني بإشارة من يده، قال بكل فخر، بكل ثقة: «كلّ مر سيمُر» ثمّ أردف: «وسنعود إلى ما كنّا عليه، وسأضمك أنت وأوس».

بعد هذه الكلمة شعرتُ أن أخي «معاذ» يعاملني وكأنني ابنه لا أخوه، ما عزز هذا الإحساس أن أخي «معاذ» مدّ يده إلى جيبه وأخرج خمسين ديناراً ونقدني إياها، وقال: «ما زلتَ طالباً جامعياً وتحتاج إلى بعض الأشياء».

في طريق عودتي كنتُ أنظر بانبهار إلى كل طبيب أو طبيبة، ممرض

أو ممرضة، وبافتخار إلى كل رجل أمن أو جندي في الجيش، وأنا أعلم أنهم رغم جائحة «كورونا» إلا أنهم الدرع الواقي لنا، يُضحّون بأنفسهم لأجل البلد، أخي «معاذ» كان من هؤلاء الأبطال الذين وضعوا مصلحة الوطن قبل مصلحتهم الشخصية، وغلّبوا عاطفة حب الوطن على حب ذواتهم وأهلهم.

هم كانوا أبطالاً لا ينتظرون تكريماً، وأنا كنت بطلاً من نوع آخر، لم تعد بطولتي في خرق الحظر، ولم تعد متعتي في خرق القانون، بل أصبحتُ بطلاً بجلوسي في بيتي، بالتزامي بالقرارات التي جاءت لمصلحتنا، وكأنني في مدرسة «كورونا» المستحدثة، لا بل هي مدرسة «الأردن» و «النشامى»، أتعلّم فيها أبجديات جديدة وسلوكيات مختلفة عمّا كنتُ عليه، ولم يعد الأبطال سطوراً في كتاب التاريخ، بل أصبحوا حولي يسيرون على الأرض ويعيشون بيننا في كلّ حارة وقرية ومخيم، ولم تعد البطولة مقصورة على الشخصيات التاريخية بل أصبحت البطولات واقعاً معاشاً ملموساً، ليست البطولة في إيجاد طرق لكسر الحظر أو الهروب من الحجر، بل البطولة أن تمنع نفسك ممّا تحبّ لأجل من تحب!

مررتُ على دكانة الحي، واشتريتُ من المبلغ الذي أعطانيه «معاذ» لعبة لـ «أوس»، لم يعد صوت «أوس» يزعجني، لم أعد أتصرف معه على أنه «صراخ»، طبعاً لم يصل أن يكون صوته موسيقى، لكن على

الأقل لم يعد يزعجني، أو لأكون صادقاً لم يعد يزعجني كثيراً، اللعبة ستصنع فارقاً، «أوس» الصغير سيحبّ عمه من هذه اللحظة وإلى الأبد!

**الأحد 19 نيسان 2020، الساعة الخامسة مساء**

الأيام تمر متتابعة، متشابهة، لا تغيير يُذكر، لكن لمن يعلم بواطن الأمور، لمن يتأمل في وراء ما يحدث سيتيقن أنّ تغييراً ما يحصل للجميع، قد يكون باتجاه جيّد، وقد يكون باتجاه آخر!

دقّت ساعة الحائط معلنة الخامسة مساء، جاء الموعد المنتظر، ليس موعد الشاي الإنجليزي، وإنما موعد «الإيجاز الحكومي»، بصراحة أنا كشاب لا أتابع التلفاز أصلاً، لكن «كورونا» غيّرت فينا الكثير، شئتُ أم أبيتُ، بشكل مفاجئ أم بالتدريج التغيير حصل، أعدتُ ترتيب الكثير من أولوياتي، لم يعد «تفويتي» لمباراة «الكلاسيكو» بين فريقي برشلونة ومدريد نهاية العالم، لم تعد هناك مباريات أصلاً، «كورونا» أوقفتها في أنحاء العالم كله تقريباً، وقس على هذه الأولوية التي كانت تعتلي رأس هرم أولوياتي باقي الأولويات.

كثيرة هي الأشياء التي تعلمتها، ربما أصبحتُ أحب العزلة والتأمل كثيراً، ومن يعرفني قبل «كورونا» لن يصدّق أنّ الشاب الاجتماعي الذي يكره أن يجلس وحيداً أصبح يميل إلى العزلة، يميل إلى تحليل

الأمور، والنظر إليها بشيء من الفلسفة، وكأنّه يستنطق الأشياء التي أمامه ليعرف خباياها.

أغرب ما مرّ بخاطري أنني أفتقد الروتين «الممل» للحياة، أصبح الروتين مطلباً، صرت أتمنى أن يعود الوضع كما كان «مملاً»! حياتنا المملة الروتينية كانت نعمة لم نشعر بها إلا عندما فقدناها وافتقدناها، وكم من نعمة لا نلقي لها بالاً، هي ما يُعطي النكهة لحياتنا، نعم نحن على قيد الحياة، لكنّها حياة تفتقد النكهات، خالية من البهارات، خاوية من أي محسّنات.

**الخميس 23 نيسان 2020، الساعة الثامنة مساء**

الكل ينتظر موعد إعلان شهر رمضان، رمضان هذا العام سيكون مختلفاً، لا صلاة تراويح، لا عزائم، لا تجمّعات عائلية، لا مقاهيَ، لا أصدقاء، لا أعرف كيف سيمر عليّ شهر رمضان، لكنني متيقن أنّه سيمر وإنْ كان بشكل مختلف.

سأحاول أن أتأقلم معه، وسأنجح في ذلك يقيناً، يوم الجمعة مثلاً، وقت صلاة الجمعة أحرص على أن أقوم من نومي، أغتسل، ألبس لباساً جديداً، آخذ سجادة الصّلاة معي، أصل إلى باب بيتنا، الحظر ما زال موجوداً، وكأنني أتفاجأ به! أعود أدراجي إلى البيت، أعتلي سطح البيت، أصلي الظهر منفرداً، وكلّ جمعة أقوم بمثل هذا العمل،

«كورونا» تفرض علينا تغييرات قد لا تناسبنا، وأنا أتعامل مع فروض «كورونا» بطريقتي الخاصة، لن تسلبني ما أحب وما أريد وما أستمتع به.

عمّت الفرحة بيتنا، وانطلقت أصوات الفرح من بيوت جيراننا، كيف لا، وغداً الجمعة أول أيام شهر رمضان الفضيل.

**الثلاثاء 19 أيار 2020، الساعة التاسعة مساء، بعد الإفطار**

كاد شهر رمضان ينقضي، وكاد فصلي الجامعي ينتهي، أنا في مرحلة الامتحانات النهائية، أخذتُ مواد دراستي على محمل الجد، تابعت التعليم عن بُعد، بل كنتُ أشاهد كثيراً من الفيديوهات على «اليوتيوب» لمحاضرين من خارج جامعتي بل من خارج الأردن أيضاً وبالعربية والإنجليزية، أحسستُ أنني لا أتعلم فقط، بل أصل إلى مرحلة المعرفة، وهي مرحلة لم أصل إليها سابقاً، وسأبحث عنها لاحقاً، لم يتبق لي أو لشقيقتي «وعد» إلا امتحان واحد أو اثنان.

«وعد» خلال الفترة السابقة اعتمدت عليّ كثيراً في تدريسها ومتابعة تحصيلها العلمي، وفرّغتُ لها من وقتي ساعات كثيرة، أراجع لها محفوظاتها، أختبرها في معلوماتها، وهي كانت تعتني بي، تجهّز لي القهوة التي أعشقها وبالطريقة التي أشربها تماماً، كانت متفوقة في الدّراسة ومتفوقة في صنع القهوة أيضاً.

أمس أثناء تدريسي لها أخذنا استراحة قصيرة، قامتْ كعادتها لتجهّز لي فنجاناً من القهوة، وأخذت أتسلى في منظر الكتب الملقاة على الطاولة أمامي بلا ترتيب معين، تناولتُ أحد الدفاتر، فتحته، لم أكن أعلم أنّ «وعد» تكتب مسودات ليومياتها، لمحتُ اسمي مكتوباً، لم أقاوم فضولي، سأقرأ ما كتبت قبل أن تعود، كلماتها على بساطتها كانت مؤثرة، عدّت اليوم الذي انتقلتْ فيه إلى غرفتي أفضل أيام حياتها، فهي ستنتقل إلى غرفة أخيها الذي تراه قدوة لها! بصراحة تفاجأتُ كثيراً، كتبتْ بخطها المائل قليلاً، لكن بحروف واضحة مقروءة: «قد تختلف شخصيتي عنه في بعض الأمور، لكنني أرى ما في داخله، هو ليس قاسياً بطبعه، أعرف أن تحت القناع الذي يرتديه الأخ الذي أحب وأريد أن أكون مثله».

أخفيتُ الدّفتر بين الكتب التي أمامي، وأخفيتُ بدايات دموع تسللتْ إلى مقلتي، وأخفيتُ في نفسي إصراراً على المحافظة على «أحمد الجديد»، وأن أكون القدوة الحسنة لها.

أعرف أنني ـ مع التغيير ـ لست إنساناً مثالياً وأنّ أمامي الكثير، لكن ما يجعلني سعيداً أنّني وضعتُ قدمي على الدرب الطويل للسير إلى الأحسن، وسأصل هناك ولو أمضيتُ حقباً، حتى لو لم أصل فسأنال شرف المحاولة، سأمتحن إرادتي وإدارتي ضمن الوقت المتاح لي، وعند الامتحان... يُكرم المرء فقط... لأنّني لم أضع في حسباني الخسارة!

**السّبت 6 حزيران 2020، الساعة الخامسة مساء**

اليوم ـ ولله الحمد ـ أول أيام رفع الحظر الشامل ـ لا أعاده الله ـ، اليوم لا فردي ولا زوجي، اليوم لا صفارات إنذار، لا إغلاقات، المحافظات مفتوحة على بعضها بعضاً، لا عودة إلى البيت قبل منتصف الليل، فكّرت كثيراً في أول شيء يمكن أن أعمله بعد فك الحظر.

الغريب أنني وجدتُ نفسي منساقاً إلى السلط، كنتُ أبحث لا إرادياً عن مغارة أو نقب في الجبل يمكن أن يكون المكان الذي اختفى فيه «حمود» ستة أشهر، ليولد بعدها من جديد مع اسم جديد: «حمود الفلتة» أو «حمود المبروك»، أما أنا فقد لبثتُ في غرفتي ثلاثة أشهر تنقص عشراً، لكنّني الآن وحيد، معتزل الناس كالنّاسك في معبده، أنتظر ساعات طويلة لأشاهد غروب الشمس الجميل من جبال السّلط، الغروب الذي ستعقبه ولادة فجر جديد، لم أكن أعرف أنني أحملُ في نفسي شخصاً رومانسياً، لكنني كنتُ متأكداً أنني أحمل في يدي رغيفاً من «الشاورما» التي أتناولها للمرة الأولى منذ ثلاثة أشهر!

# يوميات زمن الكورونا

إبراهيم السواعير

## 1

## لحظات جميلة!..

..وفيما الحصارُ يلقي بظلاله على الجيوب، جرّاء عامٍ فيه يغاث الناس، يبذلُ الشّاعر لأقرب صيدليّةٍ مبلغاً سخيّاً، غيرَ ملتفتٍ إلى نصائح «القرش الأبيض لليوم الأسود»؛ فلا يعنيه غير أن يستقبل رماحها الذبّاحةَ في «المول»، بـ«الكمّامة» ذاتها، التي ينتخبها اليوم سوداء فاحمةً تسرّ الناظرين، ليردّ منها على الرماح برماحٍ في معركةٍ عذبةٍ ومُباحةٍ بين «البسطات»التي اعتادت أن تتنقّل بينها كالغزال الشارد، بين جموعٍ ما تزال تنشغل بطباعة البصمة على البصمة في رحلة تحسس كلّ المعروض، واستصلاح ما يتقلّب بين أيديهم من البندورة والبطاطا والتمور.

يمضي الشاعرُ، وقد أَلِفتْ رجلاه الدّربَ إلى حيث العيونُ بطلة النصّ الذي يشرف عليه الحظر الجميل، هي تشتمل عيناها على كلّ

الفضاء بينهما كماسحٍ ضوئي، وهو لا يبرح مكانه متحججاً بكيسٍ لا يستجيب!

هي تطيل التأمّل بحبّةٍ من خضار تضعها ثم تعيدها ثمّ تتأمّلها، ثم ترميه صريعاً بأهدابها، وهو يكاد يحفظ تفاصيل كلّ ما أمامه مسترقاً النظر؛ ففي الكمامة تتسع الحدقتان وتطول الرموش وتتضاءل المعالم الماكرة في الوجه، فلا يخشى أيٌّ منهما من امتحان الآخر لابتسامةٍ لا تعبر عن حقيقة صاحبها... الشاعر الذي ضاق بتشابه الصّور، واستنساخ الملامح، ومحفوظ المجاملات، يجد رومانسيّته اليوم على خطواتٍ منه، حتى كأنَّ الرفوف المكدّسة تنتظم فيها دواوينه في حفلة توقيع، بل إنّ روّاد المول هم روّاد مكتبة جاءوا يستعيرون ديوانه الذي وجد صيغته بعد قريحة... أكوامُ البصل غدت أضاميم ورد، وقطوفُ الموز المعلّقة هي قناديل الاحتفال في ليلةٍ مقمرة، والأيدي التي تنهب الرفوف إنّما هي تتنافس لتظفر بنسخةٍ من إبداع، فيما العروس الموشّاة تبسم عن إغماضة عينٍ ريثما ينتهي حبيبها من إهداء قلبه للجمهور.

لم يفق من شروده إلا على أحدهم وقد قطع بصوته الضخم كلّ فرصةٍ للشرود، بينما هي اكتفت بأن قادت العربة إلى بسطةٍ قريبة... لولا هذا الفجّ الغليظ لتوسّع الحُلُم ونَفِدت النُّسخ وغادر معها الحفل إلى أكثر من فضاء!

وما بين شرودٍ وشرود، كان الصوت الذي ظلّ يتضخّم كعدوٍّ

موجّه للنيل منه كفيلاً بأن يغيّر من مواطئ الأقدام تماماً كما يغيّر اللاعب من مواقع أحجار الشطرنج!.. لكنّه لاعبٌ ثقيل الظلّ ولا تحتاجه هذه الفسحة من ارتعاش، ليُقلق الغفوة ويقطع الإيماءة وتتكسّر على صخرته الصلدة كلّ سهام الحب!

كانا، وهما يتبادلان المواقع، أشبه بمُتسولينِ أقصى مناهما ألا يُشوّش على مجالهما الجويّ أحد، أو يعترض الرسائل الذاهبة والآيبة باتجاه الكمامتين. وكلّما آنَ للشاعر أن يقترب كان «التباعد»مفروضاً عليه من حناجر ناشزة عن سياقهما الرومانسيّ، حتى!... حتى كان الصوت الأعظم الذي لا مجال معه للتحايل أو المناورة أو الدوران حول البسطات!.. لقد كانت مكبّرات الصوت في مساحة المول هذه المرّة أشدّ من وقع قذائف الهاون على قلــوب رقيقة، بل لقد كانت تلحّ على الشاعر ومجاوريه أن يأخذوا معهم كلَّ ما يمكن أن يأخذوه، قبل أن تدقّ الساعة الخامسة والنصف، موعد إغلاق «الكاشير»، تمهيداً للحظر الشامل في الشوارع والساحات وأجواء الشاعر أيضاً التي لن يكون بإمكانها أن تحمل مزيداً من الرسائل بعد هذا الوقت.

ومثلما تخرج هي بكيسٍ من البطاطا وقليلٍ من تمر، يخرج الشاعر بلا شيء، وفي حين عبّأ الناسُ في العربات كلَّ شيءٍ، كان يكتفي بما عبّأه في قلبه من مشاعر، وهو يلحق بها قبل أن تضيع بين نساء كثيراتٍ تشابهن في هذا اللون الجميل من الكمّامات....

كان يمكنه أن يقترب منها كثيراً جداً هذه المرّة، لقد وجد العذر

والحُجّة لأن يتبادل معها أطراف الإعجاب وتأكيد الاستلطاف، وربّما الترتيب للقاء!... لقد وجد المفتاح!.. كيس البطاطا الذي يبدو أنّها نسيته وهي تدفع خطواتها مسرعةً بعد أن دقّت ساعة الفراق!

يا!.. يا «سندريلا»!.. لقد كانت أجمل حفلةٍ على الأطلاق، صحيحٌ أنّها كانت بلا رقص، وصحيحٌ أنّه ما من حاشية تحتفل برقصة الأمير الباحث عن عروس، غير أنّ كلّ حواسّه كانت تشاركه هذا الاحتفال... يا «سندريلا»!..يا!....

هل عليّ أن أمرّ بكيس البطاطا هذا على كلّ النساء لأستدلّ عليكِ؟!.. هل يمكنني أن أحصر بصمات كلّ النساء على الكيس، بل على الحبّاتِ، لأجدكِ؟!.. يا «سندريلا»!.. لم تدقّ الساعة الثانية عشرة بعد لتهرولي تاركةً الحفل بكلّ هذا الخوف؟!...يا..!

وإذ يعود الشاعر يائس الخطى شارد الآمال ما بين خيبةٍ ورجاء، تستقبله زوجته وعياله بـ«الهايجين» الذي يمحو كلّ أملٍ بمطابقة البصمة بعد أن خضع لوجبة رش، فيما النّار تنتظر الحبّات التي يبدو أنّهنَّ سيصبحن أثراً بعد عين، في رحلة غيابٍ بين أفواه وبلاعيم عميقة ما تزال تنتظر العشاء!

في اليوم التالي، قال أبناء الشاعر إنّهم شاهدوه مُصافحاً المرآة يتأنّق، وهو يفاضل بين عدة ألوان من الكمّامات المعطّرة، قبل أن يذهب مبتهجاً باتجاه المول.

## 2

## قبور سريعة

لا شيء يستحق أن تكتب اسمك عليه مثل شاهد قبر!

في الثمانينات، كان للجنائز رهبة «عبدالباسط» وهو يجرح بقصار السور جدران القلوب، حين تسير القرية كلّها تشيّع ميّتاً وتقتفي أثره، فيما المقبرة تنتظر جنباتها المزيد من الجموع في حفلٍ يتوّجونها فيه مَحَجّاً للمعتبرين والمتفاجئين والمودّعين وطالبي الأجر. كانت «وإذا الموؤدة سُئلت» في الطليعة من هذه السّور؛ تدفع الناس دفعاً إلى الجنازة التي يبدو أنّها قطعت مسافةً من نزول «المدينة الطبيّة» أو طلوع مستشفى البشير، حتى إذا ارتاحت أنفاسها قليلاً عند مدخل القرية وقد تهيّأت لقصّ شريط الاعتبار، انضمّ إليها خلقٌ كثير.

لم أدرِ، والموتُ يصبحُ هذه الأيّام أمراً أقلَّ من العاديِّ، كيف للناس أن تحفظ مئات الموتى، بمجرّد أن تتنقّل أعينها بين محّطةٍ إلى أخرى؟!.. كيف لهذا «الضئيل» أن يجعل من محطّات التلفزيون والإذاعات والمستشفيات وقلوب البشر قبوراً للذاهبين من غير جنازةٍ أو وداع؟!

أجول بعيني المشهد: في «كورونا» الجنازات أصبحت سطوراً مُكمّمةً على التعزيات الإلكترونية، والقبلات الحارّة باتت تُطبع خائرة القوى على وجنات الفيس بوك، ومن كانت منيّته في هذا الظرف، فسيرافقه أهله الخُلّص متحوّطين إلى مثواه، ثم يعودون يحملون مرارة الذكرى بصمت...

يجلس الأديب بين عياله المغرمين بصراخات «التوكتوك» الماحقة تغني للكورونا وتستعير كورونا وتمثّل على جسد كورونا وتملأ الحيّز الضيّق صراخاً وضحكاً.. حتى على الهواء، فيما زوجته المغرمة بصرف آخر دينارٍ في ذمّته تأكله بابتساماتٍ صفراء مريبة ذكّرته بنظرات صاحب البيت التي تركها تتوعّده على الدَّرج مثل عناكب مؤذية تعضّ ما بقي له من جيب.

الطريق من العتبة إلى «الحاوية» ممسوحةٌ بالرذاذ، المقابض مثل غراء لا تنفكّ عنه الأيدي، فيما الأنفاس تعود إلى صدره كارهةً مجبرة وهو يستعيد المشهد الذي اعتاده كلّ يوم، وأمام الابتسامات المريبة التي دأبت أن تحاصره به الزوجة قليلة التدبير، يهرب الأديب المغلوب تسابقه أحزانه إلى ملاذهِ «المول»، الذي يبدو مثل ساحةٍ ضيّقة لمساجين سُمح لهم بالفضاء.

كانت «الكمّامة» التي نسيها تحت إلحاح الأساسيات و«الكماليات» لزوجة مبذّرة، أكثر ما تأسَّف عليه؛ لا لتحمي نفسه من قبرٍ يُحفر له ولكثيرين مثله في كلّ دخلة «مولٍ» أو «طلعةٍ» منه...بل لأنّها الوسيلة الوحيدة التي يمكنها أن تتعرف بها عليه، في ظلّ تساوي الناس في تفاصيلهم دون عيون؛ فالعيون تغور كثيراً حين يقاسمها الوجهُ النظر بكلّ عيوبه وشراهته التي لا تنتبه كثيراً للجمال.

ربما لا يحتاج كثيرٌ من المتعطلين كلماتٍ، حتى وهم في خضمّ الناس

والفيروس بين أرجلهم وخلفهم وفوقهم ومن تحتهم... فهؤلاء قد تكمموا من زمن، كممتهم الحاجة والعوز!.. قال ذلك، وهو يعود بالكمامة، والطريق لا تخلو من ضيوف الأرصفة وهم يمارسون طقوسهم في معانقتها والسلام عليها، وما كانوا ليفارقوها إلا ليعودوا إليها من ورشة قريبة أو من قوت يومٍ بعثته سماء ذلك النهار السعيد على كثرة ما في الحياة من بؤس.

لمثلكِ تُرفع القبعات، أقصد الكماماتُ، يا سيدتي!..تصوّر نفسه بين يديها وهو ينحني في المول بين البسطات... تمهيداً لقصيدةٍ يتفوّق بها على «قل للمليحة في الخمار الأسودِ»؛ هل يقول في «الكِمامِ الأسودِ»؟!.. سيبحث عند العم «قوقل» عن «الكِمام»، أو «الكمّام»، فلديه كلّ ما تطلبه النفس في خزائن إلكترونيّة تنضّدت بها المدوّنات، في حين تظلّ الكتب على غبارها «مقبورةً» في خزائنها اليوم وغداً وقبل كورونا بزمن!

دخل المول واثقاً يضحك من موظّفٍ جلس يرشد الناس إلى ارتداء كمّاماتٍ رخيصة جداً، وكفوف مجانيّة، فيما هو تسبقه كمّامته السوداء إلى عيون الناس، بل إلى قلوبهم... أحسّ أنّ الأبواب تنفتح له وأنّ خلفها حُجّاباً لا يثقون بكلّ الزوّار، وأنّ الناس والموظفين يتباعدون عنه هيبةً واحتراماً، وأنّ مشترياته ستسبقه إلى بيته!..وأنّ ساعةً تتحدد للمعجبين يعيدون فيها إنتاج أنفسهم بجانبه، فتتزيّن صفحاتهم

وتتوافد عليهم «اللايكات» التي تغبطهم، أو تحسدهم، على ذكرى العمر مع صاحب الكمّامة!

وفي حين ارتدى المولُ كلّهُ وجه مستشفى، ظلّ هو يبحث عمّن تشاطره رقصة العيون بالكمّامة السوداء التي باتت تباع في زوايا ضيّقة وبالمزاد تحت شرط رقصة الموت الجميل...حتى كان النزال الذي تساقطت فيه الكمّامة تلو الأخرى بعد أن نَفدِت السهام كلّها ولم تنفذ إلى قلبه بعد.

كان لا بدّ من ساحرةٍ تحيل سلّة حديدٍ إلى فرسٍ مطهّمة، وكان لا بدّ من حبّة قرع كبيرة منزوية في بسطات الخضار أن تتحول إلى عربةٍ فاخرة تحملها إليه!

أعلم أنّ قبري في كمّامة!.. شهق عالياً، وهي تنازله نزال الموت من عينٍ سديدة اعتادت أن تَذبح سريعاً دون رأفة....كان مستمتعاً نشوان وهو يجهّز لطقوس دفنه، غير أنّه الوقت الذي بعده يبطل كلّ سحر... لقد دقّت الساعة معلنةً «الحظر» على الرقصات أن تستمرّ!

يركض وراءها تسبقه أشلاؤه وقلبه الذي نخّلته السّهام... فلم يصادف غير سلّة حديدٍ وحبّة قرعٍ كبيرة... لقد بطل السحر، غير أنّها ما تزال أمامه...لن يتركها هذه المرّة تذهب سريعاً، ليعرض أثرها على بنات جنسها فيستدل عليها في رحلةٍ شاقةٍ من التفتيش...لقد أمسك يدها، واقترب كثيراً، رغم تحذيرات التباعد: لمثلك تُرفع الكمّامات يا....!

ـ يا أخ!...يا أخ!.. لو سمحت، قليلاً عن «الكاشير»؛ لقد تجاوزت مسافة التباعد... أرجوك!

ـ ماذا!..آه!..نعم!.. سـ....سأفعل!

مدّ يده إلى جيبه وهو يحاسب على حبّة القرع الكبيرة، ويعيد ارتداء الكمّامة، فيما اليد الأخرى كانت مشغولةً بإعادة السلّة الحديدية إلى خطّ الأمان....

لكنّها، حتى وهو يصحو من الحلم، ما تزال قريبةً جداً.... لقد تبعها إلى مدخل المول، وحين حاول أن يسألها كانت قد خلعت الكمّامة، فلم يعد يعرفها....بل إنّه، وحين خلع عنه هو الآخر كمامته ـ ضيّع عليها الفرصة الأخيرة في أن تتعرف هي عليه!

## 3

## تفاصيل

ما يزال يبحث عن فكرةٍ تغريه للكتابة، جذوةٍ تُشعلهُ وتشغلهُ عن ذبابٍ يتطاير في فضاءٍ مسموم... ساعات ثقيلة مثل الصّخرة يتلقاها بين أربعة جدران، تماماً مثل حصانٍ أصيل، ما إن يصهل حتى يرتطم بالزوجة البليدة المغرمة بالمزيد من الطلبات!

يبحث الأديب المغلوب على أمره عن طقوس للكتابة؛ لماذا تعانده الفكرة وتتباعد عنه الثّيم تباعُدَ المرعوبين من «الفايروس»؟!..لماذا

تضيق عليه الآفاق ولا تتجلّى له فكرة أو تتبرّج له ثيمة؟!.. مع أنّ كلّ ما يحيط به يبدو شهيّاً على الشكوى.

ربّما يغيّر المكتب عن موضعه أو ربما تكون التسالي رديئة الذوق... أو يكون الضوء غير كافٍ، أو النوافذ لا تطلّ منها شمسٌ كافية!.. لا بأس من ترتيب محفزات الكتابة والتجليات!.. تذكّر زوجينِ لا قلب بينهما يتذرعان بإصلاح الأضوية وتلميع الأثاث ويظلان يؤجلان اللقاء المفترض أن يكون حميماً... لا بأس سيذهب إلى المول لشراء «لمبة» جديدة لا تقتصد في الضوء!.. الكهرباء!... الفاتورة المؤجّلة الدفع سيدفعها للجابي وسيدفع معها أيضاً فاتورةً مؤجّلةً في بيته الذي بات خليّةً تشكو غياب النحل!.. الكهرباء التي لم تسرِ في جسده البارد منذ زمنٍ بعيد!.. تذكّر أنّ كلّ «الكهربجية» باتوا يعرفون العدّاد بعد كلّ جولةٍ ماحقة من المفاوضات!

انتهت أفكار الكاتب.. مات النّص..مات الكاتب.. القلم يئس من التجريب، والسطور اهترأت من كثرة المحو فيما الورق انتهت قيمته الدفترية، أمّا الأفكار فقد ملّت الإعادة!..

ربّما يكون العيب في «الشاشة»!..سيغير ضبط الخطوط الجافة أو التقليدية التي لا تشي بالسحر أو تبعث على المزاج!.. وفي الحقيقة لقد ملّ «كلُّ» شيء من كثرة التنقّل والتبديل... الحاسوب ضجّ من كثرة الشّحن.. المكتب تكسّرت أوصاله من جيئته وذهابه.. «اللمبات»

أصابها مسٌّ لرعشات الكهرباء التي تتلوها عتمة مفاجئة مثل تعذيب قاس في سجن عتيد!..

إنّه الباب!..لا بُدَّ أن يكون الباب بزعيقه المستفزّ كلّما اقتحمت على خلوته المرأة البليدة إيّاها، هو السبب في فراغ الفكرة من دماء التعبير..

لكنْ، حتى مع الجنون الذي أصاب الباب بعد أن أصابه مسٌّ بسبب الزيت البارد الذي رُشّ به في ليلة مظلمة... لم تعد الأفكار بَعْدُ للكاتب!...كيف؟!

ضجّت الزوجة من هذه «الفكرة» التي باتت ضرّتَها والزوج دائم البحث عن هذه«العروس» التي جعلته لا يفطن لوجودها أو يختلي بها حتى في حديثٍ محفوفٍ بالتأفف كالعادة، عن البيت ومصاريف العيال و..والمستلزمات و...!

عيناه آذنتا بالنّوم.. فرح القلم والأضوية الملتهبة تنفّست الصعداء لنوم المؤلف، فيما الحاسوب جهّز نفسه ليغلق شاشته على خير..فينام!

يحمل «الفيروس» الأغراض وهو ينتظر على قلق: لقد تأخّرنا على المول؟!..

هل تعلم أنّ السرافيس أفضل لنا من التكاسي للظفر بفكرة عبقرية للكتابة؟!.. قال الفايروس الذي كان عقد اتفاقاً مع الكاتب في أن

يكون مُلهِمَه شريطة أن يثق به ويطمئنّ إليه وفق شروط العقد الذي يوجب على الكاتب أن يظلّ صاحياً، وإلا انقضّ عليه وسكن حلقه وتزحلق مستمتعاً بهذه «الملاسة» والحجرات الضيّقة التي يتميّز بها الكاتب عمّا سواه، فهو دائم التعب وصدره يظلّ ضيقاً حرجاً كأنّما يصعد إلى السماء.

يقف الاثنان ينتظران على الشّارع، وكلّما مرّ تاكسي نظر الكاتب إلى السائق وفق اختبار هل يلبس الكمّامة أم هو من المتخلين عنها، وما بين صفعةٍ وأخرى يعتذر الكاتب للفيروس شديد الرغبة بتاكسي يخلو من كمامات، وتملأ فضاءه الأنفاس الحارة الطازجة... يضطران إلى سائقٍ «نص كم» يتذرّع بالوعي ويميط اللثام وهو يجسّ نبض ضيوفه، فهو على استعداد لأن يجعل من التاكسي «سرفيس» ليعوّض ما ألحقه به الفايروس من خسارة!..

ضحك الفايروس مُخفياً أنياب الغدر، وهو يحاور الكاتب شديد الحذر المتحوّط: لو استطاع لاستضاف المزيد من الركاب في حجره؛ فلقد سعدتُ أكثر من مرّة مع هذا الراكب تحديداً وهو ينبذ كلّ الوصايا وراء ظهره، ويشيع بين ركّابه أنّهم بعيدون تمام البعد عن المرض، وأنّ من يبحث عن الفايروس توهب له الحياة!

وأنا ما شأني بهذه النصائح التي تخفي كلّ فنون المكر؟!.. إنّ سبب

صداقتي معك هو أن تكون فيروساً للإبداع، أو لك خبرة في فنون الإبداع، لقرابتك بمرضى الإبداع وفيروسات الإبداع... قال الكاتب، وتابع: أريد الفكرة!... فكرة الإدهاش، خلطة الكتابة التي لم أجدها طيلة أمس وقبل أمس ومنذ مدّة...لقد قلبتُ البيت رأساً على عقب أبحث عن طقوس وما من طقوس!... هل تفهم؟!

الفكرة تكمن يا صديقي في التفاصيل!..قال الفايروس، متعلّقاً بخفّة وبكلّ ثقة على «الساتر» الذي أقرّته الحكومة حافظاً بين السائق والراكب.... إنّه يبدو مثل بيتٍ مشرّعٍ للريح!.. تخفق فيه الرياح، حيث كلّ شيءٍ مباح، ولولا احترام الفايروسات من أبناء العمومة لي، ممن يسكنون المكان، لكنتَ الآن ربّما في قاعةٍ للحجر الصّحي، أو بين يدي جهاز فحص، أو ممن تزيد بهم نسب الإصابات في البلد!..

الأرياح!..نعم!..يقول الكاتب، مستذكراً: «لبيتٌ تخفق الأرياح فيه..أحبّ إليّ من قصرٍ منيفِ».. ولبس عباءةٍ وتقرّ عيني أحبّ إلي من لبس الشفوفِ!»..

أوووه!..الشفـوف!..أقصد «الكفـوف»!..لقـد نسيت أن ألبسها!... يقول ذلك متحوّطاً من كلّ المسامات التي أمامه، حتى لقد وضع يديه في الفراغ مثل قطٍّ برّيٍّ يتأهّب لخنق فريسةٍ بعد طول طراد!

هل ترى إلى فتحة النّقود هذه التي تُمدّ له منها الدينار والديناران بعد كلّ «مشوار»؟!.. لقد باتت يده اليسرى شديدة الاحتراف وهي

تتلقى النقود، إنّ لها عينين تبصر بهما عن طريق اللمس، وهي تفرّق بين العملات وتكشف التزوير!

ألهذه الدرجة؟!.. قال الكاتب، فيما الفايروس يواصل تعلّقه متقافزاً بين شقوق السّاتر الذي كان يطفّه الهواء ويطفّ معه سيجارة السّائق الذي ما فتئَ يلاحق ذبالتها وهو يشكو الفقر والخسارة التي أورثتها «كورونا» الناس... كانت تفاصيل تثير الامتعاض، وتبعث على القهر!

صدقني؛ سألهمك الكتابة!..قال الفايروس، مثل أسدٍ في جلد ثعلبٍ يخفي براثنه...هيّا، فلننزلْ، انتهى المشوار!

ـ سأشتري كمّامةً وقفازتين!..يوافق الفايروس على مضض... وحين يهمّ بالدخول إلى الصيدليّة يفرّ من رائحة الهايجين الذي سال لعابه مثل حرباء تلفّ ذبابةً بلسان جريء، وقبل أن يصبح في «خبر كان» كان يتنفّس الصعداء في الخارج!..ومع معارضته لهذه الطقوس اليومية التي يصبغ بها الناس أيديهم من غير نفع... يواصل وعده في تعليم صاحبه أهميّة التفاصيل في رحلة القنص والطراد: سأكون صريحاً معك؛ لا تُركّبْ نصّاً على نص... ولا تفرح بـ«وجدتها»؛ فهي وضعٌ خاص بنيوتن... أمّا أنت فالتفاصيل هي «ملعبك»، تأمّل، إنّها تبدو شهيّةً مثل غزلان سارحة تطلب الخلاص على بحرٍ من السراب!..

«لا تنسَ موعدنا»؛ يستعير الفايروس قول الشاعر درويش، في

خضم التعليم على المشهد والهيام بالتفاصيل، فيما الكاتب غارقٌ في المفاضلة بين الافكار كفقيرٍ شَرِهٍ على «أوكوزيون» مذهل أو تنزيلات أَحدِ أسواق «الجمعة» الشهيرة...

الفايروس سعيدٌ بنشوة الكاتب الذي بدأ التعب يتسلل إلى رجليه ويقلل من خطواته بين التفاصيل، بعد أن عاد من «قاع المدينة» بالخير الإبداعيّ كلّه يساعده في حمله الفايروس «الخدوم»... تفاصيل متحرّكة نشيطة دماؤها حيّة تتلبّس أصحابها، لا تفاصيل متكتّمة على ذاتها تشبه الصّنم!.

يبتسم الفايروس ناقداً وهو يصعد مع صاحبه الدرجات: لكنّ الصّنم أيضاً يحمل في داخله مئات التفاصيل، والباب الذي يزعق يحمل عنفوانه هو الآخر، و.. وحتى المرأة البليدة التي تستكثر عليها حديثاً عاديّاً في أردانها مئات التفاصيل... وكذلك المكتب والشبّاك والأربعة جدران... المسألة ببساطة تتعلّق بالمغناطيس الذي لديك، ولم يعد يجذب الأشياء العذبة أو ما يعلق بالمحيطين من تفاصيل!

وفيما تتناول الزوجة أكياس الخير الإبداعي إلى الداخل، يطلب الكاتب من صديقه الفايروس أن ينتظر على العتبة قليلاً!.. أحسّ الفايروس أنّه مثل «موصّلاتي» مهدور الكرامة، اعتاد الناس النظر إليه من فوق، فكتم حسرةً في صدره، وأصبحت عيونه جمراً، وأقسم أنه سيسكن صاحبه، بل سيشرب من دمه عند أوّل إغفاءة.

ـ أنت الآن كاتبٌ قدير، وعليك أن تدفع ثمن القدرة على الإمساك بالتفاصيل وشدّ جوانب النّص... الثمن ألا تنام عن التفاصيل!..لا تَنَمْ عن التفاصيل!.. تذكّر، عند أوّل إغفاءةٍ سأكون في حلقك ألعق دمك!!

ـ لكن!..

ـ هذا شرطٌ مكتوبٌ ولا تستطيع أن تنكره!

ـ نعم!.. نعم!

الفايروس يحوم حواليه مثل «تابعة» تحوم على سرير «حاملٍ» لا تحتفظ بحمل!... وهو كلّما أغفى قليلاً طار إليه الفايروس معانقاً وجهه لولا صحوة الكاتب في اللحظة المناسبة!

الغرفة تصبح مثل ساحة حرب لفارسين شرسين يتباريان في الصبر وكتم الألم!.. التفاصيل تنثال أمام القارئ وتتدفّق منه، الأسطر تسيل مثل قصيدةٍ غايةٍ في الإعجاز!.. لعاب الفايروس يملأ جنبات السرير وهو يقفز مرّةً على الخزانة، وأخرى على مغلاق الباب، ومرّةً يسحل من على الستائر كالسهم... فيما الكاتب يبدو مثل جثّةٍ هامدة ما يزال فيها نفسٌ يروح ويجيء!

ـ اتركني، لا تضغط على صدري!.. لا أستطيع التنفّس!.. لديّ تفاصيل كثيرة سأودعها في كتاب... تفاصيل لن أضيّعها هكذا... لم أشتهر بعد... حفلات التتويج... المسابقات!.. الشهرة!!..لا يعقل أن

تتلبسني بعد أن وصلت «اللقمة» إلى فمي بعد طول انتظار ورحلاتٍ كنت أبحث فيها عن طقوس!

ـ المبدعون لا يعمّرون!.. هذه حجّتنا في تلبّسكم!.. أنتم منذورون لنا... الإبداع للورثة والناس تتعيّش كثيراً على الميتين!!

كان يمكن للكاتب أن ينهي هذه المبارزة لفايروس لم يكتب عليه النوم، فيغادر الغرفة ويبلّ ريقه بقليلٍ من ماء، لكنّ الفايروس المشهور بعدم الوفاء الطويل كانت عينه على التفاصيل، فربما جمعها وذهب إلى كاتبٍ منافس يغريه بها لكي يفوز ويُتوّج في حياته بعد مماته، لا فرق!.. وذلك ما كان يضع الكاتب بين مطرقة النوم وسندان التفاصيل، فكان يقوم ويقعد، فيما الفايروس المستبسل ما يزال يحوم ويتجرّأ، ويحبس الأنفاس تمهيداً لبهجة الخضوع قبل الانتصار!

طرقات الباب تتوالى مثل سمفونيّةٍ نشاز... الخزانة تكاد تطبق على صدره، عينه لم تعد تحتمل المقاومة فبمجرّد أن تطبق جفناه، فإنّ كلّ شيءٍ سيكون قد انتهى!.. لكن!.. لا!.. التفاصيل... الشهرة!... المسابقة!.. الفوز!... الـ....آه!

«الطوّافون» موعدهم اليوم!.. هذا الصوت مألوفٌ لديه، وقد اعتاده كثيراً، ظنّ نفسه في محاكمة أو جلسة قضاة أو مُحكّمين!.. تتزايد حدّة الصّوت: «الطّوافون» سيأخذون القوارير الفارغة بقوارير مملوءة!... «الجابي»!..

ظنّ الجابي» مجرماً هبط عليه من السطح وما يزال موضع تحذير من العمارة كلّها!..ليت هذا «الجابي» أمسك بصاحب العمارة الذي تتوزّع نظراته المخيفة على الأدراج كالعناكب الضارية السوداء!

الغاز!... السكّر!.. الملح!.. البطاطا!..

كانت تلك زوجته التي مكثت ساعتين توقظه بعد أن أطال النوم في يوم قاربت الشمس فيه على الزوال، ولم يبق غير ساعةٍ أو أقل على انتهاء فسحة ما قبل الحظر!!

قام الكاتب مذعوراً..وهو يجدّ السير إلى المول و«الطوافين» وربما يرجئ فاتورة الكهرباء إلى ما بعد الحظر الشّامل يوم غد... قام وتملؤه التفاصيل، وتتدفّق عليه بل وتقطر منه... وزاده ألقاً أنّ الجميع في المول وخارج المول كانوا يبتسمون لمرآه، ويقولون: هذا الكاتب الشهير... هذا صاحب رواية «ليلة مقتل الفايروس»!...

كانوا يتنافسون على صور تذكاريه معه، فيما الفايروس ظلّ ينظر خلف الجموع مبتسماً ابتسامته الصفراء ذاتها: الفكرة دائماً تكمن في التفاصيل!

# «كُلُّ مُرٍّ سَيَمُرّ!»

أسعد سالم عبدالرحمن تيم

**1**

ها هو الشتاءُ قد عاد إلينا من جديد، وأرخى سُدُولَهُ علينا كَلَيْلةٍ طويلةٍ، باردةٍ، شديدةِ السواد!... بل إنَّ جوَّ الأربعينيَّةِ المعروفَ بشدّةِ برْدِهِ قد ابتدأ قبلَ ميعادِها المألوفِ بنحوِ 10 أيّام! وكالعادة، تتباطأ حرَكةُ الحياةِ عندنا في الشتاء، ويسبُتُ الاقتصاد، وتخِفُّ أشغالُ الناس، فيلزمُ أغلبُهم بيوتَهم، ويقِلُّ خروجُهم منها إلا لحاجة، منتظرين ببُطءٍ عودةَ الربيع، والشمسِ، والأملِ!...

أما أنا فقد كانت حالي أشدَّ وأقسى من سوايَ ممَّن تقدَّمت بهم السنُّ، إذ كنتُ أعاني من تعبٍ وإرهاقٍ شديدٍ أضرَّ بي، وثبَّط هِمَّتي وحرَكتي قُرابةَ أربعةِ أشهر...

**2**

وهكذا، ونحنُ في هذه الحالِ، طرقَ مسامِعنا نَبَأٌ غامضٌ كصوتٍ خافت، نسمعُهُ من بعيدٍ، فلا نُلقي لهُ بالاً، ثمَّ يقوى ويشتدُّ حتّى يَكادَ أن يَصُمَّ الآذانَ، فندركُ أنَّ أمْراً جلَلاً بدأَ يقتربُ مِنَّا! فقد صرنا نسمعُ في نشْراتِ الأخبارِ عن مرَضٍ مُعدٍ قاتلٍ ظهرَ فجأةً في مدينة ووهان (Wuhan)، حاضرةِ مُقاطعةِ خوبيه (Hpih) الصينيَّة، أسمَوْهُ الكورونا (Corona)، يُسبِّبُهُ فيروسٌ تفننوا في تسميته، فدعوه «كوفيد ـ19» (Covid19). وإنما سمَّوهُ الكورونا لأن الفيروسَ المسببَ له ـ على ذِمَّةِ من أبصروه بالمجاهر الإلكترونية!ـ كُرَويُّ الشكل، ذو زوائدَ عديدةٍ، يُشبهُ تيجانَ الملوك! أما أنا فإنَّ صورتَهُ ذكَّرتني بفاكهةِ الرمبوتان التي أكلتُ منها في ماليزيا!

**3**

سمعنا نبأَ هذا الفيروسِ لأولِ مرَّةٍ في الأيام الأخيرة من سنة 2019، فلم نُلقِ له بالاً ولم نحفلْ به، فليس من عادتِنا ـ ولله الحمدُ ـ أن نجزعَ ونهلع! ثمَّ إنَّ ووهانَ بعيدةٌ عنّا! وقد ظهرتْ في العَقدِ الأخير فيروساتٌ كثيرةٌ، كان بعضُها مُميتاً قاتلاً، كفيروس الإيبولا، وفيروس حُمّى النيل، والسارس، وكلُّها ظهرت في إفريقية، فلم يُصبنا منها شيءٌ ـ ولله الحمدُ والمِنَّة! بالرُّغمِ من أنَّ الديارَ التي ابتليتْ بها أقربُ إلينا من

ووهان! وبعدُ، فما أبعدَ وُوهانَ عنَّا وعن بلدِنا! وما علاقتُنا بها؟ ولم نكن نعلمُ أن بها نحوَ 60 طالباً من فتيانِنا «يطلبون العِلْمَ في الصين!» ولم نكن ندري أنها من أكبرِ المراكز الصناعية في الصين، ولها مشاركةٌ قويَّةٌ في الاقتصادِ الصينيِّ والعالمي!

**4**

وشيئاً فشيئاً تزايدتْ أخبارُ الكورونا، وازداد اهتمامُنا به، فصارَتِ الشُّغلَ الشاغلَ للقنواتِ الفضائية، وكثُرَ المتحدِّثونَ عنهُ فيها وعلى مواقع التواصلِ الاجتماعي: يُدلي كُلٌّ منهم بدلوِهِ ليُعرِّفنا بهذا المَرض، ويشرحَ لنا طُرُقَ انتقالِه من شخصٍ لآخر، وكيف إنَّ جسمَ المصاب بِهِ يحتضنهُ 14 يوماً قبلَ أن تظهرَ أعراضُهُ عليه، وأنَّ المُصابَ بِهِ قد ينقُلُه في هذه الفترة لأكثرِ الذين يحيطونَ به أو يُخالطونَهُ دون أن يشعُرَ هو أو من عداهُم حتى تنقضيَ مدةُ الحضانة في جسدِهِ وأجسادِهم. وقالوا إنَّ هذا المرض إذا ظهرتْ أعراضُهُ على الإنسانِ يكونُ الوقتُ متأخِّراً، والفُرصةُ قد فاتت؛ إذ إنَّه يصيبُ الرئتين والجهازَ التنفُّسيَّ، فإذا ما ظهرت أعراضُهُ على المُبتلى به يكونُ قد أتلفَ نحوَ نصفِ رئتيه!

**5**

وهكذا انتشر المرضُ من الصينِ إلى العالمِ أجمع، يسبقُهُ ذُعرٌ شديدٌ أصابَ الحكوماتِ وعامَّةَ الناس، إذ تبيَّنَ أنَّهُ ليسَ لهُ حتى الآنَ لِقاحٌ

معروفٌ يقي من الإصابةِ به، ولم يُكتشفْ له علاج؟ فعَّالٌ مضمون يُعطى لمن أصيبَ به، فيشفى! إذ مُسبِّبُهُ فيروسٌ، لا بكتيريا، فلا تكادُ تنجعُ فيه المضادَّاتُ الحيويَّة، والوقايةُ منه أجدى من العلاج بكثير!

ولكن كيف يتَّقيه النَّاسُ، وهو قويٌّ، سهلُ الانتشار، ولا يلاحظُ أثرهُ إلا بعدَ 14 يوماً من الإصابةِ به، فتعُمُّ العدوى والبلاءُ به وهو يتسلَّلُ من جسدٍ لآخر، بخلافِ فيروساتِ الرشحِ، والإنفلونزا، واللفحات، فإنَّ فِعلَها في المصابِ قد يظهرُ في وقتٍ قصيرٍ ودقائقَ معدودة، فيحتاطُ المصابُ بها ومن يُخالطونه! ثمَّ إنها صاحَبتْنا ـ معشرَ البشرِ ـ منذُ آلافِ السنين، فاكتسبنا خِبرةً في التعاملِ معَها، والوقايةِ منها، ومعالجتِها.

**6**

الحلُّ إذن في التباعُدِ الاجتماعي، والامتناع عن مخالطةِ الناسِ ما أمكن، والحَجْرِ على السَّفرِ من المناطقِ الموبوءةِ بهِ وإليها، بل إيقافُ حركةِ الطَّيرانِ الدوليةِ وتحرُّكاتِ المسافرينَ من دولةٍ لأُخرى، إيقافاً شِبهَ تامّ!

وكما أنَّ المرضَ عُرفَ لأوَّلِ مرَّةٍ في الصين، فقد كانت هذه الدولةُ الهائلةُ الحجم، الشاسعةُ المساحةِ، الكثيفةُ السُّكَّانِ أوّلَ السبَّاقين لمكافحة هذا الوباء الذي أتحفَتْنا به! فطبَّقتْ إجراءاتِ العزْلِ على نِطاقٍ

واسع يليقُ بضخامةِ تلك الأُمَّةِ، وصرامةِ تلك الدولة! وهكذا فُرِضَ الحَجْرُ الصِّحيُّ المنزليُّ على أهالي مدينةِ ووهان وما حولَها من المُدن، ثُمَّ على المقاطعةِ كلِّها، ومساحتها أكبرُ من ضِعفِي مساحةِ دولتنا، ثُمَّ على 7 مقاطعاتٍ أخرى تجاورُها وتحيطُ بها، حيثُ انجحر في البيوتِ أكثرُ من مئتين وخمسين مليوناً من البشَر، مُنِعوا من الخروج من بيوتهم منعاً باتّاً، حيثُ خلَتِ الشوارعُ من السيَّاراتِ والمُشاة؛ والويلُ لمن تُسوِّلُ له نفسُهُ الخُروج! ولقد رأيت مقطعَ فديو التقطه شابٌّ عرَبيٌّ يدرسُ في ووهان، فتح نافذة شُبَّاكِه الشاهقِ العلوِّ، ومدَّ رأسه يصيحُ بأعلى صوتِه: أين أنتم أيها الناس! فلم يُجِبْهُ سوى صدى صوتِه!

**7**

وهُنا سَنَحتْ للصين فُرْصةٌ ذهبيَّةٌ لإظهارِ عَظَمتِها، وقُوَّتِها، وتقدُّمِها العِلميّ، والتَّقَنيِّ، والإداري؛ وما أكثرَ ما تتباهى الصينُ والصينيونَ بما عِندَهم! فلمَّا حُشرَ الناسُ في بيوتهم أرسلت الحوَّاماتِ (طائراتِ الهليوكبتر)، مصحوبةً بالمُسَيَّرات (drones)، في مشهدٍ يكادُ يكونُ مأخوذاً من أفلام الخيالِ العِلميِّ أو حُروبِ الفضاء! إذ تقتربُ الحوَّامةُ من شُرُفات العَمارات، فيتَّصلُ من فيها بساكني الشُّقق شُقَّةً شُقَّة، فيخرجُ المُواطنُ إلى شُرفة شُقَّتِه، فتصلُ إليه المُسيَّرةُ الصغيرةُ وقد عُلِّقَ بخُطَّافِها طرْدٌ فيه حاجةُ أهلِ البيتِ من الغِذاءِ، والدَّواءِ، والماءِ

وسواها، فيأخُذُ ما أُرسِل إليه، وترجع المُسيَّرةُ بنفسِها إلى الحوَّامة التي تقتربُ من شُقَّةٍ أخرى لتكرِّرَ العَمَليَّة... وهكذا حجَرتِ الصينُ على أقاليمَ واسعةٍ من أرضِها، ولكن مع خِدْمةِ سُكَّانِها، والاعتناءِ بهم، ومراقبتِهم مراقبةً حثيثةً بالمُسيَّرات!

**8**

وهكذا بدأت الدُّولُ تُدركُ شِدَّةَ خَطرِ هذا الوباء، وتُحسُّ باقترابِه منها، وشرعَ بعضُها في اتخاذِ الإجراءاتِ الاحترازيةِ للوقايةِ من تفشِّيهِ فيها. وهنا كانت حُكومتُنا السبَّاقةَ إلى استدعاءِ طُلَّابِنا الذين يدرسون في ووهان. فاتصلت بهم، وحثَّتهم على الرجوعِ سِراعاً إلى الوطن؛ إبقاءً عليهم، وحِفظاً لهم، ومنعاً لتفشِّي الوباءِ لو عادَ بعضُ هؤلاء فيما بعدُ واحداً واحداً... فنسَّقتْ معهم، واستأجرت طائرةً خاصَّةً أقلَّتْهم جميعاً إلى الوطنِ في نَقلةٍ واحدة، في آخرِ أيَّام أربعينيَّةِ الشتاء. وعاد معهم عددٌ من الطلبةِ الفلسطينيِّين والعَرَب. وأُخضعَ الجميعُ لحجرٍ صحِّيٍّ في فنادقَ فخمة (من فئة الخمسِ نُجوم)، لمُدَّة 14 يوماً، وهيَ المُدَّةُ المُفترضةُ لحضانة الفيروس وظهورِ آثارِهِ على من ابتُلِيَ به.

**9**

ويبدو أن الخُطوةَ الأردنية قد نبَّهت عدداً من حُكوماتِ العالمِ من غفوَتِها، فسارعَ كثيرٌ منها إلى حثِّ رعاياها على العودة من الصينِ بأسرعِ

ما يمكَنُهم، وتعددت أساليبُ الحكوماتِ وإجراءاتُها في التواصلِ مع مواطنيها المغتربين، ومُساعدَتِهم!

**10**

وشرع الناس وحكوماتُهم في كافَّة أرجاءِ العالم يتساءلون عن طبيعة هذا الوباء، وكيف نشأ، وكيف يُتوقَّى شرُّهُ، وكيف يعالجُ من أصيبَ به... وكانوا يأملون من الحكومة الصينيّة أنْ تُنوِّرَ عليهم وتبوحَ لهم بمكنونها وما عندَها، إلا أنَّ الصينَ لم تتفضَّلْ على أحدٍ من البشرِ بغيرِ الهمهماتِ والتمتماتِ التي لا تُسمِنُ ولا تُغني من جوع! فانكمشت على نفسِها، وتركت الناس في عماء! فالصينُ من جهةٍ اعتبرتِ الموضوعَ أمنيَّاً عسكريَّاً، وما أشدَّ حساسيَّةَ الصينِ في هذا الباب! ومن جهةٍ أخرى كانت تُجري حِساباتِها السرِّيَّة المتعدَّدةَ لتستفيدَ منه في ما يُخُصُّ اقتصادَها وتجارتَها وماذا يُمكنُها أن تجنيَ منه، أو تخسرَ بسببِه...

**11**

وقد أدَّى تكتُّمُ الصينِ الشديدُ إلى أنَّ كثيراً من الدولِ لم تفهمْ طبيعةَ المَرَضِ، فأخفقتْ في اتخاذِ الإجراءاتِ اللازمة في الوقتِ المناسب، فهاجمها الوباءُ بضراوةٍ، وأنشبَ أنيابَهُ فيها! من ذلكَ أنَّ شابَاً إيطاليَّاً كان يعيشُ في كوريَّا الجنوبيَّة، فظنَّ أنَّ العودةَ للوطنِ أجدى وأسلم، فحمل نفسَهُ عائداً إلى بلَدِهِ دون أن يدريَ أنَّ فيروس الكورونا قد

انتقلَ إليه، ولم يكنْ يحسُّ بأيِّ أعراضٍ حينئذٍ، ولم يستطيعوا في المطار اكتشافَ أنّهُ يحملُ الفيروس. وبعدَ وصولِهِ إلى بيتِهِ بأيَّام أحسَّ بتوعُّكٍ وآلامٍ لم يدرِ ما سببُها، فذهبَ إلى المُستشفى طلَبَاً للعلاجِ، فلم يأبهوا له، ولم يهتمُّوا بأمرِهِ، فأعطَوْهُ بعضَ المسكِّناتِ والعلاجاتِ وردُّوهُ إلى البيتِ دون أن يُدخِلوهُ عندهم. وعندما عاد إلى البيتِ ازدادت حالُهُ سوءاً، فعادَ إلى المستشفى، ولكن بعدَ أن وقعت الفأسُ في الرأس! فإنَّهم لَمَّا زارهُم المرَّةَ الأولى لم يُدركوا أنَّهُ كان مصاباً بالكورونا، فلم يحتاطوا لذلك، فنشر بينَهم العدوى بقوَّة! ومن ذلك المُستشفى انطلقَ الوباءُ غازياً أرجاءَ إيطاليا كُلَّها، لا سيَّما الشمال، ففتك في سُكَّانها فتكاً ذريعاً، حتى أصيبَ به هناك مئاتُ الألوف، وقضى حتفَهُ منهم عشَراتُ الألوف... وبلغت حِدَّةُ المرضِ وشِدَّتُهُ حدَّاً أعجز الدول المتقدِّمةَ الصناعيةَ عن التَّصرُّف، ناهيكَ عن دول العالمِ الثالثِ الفقيرة!

**12**

لقد تبيَّن أن هذا الوباءَ ينتشرُ بسهولةٍ شديدةٍ من شخصٍ لآخر بالتلامسِ أو المصافحة. بل يكفي أن يقتربَ الصحيحُ من المريض إلى مسافة مترٍ واحدٍ حتى ينتقلَ إليه الفيروس! أمَّا عُطاسُ المريض فحدِّثْ عنه ولا حرج! يكفي أن يعطسَ المريضُ في قاعةٍ أو حُجرةٍ ليُعديَ كلَّ من كان معه فيها! ثمَّ إنَّ أعراضَ المرَضِ لا تظهرُ إلا بعدَ

حضانةٍ طويلة. وإذا ظهر في مجموعةٍ من الناس فإنَّ عدداً منهم سوف يحتاجون إلى أن يُدخلوا غُرفَ العِنايةِ الحثيثةِ، وإلى أن توضعَ لهم أجهزةُ التنفُّسِ الاصطناعي! وهنا انهارت أغلبُ المستشفياتِ في إيطاليا وانهار النظامُ الصحيُّ، إذ لم تكن التجهيزاتُ المتوفِّرةُ كافيةً للتعاملِ مع جحافلِ المرضى المتزايدة!

**13**

وكانت النتيجةُ في أغلب الأحيانِ قاسيةً جدّاً: ففي كثيرٍ من المُستشفياتِ لم تكن الأسرَّةُ العاديَّةُ كافيةً لاستيعاب المرضى، فضلاً عن غُرفِ العنايةِ الحثيثة، فوُضِع المرضى مكدَّسين في ممرَّاتِ المستشفياتِ في حالٍ مزرية! بل صارت المستشفياتُ تعتذرُ عن استقبالِ المُصابين بهذا الوباء، فإذا اتصلَ بهم مواطنٌ ليخبرَهم أنَّ أحدَ أفرادِ عائلتِه قد أصيبَ بالمرض، راجياً منهم إرسالَ سيَّارةِ الإسعاف لنقلِه إليهم، اعتذروا منه، فلا أعدادُ السيَّاراتِ تكفي، وليس ثمة أيُّ سريرٍ فارغٍ لإيوائه. فيوصون المتَّصلَ أن يُبقيَ المريضَ في البيت، وأعلموه بالإجراءاتِ اللازمةِ للعنايةِ بالمريض، وسمَّوْا له أدويةً معيَّنةً ليشتريَها بنفسه من الصيدليات. وربَّما تكرَّموا بزيارةِ المريضِ في منزلِه، وفحْصِه هناك، وإعطائه بعضَ العلاجاتِ والمسكِّنات!

**14**

وهكذا عمَّ البلاءُ أرجاءَ إيطاليا كلِّها بسببِ شخصٍ واحدٍ عادَ إليها حاملاً الفيروس! وكادت أن تخِرَّ على ركبتَيْها راكعةً، مستجديةً، كأنَّها قد هُزِمتْ في الحربِ العالميَّةِ الثالثة!

**15**

وفي هذه الأثناءِ كان الاتحادُ الأوروبيُّ والدولُ الأوروبيةُ تراقبُ ما يجري في إيطاليا بقلقٍ، وجزَعٍ، وترقُّب، مع عجزٍ فاضحٍ عن فعلِ أيِّ شيءٍ لإنقاذِ شقيقتِهم المبتلاة! والعجبُ أن الصينَ وروسيا قد أرسلتا جوّاً بعضَ المُساعداتِ إلى إيطاليا، بينَما خذَلَتْها شريكاتُها وجاراتُها الأوروبياتُ والاتحادُ الأوروبِّيُّ برُمَّتِه!

**16**

ومع خروجِ الوباءِ من الصين وشرقِ آسيةَ إلى إيطاليا وأوروبة وكثيرٍ من دولِ العالمِ، أصابَ القلقُ الناسَ في مشارقِ الأرضِ ومغاربِها، فتطلَّعوا إلى من يشرحُ لهم ما يجري من حولِهم، فصاروا أرضاً خصبةً لنظرياتِ المؤامرة، فانتشرت الفديوهاتُ على الإنترنت ومواقعِ التواصُلِ الاجتماعي، يزعمُ كلُّ متحدِّثٍ فيها أنَّهُ قد اطَّلعَ على سرِّ الكورونا العميق، وشاعت نظرياتُ المؤامرة بينَ الناس: ما

يصحُّ منها أو يقاربُ الصِّحَّةَ وما لا يصحُّ، وما يمكنُ أن يُجوِّزَهُ العقلُ السليمُ، وما لا يجوزُ إلا على ذوي العقولِ المريضة، لا سيَّما بعدَ أن حطَّ الوباءُ رحالَهُ في إيرانَ ففعلَ بها نحواً ما فعل بإيطاليا! إذ زعم بعضُ الناسِ أنَّ هذا الوباءَ ما هو إلا مؤامرةٌ أمريكيَّةٌ لضربِ الدول التي تتحدَّى سياسةَ الولاياتِ المتَّحدةِ الأمريكيَّة!

وسمعتُ أحدهم يزعم أنَّ الوباءَ لا علاقةَ له بالفيروساتِ أبداً! كلُّ ما في الأمرِ أنَّ القوَّاتِ الأمريكيَّةَ المتواجدةَ في أفغانستان قد فجَّرت باتجاه الصينِ وإيرانَ قنابلَ تحتوي على غازاتٍ سامَّةٍ شديدة التأثير؛ لتحجيم قوَّتها الاقتصاديَّةِ والعسكريَّةِ والسياسيَّة! فكان من المُحالِ النقاشُ معه وإفهامُهُ أنَّه لو كان ما قاله صحيحاً لظهر أثرُ هذه الغازات السامّةِ أوَّلاً في أفغانستان! ثمَّ إنَّ مدينةَ ووهانَ تبعدُ عن حدودِ أفغانستانَ آلافَ الكيلومترات، فكيف وصلتْها الغازات بالرغم من سلاسلِ الجبالِ الشاهقةِ، ثمَّ لم تؤثِّرْ على المدن والقرى والأقاليمِ الواقعةِ إلى الغربِ منها، بينها وبين أفغانِستان؟!

**17**

وثمة إشاعةٌ أخرى انتشرت على نطاقٍ واسعٍ مؤيَّدةً بالصورِ والفديوهات، فحواها أنَّ الفيروسَ قد تطوَّرَ طبيعيَّاً في أجسامِ الخفافيش، وبما أنَّ الأفاعي الضخمةَ (الأصلات) تبتلعُ الخفافيش،

فقد انتقل الفيروسُ إلى أجسامِها، ومنها إلى أفرادِ الشعبِ الصينيِّ لأنَّهم يستطيبونَ أكلَ تلكَ الأفاعي! وهي حقّاً تباعُ عندهم في أسواقِ اللحوم كما يباعُ لحمُ الضَّأنِ عندنا! وهذهِ النَّظريَّةُ تبدو منطقيَّةً وأقربَ إلى القبولِ من سابقتِها، لأنه قد ثبتَ أنَّ بعضَ الفيروساتِ تنتقلُ من حيْوانٍ لآخر، ومن بعضِ الحيْواناتِ إلى الناس، فتصيبُهم بالمَرَض. كما جرى في الصينِ نفسِها، إذ انتقلت انفلونزا الخنازيرِ منها إلى آكليها أو الذين كانوا يربُّونَها... ومع ذلك فقد ذبلت هذه النظريةُ وطواها النِّسيانُ، وتكشَّفَتْ فيما بعدُ أمورٌ أخرى خفيَّةٌ، كانت من «المضنونِ بهِ على غيرِ أهلِه!» ـ كما سنذكره لاحقاً، بعونِ اللهِ تعالى.

**18**

ونعودُ إلى بلدِنا ويوميَّاتِ الكورونا فيه، فبعدَ استعادةِ طلبتِنا من ووهانَ الصينيَّةِ طلبت الحكومةُ من جميعِ المواطنينَ العودةَ سراعاً إلى الوطنِ قبلَ أن يُحالَ بينهم وبينَ ذلك. فعادَ الآلافُ منهم جوّاً، فإذا نزلوا في المطارِ وخُتمتْ جوازاتُهم فُحِصوا بأجهزةٍ إلكترونيَّةٍ حديثةٍ، فمن ظهرت عليه أعراضُ المرضِ نُقلَ إلى المُستشفى على الفور، ومن لم تظهرْ عليه أعراضُ المَرَضِ نُقل إلى الحَجْرِ الصحِّيِّ في الفنادقِ الراقية (من فئة 5 نجوم أو أربع)؛ وأغلبُها في منطقةِ البحرِ الميِّت. وقد أذعنَ

أغلبُ العائدينَ للإجراءاتِ المعمولِ بها لعِلمِهم أنَّها في صالحِهم وصالح الوطن، إلا أنَّ عدداً يسيراً منهم حاولوا التملُّصَ والهروبَ من المطار، لأنَّهمو استثقلوا قيمةَ نفقةِ العزلِ التي وصلت إلى 70 ديناراً في اليومِ الواحد، في فنادقِ النُّجومِ الخمس!

**19**

أما أنا فقد مضت أيَّامي متثاقلةً، لا أخرجُ من البيتِ إلا لُماماً بسببِ ما كنتُ أعاني منه. وبدأنا نسمعُ يوماً بعدَ يوم عن إصابةِ بعضِ المواطنين بالكورونا؛ وأغلبُهم ممن كان يعملُ أو يقطنُ بالخارج. وليس هذا بمستغربٍ، فالكورونا لم تنشأْ في بلادِنا، وإنَّما هي أمرٌ طارئ، والحمدُ للهِ على كلِّ حال!

ثمَّ وجدتُ في نفسي وجسدي شيئاً من القوَّةِ والنشاط، فقرَّرتُ أن أرجعَ إلى عمَلي كدليلٍ سياحيٍّ محلِّيٍّ في جبلِ القلعة، فالخروجُ من المنزلِ ـ بلا شكٍّ ـ أبهجُ للنفسِ، وأشرحُ للصدر، والحرَكةُ برَكة!

وهكذا رجعتُ إلى الجبلِ بعد أن غبتُ عنه أزيدَ من 4 أشهر، فاختلفتُ إليه نحواً من 10 أيام، اشتغلتُ في ثلاثةٍ منها، ورضيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ في سائرها! وفي أثناءِ ذلك كانت طبولُ حربِ الكورونا تُدقُّ في العالمِ أجمع، وضجيجُها يقتربُ منَّا، فقفز المرضُ من إيطاليا إلى أوروبة الغربيَة، إلى أسبانيا، ففرنسا، فألمانيا، فالجزُرِ البريطانية، وفعل

بها كما فعل بإيطاليا أو أشدّ! وكلَّ يوم كانت تصلنا رسائلُ تحتوي على آخرِ إحصائياتِ الكورونا في العالمِ أجمع، ونرى النقاشاتِ الحاميةَ عنه في أغلب المحطاتِ الفضائيَّة. وفجأةً تنبَّهتُ من غفلتي، وقلتُ لنفسي: ألا ترى أنه يزور الجبَلَ كلَّ يوم سوّاحٌ من أكثرَ من 50 دولةً مختلفةً، من مشارقِ الأرضِ ومغاربِها؟ ألا تدري أنه من المحتملِ أن تُصيبَكَ العدوى من بعضِ هؤلاء؟ لم أكن خائفاً على نفسي أبداً، ولله الحمدُ، فأنا أُكثِرُ من الدعاءِ وقراءةِ المُعوِّذات، ولكنني خشيتُ أن أنقلَ العدوى إلى جيراني وأطفالِهم؛ وما أكثرَ الأطفالَ في عِمارتنا! وهكذا قرَّرتُ المُكثَ في البيتِ وهُجرانَ الجبلِ حتى يقضيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً!

**20**

وما إن لزمتُ البيتَ حتى هاجمتْني نوبةُ نِقْرِسٍ حادَّةٌ مؤلمةٌ في إبهام قدمي اليُمنى، طرَقتني صباحَ يومِ خميس، فانتفخ الإبهامُ واحمرَّ جدّاً، وتضاعفَ حجمُه! كان الألمُ في الأسبوعِ الأولِ حادّاً لا يكادُ يُطاق، وكنتُ أجدُ صعوبةً في الصلاةِ وأنا قاعدٌ على الكُرسيّ. ثمَّ بدأ الألمُ يخفُّ شيئاً فشيئاً حتى كادَ أن يتلاشى بعدَ 3 أسابيع (اتبعتُ حِميةً غذائيَّةً نباتيَّة).

وفي هذه الأثناء صار حديثُ الكورونا شُغلَ الناسِ الشاغل، غيرَ أنَّ المواطنينَ ما زالوا يروحون ويجيئون، وبدأنا نسمع سيرةَ الكمّاماتِ

والقُفَّازات، إلا أنَّ الإقبالَ عليها لم يكن شديداً، وذهبتُ إلى إحدى الصيدليات لأستفسرَ عن أنواع الكمَّاماتِ عندهم وأسعارِها، فأرتني الصيدلانيَّةُ نوعين منها: ثمن الكمَّامةَ من النوع الأول 15 قرشاً، أما النوعُ الثاني فبعشرينَ ديناراً! لم تتفضَّل الدكتورة لتخبرَني بميِّزاتِ النوعين والفُروقِ بينَهما! فأمَّا النوعُ الأوَّلُ فقد ظننتُ أنه لا فائدةَ منه، وأما النوعُ الثاني فهو غالٍ جدَّاً وسعرُهُ باهظٌ بالنسبةِ لي ولأمثالي!

عرفتُ فيما بعدُ أن الكمَّامةَ الأولى لم تكن رديئةً، بل كانت فعَّالةً لُمدَّةِ ساعتين، أما الثانيةُ فكانت ـ بلا شكَّ ـ أفضلَ منها، وتصلحُ للاستخدامِ سنةً كاملةً!

وهكذا عدتُ بعدَ يومينِ او ثلاثةٍ لأشتري أيَّ كمَّامةٍ أجدُها، فوجدتُ الكمَّاماتِ قد نَفِدتْ من الصيدلية!

**21**

وفي هذه الأثناءِ حظرت الحكومة المواطنين من السفر إلى خارج البلاد، ومنعت الأجانب من دُخولها، ونِعم ما فعلت! غيرَ أنّ المواطنين ما زالوا يتنقلون بحريتهم دون حظرٍ أو تقييد.

وحلَّ الخميس الرابعُ منذ أصبتُ بالنِّقرس، وشعرتُ أنني أستطيعُ قيادة باصي العتيق إلى البنك الإسلامي في الجُبيهة، وهو يبعدُ عن بيتي كيلومترين فحسب، دفعتُ أجرة البيت عن شهرِ آذار، وخرجتُ

فأشتريت بضعة أغراضٍ تنقصُني، وعدتُ إلى البيتِ مستعجلاً، معللاً نفسي بأنَّ حالي تتحسَّنُ يوماً بعدَ يوم، فلأعُدْ يومَ السبت إلى تلكَ المنطقة لأحلقَ شعري الذي طال عمّا اعتدتُ، ولأشتريَ بعض الخضارِ والفواكه التي تنقصني... وما أن وصلتُ البيتَ حتى وصلني نبأ إعلان حظر التجوُّلِ الشاملِ لمدة 3 أيام، ابتداءً من يوم الغد، الجمعة! وإذ كانت حركتي شبهَ مقيدةٍ في الأسابيع الثلاثة الماضية، فقد كانت تنقصني الخضار والفواكة وبعضُ الموادِّ الغذائية...

**22**

ومضت الأيام الثلاثة متثاقلةً، وعللنا النفسَ بأنه سيُفرج عنا يوم الاثنين... إلا أنّ الحكومة أعلنت يوم الاثنين محظوراً أيضاً!

بدأُ بعضُ المواطنين يتململون، فقرار حظر التجول قد فُرِضَ فجاةً دون إنذارٍ سابق، وكثيرٌ من الناس كانوا ينتظرون يوم الجمعة للتسوق وشراء ما يحتاجونه وما يلزمهم، فوقع القرارُ عليهم كالصاعقة!

**23**

حاولت الحكومةُ أن تحلَّ المشكلة بطريقةٍ مبتكرة، فظنّت أن ما ينقص الناسَ هو الخبزُ فقط، فارسلت عدداً من الشاحنات الموسوقة

خبزاً لتطوف ببعض الأحياء (غير الشعبية!)، فتجمَّع حولها حشودٌ من المواطنين، وقد غلب عليهم الهلع والجشع: كلٌّ يريد أن يأخذَ حِصّته قبل غيره، ولا بأس لو استطاع أن يأخذَ حِصّةَ سواه أيضاً! وحصل من الركضِ خلف الشاحنات والتدافعِ والتخاصُمِ حولَها ما يندى له الجبين!

**24**

وأخيراً كفَّت الحكومة مشكورةً عن إتمام هذه التجربة العجيلةِ الغريبة، وأدركتْ أنّه «ليس بالخُبزِ وحدَه يحيا الإنسان»، فقرَّرت أن «تُسلِّمَ الخبزَ لخبَّازِه!»، فأذنت بفتحِ المخابزِ والدكاكين والبقالات المحلِّيةِ في الحارات، من الساعة العاشرة صباحاً حتى السادسةِ مساءً، بشروطٍ متعدِّدةٍ، منها أن يسمحَ بمغادرة البيتِ للتسوقِ مشياً على الأقدام، لمن بلغ السادسة عشرة من عمُره المديد، ولم يتجاوزْ عامه الستين (ولا يخفى عليك أنَّ العبد الفقيرَ قد تجاوز الستين ـ نسال اللهَ عزَّ وجلَّ حُسنَ الختام ـ وأنني أعيش وحدي، فلا مناصَ من الخُروج!). ولم تعد دكاكين الخضار والفواكه إلى العمل، كما أنَّ الحوانيت الكبيرةَ، كالسيفوي، والكارفور، وسامح مول مُنعَتْ من فتحِ أبوابِها عدةَ أسابيعَ بعد دكاكينِ الحارات، خشيةَ تجمع الناس وتقاربِهم فيها.

## 25

ومنعت الحكومةُ بصرامةٍ التنقلَ بينَ المحافظات، بل ومنعت استخدام السيَّاراتِ منعاً باتَّاً إلا لمن مُنحوا تراخيصَ خاصَّةً للتنقل بسياراتهم لأسبابٍ قاهرةٍ، بشرط ألا يركبَ مع السائقِ أحدٌ من البشر، بل يستخدم السيارة منفرداً. وقد حصل رئيسُ جمعيَّتِنا (جمعية أدلاء السياح الأردنيين) ونائبه على تصريحين لتحريك سيارتيهما، لخدمة أعضاء الجمعية، الذين نصفهم على الأقل يعانون من الأمراض والأوجاع والهرم!

غيرَ أنّ الدولةَ أدركت أن منع الناس البتَّةَ من استخدام السيارات سيسبّب حرجاً كبيراً وإزعاجاً لهم، وأنه يكادُ يكون من باب التكليف بما لا يطاق، إذ لا يستغني المواطن عن نقل مشترياته بسيارته، لا سيما إن كثرت وتعددت، لذلك كان رجال الشرطة يغضّون الطرفَ عن تنقل السيارات داخل الأحياء، أما الطرق الرئيسةُ فقد حفِلتْ بدوريات الشرطة، وكثيراً ما احتجزوا السيارات المخالفة.

## 26

واتخذت الحكومة أيضاً إجراءاتٍ عديدةً للحدِّ من تفشي الوباء، منها منع التجمعات والمناسبات الاجتماعية منعاً باتّاً، وإغلاق المدارس والجامعات والمساجد والكنائس والنوادي وصالونات

الحلاقة وصالونات التجميل، والطلبُ من المواطنين أن يصطفوا أمام المحلات بالدور، مع تركِ مسافةِ مترٍ واحدٍ على الأقل بين كلِّ شخصٍ والذي يسبقه، والذي يليه، وكذلك طُلب من المواطنين أن يشتروا حاجاتِهم ويعودوا إلى بيوتهم بأسرعِ ما يمكن، دون تلكُّؤٍ أو تباطُؤٍ. وقد التزم أغلب المواطنين بهذه التعليمات التزاماً جيِّداً، غيرَ أني لاحظتُ أنَّ كثيراً من الشباب أبدوا استهتاراً واضحاً، فقد كانوا يتجمعون أمام أبواب المحلات التجارية أو مقابلَها دونما سببٍ، ولم يكونوا يشترون شيئاً! بل يتسكعون، ويتلكّؤون، ويضيِّقون على الناس، ولا ينصرفون إلى بيوتِهم!

ولعلَّ في هذا ما ينبِّهُ إلى ضرورة علاجِ الخلل الاجتماعي ونقص التربية في بلدنا، ومداواة الاستهتار والتسيُّبِ والتصعلكِ والزعرنة بين جيلِ الشباب!

**27**

وهكذا مضت الحياةُ في زمن الكورونا: «سالكةً بصعوبة!» وصارُ تتبعُ أخبار الوباء الشغلَ الشاغلَ لنا وللعالم أجمع! تطالعنا الإحصائياتُ، والتحليلاتُ، والمقابلاتُ، والتصريحاتُ صباحَ مساءَ على شاشة الرائي (التلفاز) من كافة المحطات المحلية والفضائيات، وتحوّلَ وزيرُ الصحة، الدكتور سعدُ جابرٍ، إلى بطلٍ قومي! ينتظر

الناس مشاهدة طلعَتِه البهِيَّةِ ليطالعهم بآخرِ أخبار الوباء وتعليمات الحكومة،وقد صارت له شعبيةٌ كبيرةٌ حتى أُلِّفَتْ بعضُ الأغاني المُشِيدةِ به، واستُخدِمتْ صورتُه لتُحَمِّلَ بعضَ الرسائل للجُمهور، مثلِ: «خلِّيكُم بالبيت!»

**28**

أما انا فقد اعتكفتُ في بيتي، فلا أخرجُ منه إلا لحاجةٍ ماسَّة، أتجول بين الدكاكين، فإن رأيتُ طابوراً طويلاً أعرضتُ عنه وبحثتُ عن دُكَّانٍ يخفُّ الزِّحام أمامَها، فأشتري ما يلزمني وأرجع إلى بيتي مسرعاً.

وكان لا بدَّ من تحريك باصي لئلا تسوءَ حالُهُ المتداعيةُ أصلاً، فكنتُ أستقلُّهُ لإحضار ماء الشربِ من دكان الماء القريب مني، فتكون رحلتي ذهاباً وإياباً أقلَّ من كيلومترٍ واحد، غيرَ أنها ضروريَّةٌ لخلحلةِ مفاصلِ هذا المحارب القديم المكافح!

وقد أثَّر عليَّ الطعامُ الجافُّ ونقصُ الخضار والفواكه بشدَّةٍ، فقرَّرتُ يوم الجمعة، بعدَ أسبوعٍ من بداية الحظر أن أمشي إلى الشارع الرئيسيِّ باحثاً عن أي محلٍّ مفتوحٍ من محلّاتِ الخضارِ والفواكه، وإذا بالفاكهانيِّ الوحيد في حارتنا قد فتح أبوابه منذ ساعة، وما أحضر إلا جزءاً مما يلزم، فدلفتُ إليه فرحاً مسروراً، واشتريتُ ما تيسَّر.

وقد ازداد التواصلُ بيني وبين بعض الجيران، لا سيما في شهر

رمضان المبارك، فكنتُ إذا اشتريتُ الخضارَ والفواكة أحسبُ حسابهم، وأرسلُ لهم ما تيسر، وهم إن طبخوا شيئاً أهدوني!

**29**

وبسبب هذا الوباء المخوفِ أُغلِقت المساجدُ في بلادنا وسائر بلاد العرب والمسلمين، فعزَّ على الناس حرمانهم من الجمعة، والجماعةِ، وقيام شهرِ رمضان، ولا أعلم أَنَّ المسلمين قد حُرِموا قيامَ شهر رمضَانَ في مشارق الأرضِ ومغاربِها قبلَ هذه الكائنة، منذ نزول الوحي الشريف، والله المُستَعان!

**30**

وكان حظُّنا من البلاء ـ ولله الحمدُ ـ خفيفاً، فحتى كتابةِ هذه السطور وصل عدد الإصاباتِ المسجلة لدينا إلى نَيِّفٍ وتسعمئةِ إصابة، توفي منهم تسعةُ أفرادٍ ـ رحمهم اللهُ تعالى. وكانت نسبة الشفاء في بلدِنا عاليةً ـ ولله الحمد ـ وأثبت الوباءُ أنَّ التجهيزاتِ الصحِّيَّةَ عندنا بخيرٍ، وهي أفضلُ وأرقى مما لدى كثيرٍ من الدول، بل هي خيرٌ مما لدى بعضِ الدول الغنية المتقدمة.

وكنّا نأمـلُ أن ينتهي الحظرُ سريعاً، وأن ننطلقَ من محبسنا في أسرعِ وقت، إلا أنه حدثت بعضُ الانتكاسات هنا أو هناك لا سيَّما في

محافظاتِ الشمال، بسبب بعض سائقي الشاحناتِ الذين كانوا يعودون من الخارج وهم يحملون الفيروس ولا يدرون، ولا تكتشفهم الأجهزةُ على الحدود، فيرجعون إلى بيوتهم، فينشرون العدوى بين أهليهم وجيرانهم وأصدقائهم، وهذا الأمرُ قد تكرر أكثرَ من مرَّة.

والأدهى والأمرُّ أنَّ جماعةً من الناس قد سئموا الحشْرَ والحظر، فتنادوا لمأدُبةٍ حافلةٍ حضرها نحو 25 شخصاً، فأعداهم أحدُ الحاضرين وكان مصاباً دون ان يدري، فساعدت هذه الحادثةُ في نشر الوباء!

كلُّ هؤلاء وأمثالُهم أجبروا الحكومةَ على تشديد الحظرِ والتشدُّدِ في اتخاذ الإجراءات الاحترازية، وهذه هي سُنَّةُ اللهِ في خلقِه: «واتقوا فِتنةً لا تُصيبُ الذينَ ظلموا منكم خاصَّة!»

أما محافظاتُ الجنوب الأربع فقد كانت أخبارُها تسرُّ البالَ، وتشرحُ الصدر، فقد علمنا أنَّه لم يُصبْ أحَدٌ فيها أبَداً بالكورونا! ولعلَّ لقوّةِ سُطوعِ الشمسِ أثراً ظاهراً في هذه النتيجة البهيجة!

**31**

وبالطبع لم يتوقف الفيروسُ عند حدود العالم القديم، بل قفز عبر المحيط الأطلسي، فحطَّ رِحالَهُ في الولايات المتحدة الأمريكية، واجتاحها من المحيط إلى المحيط، وفعل بها الأفاعيل، وصار عددُ الإصاباتِ فيها الأعلى في العالم؛ إذ تجاوز مليوني إصابة، توفِّي منهم

أكثرُ من ثمانين ألفاً! وكان تأثيرُهُ الاجتماعيُّ هناك صادماً، إذ تهافت المواطنون الأمريكيون إلى شراء الموادِّ الغذائيةِ وتخزينها، وأسرفوا في ذلك، فحدثت بينهم مشاداتٌ وماجراتٌ متعدِّدة، لا سيَّما بينَ النساء! وكان إقبالهم على شراء اللفافاتِ الورقية المستخدمة في الحمَّام شديداً! أما الأسلحةُ والذخائرُ الحربيَّةُ فقد اشتَرَوْها كلَّها، وفرغتَ الرفوفُ منها منذُ مدَّةٍ طويلة!

وهنا تظهر بعض الصفات الإيجابية التي يتحلى بها شعبُنا وكثيرٌ من الشعوب العربية، فلا أحد اهتمَّ بأن يشتريَ سلاحاً أو ذخيرةً، إذ لا أحدَ يتربَّصُ بأحد، وليس في شعبِنا من يخشى أن يقتحمَ عليه بيتُه! والحمدُ للهِ على فضلِه!

## 32

وبعدَ أن هدأت ضراوةُ الوباءِ نوعاً ما، شرعت حكومتنا في التنفيس عن المواطنين شيئاً فشيئاً، فسمحت للحوانيت الضخمة (السوبرماركتات) بافتتاحِ أبوابها، مع المحافظة على الدَّوْرِ، والمسافةِ الآمنة، ولبس الكمَّامات والقُفَّازات، وسمحت للمواطنين باستخدام سياراتهم يوماً بعدَ اليوم: إن كان الدورُ اليومَ للسيَّارات ذواتِ الأرقام الفردية، فسيكونُ غداً لذوات الأرقامِ الزوجية، وكان في هذا فَرَجٌ كبير!

وأيضاً سُمح بفتح صالوناتِ الحلاقة وصالونات التجميل، فتمكنتُ من أن أحلقَ شعري بعد تأخيرٍ طويل (نحوَ 75 يوماً)!

33

وأخيراً سُمح للمساجـدِ والكنائـس أن تفتحَ أبوابها لروَّادِها، بشروطٍ وقيود، كما رجع أغلبُ موظفي القطاعين العامِّ والخاصِّ إلى وظائفهم ودوامهم، وبدأ الاقتصادُ في التعافي ببطء!

وكانت خاتمةَ الأحزان لما أُذنَ للسيَّارات بالتحرُّكِ والتجوُّلِ بحرّيّةٍ من الصباحِ حتى منتصف الليل، وسُمِحَ للمواطنين بالتنقُّلِ والسفرِ إلى كافَّةِ محافظات المملكة، والحمدُ للهِ الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحات!

34

وهكذا أحسسنا بأنَّ هذا الوباءَ قد صار تحت السيطرة، وأنَّ مُرَّهُ قد مَرَّ عنَّا أو كاد، وأننا استعَدْنا حُرِّيتنا بعد نحوِ 3 شهورٍ من المعاناة!

ومع ذلك فإنَّ الحكومة خشيت من أن يشتدَّ إوارُ الوباءِ من جديد، فأصدرت تعليماتٍ مشدَّدةً لارتداء الكمّامات والقفَّازاتِ في السيَّارةِ والمحلَّاتِ التجاريَّةِ والمُنشئـاتِ العامَّة، مع التهديد بالغراماتِ الباهظة!

## 35

ومن حُسنِ الحظِّ أنَّ الوباء قد شرع في الانحسارِ في أغلبِ دول العالم، فتراجعت إيطاليا عن خط الدفاع الأول وواجهة نَشْراتِ الأخبار! أما الصين التي تسببت في هذه المعمعة فقد كانت السبَّاقة إلى تخفيف إجراءات الحظر والسماح للمواطنين بالسفر واستئناف الحياةِ الطبيعية، وكذلك تنشَّط اقتصادُها وبدأ يتسارع كعادته منذ أربعين سنة!

إلا أنها هذه الأيام عادت ففرضت الحصار على بعض أحياء العاصمة، بسبب ردَّةٍ وبائية مفاجئة!

وكذلك تباطأت وتيرة الوباء في إيران وتركيا، وغرب أوروبة التي رضي أغلبُ دولها بالسماح لمواطني الاتحاد الأوروبي بالتنقل بحرِّيَّةٍ داخلَ حُدوده.، ولكن لا يزالُ الوباء قويَّاً في روسيا، وتركيا، والولايات المتحدة الأمريكية، والبرازيل التي أنكر رئيسُها وجود الوباء فيها أولَ الأمر، فتمكّنَ الوباء واجتاح البلاد!

## 36

**ملخص الحكاية:**

والآن، وقد كادت قصتنا مع الوباء أن تصلَ إلى نهايتِها فلنلخِّصْ في رؤوس أقلام ما تبيَّناهُ منها:

**أولاً**: وباءُ الكورونا حقيقيٌّ لا شكَّ فيه، يُسبِّبه فيروس كوفيد ـ19

**ثانياً**: هذا الفيروس صناعيٌّ مركّب، ولم يتطور طبيعياً.

**ثالثاً**: الأرجحُ أنَّ الصين مسؤولةٌ عن تطويره في مدينة ووهان التي كانت أولَ ضحاياه!

**رابعاً**: استفادت الصين كثيراً من الوباء، فاشترت كثيراً من المصانع والشركات التي أسسها الأجانب في أرضها بثمنٍ بخس، وخسرت وفاة بعض المسنين!

**خامساً**: في الجملةِ كان معدل الوفيات أقلَّ بقليلٍ من 5 ٪، وقد اختلف من دولة لأخرى، فعندنا كان المعدل 1 ٪، ولله الحمد! وأكثر من توَّفوْا كانوا كباراً في السن، أما الأطفالُ فقلما أصابهم المرضُ أصلاً!

**سادساً**: الوقاية خيرٌ من العلاج، وأفضلُ الوقايةِ الجلوس في الشمس نصفَ ساعة كلَّ يوم، والعزلة والتباعد الاجتماعي، وغسل اليدين بالمطهرات، والإكثار من الليمون والثوم.

**سابعاً**: كانت الإصاباتُ في الوطن العربيِّ أقلَّ بكثير من الدول الأخرى، ويبدو أن هذا يعود لثلاثة أسباب: الشمس، والجينات، وتطعيم الأطفال الإجباريِّ في بلادنا.

**ثامناً**: الأشخاص الذين لديهم كميةٌ كافيةٌ من فيتامين (د) لا يكادُ يصيبهم المرض، فإن أصابهم كان تأثيره عليهم طفيفاً، أما الأشخاص الذين ينقصهم هذا الفيتامين فقد كانت مناعتهم ضعيفةً تجاهه.

**تاسعاً**: من أفضل العلاجات المنزلية لمن أصيبَ به هي العسل، وعصير الليمون، والثوم، والبصل!

# الوباء

أمجد نواس

## لهفة أمل

بعد الاستئذان بالدخول إلى مكتبي، وقف أمامي رجل وسيم، يضع كمامة على وجهه ويرتدي في يديه قفازات، وقال: أنا الدكتور خالد من فرقة تقصي الوباء يا سيد أبو مهند..اسمك فاروق ابو زيد.. ورد في قائمة المخالطين لنجوى رضوان المصابة بمرض» كوفيد19« الذي يُسببّه فيروس كورونا، والموجودة الآن في المستشفى المخصص لعزل المصابين... نحن نقوم بتقصي المخالطين ومخالطي المخالطين... سيتمّ فحصهم، ومن تكون نتيجته إيجابية سيتمّ تحويله للعزل، ومن تكون نتيجته سلبية سيخضع للحجر المنزلي لمدة أسبوعين وهي مدة الحضانة، وإن ظهرت أعراض... سنعاود الفحص مرة ثانية للتأكد من سلامتكم.....

ارتجفت ساقاي وأصبحتا غير قادرتين على حملي، اقشعرّ بدني وسرت فيه رعشة من الهلع، ثم جلستُ على أحد المقاعد القريبة،

وأكمل الدكتور خالد شرح الإجراءات الصحية من تعقيم ووقاية وأنا في ذهول تام.

تسارعت نبضات قلبي خوفاً من أن أكون مصاباً بذلك الفتّاك اللعين، وشعرت بالغثيان والقلق من أن أكون قد نقلت العدوى لأسرتي؟

تزاحمت في عقلي أسئلة كثيرة، وخوف مريع، ثم تبعها بعد أن تمالكت نفسي، بهجة لا توصف...

كيف أصيبت نجوى؟ لمن نقلت العدوى؟ هل أنا مصاب؟..

انتشر الهلع والفزع في قلوب سكّان العمارة، واختلط عليهم الأمر، واشتدّ قلق أهل بيتي، وطال الحي كلّه وهم يشاهدون إحكام الطوق بالمدرعات ورجال الأمن المسلحين، لإتمام الحصار لبؤرة الوباء.

وفي وقت قصير، وإذا الدنيا من حولنا ضجيج بأصوات مخيفة ترتجف لها النفس، وباتت علامات القلق والارتباك بادية على وجوه أهل الحي، فقد كانوا مهدّدين بكارثة شاملة لا يسلم منها أحد، بسبب نجوى رضوان البريئة المذنبة.

البهجة تفوق القلق؛ لأن عملي كمدير لموقع «لهفة أمل» الإخباري سيزدهر.. فمصائب قوم عند قوم فوائدُ...

عبقرية فاروق أنبتت فكرة تحديث الموقع لكسب الزوار وإعلانات

الشركات التجارية... توليد وتنقيح الويب مهمتي ومهارتي، وبإمكاني متابعتها من الحجر المفروض عليَّ بعد سلبية النتيجة لي ولأفراد أسرتي... وما تبقى هو جمع المعلومات وإدارة المحتوى... حصرياً ومن قلب الحدث، تبقى معضلة التعامل مع كشف مصدر المعلومات؟!

فهل ستقبل نجوى رضوان بالمخاطرة؟

يجب توظيف ذكاء نجوى وطموحها...المال قد يحلُّ بعض الصعوبات، وقد يبقى عالقاً حبها للشهرة!!

ساعات عديدة من التفكير والدراسة والتحليل.. أعدّلُ فيها السيناريوهات والخطط والبدائل، كي أقنعَ نجوى.

ولم أتردد بالاتصال بها هاتفياً، لكني تلقّيت لثلاثة أيام متتالية ذات الردّ» الرقم المطلوب غير متاح»...في اليوم الرابع ردّت أنها بخير، وبعد الاطمئنان على صحتها قلت لها: أنتِ من أفضل وأقدم الصحفيات العاملات في مؤسستي، لن أتخلى عنك، راتبك سيصلك دوما حتى الشفاء.

وبعد المجاملات، شرحت فكرتي، وطلبت منها تزويدي بتقارير عن المصابين المشاركين لها في العزل.

فقالت لي بهدوء ونبرة واثقة: ابعث لي بأفضل عرض ممكن، فأنا هنا أملك كنزاً، والعروض تنهال علي، ومن باب حسن النية سأرسل لك التقرير الأول، ولاتنسَ إرسال كميات محترمة من فيريرو روتشي وباتشي.

كنت أعرف تماماً أنها ليست سهلة! وأعرف أنها تحبّ شوكلاتة فيريرو روتشي، ولكن لم أعرف من ينافسني في استقطابها! ولماذا تطلب شوكلاتة باتشي؟

وبدأت أقرأ تقريرها: أنا المصابة (134) بمرض كورونا المتجدد، وأكتب لكم من مركز العزل، تعرضت لعدة صدمات، الصدمة الأولى حين أعلنوا أنّ الفيروس المتجدد سريع الانتشار ليس له مطعوم أو ترياق، أصابني قلق وتساءلت:هل سيصل إلينا الوباء؟...

الصدمة الثانية حين أعلنوا أنّ الوباء إلى بلادي وصل، والحجر أو العزل أياً كان هو السبيل، أصابني الخوف وتساءلت: هل سيصيني الفتّاك؟

كأنني كنت في سبات عميق، أحتاج إلى صدمات كي أفيق، كأنَّ عقلي أصابه ضرر، حين الوباء من حولي انتشر، فنالني من الوباء نصيب.

الصدمة الثالثة حين أعلنوا ارتفاع الإصابات وأول الوفيات، وصدرت تعليمات الحظر، أصابني أرق وتساءلت:هل سنعود للحياة؟

فأجابني صدى صوتي: قد نفقد الأمل.

الصدمة الأخيرة حين الجميع من حولي وصفوا حالتي بالهلع... لقد أَعطِوني قناعاً أخضر به قليل من الأسلاك حول الأنف لإبقائه مستقيما، نقلوني إلى وحدة يبدو أنها لمرضى كوفيد ـ 19. تمَّ تطبيق العزل، قال لي طبيبي «ليس بإمكاننا أن نفحص كلَّ شخص، لكن

من الأفضل لحين ظهور النتيجة التعامل معك على أنّك مصابة... كان الألم الذي شعرت به هو التهاب في رئتي، أتناول مسكنات الألم والفيتامينات، وأنتظر الفرج كما كل البشر، وأنا الآن في قلب الحدث، أعيش دهشة الاشمئزاز، وسعادة الغضب... ولمعرفة كيف انتقلت لي العدوى؟!

تابعونا يومياً على موقع «لهفة أمل» لموافاتكم بما لم يعلن من حقائق، تنقلها مندوبتنا «بلسم تشفير»

## من قلب الحدث

انتهى دور البطولة لفاروق أبو زيد بعد الموافقة على شروطي كاملة موثقة بواسطة محامي، ومحبوكة بشرط جزائي قاسي لايُمكِّنه من التنصل، ثلاثة أضعاف الراتب ونسبة 30 ٪ من إيرادات الإعلانات، وتفاصيل أخرى منها التشويق والترويج للموقع، والأهم عدم كشف هويتي.

أصبحت أنا نجوى رضوان البطلة الحقيقية من داخل قسم العزل، لي حق المخالطة مع المعزولين مثلي لنفس الأسباب، مع مراعاة الفروق، بالرغم من أوجه الشبه، يجمعنا الخوف من الغموض الآتي... والبحث عن فرصة، والكل يهاب من شيء ما يختلف فيه مع الآخرين.

أكثر ما كنت أهابه أن تنكشف هويتي المهنية؛ لاعتقادي أني سأخسر

عملي كصحفية تعتمد على تميّز المعلومات وتحقيق السبق، فكان لازماً الكذب، وانتحال هوية مهنية لا تثير الشك، وتوظيف ذكائي لحماية مصدر رزقي بغية البقاء على مسافة مقنعة في بيئة صادقة للضفر بأبطال يسردون همومهم وأحزانهم، وتجميع مخزون إنساني بنبض يشارك ذهني ووجداني.

اخترعت وظيفة وهمية تجلعني بمنأى عن الكذب، وقريبة من الواقع ولا تثير الشكوك، سميتها سكرتيرة سلوك النزاهة الثقافية لمن يسألني عن عملي، وتساعدني في كسب ثقتهم للبوح بمعاناتهم.

كيف لهذا الجحيم أن يكون نعيماً؟!

عزلتي كانت سعادة مطلقة، كأنني في فردوس به حديقة أشواك، مصيبة الوباء قهر للعموم، ونعمة للاستثناء، فالكتابة الإبداعية تحتاج إلى عزلة اختيارية لاختراع وتقمص الشخصيات، أما العزل الإجباري فيقدمهم لي طبق من ماس، فمن حولي شخصيات واقعية بملامح أتيح لي أن أتعايش معهم، ومعرفة تفاصيل لم تكن في الحسبان، وما يشغل بالي كيف لأعمالي أن تُروّس باسمي «نجوى رضوان»؟

فأنا لا أحبّ أن أكون نكرة!

براعتي في دقة الملاحظة والالتقاط لمادة خصبة، تتطلب بناء علاقات واسعة مع كل من حولي، كما تتطلب فطنة ودهاء.. تجربة تشبه من يتذوق الزرنيخ باتزان بالغ كي لا يموت، فكل شيء من حولي تحت طائلة المسؤولية.

قسم العزل مجتمع قائم بذاته، غيتو من نوع خاص، تسمى «المستوطنة الموبؤة» أو المنطقة الحمراء، بها مئات المصابين موزعين في غرف، بعضهم أقارب، وعائلات، وأصدقاء، ومعارف يتزاورون، يتنقلون بلا كمامات أو قفازات أو تباعد، إلا عند الخروج لإجراء صورة شعاعية، يتفقدنا كادرالعافية بثياب تشبه رداء روّاد الفضاء، لكنه قابل للإتلاف فور خروجهم، ويمارسون طقوساً معقدة من التعقيم بعد مخالطتنا نحن الملوثين.

الشيء الوحيد الذي تراه من أجسادهم هي العيون، وعليك امتلاك فراسة من نوع فريد، للتركيز في حدقة وبؤرة عيونهم من خلف النظارات الواقية، لفك رموز مشاعرهم، بينما معظمهم يحاول ألا تلتقيَ عيناه مباشرة مع عيونك من شدة الخوف.

في غرفتي ست نساء، تقابلني سعاد، وفاطمة، وإيمان، والأهم على يميني ظلال، وعلى يساري شروق، تفرقهم تفاصيل، بعضهن شفاف منفتح، وبعضهن غامض أو كتوم، بعضهن بحالة متوسطة، وأخريات يتماثلن للشفاء، وإحداهن ترتدي قناعاً، يجمعهن وباء، تفرقهن ثقافة، ويتفقْن على الرغبة في الخلاص.

أجمل ما في الغرفة هو الشرفة الممتدة، كممرْ خلفي متصل بجميع الغرف، ويطلّ على ساحة المستشفى، سميّتها مستودع الأسرار،

في نهاية الممر غرفة تقطنها السيدة «سارة» التي حيّرت الأطباء في مصيرها، يتوافد إليها جميع الاستشاريين، من كافة الإختصاصات، كلٌّ يدلو بعلمه، ورأيه، وخبرته.

تُردّد شروق دوماً أنّها ضحية قبلة اشتياق وأكثر! أما ظلال فمظهرها يدلّ على أنّها فتاة محترمة، لكنّها متحررة، ترتدي قناعاً، قليلة الكلام، تنام النهار، وتسهر الليل، قليلة الأكل، تنهم الشوكلاتة والسجائر، وتشعر كأنّها نمر شرس.

كنت أكتب تقريري الإخباري من سريري، وكل من حولي نائم، وأستذكر حديثي مع «فاطمة «النائمة على السريرالمقابل لسريري، عاملة النسيج في أحد المصانع، حين قالت: نحن خائفون من الجوع أكثر من خوفنا من عدوى الفيروس، علينا أن نذعن لحقيقة أنّ هذا الفيروس، أيا تكن أسباب ظهوره، يحمل رسالة ينبغي أن تقرأها البشرية بكلّ وضوح.. فها هو قد تفشى وانتشرفي وقت طغى فيه العباد في كلّ البلاد، وأكثروا فيها الظّلم والفساد، وتكبّروا على من أهلك قوم نوح، وقوم عاد، كورونا أقنعنا بأنَّ امتناع المرأة المسلمة عن مصافحة الرجال، وامتناع الرجل المسلم عن مصافحة النساء، ليس تخلّفاً، إنّما هو وقاية من الفتنة، وأقنع من أراد أن يقتنع بأنَّ حجاب المرأة المسلمة حصن لها من الفتنة، كما أنَّ ارتداء الكمامة حصن ووقاية من الفيروسات.

وقبل أن يكتمل تقريري، فجأة أصابني ذعر.. ارتعدت أوصالي، وعقل الخوف لساني، وتسمّرتُ على سريري لبرهة عندما سمعت صراخاً قوياً مَزّق أحشاء السكون، توالى الصوت المرعب، فاضطربتُ وارتعشتُ من شدّة الخوف، وجمدت قوائمي فلم أستطع أن أهرب أو أصيح.

نهضت نحوها وأيقظتها من الكابوس، هبّت «ظلال» من النوم مذعورة وهي ترتعد من الخوف وتضطرب من الفزع والرعب.

أعطيتها جرعة ماء، ثم حضنتها برقّة، قبلتها ومسحت دموعها بمنديلي وقلت لها: لاتخافي كان حلماً مزعجاً.

نظرت إلي والشحوب على وجهها، وقالت في صوت مضطرب: شكراً..

ضممتها إلى صدري أكثر، داعبت خصلات شعرها الأسود المتموج البراق لدقائق حتى عاد لها الهدوء، تقلّص في مقلتيها الضياء، واقتربت اللحظة الفاصلة من أصدق عناق.

باتت مثل دمية وديعة بين يديّ، طلبت منها غسل وجهها، ودعوتها لتناول القهوة على الشرفة (مستودع الأسرار)، فوافقت بلا تردد كحمل وديع..

كانت بطيئة تتهادى، مقتصدة في مشيها، واثقة في خطاها، جلستْ أمامي وقدمتُ لها القهوة مع شكولاتة باتشي، فابتسمت وهي تنظر لي باستغراب

وقالت: إنّها المفضّلة لي.

هزّت برأسها وأكملت: أنتِ ذكية

كان الكابوس مفتاح التواصل مع «ظلال»، لكنني أحتاج لطول نفس لكسب ثقتها، ودليل إرشادي لفكّ شيفراتها.

ظلّت تكرّر سؤالها لعدة مرات لمعرفة ماذا قالت أثناء الكابوس؟

كنت أطمئنها بأنها لم تقل شيئاً سوى الصراخ.

عاد إليها الهدوء، وقالت وهي تنهم شكولاتة باتشي التي تحب: يا نجوى... حين كنت طفلة، لم يكن باستطاعتي تناول أسوأ أنواع الشوكلاتة إلا بصعوبة... والدي كان يعمل موزعاً للبضائع إلى البقالات، يعطي نصف راتبه لأمي كي تدير أمور البيت كاملة.. بما فيها مصاريف أشقائي الاثنين وشقيقاتي الثلاث... كنت أشاهده يتحرش بالنساء ويواعدهن حين يوصلني للمدرسة.. ويفرض علينا أحكاماً عرفية.. عشت في ظل خطاب الكراهية وهو يردد «همّ البنات للممات»... كنت كما الجميع أطيع أوامره.. وفي أعماقي كنت أكرهه وأبحث عن فرصة للتحدي...أحبُّ الرقص وأتقنه.. وكلما شاهدني أرقص يضربني.. وفي الخفاء أعمل ما أريد...في الكلية كنت متفوقة في كلّ شيء... تحرشت بما شئت من الرجال، وضاجعت من أردت.. لم يستعصِ عليَّ أحد.. أجبروني على الزواج من باب السترة من شخص

بخيل تافه.. لم يدم زواجنا أسبوعاً حتى تطلّقت منه وتحرّرت.. أصيب والدي بجلطة دماغية.

كنت أصغي لها باهتمام بالغ.. كأنها كانت تنتظر هذة اللحظة كي تفرغ ما أثقل صدرها لسنين، وأشعر باستغراب لأحداث يستعصي حصولها في مجتمع شرقي محافظ، وفي خلدي تدور أسئلة عديدة!

تشعل «ظلال» سيجارة أخرى وتكمل: واحد فقط أحببت فية كلَّ ما فيه.. كان أول رجل أحصل على النشوة معه، لم يعاملني كأنثى، عاملني كإنسان، كنت معه عشتار وفينوس وبلقيس، الوحيد الذي قلت له أنا أحبك.. كان يقول لي عقلك أكبر من صدرك، فأفتخر أني أنثى.

كأنني أقرأ رواية في قمة التشويق لكاتب فذ، تتساءل في كل جملة عن تفاصيل وتوقعات للأحداث، ويقودك البطل إلى متاهات من الورود والاشواك.

وتتابع «ظلال» وهي تنفث الدخان من فمها على شكل حلقات وتقول: كان يعمل شيفاً في مطعم فاخر، كنت أتردّد عليه، وسيم ناضج، يتحكم بغريزته بدهاء عاقل، كدت الوصول معه لمرحلة اليأس من محاولاتي المتكررة، وكانت موافقته على مبادرتي بطلب مني لدعوتي لمنزله لتناول وجبة يبدعها خارجة عن المألوف، هي المنقذ لفشلي، ربما وافق لإبراز ابتكاراته ليبهرني كما حصل فعلاً.

صمتت عن الكلام برهة كأنها تستعيد شريط الذكريات، بينما أنا في حيرة وشوق، هل أسأل وأرضي فضولي أم أكبح رغبتي في معرفة التطورات، ولم تطل حيرتي وأكملت: كان يضع لمساته الأخيرة على ما أعدّه في مطبخه حين عانقته وقبلته وشكرته على الدعوة وتركته لمشاهدة شقته بعد أن استأذنته ليتابع عمله.

دخلت غرفة نومه، خلعت ثيابي وأصبحت عارية إلا من قميصه، وخرجت لأحتسي لأول مرة النبيذ معه... أودعته كلَّ مافي صدري من حبّ وحنان وشوق، كان ماهراً في العناق، متقناً للقبل، تقلبنا في زوبعة السعادة نرتشف النشوة...رعشة تلك الليلة ذروة مشاعر الفرح والمتعة... إحساس خاطف باللذة وذوبان عذب ورقيق.. حالة روحية سامية لم أعِشْها من قبل، إيقاع إثارة وتصاعد وحماسة لم أشهد لها مثيل... التأوة كان تلك الليلة حقيقياً بينما كان من قبل مصطنعاً، فاتخدت قرار المبيت بعد قرع طبول النصر.

لماذا ارتدت قميصه؟ وماذا أبدع في الطهي؟ وكيف أصابها الوباء؟

التهمت «ظلال» كمية الشكولاتة، فنهضتُ على الفور وأحضرتُ كمية أخرى لإطالة جلستي معها طالما أبدت استعداداً للحديث طواعية... عدت وقلت لها: سهرتنا طويلة... تفضلي.. لدي كميات كبيرة..

جلست وسألتها سؤالي العفوي.. ماذا تعملين؟

بجرأة ملفتة، وصوت مهذب قالت: أنا عاهرة...وبلغة مؤدبة راقصة... وبلهجة راقية أنا فنانة.. وبتشخيص صحي أنا موبؤة..

أربكتني بما سمعت، وأدهشتني من حديثها، وأذهلتني جرأتها، ابتسمت لها، وأكملت: لم يغتصبني أحد، ولم يرغمني أحد على ذلك، كما أني لا أحب حكايات العاهرات اللواتي يلبسن دور الضحية. لم تكن لي بدايات جنسية، بل كانت لي ملامسات استطلاعية واستكشافية للجنس الذكري، كثيراً ما أسمع أنَّ للأنثى أسراراً، لكني لا أعطي هذه المقولة أهمية، جنيت المال، وأكملت دراستي الجامعية، والآن أعدُّ لرسالة الماجستير.

بلا عناء لفكّ الشيفرة، أو حاجة لدليل، دون اللجوء لسحر أو شعوذة، لم يكن القناع للاختباء بل مانعاً للحسد، باتت الظلال ماركة مسجلة بنسخة فريدة بين جدران الوباء.

من هول الدهشة، استمرّ حاجبايَ في الصعود، وأكملت «ظلال» وقالت: مع كل تجاربي، لم أكتشف بعد كامل الأسرار الجنسية للرجل، وهذا في حدّ ذاته محفز لي للاستمرار في عملية الاكتشاف، فالحقيقة غامضة وهذا ما يجعلها مثيرة، نعم أجني كثيراً من المال، لكنَّ المال لا يهمّ.

بطريقة فارقة تنقشع الغفلة، تحلّ اليقظة، ويتجلى التبصّر، وتقودني الدهشة إلى التفكير... هل تساقط الحياء؟

كم كنت ساذجة أو مغفلة حين كنت أغرق في الحدث اليومي ضمن إطار، كسياج يحجب الرؤية إلى ما هو أبعد، لقد فتحت «ظلال» لي أفقاً لم يكن في الحسبان، وسألتها بتعجب: ولكنْ هناك بيع للجسد!!

ردّت قائلة: وهل تعتقدي أنَّ الدعارة هي الشيء الوحيد الذي يتمّ فيه البيع؟!

الأوطان تباع.. المواقف تباع.. الأصوات تباع.. التواقيع تباع.. الضمير يباع.. كلّها دعارة.. وهي أبشع وأحط وأقذر من دعارة الجسد..أنا عاهرة.. آخذ حقي عندما أبيع جسدي مؤقتاً لساعات بعدها أستحم وأتطهر.. لكنهم يبيعون بيعاً دائماً وبثمن بخس.. علناً بدون حياء أو خجل، نحن ضحايا الفقر نمارس البغاء، نحن ضحايا المرض نتعرض للوباء، ونحن ضحايا الجهل نعيش في ظل البلاء..

من البغاء قد نرتدع، من الوباء قد نتعافى، ولكن كيف ننجو من البلاء؟

توقفت «ظلال» عن الكلام مع خيوط الفجر، تثاءبت واستأذنت للخلود إلى النوم، تركتني في حيرة وحزم بين عديد من الأسئلة!

كتبت على صفحتي على الفيس بوك «حوار سريع مع عاهرة»، ولم أتوقع الكم الهائل من المشاهدات واللايكات والتعليقات لدرجة أن الموضوع تحوّل إلى حلبة صراع فكري بين الإسلاميين والعلمانيين ومناقشة عامة لحل وفك لغز الفضول الذي يحمل الناس عامة لمعرفة أخبار العاهرات.

نامت «ظلال»، واستيقظت «شروق»، وفقدت الرغبة في النوم، جلسنا في مستودع الأسرار نحتسي القهوة من جديد، أنا في حيرة وهي في لهفة... تنتظر استيقاظ صديقها سفيان المصاب بالوباء والنائم في قسم عزل الرجال كي تذهب اليه، رغم أنه المسبب لنقل العدوى إليها، فما زالت تحبه.

في زمن الوباء يصبح الحب وسيلة عدوى!

بدأت شروق بقراءة نص كتبه صديقها سفيان على الفيس بوك وتعتبره معبراً جداً عما نعانيه، يقول: "هو مسيحي لكن كويس.. هي امرأة لكن أخت رجال.. هو فلاح لكن عنده ذوق.. هو بدوي لكن بيفهم.. هو أبوه بوّاب لكن طلع الأول.. هي سمرة لكن حلوة.. هي محجبة لكن هاي كلاس.. هي مش محجبة لكن محترمة.. هو مجتمع عنصري لكن محافظ... أتحدى أي مواطن لم يقل يوماً فقرة من فقرات النص السابق، فإذا تأملنا سنجد أننا فعلاً مجتمع لديه انفصام فى الشخصية، يفعل عكس ما يقول.. ويقول عكس ما يفعل.. فيظل الشاب يصادق فتاة عدة سنوات ويعيش معها قصة حب، وعندما ينوي الزواج يذهب ليتزوج بأخرى، نتحدث عن المثل والأخلاق الحميدة، ونحن لا نمارسها، نحرص على الصلاة ولا ننفّذ تعاليمها، نتحدث عن العدالة ونحن متحيزون، ننتقد الواسطة ونسعى إليها».

فرغت شروق من القراءة وسألتها: كيف أصابه الفيروس؟

أجابت قائلة: كان سفيان واثقاً تقريباً من أنه أصيب بفيروس كورونا خلال أحد الحفلات مع فرقته الموسيقية قبل أسابيع قليلة مضت، وكانوا متقيدين بإجراءات التباعد، لكن في تلك الحفلة حضر عدد كبير من الناس، بدت على بعضهم أعراض تشبه الإنفلونزا... وخلال الأيام العشرة التالية، تدهورت صحته، واعتقد أنّ وقته قد اقترب.. كان مرعوباً... فقد أهم ما يملك... فقد صوته..لازمته بحة مزعجة.

ومضت قائلة: «لم يكن الأمر واضحاً في البداية. كان يعاني من صعوبة في التنفس عندما يحاول الصعود على الدرج، مثل رجل مسن، وسرعان ما افتقد القدرة على ممارسة الرياضة والحركة على الإطلاق. كان الفيروس يهاجم رئته وكان يفتقد القدرة على المقاومة إلى أن اتصلت أسرته برقم الطوارئ ونُقل إلى المستشفى.

رنَّ هاتفها... خفق قلبها.. تعطرت «شروق» وباتت تفوح عطراً جميلاً، لا يخطئه أنف «سفيان» الذي تحب، ليس لأنه أقوى الرجال، ولا أوسمهم، ولا أغناهم، بل لأنه هو بضعفه وقوته، من خفق قلبها لعطره، فالحب ليس استعراض قوة، لكنه طاقة عطاء دافئة مستمرة، رغم أنة وسيلة من وسائل انتقال عدوى الوباء.

هُرِعت إليه... بينما الناطق الرسمي للحكومة يقول على التلفاز: إنَّ الحكومة تراهن على وعي الشعب...

دخلت «إيمان» إلى مستودع الأسرار وهي تقول: أي وعي هذا؟!

جلست إلى جانبي وأكملت بنبرة عالية ولهجة محكية وبغضب: «بيروحوا رحلة وبيتركوا وراهم مزبلة، بيرموا علب البيبسي من شباك السيارة، بس ينزل الثلج بتصير طوابير على المخابز، وبيحشر حاله أول الطابور وبيشتري شوال، وبيكون مسكر عليك بصَفّة سيارته، ماحدا يحكي شعبنا واعي وبنراهن عليه..طز عليكم»

ثم نهضت وذهبت إلى الحمام وهي تتمتم، ساخرة متألمة...

بدأت حكاية «إيمان»، زميلتي رقم (97) في الوباء، البالغة من العمر 29 عاماً، في العطس والسعال وأصبحت تعاني من صعوبة في التنفس بشكل متزايد، بدت أعراض شبيهة بالإنفلونزا، فحوّلها مدير عملها إلى الطبيب الذي أعطاها المسكنات، واستراحة في البيت ومراجعة المستشفى إن تزايدت الأعراض، فاستبدّ بها العتب من طبيبها والقلق من طبيعة عملها. وفي غضون أيام، كانت تجد صعوبة في المشي... شعرت أنّها ستكون معرضة للخطر إذا أصيبت بوباء «كوفيد-19» لأنها تعاني من مرض مزمن في الكلى وقبل خمس سنوات أزيلت إحدى كليتيها.

ازداد الألم في أضلعها وظهرها وبطنها، كمن تعرّض للضرب المبرح... وقبل يومين من إعلان الإغلاق التام للمدينة، قادها زوجها إلى قسم الطوارئ، وحين أكّد الطبيب إصابتها بالوباء، أبلغته بأنها لم

تواجه مشكلات في التنفس من قبل أن تعطس مسافرة فليبينية أمامها في المطار حيث تعمل هناك، وأبلغت الطبيب بذلك، لكنّه استبعد الوباء، لم تكن ترتدي قفازات وكمامة، وطلبوا منها الغفران لبطء التشخيص؛ لأن الوباء حديث، ولم تكن تتوفر أجهزة فحص دقيقة.

أدخلت قسم العزل، بينما أصرّ الأطباء على فحص كافة المخالطين لها، فربما نقلوا لها الفيروس أو نقلته لهم دون وعي.. وهي تتماثل بعد مكوثها أسبوعين في العزل للشفاء.. رغم أنها تعاني ألماً أثناء المشي، وتنام لما يصل 18 ساعة في اليوم، وأحياناً تعاني من نوبات السعال، لكنّها تتنفس بشكل أسهل.

دخلت «أم شفيق» عاملة النظافة تحمل علبة حلويات، وقالت: تفضّلي.. حلوان السيدة سارة... جابت بنت...سيتم اليوم إطلاق سراح المرضى (67) و(113).. عقبال عندك...

هكذا تتمّ الأمور... العزل والسجن سيان، المسجون والموبوء سيان، الإفراج والشفاء سيان...

لايهمّ كيف تمت ولادة مصابة بالوباء؟ هل وصل الفيروس للجنين في بطن امة أم لم يصبه أذى؟ وهل الرضاعة ستوذيه؟ ماذا حلَّ بالمولودة؟..أسئلة لم يكن بمقدور «أم شفيق» الإجابة عليها، فاكتفيتُ بتناول قطعة حلوى، وسألتها عن معاني الأرقام، فقالت «أم حسين» و«ظلال».

هكذا تجري أيام العزل، تتنقل مشاعرك بين الأسى والفرح، بين

الألم والأمل، بين مضاعفات قد تحدث للبعض وبين شفاء... تكتمل قصص البعض وتطوى بعض الحكايات... وظبّت «ظلال» حقيبتها، أعطتني رقم هاتفها، طبعت على وجنتي قبلة، وغادرت.

عاصرت «أم شفيق» الوباء منذ أيامه الأولى، تحدد منسوب القلق في سباق الرعب حسب معاييرها، نقص القفازات... إخفاق، ارتفاع النتائج السلبية... نجاح، لكنها تنقل لي كل يوم الأخبار المصحوبة بتحليلها، تتحدث دوماً عن عائلتها، غضبها من عدم قدرة «أبو شفيق» على التأقلم، وفرحها لتأقلم ابنها «شفيق» وانخراطه في مجموعة تطوعية لإيصال الخبز والدواء في ظروف منع التجوال، تؤكد ثقتها بإجراءات الحكومة في مكافحة الوباء، وتغضب عليها من تدني الرواتب، تصف المصابين من العرس الذي تفشى منه الوباء بالأبرياء، وتلعن سائق الشاحنة لأنَّه نشر الوباء.

هل يمكن في زمن الوباء تصنيف الضحايا إلى مذنبين وأبرياء؟

سألت الدكتور «نادر» أثناء جولته اليومية هل تشعر بالقلق مثلنا! فقال لي: أعتقد أنَّ هناك ما يبرر القلق، أشعر وكأني طبيب في وقت الحرب، أنا قلق على زملائي الذين لديهم مشاكل في المناعة، أو مشاكل في الجهاز التنفسي. نحن نبذل قصارى جهدنا لتجنب الإصابة، نعم أنا قلق من التقاط العدوى ونقلها إلى عائلاتنا.

وأكمل: لن نجازف بالتضحية بأنفسنا عبر العمل من دون معدات الحماية الشخصية، أنا أرفض فعل ذلك. إذا نفدت الكمامات منا، لا

أعرف ماذا سأفعل، ستكون معضلة أخلاقية كبيرة، البعض يرتدون أردية وأغطية أحذية صُنعت من أكياس النفايات، وكمامات واقية صُنعت باستخدام مختلف الأدوات، إننا نشهد ونحن إلى جانب المصابين، أخطر عواقب هذا المرض، فكيف لا نخاف منه؟ والغريب أنني عندما أعمل لا أفكّر كثيراً في كلّ ما يحيط «بكوفيد 19». أعتقد أنَّ هذه آلية دفاعية طورتها للتعامل مع هذا الوضع، أركز على رعاية مرضاي وبمجرد انتهاء الوردية، فإنَّ آلية الدفاع هذه «تتوقف»، وأفكر في المخاطر التي أعرّض نفسي لها يوماً بعد يوم.

وختم حديثه قائلاً: لا نتحدث بشأن هل أننا سنصاب بالمرض، بل متى سنصاب به، وبالرغم من المخاطر، للأسف سيخصمون من رواتبنا....الثقة في حجر الفنادق باتت مراهقة في المعابر، وعرق كادر العافية.

في موعد توزيع الدواء سألت الممرضة «ختام» ذات السؤال فقالت: إنَّ الأجواء حارّة جداً بفعل كل تلك الأردية البلاستيكية التي نرتديها، كما أنه لا يمكنك سوى التحدث إلى الأقارب فقط على الهاتف، وأشعر بالقلق من الإصابة بالعدوى جراء احتمال خلع أداة ربما تكون ملوثة، ومعاودة ارتدائها مرة أخرى... لا يمكنك رؤية الجسيمات الدقيقة (الفيروسات)... إنها ليست مثل طلاء أحمر يمكنك رؤيته فتعتقد أنَّ بعضاً منه لوَّث ثيابك، كأنَّ شيئاً ينسكب، وليس ثمة

ما ينذرك من وصوله إليك. نعم أنا قلقة جداً بشأن تلوّث خفيّ، كمن يقوم بمحاولة القيام بعمل الخير الذي قد يتسبّب له بالضرر.

في العزل تسهر ولا تشعر بنقاء أشعة القمر وهي تنير وادي الظُلمة في زمن الخمول، تسعى لنيل الحرية بأسرع ما يمكن.. لكنك تخضع لبروتوكلات... كالسجين الذي ينتظر أمر القاضي بالإفراج المشروط بملازمة منزله تحت طائلة المسوؤلية.

«سارة» الموبؤة، أم تتحلى بالأمل، أنجبت حلمها في حاضنة معزولة، لاتستطيع حضنه، أو إرضاعة.. سمح لها أن تراه عن بعد، إن لم ينتقل الوباء من المشيمة، فقد ينتقل له من الرضاعة والقبل.

«فاطمة» الموبؤة، عاملة تتحلى بالأمل، تعاني الشقاء لتأمين لقمة العيش مؤمنة أن البلاء والوباء سببهما فيروس الابتعاد عن الله.

«ظلال» الموبئة، عاهرة تتحلى بالأمل، ضحية خطاب الكراهية في مجتمع ذكوري، تنتقم بطريقتها، تتمرد وتتحدى في بيئة محافظة، وتتمنى الشفاء لتعود لجني المال والمرح.

«شروق» الموبؤة، عاشقة تتحلى بالأمل، تؤمن بالحب كإبداع الطبيعة، تردد أغاني العشيق «سفيان» وتتمنى شفاء مصدر قوته ليعود إلى الغناء.

وأنا الموبؤة، مثلي مثلهن أتحلى بالأمل، كلنا أرقام في تعداد الوباء، نختلف في رؤية كل ما حولنا، يجمعنا وباء، تفرقنا وجهات النظر، وكلنا ينتظر الفرج.

بعد ثلاثة أسابيع تماثلت للشفاء، غادرت المستشفى إلى بيتي، وتلافيف دماغي مليئة بالذكريات المأساوية التي ستترك أثراً حتى بعد انتهاء الكابوس.

## من العزل إلى الحجر

لا يختلف العزل عن الحجر سوى المكان، استيقظت من غفوتي من على الأريكة في صالون منزلي، أزحت الغطاء، وعرفت أنها هي من وضعه على جسدي، فهي كسيرة الفؤاد، غاضبة الملامح، راضية القلب عاقلة.

كانت أمي كالزهرة التي نبتت في حضن الجبل، تربت وسط الشقوق، ونشأت بين الصخور، فكانت صلبة العود، لَم يكسرها إلا موت أبي، وقد نفعتني أخلاقها تلك، علمتني كيف أصبر وقت المحن، وكيف أتصرف حين أواجه حياة الغاب.

سمعت صوتاً ما يصر على إزعاجي، لا يهدأ من قرع الجرس بنغمة قديمة، لها رنين بصدى مدويّ لنجاح لهفة أمل.

لا يهمّ، المهم أنَّ ذلك الإصدار به نذر اختراق الحجر بالرغم ممّا يعانيه من شيخوخة، لكنك تشعر معه ببقية من نَبضٍ وإخلاص عجيب.

الرد الهاتفي على مديري أبي مهند له طقوس، إلا هذة المرة، فقد قال لي على الفور: تصريحك جاهز يا نجوى.

في زمن الحظر يصبح التنقل بحاجة إلى تصريح لتستعيد به حريتك، أو جزءاً منها...

تابعت مستجدات تفشي الفيروس في العالم... كل له طريقته للنجاة، لم يعد الموت فردياً بل جماعياً، فتساقطت في حفرته الكثير من مشاعر الفقد والحزن والألم التي كانت تلف عباءتها السوداء حول مودعيه، ولم يعد باستطاعة أحد فعل شيء على الإطلاق. مع أنَّ حصيلة الوفيات الناجمة عن الإصابة بفيروس كورونا في ارتفاع مطرد، تتحسن صحة معظم المصابين به.

هذا ما كتبته في نهاية تقريري الإخباري للموقع الذي أعمل فيه كمحررة للشؤون الصحية.

سمعت صوت مديري في العمل من خلفي يقول: ماهو جديد الكورونا يا نجوى.

التفتُّ اليه وهو يرتدي كمامة وقفازات وقلت: من تحدثت إليهم في مراحل مختلفة من العمر، ويتماثلون للشفاء بينما يعيشون في عزلة ذاتية بعيداً عن الآخرين.. أرسلت لك الموضوعات بالبريد الإألكتروني، واختر ما تشاء لنشرها.. ثم قلت: كل زملائي يعملون عن بعد إلا أنا أتعرّض للمخاطر وأتوقّع منك علاوة..

كان ردّه سريعاً وقال: لقد استوفيتِ جميع العلاوات حسب نظام المؤسسة.

فقلت له: استحدثْ علاوة مخاطر الكورونا

سمعته يضحك ويقول: سأذهب لقراءة ما كتبتِ

الساعة الآن الثانية عشرة ليلاً، والكهرباء في هذة الليلة مقطوعة، وليس هناك سوى شمعة نحيلة تموت رويداً رويداً، فضوءُها الخافت يحاول النهوض عبر مسارات الزمن، يجاهد لينفض الغبار عن أشعته، وكلما مرَّ الوقت، يذوب متراقصاً تاركاً في النفس آثاراً لشبح الموت.

«لم يُسمح لأي شخص بالحضور لرؤيتي، لقد شعرت بوحدة قاتلة، وأوقات مظلمة، لقد لزمت سريري ليومين أو ثلاثة أيام في العناية المكثفة، لم أتمكن حتى من الذهاب إلى الحمام، إذا أرادوا تغيير ملاءات السرير، كان عليهم أن يقلبوني على الجهة الأخرى.

عندما أجد صعوبة في التنفس، أطلب المساعدة، وكان عليَّ أن أنتظر حتى يرتدوا معداتهم الواقية قبل أن يأتوا إلي، كنت دائما أبذل جهداً للحفاظ على هدوئي، كنت خائفة من احتمال موتي وأستعدّ للأسوأ.

كنت أجد صعوبة مع كل نَفَسٍ استنشقه، أقاوم بعناء من أجل الحفاظ على حياتي، عرفت معنى الإرادة، وتسلّحت بالأمل.

فرحة كادر العافية فاقت فرحتي حين تماثلت حالتي للاستقرار،

انتقلت إلى قسم العزل، حتى تماثلت تماماً للشفاء، وقبل المغادرة تعهدت الالتزام بالحجر المنزلي.

توجّهت بالسيارة إلى منزلي، وأنا أرتدي قناع الوجه وقفازات، بينما نوافذ السيارة مفتوحة، كان النسيم رائعاً... لن أنسى أبداً الهواء النقي والبارد عندما غادرت المستشفى... لقد صرتُ فجأة أقدِّر أبسط الأشياء، لقد أصبحت أقوى من ذي قبل.

أصابني فيروس كورونا في صالون تجميل حين التقيت صديقة عائدة من إيطاليا، حدّثتني حينها عن جمال فينيسيا، وطبعت على وجهي بصمة الوباء.

أعلم على وجه اليقين حقيقة ما جرى، وأعلم أنّ التزامي لم ينقل لغيري الوباء.

المحنة تحدي، كنت محبطة أرقص على حافة الوجع، أتوسد حضناً لا يجيد مواساتي، أخذت الهواجس تساور يقيني، ثم اشتدّ بي الخوف، كان تلك الأحاديث تثير في نفسي الرهبة، ذُعرت ممّا شاهدت في العزل، واقتنعتُ أن البلاء والوباء والبغاء نتيجة لا سبب... إن أردنا القضاء عليه، يجب القضاء على أسبابه. الفيروس يرتكب الرذيلة، ينتج عنه أذى يرتدي ثوب الطهارة، إن التصق بثوبي، سوف أتطهَّر منه بعد حين.

البغاء والوباء والبلاء، ثمار لأشجار خبيثة إن لم تقتلع تلك الأشجار

من جذورها ستستمر بإنتاج الثمار وبعضها يتطور ويتجدد.

تماماً كمجرى ماء إن لم تفلح في إحكام إغلاقه، فسوف يتسرّب ويتسلّل في الخفاء.

هذا ما حدث معي...ولم تنتهِ الحكاية، وكما أتلهف لموافاتكم بكل جديد، أتلهف إلى نهاية الوباء.. تابعونا في لهفة أمل.. مراسلتكم نجوى رضوان.

## يوميات زمن الكورونا

حسن عبد الفتاح ناجي

لم أفكر يوماً من الأيام أن ألتقيني، بعد أن أبعدتني عني السنوات، تركتُني منذ فترة طويلة ولم أعد إليّ، ولم أسمع يوماً نداءً يطالبني بالعودة إليّ، وما خطر ببالي أن أتصل بي وأحاول تحديد موعدٍ للقائي، لم أفكر بي، حتى ظننت أنني نسيتني، أخذني مني من أعرفهم إليهم، كنت قريباً منهم، ربما في لحظات عابرة كنت وإياهم، كنت أدرك أن كلَّ واحد منهم كان يريدني أن أكونه بلونه وهويته، لقد عشتُ دوني كل هذا العمر الذي مضى بعيداً عني، حتى إنّي ما اشتقتني يوماً، واليوم فجأة أجدني معي، في غرفة واحدة، نعم، أنا اليوم أواجهني دون قناع، ودون موعد مسبق، أقول الحقيقة إنني لم أكن مستعداً لمثل هذا الموقف، لم تكن مثل هذه المواجهة بالحسبان، كيف لي أن أتنبأ بعكس مجريات الحياة، وأكاد أجزم أن أكثر المتشائمين لم يفكر يوماً بوباء يجمع العالم كلّه في البيت في ظروف استثنائية، لقد فعلت الكورونا فعلتها مع الجميع، لم أكن وحدي في هذا الصراع، كثيرون مثلي بالتأكيد لم يفكروا بذلك،

إنَّ الخوف من هذا الوباء الطارئ على حياة البشرية ألزم الجميع التقيّد بتعليمات الحكومات التي تصبّ في مصلحته، ماذا حدث؟! لا أحد يستطيع التفسير الآن، فما زلنا في البداية، ولكن كلّ شيء غير متوقع فقد حدث.

ها أنا معي، بكل وضوحي، لا قناع لي، اللون لم يزل لوني، لا رتوش ولا تمويه ودون مجاملات، ترى ماذا سأقول لي في هذا الموقف الغريب؟ وماذا سأسمع مني من كلمات؟ هو موقف أشبه بصدمة هذا الوباء اللعين، هل حقيقةً سيدور بيننا حوار ودّي بكل معنى الكلمة؟ هل سأتقبلني كما أنا بكل ما بي من متناقضات؟ بكلّ ما بي من ميل للآخرين الذين عشت معهم أكثر ممّا عشته معي،؟ لا أدري ماذا سيحدث، لكن أتمنى أن أكون صادقاً معي في هذه المواجهة أو هذا اللقاء بالقدر الذي منحتني التجارب، والثقافة أن أكونه.

لم نتحدث بعد، كلٌّ منّا صامتٌ، من الطبيعي أن تكون بداية اللقاء صمتاً وليس عناقاً كما هو اللقاء الذي طال غيابه، امتدّ الصمت وقتاً أكثر مما كنت أتوقع حتى مللته، لم يكن الصمت فرصة للتفكير، بل أخذنا معاً إلى دوامة التساؤلات، وإعادة ترتيب الأوراق وكأننا في ساحة ملعب كرة القدم، يحاول واحدنا أن يختبر قوة الآخر بالصمود قبل تسجيل الأهداف، لن يكون مرماي سهلاً لتلقي أي هدف، هذا ما قلته لي هامساً، وأنا أنظر إليّ باستغراب، لم أتقدم خطوة نحوي، أحاول

أن أكون بعيداً عني قليلاً، فأنا حريص على ألّا أخسرني في هذه المقابلة والتي ربما حسب الحجر الصحي وتداعيات الكورونا في العالم، حتماً ستكون أطول، بل لا حدود انتهاء واضحة لها، من هنا أظن أن الوضع غير مطمئن، ففي العادة تكون اللقاءات بين الأشخاص عابرة، ويمكن لأي طرف حسمها، أما أن تمتد لأيام فالأمر غير طبيعي، وعلينا معاً أن نتحلى بالصبر، نعم، لا بدّ لي أنا تحديداً التحلي بالصبر لأنني لم أعتد بعد على مقابلتي منذ مدة طويلة.

لن أقول شكراً للوباء الذي جمعني ثانية بي، ولو فكرت باللقاء لاخترت سبباً مريحاً يخلق لي جوّاً مثالياً للنقاش، لكنه القدر هو الذي اختار هذا السبب من أجل اللقاء، ربما ما أقوله أنا في هذه المواجهة سراً بيني وبين نفسي يقوله أناي أيضاً، الآن أنا أواجهني، يا لسخرية القدر، لن أعاتبني على الهجران، فلا وقت للعتاب، ولن أسمح لي بلومي على الغياب، سأحاول إعادة العلاقات التي بدأناها معاً ذات طفولة، وذات صبا، أتذكر ملامح تلك الأيام، كم كنت قريباً مني، نضحك معاً، ونبكي معاً، نخاف على لعبة من الضياع كما نخاف على المصروف من النفاد، معاً كنا نتقاسم الدمعة والفرحة، وحين غادرت صباي لم أفكر بالعودة، لم أعد أتذكر كيف كان آخر لقاء بيننا، بل لا أعرف له تاريخاً، الآن عرفت كم أنا ظلمتني دون أن أدري، لم أفكر بالهجر لكن جاء كلّ شيء وكأنه مرتّب من القدر، أنا على يقين أنني لم أبتعد طوال

هذا الوقت عني، لكنني بالتأكيد لم أكن قريباً مني، كان لا بدّ من اجتياز حاجز الصمت، كانت المبادرة منه في فتح الحوار، كنت أتوقع ذلك فهو أكثر مني شوقاً، قال لي: لقد غيرتك الأيام، نظرتُ إليّ بغضب، لم أتحمل هذه الإهانة، نعم هي إهانة فأنا لم أتغير أبداً، بالتأكيد تتطورت لكني لم أتغيّر، بقيت صامتاً أمامي ففي الصمت كثير من الكلام، هكذا ظننت، فمن غير المعقول أن أرضى بالهزيمة من أول جولة، ومن الخطأ الرد وأنا لم أتمالك نفسي بعد، حاولت أن أبتسم لكنني فشلت.

منذ اليوم الأول لقرار الحجر كنت أتوقع أنني سأواجهني منفرداً في غرفة واحدة، بل كنت متأكداً من ذلك، فما حصل في العالم لا يحتمل التكهنات بل التعامل مع واقع مؤلم، فقلت في نفسي سأكون جاهزاً ولو بكتابة بعض الأوراق التي ستكون لي سنداً في الحوار، فأنا أعلم أنَّ مثل هذه المواجهة بحاجة إلى فتح جميع الدفاتر المغلقة، والبوح الصادق أمامي، وكتبت هذه الأوراق التي لا أتوقع منها أن تكون محامي الدفاع عني وعن أخطائي، وهي ليست تبريراً للتغيير الذي حصل بين ما كنته وبين ما صرته، لقد رغبت أن تكون كلماتي صادقة بكل تفاصيلها، فالصدق أقصر الدروب للإقناع والفوز في أي حوار، سوف أقدم اعترافاتي أمام ذاتي على الورق قبل أن أواجهني صوتاً وصورة كما يقولون في الفضائيات، والمقابلة ستكون بثاً حيّاً ومباشراً، فلا مجال لأية محاولة لستر بعض المعلومات؛ لأنها حتماً ستكون فاشلة،

وأنا لا أرغب في ذلك، سأكتبني كما أنا بكل ما يصرخ بداخلي من منولوجات أتعبني كبتها، فقد آن زمن البوح الذاتي الذي سيمنحني بعض الراحة بالتأكيد.

أقولها بصدق، وليس هروباً من خطأ ارتكبته ذات موقف صعب، هل فكّرنا يوماً أن نقف أمام أنفسنا في لحظة صدق نبوح عندها بالمكبوت من الرغبة، والموؤود من الحلم؟ أظن أننا سوف نجانب الحقيقة إذا قلنا نعم، وكذلك إذا قلنا لا، ذلك لأن حياتنا باتت أنصافاً، لم تكتمل حياتنا حتى يكتمل جوابنا

فنحن نصفٌ حقيقة، ونصفٌ أكذوبة

نحنُ نصفٌ ملائكةً، ونصف بشراً

فمتى نكتمل لو أكذوبة؟

بصراحة، نحن لن نكتمل لأننا لا نسعى إلى ذلك، حتى وإن سعينا سنفشل، فمن الصعب أن نكون واحداً في ذاتنا، فنحن ذوات، ولا نستطيع أن نكون شيئاً واحداً، إننا أشياء متعددة، ووجوه مختلفة، واللون الواحد غير موجود في حياتنا، إننا ألوان متنافرة ومتناسقة معاً، يرسمنا الآخرون بألوانهم كما يريدون أن يرونا حتى أصبحنا نرتاح لهذا التعدد بالألوان الذي لا نستطيع إلّا أن نكونه.

بعيداً عن جلد الذات، أبوح بحقيقة لازمتني طوال هذا العمر، اقتنعت بها، وردّدتها كثيراً، وهذه الحقيقة هي أننا ونحن بشرٌ من

غير الطبيعي أن نكون لوناً واحداً، أو وجهاً واحداً، إننا نأخذ لون من نتعامل معه ووجهه، حتى نكاد أن نكونه، أو يكاد هو أن يكوننا، ومنهم الأب، الأخت، الزوج، الحبيب، الصديق، ونماذج إنسانية كثيرة نتعامل معها تؤطر سلوكنا الحياتي؛ بل ولغة تخاطبنا وثقافة تفكيرنا، ولهذا فمن غير المعقول أن نكون واحداً مع هؤلاء جميعاً منفردين أو مجتمعين، ولكن المطلوب أن نكون بذات الصدق مع الجميع، وهذا نستطيعه، نعم، نحن نتوحد مع ذاتنا والآخرين بالصدق فقط، لتكن الألوان موجودة مع كثرتها، والوجوه مع تنوعها، وليبقَ الصدق جامعها.

أعلم أنَّ لكل فرد نتعامل معه لونه الخاص به، وعليّ أن أتعامل مع لونه هو بلون يتناسق مع لونه حتى تستمر العلاقة، ولا أحاول أن أفرض عليه لوني، وهو يعلم أن لي أيضاً لوناً يخصني وبالتالي ليس من المعقول أن يرسمني بلونه، لكن ما يحصل في العادة أن من نتعامل معهم لديهم الرغبة أن نملك لونهم حين نتعامل مع الآخرين، وأن نكونهم كما هم أيضاً، وهذا الأمر يشوّه لوننا، ويشوّه بالتالي ألواناً نحبها عند البعض، ونريد لها أن تبقى كما هي، فكيف لي أن أخاطب حبيبتي أو صديقي أو أمي بنفس لغة الخطاب، وبنفس المشاعر؟ عليّ أن أنتبه من الذين يحاولون برمجة لوني حسب لونهم، ولغتي حسب لغتهم، وأرى ذلك اعتداء على ذاتي، ومحاولة للتدخل بشؤوني الخاصة.

أن نكون صادقين مع كل لون ليس بالأمر المعجزة، ولكن ما هو صعب الاحتفاظ بوهج باقي الألوان التي نتعامل معها في ذات الوقت الذي نكون فيه مع الآخر، من هنا علينا أن نكون أكثر وضوحاً مع كل لون، ونداقع عن بقية الألوان أمام اللون الذي أمامنا، ولا نسمح لأحد بالاعتداء على الألوان الباقية، فكل لون ذات نحبها ونميل إليها، علينا أن نمنح أنفسنا وأرواحنا متعة التعامل مع كل لون كما هو، دون الإحساس بالتناقض بالسلوك، إنَّ الوهم الذي يسيطر علينا أحياناً بوجود تناقض في سلوكنا مع بقية الألوان يزعزع ثقتنا بأنفسنا، ويدفعنا أن نستجيب لمن يرغب في تحديد لوننا، علينا أن نتحرر من هذا الوهم لنصل إلى لحظة الصدق، علينا أن نرفض التعدي على ألوان من نتعامل معهم، وأن نسعى دوماً إلى حماية لوننا، نعمل ما نريده لا ما يريده الآخرون منّا، ولا ما يرضيهم، علينا أن نكون نحن في كل سلوك مع الجميع، وبذات الصدق.

إن للنفس آمالاً ورغبات وطموحات، وللآخرين ما للنفس أيضاً، فلماذا نحقق ما للآخرين وننسى أنفسنا؟ هل نفعل ما يرضى به الآخرون لنا ولهم ونغفل عمّا يرضينا ويحقق ذاتنا؟ أيُّ ظلم هذا الذي يقع على أنفسنا من أنفسنا؟ إننا أقوياء حين نتمكن من الاحتفاظ بلوننا، وبحضوره الدائم مع الآخرين.

من نحن؟ إننا جسدٌ وروح

من الآخرون؟ إنّهم مجموعة من البشر تشكّل علاقات اجتماعية معنا تحاول أن تأخذ منّا كلّ ما لها وللجسد وللروح أحياناً، فمتى نصحو من أجل ذاتنا؟ ومتى نكون لنا قبل أن نكون للآخرين؟ لماذا الحرص على إرضاء الآخرين ولو على حساب الذات؟ متى نصحو لنقف أمم أنفسنا في لحظة صدق؟ كيف سيكون موقفنا أمام ذاتنا لو عدنا إليها يوماً؟ من هنا أقول: نحن نخشى أن نواجه ذاتنا، نخشى المصارحة والمكاشفة مع الذات، لذلك أعترف أنني كنت بعيداً عني، لكن الكورونا بكل هيمنتها وضعتني أمامي بعد كل هذا العمر، أرجو أن أجد الوقت الكافي كي أعتذر، بل الجرأة للاعتذار.

كم هو مؤلم على الإنسان أن يندم على ما فعل، لكن الأصعب والأكثر قسوة وإيلاماً هو أن يندم على ما لم يفعل، وكانت الفرصة متاحة للفعل، كم مرة تمنينا بعد فوات الأوان لو أننا فعلنا كذا، أو قلنا كذا، من كان وراء هذا الجبن والخوف ليقذفنا إلى صراع الندم؟ لقد خسرنا كثيراً، لكنه لم يربح شيئاً، لقد انسحب من أمامنا تماماً تاركاً خلفه رمادَ روح، وجمرَ ندم، نعم، سيعذبنا الندم لكنه لن يفيدنا.

خُلقنا كي نعيش حياتنا أحراراً، ليس أمام الآخرين فقط، بل أمام أنفسنا أيضاً، الحرية أمام الآخرين هي أن نفعل ما يوافق منهاجنا الأخلاقي دون المساس بمشاعر وثوابت الآخرين، والحرية أمام

أنفسنا أن نكون صادقين عند البوح عن ذاتنا، فهذا البوح يشكّل عند الآخرين هويتنا، وحين نسهو ولو قليلاً عن ممارسة هذه الحرية نكون بذلك قد قسونا على ذاتنا، وخرجنا من إطار الأنا العليا للذات إلى الـ «هو»، واخترنا تعويم هويتنا، جميل أن نكون سطراً في صفحة المجتمع الذي نعيشه، وجميلٌ أيضاً أن يتقبل المجتمع هذا السطر، فنحن معاً كتاب هذه الحياة.

منذ ولادة حركة الإنسان على هذه الأرض ومجتمعه وهو محكوم بقوانين ارتضاها لنفسه، وهي من صنعه وصياغته، وهي بالتالي تنظم حياته وتبعث فيه الطمأنينة، ومن الطبيعي أن تتباين هذه القوانين من مجتمع لآخر ومن زمان ومكان مختلفين، لكنها تبقى موجودة وحاضرة بكل سلطتها التي اكتسبتها مع الزمن، وتبدو أكثر وضوحاً في هذه العناوين الثلاثة:

التقاليد، الدين، التربية.

لقد نصّب الآخرون أنفسهم قضاة عند هؤلاء الثلاثة ينفذون أحكامهم علينا بقسوة وكما يريدون، نعم، هذه هي الحقيقة! فهم يتقنّعون بهذه الأقنعة أمامنا، ويلوّحون بعصا سلطتها علينا، لكنهم ينسحبون بعد انتصارهم وإعلان فشلنا.

### التقاليد

يجلدنا الآخرون بسوط التقاليد متى أرادوا، ويفصّلون العقاب على قدر اجتهادهم إذا خرجنا عن نص التقاليد، ويستخدمون سطوته في المجتمع لقمع سلوكنا مهما كان عفوياً وبسيطاً، ويحكمون علينا بمخالفة الناس، فنجد أنفسنا دون مقاومة منصاعين لقراراتهم دون وعي.

### الدين

أكثر الأمور الثلاثة راحة للإنسان هو الدين، الذي يمنحنا الطمأنينة والرضا، فنحن نرى فيه ملاذنا وحصننا الحصين، لكنَّ الآخرين يقدمون لنا مساحة ضيقة للتحرك داخل مسموحات الدين كما يفهمونه، وتزداد رقابتهم وحساباتهم لكل سلوك نقوم به داخل المسموح، ويفرضون على دواخلنا مساحات واسعة لتنفيذ قواعده ومتطلباته، وبعد ذلك يقررون ما لنا عند الدين من حقوق مؤجلة، ويطالبوننا بواجبات معجّلة، فتزيد قيوده، وتتلاشى أمانينا وأمالنا بالحرية، ونجد أنفسنا نسعى إلى إرضائهم فقط دون أن ندري.

### التربية

التربية منهاج صنعه الآخرون للمحاسبة وليس للتصويب، فكثرت فيه أفعال الأمر، والزجر، والتنبيه، والتخويف حتى بات كلّ

فعل نقوم به مرتبط بهذا المنهاج الذي يكثر فيه الوعيد والترهيب ويخلو منه الترغيب، والغريب في الأمر أن هذا المنهاج عندهم صالح لكل زمان ومكان، فما اعتادوا عليه من مناهج السلف يطبقونه علينا دون الحاجة إلى النظر فيما تغيّر من مفاهيم توجب التعديل

إن الآخرين يرسموننا بلون هذه العناوين الثلاثة، ويضعوننا أمام سطوتهم هم، ومفاهيمهم وقناعاتهم فقط ونحن قانعون على مضض بتعاليمهم غير راغبين بالمعارضة أو الرفض، وتلك مشكلة من الصعب تجاوزها، والسبب أن أي رفض لقراراتهم يكون في نظرهم أننا نرفض تعاليم أحد الثلاثة، التقاليد أو الدين أو التربية.

هل فكّر أحدنا أن يثور على ضوابط المجتمع المكبّل بثوابت غير قابلة للنقاش أو الحوار؟ هل حاول أحدنا أن يفعل ما يراه مناسباً وهو مخالفٌ لمجتمعه؟ هل عاد أحدنا إلى ذاته المقهورة ليحررها من الخوف؟ هل فعل أحدنا ما يوافق ذاته وروحه وبعدها استراح من ظلم عليه؟ لن أحاول البحث عن الإجابة لهذه الأسئلة.

لكل إنسان نتعامل معه حقوق علينا أن نؤديها، وبالمقابل لنا عنده واجبات توازي هذه الحقوق وعليه أن يؤديها لنا، من هنا فإن العلاقات الإنسانية ضمن هذه المنظومة سوف تكون أكثر اتزاناً وتفاهماً، وقبل كلّ شيء فإن للنفس علينا حقوقاً فهل نحن نؤدي حقوقها؟ إننا وبكل أسف لا نؤدي ما للنفس من حقوق، ونسارع للوفاء بحقوق

الآخرين حتى قبل أن يقدموا لنا ما عليهم من واجبات، فلماذا نتنازل عن حقوقنا التي منحتنا إياها الحياة؟ ولماذا نكبت مشاعرنا وأحاسيسنا في الوقت الذي يجب علينا فيه البوح؟ ألسنا ظالمين لهذه الذات؟ فمن أجل من فعلنا ذلك؟ ووأدنا أجمل ما فينا من أمنيات، هل كان ذلك من أجل الآخرين؟ يا إلهي إذا كان رضا الآخرين لا يتم إلاّ بتحطيم ذاتنا فلماذا نرضى بذلك؟ ولماذا نخدع أنفسنا من أجل أن نقف أمام الآخرين مزيفين؟ علينا أن نكون للآخرين بالقدر الذي لا يمس ذاتنا، ولا يؤذي شعورنا، وعلى الآخرين أن يكتفوا بهذا القدر من صدق العلاقة، عليهم أن يتوقفوا عن تعليماتهم، وتوجيهاتهم لنا، عليهم أن يحترموا ذاتنا كما نحترم ذاتهم، وعلينا ألّا نطاوعهم فيما يذهبون إليه من رغبة السيطرة والإملاء على الذات؛ لأننا بكل بساطة سوف نخسر كلّ شيء، ولن يكسبوا شيئاً، لقد بتنا نخاف أن نكذب أمام الآخرين ونكذب بكل بساطة أمام أنفسنا، إنها مهزلة.

رحلتي في الحياة من دوني كسبت فيها الكثير، وأيضاً خسرتُ الكثير، الآن أقول لو بقيت معي كانت الخسارة أقل، بالتأكيد سوف تدافع عني ذاتي، وترفض هزيمتي أمام الآخرين، كم خسرت حين ابتعدت عني وما كنت إياها، كم كنت بحاجة لي في هذا المشوار الطويل، كنت أتردد قليلاً أمام الآخرين بحجة أني أراجع نفسي، وأستشيرني فيما أفعل، لكن في الحقيقة كنت أحسب الخسارة فقط عند

الرفض، والربح عند القبول، كنت موزعاً بيني وبين الآخرين، أبي يريدني امتداداً له، وصديقي يريدني بعيداً عن بقية الأصدقاء، وحبيبتي تريد امتلاكي، وكنت أصرخ عند ذهابي إلى النوم، وأنا ماذا أريد؟ في الحقيقة كنت أريدني لي وحدي، كنت أبحث عني فلم أجدني، أعلم أن الحياة لا تسير دون الآخرين، إننا جوقة المغنين في مسرحية الحياة، من هنا كنت حريصاً على اختيار النغمة التي تتوافق مع الجميع، وأقوم بالحركة التي تشكّل مع حركة الآخرين لوحة من لوحات الحياة، كنت أدرك أنني وحدي لا أستطيع تشكيل اللوحة، كما أن غيري لا يستطيع ذلك وحده، نعم، كنا نحتاج إلى المشاركة، كنت أقول لهم: يجب أن يكون حواري من تأليفي، وحركتي من إخراجي، لن أنتظر أحداً يمارس عليّ دور الملقن، ولا أريد نصاً جاهزاً ألتزم به، كنت أدرك أن حواري الذي أكتبه هو هويتي، إنني أكتبني لغةً كما أكتبني حركةً وسلوكاً، لن أكون أنا إذا كنت أردد ما يقولون، وأحفظ ما يكتبون، كنت أقول لهم: إذا كانت الحياة لا تسير دائماً كما نهوى، علينا أن نحاول السير فيها كما نهوى

نحن نفعل ما يريده الآخرون ربما دون قناعة بهذا الفعل، لكننا نتراجع أمام الذات المكبوتة داخلنا، والتي سوف يأتي عقابها لاحقاً، سوف تدافع عن نفسها ربما بشراسة أو بهدوء، وفي الحالتين أرى أن الحق كلّه معها، وهذه الذات هي اليوم طلبت مقابلتي، بالتأكيد

فهي تعرف عني كلَّ شيء، وكلّ الذي كتبته كانت شاهدة عيان عليه، وحدها أصابها الظلم والجرح معاً، وحدها لم ترضَ هزيمتي لكنها احتفظت بي ليقينها أنها ستلتقي بي ذات يوم، وأنا بكل الصدق أقول: كنت أتمنى أن تكون لديّ القدرة على المواجهة، سأكون صادقاً حتى الاعتراف، سأكون صادقاً حرصاً مني على تمتين العلاقة التي بيني وبيني، فمن غير المعقول أن أخسرني، قلت أكثر من مرّة ماذا يفيدني إذا خسرت نفسي وربحت الآخرين؟ نعم، سوف أسعى كي أربحني، أملي كبير أن تكون ذاتي معي أكثر صدقاً مني وهي كذلك، فما دمت قد أتيت معترفاً فيبقى الصفح منها غنيمة لي، ولنبدأ علاقتنا، بل لنكمل علاقتنا معاً، فقد بدأنا معاً مشوارنا، وسوف نبقى حتى النهاية، إنها فرصة في زمن الكورونا أن نتقابل بعد كل هذا الغياب.

أنا الآن أمامي مُحمّلاً بكل الندم على ما فعلته خطأً مقصوداً أو عن غير قصد، وكل الندم على ما لم أفعله جبناً وخوفاً، أنا الآن سأواجهني بإرثٍ كنت فيه مرسلاً ومستقبلاً معاً، إنه إرثٌ جمعني ولم أجمعه، لقد حاولت أن أكونني فإذا بي في لحظات الضعف والتراجع منصهر مع ما حولي من سلطة وهيمنة من المجتمع، إنني ابن ثقافة مجتمع، وبيئة، وزمان، ومكان، سعيت أنَّ أكون سطراً جديداً في منهاجه وكنته، لكنني وأنا أقف أمامي أجد أن الأمور تختلف كثيراً، فأنا على يقين أن كل حوار سيجمعنا، فنحن ما زلنا نملك ذات اللغة، وذات النبرة، وكل ابتسامة سوف ترضينا، فنحن شفتان يمكن لهما أن تصنعا ابتسامة

صادقة، الآن لن أحتاج إلى الكثير من الانتباه لأفهمني، ولن أفكر بالكلمات قبل نطقها.

أنظر إليّ مبتسماً، لقد استطعت الآن أن أبتسم، إنني أمامي فكيف أخافني، لقد بدأت أستعيدني، سوف أكون صادقاً معي، فالوردة لا تخسر شيئاً حين تبوح بعطرها، والإنسان سيكسب كل شيء إذا كان صادقاً، بعد اليوم لن أطلب من الآخرين كي يمنوني صكَّ غفران، لن أطلب منهم السماح لي بأن أحب، وأُعطي، وأعانق ذاتي، سأسعى إلى أن تصفّق لي ذاتي على كل عمل أقوم به، إنها تحب الصدق، وأنا أحبها.

اقتربت مني أكثر، بادلني الابتسامة بابتسامة وقال لي: حين قلت لك إنَّك تغيَّرت غضبت قليلاً، لتعرف الآن أنني لم أكمل جملتي بعد، نعم، أنت تغيرت، ولو بقيت كما أنت لما استقبلْتُكَ، الآن نستطيع أن نبقى معاً أطول وقت بعد أن فهمتني، لا نريد كورونا، إنها حالة طارئة ستترك آثاراً سلبية كثيرة، ولكنها بالتأكيد ستترك آثاراً إيجابية أيضاً، فليس هناك شرٌّ مكتمل، ولا خيرٌ مكتمل، وسوف تصبح زيارة هذا الوباء ذكرى نتحدث بها ألماً، لكننا في النهاية سنبقى معاً في البيت دون أوامر، ولكنَّ رغبة منّا أن نستعيد طفولتنا التي ما زالت بكامل شقاوتها بانتظارنا، هيا معي، وأخذني إليه وأعطاني طائرة ورقية كنت قد تركتها ذات طفولة فوق خزانة ألعابي، وقال مبتسماً: غنِّ معي

طيري يا طيارة طيري

وضحكنا

# كلُّ مُرٍّ سيمرّ ـ يوميّات الكورونا

كامل النصيرات

**1**

من اليوم سأبدأ بكتابة يوميّاتي بعد القعدة في البيت وحظر التجوّل..! لن أضع يديَّ على خدّي وأتفرّج؛ لسببين: الأول أنني رجل لم يعتد على الجمود، بل أنا (نطنطجي) أو (الرجل النطّاط)، وكل من يعرفني يقول لي الجملة التالية دائماً: اهدا؛ أقعدْ يا زلمة.. حولتنا..! والسبب الثاني: أنّ وضع اليد على الخد ممنوع في زمن الكورونا، وهو من التحذيرات الدائمة: لا تحط يدك على وجهك..! المشكلة من لحظتها ووجهي يحكّني.. أنفي أشعر بأنه يريد ألف حكّة وحكّة في الدقيقة، وأنا أقاوم وأعترف بأنني أحياناً (أسهو) ولا أشعر إلا بمنتصف الحكة، فأقطعها سريعاً وأسبّ على حالي وأسرع للحنفيّة التي صرتُ أكرهها.

بعد اليوم سأحدثكم عن رجل (موسوس)..بل حوّلوه إلى ذلك.. كل حركة بحساب..كل تثاؤب بحساب..كل وضعة رِجل على رِجل

بحساب.! سأحدِّثكم عن (أَبٍ وأمٍّ) في محافظةٍ أخرى لا يستطيع الابن الوصول إليهما؛ لأن من أسسٍ محاربة الكورونا هو أن تجلس مؤدباً في زاويةٍ في هذا العالم المسكون الآن بجيوش عزرائيل..!

بعد اليوم سيكون طعم الأشياء مختلفاً..حتى طعم الطعم سيكون مختلفاً..سأحدثكم عن أولادي وكيف أعدت اكتشافي فيهم.. بعد اليوم، سأنقل لكم تفاصيلي أو ما أستطيعه منها لتبقى شاهدةً على هذا التغيّر التاريخي في العالم أجمع..

**2**

محسوبكم الآن في البيت بين أولاده (بغداد وجيفارا ووطن وغاندي)..وهم منتشرون في غرف البيت يمارسون أغلب الوقت على النت، وبالذات على مسلسلات وأفلام واستكتشات لا تمثّل جيلي ولا عصري..والطريقة الوحيدة التي نجحت بجمعهم معاً فيها، هي وضع فيلم عائلي مشترك كي نحضره سويّاً وسط ضجيجهم واختلافهم على نوعية الفيلم: كوميدي وإلا رعب وإلا أكشن وإلا هندي وإلا عربي.. فتظهر ديكتاتوريتي فتحسم الأمر بفيلم أكون قد حضرته (17) مرّة قبل الآن وأنا أدعي بأنّي أشاهده معهم لأول مرّة..!

آه..اليوم سنقضي على آخر ربطة خبز..بقي يومان..ومع انقضاء الخبز يزداد خوفي من فاشية الكورونا..والحقيقة عندما أعبّر عن خوفي بصوت عالٍ يتجمع أبنائي حولي بدفء جميل؛ لأنَّ من الواضح أنَّ الخوف يجمعنا..أو بتعبير أدق: إحنا ما بنجي إلا بالعين الحمرا..!

**3**

في زمن الحظر قد تتكلّم عن نقص الخبز بكل قوّة..ولكن أن تتكلّم عن نقص الدخان يا ويلك ويا سواد ليلك..سيخرج عليك غير المدخنين، وَيَلْعنون سنسفيل ثقافتك، وسيتهمونك بالدلع والغنج.. وإنّك (فسقان) ومش مقدر الوضع..لذا حالي حال مئات الآلاف (حاط لساني بفمي وساكت) بس ساكت وأنا أغلي..!

**4**

تنكّدت أجواء البيت عندي عندما علمنا أن هناك احتمالية عدم رفع الحظر المؤقت يوم الثلاثاء..لأنَّ الجميع كان يخطّط للخروج بذلك اليوم حتى يشوفوا الشارع! الشارع؟ الشارع..آه..صحيح ما أخباره..؟ ألا يحنّ لنا ولأقدامنا ولفوضانا عليه..؟ اشتقت حتى للحاويات فيه..!

للآن، لم أكتب لكم عن عميق ما أريد..وما زلت أحاول الخروج من هوس الكورونا كي أكتب يومياتي بالطريقة والطقوس الأولى للكتابة..

**5**

رغم النشاط على الفيس بوك، وشحذ الهمم، وأصبحتُ بقدرة قادر من (معارض ومتذمّر ومش عاجبني العجب) إلى داعٍ من دعاة الإصغاء للحكومة وقراراتها..هذا الكورونا فعل بي الأعاجيب؛ لم

أعتقد يوماً أنّني (سأصبها) مع الحكومة (من قلب ورب)..الوضع لا يحتمل..والصحيح أبوك يا الخوف، لا يوجد حلّ أمامي إلا أن أدعو للالتزم بما تقوله الحكومة لأنجو وينجو أبنائي وأحبابي ووطني..نعم وضعتُ بيضي كلّه في سلّة الحكومة..وبعد أن تنتهي الأزمة وينتهي هذا الخوف والله لأقعد لها على ركبة ونص وأطلّع كل المستخبي..!

**6**

من أيام وأنا أجاهد للحصول على استثناء من الحظر..أريد أن أواصل نشاطي الإعلامي..برنامجي التلفزيوني توقّف بسبب الحظر، وأنا من تنطبق عليهم شروط الاستثناء..يجب أن أقوم بواجبي الاعلامي الوطني..يجب أن يتواصل برنامجي الشعبي..ولغاية ما تنتهي مشكلتي وأحصل على الاستثناء، قمتُ بعمل إستديو صغير جداً في منزلي أبثُّ من خلاله عبر الفيس بوك كل يوم الساعة الثانية ظهراً، والتفاعل كل يوم يزداد..أتلقى وأجهّز اتصالات مباشرة مع الأصدقاء والمشاهدين..البيت قبل البث بساعة يتكركب من الأعداد.. وفي لحظة انطلاق البث ولغاية نهاية ولا نَفَس..وعملت فيها زلمة عن جد، وأقمتُ ديكتاتوريّة جمهوريتي من أجل نجاح البثّ اليومي من إستديو المنزل..تجربة لذيذة وفيها من التفاصيل الكثير..

**7**

بالأمس تجربة فريدة عجنّا وخبزنا بمساعدة جيراننـا الباب بالباب..خبزنا بالمقلاة..الخبز زاكي..يجوز زاكي لأنه لا يوجد خبز.. ويجوز زاكي لأنه زاكي..سأحدّد ذلك عندما أشتري الخبز المنتظر..

**8**

انتهت (موقعة الخبز) بعد أن تعالت الأصوات، ووصلت آلاف الصور والفيديوهات، التي تشي بأنَّ الأمور في بداية فلتان حقيقي لكسر حظر التجوّل..لن أنسى منظر الأطفال والنساء والشباب والشيوخ وهم يطاردون الرغيف..! يا إلهي..من الذي حوّل الأردنيين إلى هكذا..؟ من الذي جعلهم يكسرون التزامهم..؟ من الذي عبث في نظامهم..؟ من الذي لمس كراماتهم وجعلها تلهث في شوارع الحظر..؟!.

**9**

خيراً عملت الحكومة بفتح الدكاكين المحلية..وهكذا كان اقتراحنا قبل الحظر، والذي لم يصغِ له أحد..ما بجيبها إلاّ دكاكينها الصغيرة.. فهي احتكاكهم اليومي، وهي دفتر حسابهم المؤجّل والمعجّل.. والأمر لم يكن بحاجة لعبقرية، بل كان بحاجة أن تنظر للأمر كأنك صاحب حاجة فقط ليأتيك الحل..!.

اشتقتُ لأمّي وأبي في الغور..وكثيرون معي اشتاقوا لأحبابهم.. التلفزيون الأردني يبثّ مساء مسلسل شمس الأغوار، وفي لحظة اشتياقي للغور ولأبي وأمّي تنطلق أغنية (سلوى العاص) عن الأب والحنين إليه..وينفجر الطفل الذي بداخلي، وتفيض عيناي بماء حرّاق يحطّم الصخور في الأحداق، وألعن الكورونا وأبو الكورونا..والحظر وسنسفيل الحظر..إنها الغربة في وطن ما زال يلهث وراء رغيف الخبز..

**10**

تمكنتُ من شراء الخبز أخيراً يوم الجمعة، وليس بشطارتي بل لأن المخبز الذي وجدته بالصدفة يعمل (خبز مشروح فقط)، ولأنه مخبز يشبه قهوة (خبّيني) في حارة ومنزوٍ وفي شارع فرعي..ولم يكن أحد يقف هناك سوى العاملين فيه وأكوام كبيرة من الخبز أمامهم.

الساعات التي يُسمح فيها بالخروج للشراء، الناس فيها كخلية النحل اكتظاظاً..شعب يحبّ الشوارع..وغالبية الخارجين إليها لا يريدون الشراء بل يريدون أن يتفرجوا على (حظر التجوّل) كما تقول النكتة..

من جماليات الكورونا أنه أعاد هيبة الحكومة لنا على كلّ ما لنا من ملاحظات..لكنها عادت وصار مسؤولوها الحقيقيّون أبطالاً شعبيين..

## 11

لم يعد يعاتبني أحد (ليش ما رحت على العزا؟)..لم أعد أحسب حساب بأنني سأقطع عشرات الكيلوميترات وسط الزحمة ويضيع الوقت قبل وبعد وأثناء ذلك؛ من أجل جملة (عظّم الله أجركم) وفنجان قهوة وحبة تمر..! الكورونا الآن فعلت فعلها..

لم نعد نفكِّر بـ(النقوط)..أخو أخته اللي يعمل عرس الآن..! لم يحمرَّ وجهي خجلاً من أحد في هذا الحظر..لم أنم ليلة وأنا أفكِّر كيف سأدبِّر أموري؟ كلّ ليلة كنّا ننام ونحن نقهر أنفسنا خوفاً من أن يرانا فلان أو يتصل بنا علنتان..وفلان وعلنتان الآن مثلك، غارقان في الحظر والكورونا ويدعوان الله بالنجاة..!

من زمان لم يطلب أولادي شاورما..من زمان لم يتصل بي غاندي: حلقتك حلوة وجيب معك همبرجر..يقول الجملتين بدون فاصل بينهما..! من زمان لم أتناقش مع أولادي، أو بالأصح لم يفاتحوني بموضوع: بدي بنطلون..بدي بوت..بدي جرابات..بدي تي شيرت ميسي..آه مسّي صح..من زمان لم يقرقعني أحد بريال مدريد وبرشلونة وتقوم القيامة بين أولادي وأصدقائي..! حتى مصروف أولادي الذي كان يشكّل عبئاً في كثير من المرات بسبب نزولهم للحارة، صار الآن أقل مرارة بكثير..فما عادوا يطلبونه إلا كل وين ووين..بل إنهم قالوا لي: إحنا بنحوّش مصروفنا معك..!

في الكورونا..يبدو أننا نتهذب..وكل ما أخشاه أن يُرفَع الحظر ويرفع معه كل تهذيب..

**12**

الحُبُّ....

أعرفُ كثيراً من العاشقين..ولكنني لا أعرف ما حلّ بهم الآن مع الحظر..! هناك عاشق قال لحبيبته ذات استرخاء: لن يمنعي عنك كلّ الكون..هههههه أضحك الآن..الكون الآن لا يمنعه بل فايروس صغير..عندما تتذكر العشيقة كلماته ماذا ستقول الآن..ستعذره بالتأكيد، ولكنه بعد رفع الحظر لن يجرؤ على صياغة هكذا عبارة أو الاقتراب من شبيهاتها..!

أي شاعر عاشق ألهب آذاننا وأذني حبيبته بأنه سيفعل كيت كيت من أجل أن يحظى بلقاء عينيها أو ليلمس نعومة يديها..أينه هذا الشاعر العاشق الآن؟ فليتفضل ويخرق حظر التجوّل ويتحوّل إلى (سوبر مان) الذي ادّعاه ويذهب ويلتقي بعيون حبيبته..! بأي عين سيكتب عن بطولاته بعد رفع الحظر..؟!

الآن يسقط مع هذا الحظر كثير من الحبّ المزيّف..وسيتجلّى حبّ آخر..سينتصر الحب الحقيقي المبنيُّ على النار والوجد والتضحية، وسينزاح الحبُّ الذي ركب على أكتاف النزوات..!

صبراً أيها العشّاق..فالقلب لا يعدم وسائله..

**13**

استطعتُ أن أجعل من جهاز اللاب توب (أستديو)، وأن أضبط الصوت وأن أضع اسم وصورة المتصل..كل يوم أناقش قضايا تخصّ الناس في زمن الحظر..المشكلة التي تواجهني هي (النت)، ليست دائماً إشارتها قوية..لكنني أتغلّب عليها بالموجود..التجربة جديدة وفيها شكل من أشكال المقاومة التي أحبّها..

**14**

الشرطة والدرك والجيش والدفاع المدني وباقي الأجهزة الأمنية، هي من تمسك الأرض الآن..هي من تضحك في وجهك وهي من تقاوم عنك..بل هي من تشتبك مع أمراض الناس المعدية وغير المعدية..تخيّلهم وهم في الشوارع يريدونك أن تدخل لبيتك كيلا تُصاب وهم يبقون في الشارع ولا ضمانة بألاّ يصابوا..تخيّل أنَّ لهم عائلة مثلك تماماً ولكنهم محرومون منها، وكل ما يربطهم بها الآن هو موبايل فقط..! تخيّل أن الشعب بمليون نفسيّة ونفسية ومليون مزاج ومزاج، ومطلوب من هذا العسكري القادم من الألم أيضاً أن يتعامل مع كلّ هؤلاء المختلفين..ومع ذلك بعض الناس تستهتر ببطولاتهم وبتفاصيلهم المخبوءة..أضرب الآن تحيّة بحجم اللاحدود لكل فرد فيهم..

**15**

قررتُ أن أجلس على البلكونة..لم أجلس طويلاً وبسرعة قمت.. قررتُ أن أزور مكتبتي..لم أقف أمامها إلا بضع ثوانٍ وغادرت.. قررتُ أن أحضر فيلماً كوميدياً فشغّلته وقبل أن تنتهي شارة البداية أغلقته..قرّرتُ أن أجلس معي، فمللتني وزهقتُ مني وطردتني وأنا الذي قمت..!

**16**

اليوميّات التي أكتبها هي تحت رعاية الكورونا شئتُ ذلك أم أبيت..وعندما أقول يوميات فهي تتقاطع مع يومياتكم: فيها الزوجة والأولاد والمصروف، والشرطي والوزير، والمسؤول، والدكانة والراتب، والأكل والشارع، وصافرات الإنذار وأفكار الناس وسلوكياتهم وردود أفعالهم..هذه يوميّات لا أستطيع أن أتجاوز فيها عن أركانها الأساسية، ولا أن أقفز عنها حسب مزاج أحد..!

اليوم أشعر بمرارة..لأني لا أُؤجّر قلمي إلاّ لي.. وسيبقى هذا القلم يروي ما يقتنع به فقط، ولو جاء أفلاطون ذاته وقال له: ما أبيخك..!

## 17

في الأيام السابقة، أرقام وزير الصحة المنخفضة والمرتفعة كركبتنا.. بعد أن حلمنا بأننا سنصل إلى صفر إصابات، وتخيّلنا بأننا سنعلن بيان الانتصار كأوّل دولة..بل تبادلنا أنصاف جُمل من التهاني وقلنا لبعضنا: ودّعْ (كرونةَ) إنّ الحظرَ مرتحلُ..! في اليوم التالي مباشرة انطبق علينا بيت الشعر الذي يقول: اللي يطلع من داره ينقل مقداره..وانحشرنا..!

الوضع باختصار: كلّما اقتربنا ابتعدنا..وكلّما ابتعدنا اقتربنا..والله وحده يعلم إلى أين نحن ذاهبون..

## 18

أنا أواجه مشكلة حقيقية الآن: أولادي لا ينامون قبل طلوع الشمس..وأفقد السيطرة عليهم في ذلك..وأعترف أنّ ما يعيشون فيه هو سجن حقيقي أو أكثر من سجن..!

أيامَ كنتُ في السجن، كانت هناك ساحة للتشميس وللحركة وللعب الرياضة..أولادي الآن في شقّة طابق رابع والبلكونة مليئة بالكراكيب، وأصلاً طولها وعرضها يا دوب تضع فيها كرسيين بلا حركة..! في السجن: تنزل للمطعم كل يوم ثلاث مرات، وتتحرك في طابور، ويعطونك صينيّة أعتقد ألمنيوم..! أولادي يأتيهم أكلهم على فراشهم وعلى الكنبايات والموبايلات بأيديهم وهم ضاربينها

(كوع)..! في السجن: غرباء لا تعرفهم ولا يعرفونك..تتعرف عليهم واحداً واحداً وتتفاعل مع قصصهم وكاركتراتهم، وكل يوم تتعرف على أحد جديد..! أولادي، وجوههم في وجوه بعضهم..حافظون لبعضهم وقرفانون من كاركتراتهم ومش طايقين بعض، ومجاكرات ليوم المجاكرات ولا معارف جدد ولا تفاصيل جديدة إلاّ الأخبار الواردة، وكلّها تحت رعاية كورونا أيضاً..! في السجن: حياة بكامل عنفوانها إلا من قيد الخروج..! أولادي في سجن بلا عنفوان، وبلا تفاصيل جديدة إلاّ أنَّ وطأة الحبس العائلي والشعور الجماعي أن كلّ الأردن هكذا هي ما يجعل السجن مع الجماعة رحمة..!

**19**

وصلت الكورونا للأغوار الشمالية..للقرية الوادعة (الكريمة).. وسيدأ عهد جديد من الخنق في الأغوار التي كنتَ تمشي بها بلا ملل وبلا حدود توقفك؛ لأنّ سهولها تغريك بالحريّة أكثر..! حمى الله الأغوار وأهلها..وصبراً جميلاً يا روحي التي هناك..!

يتبع..

**20**

منذ شهر لم يدخل عليّ فلسٌ واحد..راتبي الوحيد الذي أُبرطع به كلّ مرّة بانتظار شفقة الحكومة التي ننتظر حلّها لمشكلة العاملين في

الصحف الورقية (الدستور والرأي)..الحكومة أوقفت طباعة الورق، وبالتالي لا نوجد إعلانات، وبالتالي لا مداخيل للصحف..وهي أصلاً كانت تمرّ بأزمة خانقة، والآن خنق فوق الخنق..!

كنّا وما زلنا في الميدان، ولن نتركه حتى لو زحف الجوع إلى خلايانا المعنوية..! ولكن، من للزملاء الآن..؟ من يفكّر بنا الآن..؟ من يفكّر بعوائلنا؟ من يفكّر بفوطنا وحليبنا وخبزنا ودوائنا وأمراضنا والمكسور علينا والمكسور بنا والمكسور معنا..؟!.

بدنا رواتب يا حكومة..

**21**

كأنّ الوضع الكوروني بدأ يأخذ منحىً فاشستياً..صرنا نسمع عن حجر عمارات بأكملها في عمّان وغيرها..وخلف كلّ عمارة أسئلة لا تجيب عنها إلا الشائعات..!

ولا أعرف إن كانن هناك إجابات قاطعة بعد قصة موظف سلسلة صيدليات فارمسي ون..! لغاية كتابة هذه السطور لا أحد يقطع بالقصة الحقيقية..

ما الذي يحدث..؟ لماذا كلّ هذا..؟! كأننا بدأنا نفقد السيطرة لا سمح الله..أعيدونا إلينا..نريد أن نفهم كي نقاوم بشكل صحيح..!

**22**

الشعب كلّه يهرش..ويهرش بلا خوف ولا خجل ولا مواربة.. يهرش لأنَّ عدم الهرش يعني أنك ستضرب رأسك بأقرب حائط.. لذا تخلّص من عقدة الخجل وكسر حاجز العيب، وصار ينتج كميات مهولة من الهرش المتواصل..!

كلّ ذلك الهرش وأكثر بسبب إغلاق صالونات الحلاقة في سائر أرجاء المملكة..الشعر طال..واللحى تدلّت..والشيب زاد.. والحلاقون بانتظار شارة البدء لتصطفّ الطوابير أمام محالقهم..! في هذا الحظر أدركنا قيمة الحلّاق وكم هو عضو فاعل جداً في ترتيب حياتنا..كم كان يمنعنا من الهرش..!

ما أجمل الحلّاقين في وطني..حاس حالي إذا استمرت الأمور هيك رح يكون شعري مثل شعر الزير سالم..

**23**

معروف عني بأني لا أسلّم رأسي لأحد، هذا رأسي وتسليمه يعني الطاعة والخنوع..ولكنني تذكرتُ أنّني سلّمته مئات المرات للحلاقين..!

بعد أن كتبت لكم آخر مرة عن الهرش والحلاقين وفقدانهم في الحظر، وقرأت زوجتي ما كتبت، لم أنته إلا وماكنة الحلاقة بيدها وتأمرني وهي تضحك بأن أسلّم رأسي لها..! أعترف بأنني جفلت

جفلة تخشاها الصحراء..رفضتُ وبشدّة..! أنا أبو وطن على سن ورمح أسلِّم رأسي لامرأة؟! يا فضيحتي عند العربان والبوادي..! ماذا سيقول عنّي عرب الشيخ شفرة أو عرب الشيخ موضة..؟ لا لا لا..ولا يمكن..

ولكنني نخّيت بعد أخذ تعهدات كاملة بأن أُعامل معاملة الأسير السيد..وأن يكون لرأسي كامل الاحترام والتقدير..وأن تكون هيبة شيباتي على سُلّم أولويات المعاملة الحسنة..!

وما كادت زوجتي تبدأ بجزّ أول كومة من الشعر، وما أن أحسّت أنَّ وضع رأسي الآن مزرٍ ولا أستطيع التراجع بل سأرجوها أن تكمل حتى ظهر الوجه الآخر لها؛ اخشنَّ صوتها، وكثرت أفعال الأمر في كلامها..صارت سيّدة الموقف وأنا أسيرها بكامل انقيادي لها: دنّقْ.. أدنق وأنا ساكت..! زيحْ هيك..أزيح وأنا بكامل صمتي..! لا تتحرك..لا أتحرّك وأبقى صنماً مطيعاً..ارفعْ نزّلْ، اسكتْ انفخْ، نفِّسْ جلّسْ..وأنا الصابر الصامد الذي لا يقاوم، فبعد قليل تعود القيادة إليّ بكامل بطشها..!

وها قد عادت..وصرتُ أنا من يصدر أفعال الأمر: زيحي هيك.. بعدي عن وجهي..ولكن الشهادة لله كانت حلاقة كأنها عند الحلاق وزيادة..مع أنها أوّل مرّة تحرث في رأسي..!

وما أن انتهت حتى جاءني اتصال من صديقي الشاعر غازي الذيبة

يحدثني فيه عن تسليم رأسه لزوجته كاملاً غير منقوص..وأنه راضٍ عن النتيجة..!

يا أيها الأزواج الباحثون عن حلاّقين: دونكم زوجاتكم سلموهنّ رؤوسكم وأنتم على جبلٍ من المكاسب..!

**24**

يومان متتاليان حظران شاملان هدّا حيلي، لعنا (تميسي)، شلّا حركتي، خلص الغاز، ولا يقولنّ لي أحد: ليش ما عملت احتياطك يا فالح؟ أعتقد لا أحد يعلم متى الجرّة ستلفظ أنفاسها الأخيرة؟ ما علينا، مغص شديد، وطبعاً ولا صيدلية فاتحة، ولا أعتقد أنَّ أحداً يريدني أن أتصل بالدفاع المدني، وأقول له: ممغوص يا سيدي.!

لم أعد أهتم بعدد الإصابات؛ لأن لا ضمانة لأي شيء..قد تنخفض اليوم وقد ترتفع غداً، والعكس أيضاً..المهم هو أن نخرج من هذه الحالة!.

لأول مرة منذ الحظر أغتاظ لأن شوارع عمّان يختفي من شوارعها العاشقون والعصافير والموسيقى، والنوم يتسيّد عليها..! ما أبشع الفكرة والخيال!!

على فكرة: حضرتُ مسلسل (ملحمة الحبّ والرحيل) عن حرب

البسوس والزير سالم كاملاً..مسلسل كتبه د.وليد سيف وهو من ذكريات طفولتي وأخيراً وجدته..!

وعلى فكرة مرّة أخرى: أكتب الآن روايتي الأولى (سماء القلب الثامنة) وقطعتُ فيها شوطاً.

**25**

تشعر أنَّ الناس تحوّلت إلى (سنترال) ويعجبها هذا الدور، بل تتلذّذ فيه..ما يصل إليها توصله إليك مباشرة، بل إنها تجد أنَّ توصيله إليك واجبٌ مقدّس، وستؤثم وتدخل النار إن لم تقم بذلك..!

كل الناس صارت تفكّر بـ (ما بعد كورونا)، بل يعطون مواعيد ويحلفون عليها الأيمان الغلِيظة..مثلاً أنا: جدول أعمالي مزدحم جداً بعد كورونا، فالذين تبرعوا بإعطائي مواعيد دون أن أطلبها، لو تبرعوا لي فرادى بعشر ليرات لصرتُ اليوم ذا رأس مال يفتح لي مشروعاً متوسطاً..! لكنَّها الأحلام والكلام الذي بلا جمرك والثرثرة التي زادت بزيادة الفضاوة والقعدة..!

ها أنا أحضر بمسلسل ملوك الطوائف..استمتع بلغة الدكتور وليد سيف..والحقيقة أنني أستمتع بذاك التاريخ الذي يجهله الكثيرون، ولكنه دخل في جيناتنا، فصرنا نحمل وزره ونعطي للبشرية الآن حضارةً تبنى على الماء ولا تعوم بل تغرق..!

متى تصاب الكورونا بالكورنا ونرناح..؟!

**26**

كنتَ تصحو باكراً وتخطط ليومك كلّه..بضع ساعات للعمل.. ساعتان للازدحام..ساعتان وأكثر للمقهى..بضع ساعات مشتتة هنا وهناك، من ضمنها الشوارع..وآخر ما تفكّر فيه هو البيت أو العودة للبيت..! الآن تصحو وأنت لا تفكّر إلا بالتنقّل بين الحمّام والمطبخ والبلكونة..حتى في الحمّام اختلفت طقوسك..كنتَ لا تطيل المكوث فيه، والآن ما قيمة الوقت؟ طوّلْ على كيف كيفك فليس وراءك شيء سوى الفراغ أو اللاشيء أو الأبصرشو! وهذا الأبصرشو يسيطر عليك ولا يتركك..!

أعيدوا إليّ قليلاً من الزحمة..كي أعود إلى تذمّري منها..والله التذمّر زاكي..

**27**

هل ما زالت فلسطين على رأس الأولويات؟ هل هناك سيرة لأي مفاوضات..؟ ما أخبار صفقة القرن؟ هل لبنان الطوائف والسياسة والزعماء موجودة في الأخبار، غير لبنان الكورونا؟ هل صار أي شيء جديد في سوريا؟ أتذكر قبل أسابيع كانت إدلب وتركيا وروسيا وشيء من هذا القبيل..؟ ماذا حصل في العراق؟ هل اتفقوا على رئيس وزراء جديد؟ وهل ثورة الشباب شغّالة؟ آه اليمن! هل عادت لبعضها أم ما

زال بعضها يحارب بعضها والموت (على ودنه)..؟ وليبيا؟ هل دخل حفتر طرابلس أم جماعة الوفاق الوطني واقفون بالمرصاد..؟! شو صار بالسودان؟ آخر ما أذكره عندما التقى رئيس المجلس بنتنياهو وقامت الدنيا! هل ما زالت قائمة أم مالت إلى اليمين وصارت منفرجة..؟. هل حدث شيء جديد مع كوريا الشمالية؟ هل صار أي شيء بعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي؟ واللاجئون السوريون في بقاع العالم هل صار معهم أي تطور..؟ وترامب أبو التغريدات هل ما زال يواصل نشاطه الانتخابي؟ هل هدّد دولاً أخرى أو طلب مصاري من أخرى..؟

**28**

أتخيّل بعد انتهاء الكورونا، سيلتقي الأحباب بالأحباب. بالذات الذين كانوا أبعد مكاناً عن بعضهم، سنشعر أنّنا (تبرملنا). آه، تريدون أن تعرفوا ما معناها؟ حسناً. تبرملنا أي أصبحنا براميل أو مثلها. نحن الآن مستهلكون بلا عطاء، بلا حرق، بلا حركة، أيدينا في حلوقنا على الطالعة والنازلة، ما بين الوجبة والوجبة وجبة، ما بين الشيبس والشكولاتة أندومي، ما بين البزر والمكسرات حلويات بيتوتية، ما بين الشبع والشبع شبع القهر والخوف واللااستقرار.

كلنا نكبر الآن في بيوتنا، حتى أطفالنا يكبرون سريعاً في مساحات

بيوتنا الضيقة، والأماكن لها أخلاقها، لذا كل هذه الحبسة ستصنع أخلاقاً جديدة، ستهوي أشياء فينا وتصعد أشياء، ستسقط عيوب كثيرة وتولد عيوب أكثر، سيفرض علينا الواقع الجديد عاداته وتقاليده التي لم تمرّ علينا من قبل.

إننا نتغيّر، إننا نتبدّل، إننا نمضي بلا مشي، وننام بلا أحلام، ونصحو بلا إشراق شمس، بل إننا ننظر للمرآة ولا نرانا..

كم اشتقتُ إليّ.

## 29

يوم أمس داهمتني الهلوسة. أي والله الهلوسة. ليس في نومي فقط، بل في عزّ صحوي، عدتُ خمسةً وثلاثين عاماً للوراء، عدتُ للمزرعة في الغور التي كان يتضمنها أبي، كنّا نسكن هناك، صرتُ أهلوس بـ (البكم) وتحميل الخضرة فيه، وكنتُ في هلوستي خائفاً جداً ألاّ يأتي (أبو عبد الله) ويحمّل (بُكَس البندورة)، فتخرب البندورة في أرضها. اتصلتُ بأمّي أثناء الهلوسة وسألتها إن كان (دور الَميّة / سقاية المزرعة) لنا اليوم أم لا؟ كنت خائفاً أثناء هلوستي أن يضيع علينا (دور الَميّة).!

الحظر الآن أستاذ كبير لا يحمل عصا، ويأمرك أن تحلّ واجباتك المدرسية، بل يحاصرك ولا يتركك إلاّ وأنت تقوم بواجباتك، حتى لو هلوستَ ألف مرّة في اليوم.

يا سيدي الحظر: تمام يا أفندم.

# 30

أن تصنع القهوة بنفسك وأنت رجل فذاك عمل جبار بعرف الشرقيين! وأن تطبخ (سلق بيض أو بطاطا) فأنت أكثر من عظيم.! وأن تجهّز السفرة كاملة فأنت أسطورة.! وأن تجلي الجليات وتشطف الشطيفات وتحلب البقرات..!

يا جماعة ما بكم، هل هذا شيء غريب ومدهش في زمن الحظر هذا؟ أبي بدوي وبدوي قُح كمان، أتذكر طبيخه لنا أيام كنّا ننزل لمدرسة الوكالة في الكرامة في بدايات الصيف، لم يكن الأمر فيه علامة فارقة، كان عادياً، غالبية الرجال يطبخون ويتفنّنون، فلماذا طرح الأمر في زمن الحظر كأنه دخيل علينا،؛ بالعكس قد يكون الغريب هو ألا تجد رجلاً يطبخ، الطبخ ليس جندريّاً أبداً، أنا مثلاً أولادي يحبون مقلوبتي، ويطلبونها دائماً منّي.

سيبونا يا جماعة.، والتفتوا إلى التغيّر الحقيقي الذي يحدث فيكم وأنتم لا تشعرون، التفتوا لأبنائكم الذين يكبرون فوق رؤوسكم بسرعة عجيبة وفي مساحة ضيقة، التفتوا إلى الأسئلة الجديدة التي ستفعل إجاباتها على الأرض أفاعيل لن يتوقعها أحد.

**31**

غداً أول رمضان مع حظرٍ شامل، ما هي الخطط السريّة التي يفكّر بها الكثيرون للتحايل علىٰ الحظر؟ من سيتحمّل عصبيتنا التي تزداد عادةً في رمضان والمساحات بلا حدود معنا والآن عصبية بلا فضاءات! هل ستجرؤ زوجة لأن تقول لزوجها، إذا مش عاجبك أكلي روح على أكل أمّك يا حبيب أمّك إن كنت زلمة؟ هل ستكون أرواح الأزواج في مناخيرهم كالعادة أيضاً، وتفكّر بعدها الزوجات بحمل (البقجة) لتحرد عند بيت أهلها؟ هل وقوع الطلاق في (الحظر الرمضاني) محسوب وإلا يعتبر ( لا طلاق في إغلاق)؟.

أسئلة كثيرة تجتاحني ولديكم أكثر منها بأضعاف، لا أعلم إجاباتها. بدءاً من الغد واقع جديد لأيّام متشابهة..

**32**

اختفى الفتّاش، واختفت الألعاب الناريّة.. واختفى معهما صوت الأولاد في الحارة، اختفت صيحاتهم وضحكاتهم، وضجيج أقدامهم وطجيج فطابلهم..! كنّا نترجاهم كلّ رمضان أن يخفضوا أصواتهم وألاّ يفرقعوا قريباً منّا، أن يذهبوا بعيداً قليلاً، الآن لا شيء من هذا..! معقول أنَّ الانسان يشتاق أيضاً لما كان يؤذيه أو كان يشتكي منه..؟.

أغلب التلفونات لم أردّ عليها، خصوصاً تلك التي أعرف مسبقاً

أنها تحمل الشجن والذكرى والتي من الممكن أن تجعل صوتي يتهدّج في لحظة، أو تحيلني إلى ضعيفٍ لا يمسك نفسه عن البكاء الذي لا يُفهم معه الكلام!. كل المباركات والتهاني لم أردَّ على واحدة منها، لم أشعر بلذة فيها!.

ومع ذلك ما زال إحساسي بالأمل عالياً وأنَّ هذه الشوارع ستعود أجمل من الأول، وسأسمع صوت أطفال الحارات من جديد، وسنذهب إليهم ونرجوهم أن يخفّفوا من الفرقعات والفتاش ومن الضجيج، أو أن يلعبوا أبعد قليلاً..

قريباً ستعود الحياة إلى الحياة...

**33**

حتى شريط الأخبار لم يعد له طعم مثل الأول، شريط مليء بالأرقام المرعبة عن الوفيات والإصابات في كثير من البلدان، صرنا نترحم على أيام أرقام القتلى والجرحى في الحروب البشرية.

**34**

كلّ ما أخشاه أن يتمّ تخفيف الكثير من إجراءات الحظر، ويصبح الناس قادرين على (العزايم)، وأن يأتي العيد ونحن مسموح لنا أن (ندفع العيديّة)..! الناس ماكلة روح الخلّ، ومصاري ما فيش..! ولن

ينقذنا من تكاليف العزايم والعيديات وشراء اللوازم التي تجتاحنا كلّ عيد إلاّ قانون دفاع جديد يمنع شراء الملابس الجديدة، يمنع كعك العيد، يمنع أن تتورط في أي إفطار رمضاني، يمنع أن (تمعط) مشواراً من عمان إلى إربد ومن إربد إلى مادبا من أجل أن تقول لأختك أو أحد أرحامك: (كل عام وأنت بخير) وتدسّ في يدها (خمس أو عشر ليرات) وأنت طالع..!

**35**

المسحراتي... يااااه. غاب في هذا الرمضان،. انتصف الشهر الكريم ولم أسمع صوت طبلة بعد منتصف الليل، لم نعد نقوم من الفراش إذا كنّا نائمين ونصحّي بعضنا البعض على أنغام الصوت القادم من الشارع: يا نايم وحّدْ الدايم، اصحى يا نايم..! أين اختفى النداء؟ ولماذا اختفى أصلاً؟ ألم يكن يستحق المسحراتي تصريحاً لكيلا نخسر ركناً من أركان السحور..؟!.

وأقول أمام العامّة الآن لو يسمحون لي أن أتحوّل إلى مسحراتي فيما تبقّى من أيّام رمضان سأفعلها وأنا بكامل سعادتي وتمام هيبتي، شريطة أن يسمحوا للأطفال أو للأولاد الذين كانوا ينتظرونه كلّ يوم أن يذهبوا ورائي و(يطقطقوا) على حديداتهم، أريد للمشهد أن يعود كاملاً. أريد لبهجة الشوارع أن تقاوم الكورونا التي خطفت منا المسحراتي وخبّأته في بيوت ليست مكانه وقت السحور.

**36**

الشعور بالانتكاس يسيطر على الناس بعد فرح غامر بأصفار متتالية طيلة أسبوع وأكثر، وفجأة تنقلب الأصفار إلى أرقام غير معتادة..! هلع حقيقي، بل شعر الناس أنهم يعودون للمربع الأول، وأنَّ ترتيباتهم للعيد قد طارت، وإشاعات كثيرة عبأت فضاءات المحظورين في بيوتهم، وامتلأ الفيس بوك بتضارب التحليلات الكاذبة والمعلومات الأكذب.

الناس مساكين بالفعل، ( كلمة تودّيهم وكلمة تجيبهم)، يريدون الفرح بعد شهرين من الاختناق، كانوا يظنّون أنهم اجتازوا المحنة وصاروا يفكّرون بالكعك وملابس العيد و(نمرة أرجل) أطفالهم، بل إنَّ منهم من تهاوشوا على بنطلون مع قميص أم بنطلون مع بلوزة، والصبايا أخذ تفكيرهنّ منحنىً آخر، فستان أحسن أم تنورة أم بنطلون، وتشاورن عبر الدردشات حول قَصّة الشعر، وخصوصاً بعد فتح صالونات السيدات..! ويا فرحة ما تمّت..!

**37**

أعترف ككل رمضان بأنني أفرّغ وقتاً طويلاً وكثيراً لمسلسلات وبرامج رمضان، أشغّل حاستي الفنيّة وذائقتي وأعلى درجات الانتباه؛ لأني لا أتابع مسلسلات عربية إلاّ في رمضان.

مسلسلات هذا الرمضان التي تورّطتُ فيها تُثبتُ للمرّة الألف أن (المؤلفين) في (حتّة) والناس في (حتّة) ثانية، لم أجد أحداً ممن أعرفهم معرفة شخصية في أي من المسلسلات، لم أجد جيراني،. لم أجد زملائي، لم أجد شارعي، لم أجد قضاياي، لم أجد قصص الناس الغلابا، لم أجد ألاعيب الكبار وما يفعلونه بنا، لم أجد أمّي، لم أجد ما أعانيه ويعانيه غيري في هذه المسلسلات، وكأنها تحكي عن بلاد غير بلادنا بالرغم من أنها تحمل أسماءنا وأشكالنا.

**38**

حُسم الأمر ولا صلاة للعيد بعد أسبوع، لكنني لا أعرف إن كنّا سنسمع ذلك الصوت الذي ينطلق من مكبرات الصوت وهو يغزو أحاسيسنا كلَّ عيد معلناً بداية العيد بالفعل؟ هل سنسمع: الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا..؟!.

أولادي لغاية هذه اللحظة لم يتحركشوا بي ككل عام من أجل شراء الملابس، قد يكون في ذهنهم جُملتي التي كررتها على مسامعهم كذا مرّة: فش بالعيد لا طلعة ولا نزلة وعشان هيك ما حدا رح يشتري أواعي.! ويا خوفي أجد الناس فيما تبقّى من أيام تنتشر وتشتري جديدها..هكذا أكون تحت مطرقة الوضع العام وفوق سندان الجيوب الفارغة..!

صحيح وقبل أن أنسى، الأطفال والفتيان يملأون الشوارع لوقت

متأخر في الأيّام الأخيرة، صرتُ أسمع أصواتهم بشكل واضح، وأعتقد أنكم تسمعونهم معي، على الأغلب أنَّهم كسروا حظر البيوت وصاروا أمام البيوت يلعبون ويصنعون المقالب، ويصنعون معها ذكرياتهم القادمة، الأطفال والفتيان هم الآن ملوك الشوارع الليلية ونحن لا نملك إلاّ رؤيتهم والاستماع لهم، ولا أخفيكم إن قلت: والاستمتاع بما يفعلونه..!

للحياة وجوه متعددة فاختر الوجه الذي يناسب سجيّتك فأنت بوصلةُ أيّامك كلّها..

**39**

كنتُ أعتقد أنَّ (الطرود) والمساعدات المالية ستكثر وتتكاثر في زمن الكورونا والحظر، وبالذات في رمضان (أبو الطرود والمساعدات)، لكنّ أملي خاب! ولا أصدّق أنَّ (الكبار) الذين عوّدوا الناس على ذرّ الرماد بالعيون كل مرّة لم (يذرّوا) بعضاً من رمادهم، بالرغم من أنَّ نيرانهم لم تنطفئ بل ازدادت اشتعالاً..!

قلنا إنَّ الجائحة ستجعل المجتمع أكثر تكافلاً، وستعطينا دروساً حقيقيةً في التعاضد والتكاتف، ولكنّ رمضان الذي بقي له أيّام ويعود إلى صندوقه ويختبئ، يبدو أنه خبّأ معه كثيراً من هذا التعاضد وأنواعاً من التكاتف..علماً أن التعاضد والتكاتف ـ بلا مجاز ولا بلاغة

ـ هما ضد (التباعد الاجتماعي)، لذا يبدو أنَّ الكبار أصحاب النيران المشتعلة تركوا المجاز اللغوي وتركوا معه إحساسهم بالفقراء الذين ازداد عددهم بطغيان الكورونا علينا..!

أعلم أنَّ الوقت صعب، لكنه ليس صعباً على الذين يزدادون ثراء كلّ يوم، أعلم أنَّ هناك خوفاً من أن تقضي الجائحة على أرصدة كثير من الذين عنوان بيوتهم (شارع العِظام) ولكنَّهم بدل الشارع صارت لديهم شوارع وجادات وضواحي..إن لم يفتحوها للفقراء؛ لأنها من حقوقهم عليهم، فسيكون الأمر بعد قليل فيه شرّ مستطير..!

يتبع...

## 40

إذن هي العطلة.! كلّ عام وأنتم بخير، عطلة غير شكل، أكاد أقع على قفاي من سخرية الفكرة، عطلة العيد!! عطلة!! شهران ونحن في عطلة، شهران متتابعان لا يفصل أيّامهما وساعاتهما إلا تكرار التعطيل، هل هي عطلة من العطلة..؟ هل صدقت النكتة التي قالت: بعد فكّ الحظر نحن بحاجة إلى عطلة لكي نرتاح من العطلة..!

لا أريد أن أنكّد على أحد ونحن مقبلون على عيد، العيد يستحقّ مزيداً من الأمل، يستحقّ الانتشاء، يستحقّ أن نملأ الكون ضجيجاً بعبارة: كل عام وأنتم بخير.

سنعود بعد العطلة، سيكون قسم كبير من القطاع العام قد عاد إلى

مواقع عمله. سيعود الزحام. سنرى جيوش الكمامات. سنسمع كثيراً من النكت وكثيراً من التعليقات، سنروي لبعضنا حكايانا المتشابكة، ستكون نظرية المؤامرة هي (ترند) الكلام.

سنعود بإذن الله، وسأعود أنا ولم أحسم أمري للآن! هل أواصل كتابة (اليوميّات) أم أعود لكتابة المقال اليومي بلا يوميّات..؟ لعل العطلة تساعدني باتخاذ القرار.. فعلاً أنا بحاجة عطلة لكي ألملم تفاصيل كثيرة.

لعلّ القادم أجمل، وكل عام وأنتم بخير.

## 41

صار لديّ اعتقاد أنَّ الناس كسروا حاجز الخوف من الكورونا، يريدون أن يواجهوه ليرتاحوا، فالذي رأى الناس وزحامهم وتدافعهم عندما مددت الحكومة التبضّع إلى الساعة 11 مساء، سيدرك أنَّ هؤلاء ما عاد يعنيهم الكورونا والذي خلّف الكورونا، والذي شاهد واستمع وتابع حالة التذمر الجمعي من الأيام الثلاثة للحظر الشامل، سيدرك ذلك أيضاً، وما تلاها من حركة وتنقّل ومعايدات، وسلام بالأيدي وبوس، يقتنع تماماً أنَّ الأمر لم يعد برؤيته حين بدأ!.

هذه هي طبائع الناس في كلّ زمان ومكان، التأقلم، ليس مع الإرشادات والقوانين فحسب، بل مع الذي من أجله أتت القوانين

والإرشادات، وتنتصب أمامي تجربتي في السجن قبل ربع قرن حين دخلته وأدركتُ أنّني (مطوّل). في البداية كان هناك رفض داخلي له وللسجّان، لا أريد أن استسلم لهما، وحين صار السجن واقعاً حتمياً والسجّان صاحب الكشرة الكبرى هو الراعي الرسمي لتفاصيلك، تشحط بريكاتك بلا شعور، تتوقف لتسأل نفسك: وبعدين؟ بدّك تقضّيها هيك؟ فتنساب رويداً رويداً، تتأمل كل شيء في السجن، يصبح (مهجعك) هو طمأنينتك في كل السجن، وحين يأتي الشرطي تحاول أن تكون لطيفاً معه وترسل له بعض ابتسامة عربوناً لعلاقة قادمة، وتمرّ الأيام فيصبح لديك أصدقاء من الشرطة بمستويات مختلفة.، أحدهم تطمئنُّ إليه كلّيةً وتودعه بعض أسرارك، وأحدهم يحترمك وتحترمه بلا اتفاق، وأحدهم يواسيك كلّما رآك، هكذا هي الدنيا، وهكذا هو الإنسان.

الكورونا الآن هي السجن، وتفاصيلها وما ينتج عنها من قرارات هي السجّان، وحين يطول الأمر ستجد نفسك متورطاً مع كامل الأطراف، وتحاول أن تجد ثغرات لكي تسرق منهم الحياة وتعيشها بكامل فوضاك وأنت تلعن السجن والسجّان، اللذين صرت تألفهما وتضحك معهما بلا تردد..

# فـي مَديح الأَمَل ـ يوميَّات عمَّانية

مُحمَّد عبد الفتَّاح حليقاوي

*إلى مدينتي الأغلى «عمَّان»*
*وهي تُعَانق السماء من أجل حماية أبنائها*
*مُحَمَّد*

**1**

**الاثنين 16 آذار 2020 الساعة العاشرة مساء**

عمَّان.. يا مدينتي الطفلة

قريبةٌ هذهِ السماء، بعيدٌ هذا البحر، لقد كتبتُ اليوم على ورقةٍ صغيرةٍ زرقاء عبارة قليلة الكلمات ووضعتها أمامي: أيها الألم أمَا مِنْ مكانٍ آخر تنصب فيه خيمتك غير مدينتي، ثمَّ هزمتهُ بسيفِ فَرَحٍ صغيرٍ يُسمَّى الرضا والحمد، وفتحتُ «لسان العرب «ومزَّقتُ كلمةَ الحزنِ وجميع مفرداتها ومرادفاتها مِنَ المعجم، وأشعلتُ قنديلي العمَّاني الصغير وقلتُ: معاً تغدو الأمنيات حقيقة، ومقاومة الألم رفيقة دربنا، والتماهي مع عمَّان مشروع حياة.

عمَّان..

دعاؤكِ وصلواتُكِ وليس حَذَري واحتراسي هيَ التي أنقذت أبجديَّة روحي هذا اليوم، عندما دخلتُ مئذنة الكلام مع أبهى مدينةٍ عرفها التاريخ، صَبْرُكِ وليس جَلَدي هو ما حمى قاربي عندما اقتحمتُ كالطفل حديقة الأسرار التابعة لقصر هتونكِ الشفيف، مفتوناً بحرفٍ أزرق، أرتقي بحبلٍ من حنين الكلام، وحرير الأمل، لقد واجهتْ عمَّان جميع الأعداءِ، وانتصرت في كلِّ أزمة، فلماذا اليوم أخافُ عليها مِنْ عاصفة «كورونا»؟.

أيتها الزيتونة، المدينة التي جذرها في خافقي، وفرعها في عيوني، يا أيتها المؤمنة، بعد أنْ أكرمني الرحمن بأنْ أكون أحد أبناءِ جبالكِ التي لا تنام إلاَّ واقفة، أصبحتْ أدراجُكِ خريطتي اليوميَّة نحو سماء وسط البلد، والمسجد الحسينيّ، وسوق النَّدى، وسبيل الحوريَّات، وشارع بسمان، والكتب التي تُنادي على عُشَّاقها، يا أيتها الطيِّبة مثل زهر الياسمين، حين دَخَلتْ كلماتُكِ أبجديتي استحال خريف حروفي إلى ربيع رائع كالذي أراه كلّ عام مِنْ سفوح جبل القلعة.

أيتها المدجَّجة بالأمل والأقحوان، المزدانة بالشِّعْر والمطر، لم تعد قطرات الماء ساعي البريد بين الجذور والأغصان، ولا الرياح بين المياسم والتويجات، ولا ثمَّة عصافير في الأفق، لم يعد في هذا المساء شيءٌ جديرٌ بالذكر إلا أنَّكِ هبة الرحمن التي تلوّن الحياة بالطيبة، وتجعل

أمنياتنا جديرة بالبقاء، وتغدو سورة الكهف يوم الجمعة في مسجد أبي درويش تجربة من عَالَمٍ آخر، إنَّه مذاق عمَّان التي تحملُ الأملُ في يدٍ، والبناء في الأخرى، وتحملُ القدس في عيْنٍ، والعروبة في الثانية، وتحملُ صَرْحَ الشَّهيدِ في جَنْبٍ، وشقائق النُّعمانِ في جَنَبَاتها.

ولمَّا سألني دُوريٌّ صغيرٌ قبل قليل: العمَّانيون أصابهم الذهول بعد رؤية الطائرات العائدة بأبناء الأردن هرباً مِنْ «كورونا »، ماذا أنتم فاعلون؟ الجامعات والمدارس أُقفلت، المؤسَّسات العامَّة والخاصَّة في طريقها إلى سُباتٍ إجباريّ، ماذا أنتم فاعلون؟!.

قلبي الطفل أيها العصفور لا يرى مِنَ الدنيا إلاَّ عمَّان، ومِنَ الحديقة إلاَّ الزهرة، ومِنَ المطر إلا الحنين، ومِنَ المواجهة إلاَّ الأمل.

واليوم أدركتُ أنَّ عمَّان أقرب مِنَ النَّبض، وأنِّي أكثر إخلاصاً مِنْ زهرة عبَّاد الشَّمس، ولكنَّ الذي أدهشني أنَّ زماني لا يتجهُ إلاَّ نحوها.

## 2

### الأحد 22 آذار 2020 الساعة الثانية فجراً

الحياة تغيَّرت في عمَّان، «كورونا »أعاد اكتشاف أهل عمَّان لمدينتهم، وطرقاتها، وجبالها، تلكم الأقدام التي اعتادت على ركوب السيَّارات باتت تعرف تفاصيل الأحياء التي تسكنها منذ عقود كالمقيم في فندقٍ للنوم فقط، اكتشفنا أنَّ بيوتنا لها نوافذ، وحدائقنا القاحلة تصلح

للزراعة بأصناف الزهور والريحان والنعناع البريّ، وكانت المفاجأة الكبرى أنَّ هنالك كائنات أخرى في عمَّان تسمَّى «الجيران»، وهذه الكائنات طيِّبة ولطيفة ومتعاونة ومتكافلة، كان الخبزُ ينتقل بين البيوت بسلاسة لم نعرفها من قبل، وأضحى الاستماع إلى أخبار الثامنة مساء على قنواتنا المهجورة منذ سنوات، ثمَّ الوقوف على النوافذ من أجل تحيَّة الأطباء والجنود أجمل هواية ورسالة وقضيَّة، عمَّان لم تعد عمَّان مع «كورونا»؛ لأنَّها ليست تلك البدويَّة التائهة في الصحراء كما وصفها أحد أبنائها يوماً تعليقاً على حالة الازدواجيَّة التي دخلتها المدينة منذ تسعينيَّات القرن الماضي، وبدلاً مِنْ الخوف على مناعة أهل عمَّان من «كورونا» كان مستوى المناعة الوطنيَّة يرتفع ويرتقي بصورة أكبر من الوصف، وأجمل من التفسير.

وها نحن في عمَّان ننتظر كلَّ صباحٍ قدوم الساعة العاشرة من أجل معانقة شوارع المدينة التي اكتشفنا بصورة مذهلة أنَّها جميلة، وحنونة، لم نكن نخرج من أجل الخبز والماء والدواء وحسب، كما يفعل الجميع في كلِّ مدائن الدنيا، إذ يكفي كتابة كلمات قليلة على مواقع التواصل الاجتماعيّ حتى تنهال عليكَ صور النَّخوة الحقيقيَّة، والرجولة الصادقة، الجميع يتقدَّم من أجل المُسَاعدة حتى من الأحياء المجاورة، ومن أجلِ هذا كلِّه أصبحنا نعشق الساعة العاشرة صباحاً لأنَّها الموعد اليوميّ لاشتعال الحنين بين عمَّان ومريديها، نحملُ هواتفنا معنا ولا

نستخدمها سوى من أجل التفاخر أمام الأصدقاء، مَنْ الذي سارَ في شوارع عمَّان أكثر، كانت الهواتفُ دليلَنا وشاهِدَنا كم قطعنا من الأمتار يومياً من أجل عمَّان.

**3**

**ليلة الخميس 26 آذار 2020 الساعة الواحدة صباحاً**

اليوم كان قاسياً جداً، ازدياد أعداد المصابين بـ «كورونا» في المملكة.

نُصلِّي ركعتيْن، ونقرأُ سورتيْن، وندعو لأهلنا دعوتيْن عظيمتيْن، ونكتبُ على ورقة صغيرة عبارة واحدة: يا الله احفظ الأردن.

الليلةُ يا عمَّان رأيتُ أَحَدَ عَشَرَ زهرةً، والأمل والحنين لكِ طائعين، قالتْ الأقمارُ لي: لماذا تفرُّ الحروفُ مِنْ بينِ أناملكَ؟، لماذا وحديقةُ دحنونٍ بأكملها تحفُّ بمكتبكَ الصغير؟ ولا أسمع سوى صوت نبض عمَّان والمطر، وقُبَّراتٌ صغيرةٌ تُوزِّع الفلَّ والزنبقَ على الأطفال في طرقات عمَّان القديمة، وغابةٌ مِنَ هتون الأمنيات تروي مخاوفنا وتشعلُ بريق الرجاء.

قطرات المطر على نافذتي قادمة الآن من جبل عمَّان، قامت هذه القطرات بجولة تفقديَّة على حجارة شارع الرينبو وأشجاره القديمة، ثمَّ انتقلت إلى «رابطة الكتَّاب والأدباء» في جبل اللويبدة، واطمأنَّت على قصيدة نثر اختلفت قبل قليل مع قصيدة لأبي الطيّي المتنبّي، ولكنَّ

قطرات المطر لم تستطع مقاومة الصعود نحو «الحُسيْن» وجبله الأبهى، هذا الجبل الذي تشعر بأنَّ جميع روَّاده لا يتغيَّرون من حجم ارتباطهم به، هذه ثلاثة جبال عمَّانية عصيَّة على التعريف والتفسير والتأطير؛ لأنها ببساطة حقيقيَّة ومدهشة وعنيدة.

قطرات المطر ترفض المسافات داخل حدود عمَّان، تنتقل من جبل إلى جبل ثمَّ تدقُّ على نافذتي كأنَّ عاصفةً مِنَ الحنين تشتعلُ داخل كُريَّات هذا المطر بلونها الأسود والأحمر والأخضر والأبيض، فمرَّة أنطلق نحو جبل الجوفة القديم المُشْرف على المدرَّج الرومانيّ، وأتركُ قلبي هناك كالعادة، ومرَّة أزورُ «جامع الشركس» ومدرسة «عاتكة بنت زيد» في جبل النَّظيف، وتسقط دموعي اشتياقاً إلى جَدّي الذي زَرَعَ روحي هناك، ثمَّ لم تغادره أبداً، وثالثة تقودني ضلوعي باتجاه جبل التاج الذي علَّمني مفهوم الحريَّة والحنين والبكاء بلا دموع.

عمَّان لن تنهزم أمام «كورونا»، لأنَّها الشاهدة والشهيدة والأثيرة.

يا عمَّان، بَيْنَ تلاشي وجودي في غيابكِ، وانبعاثي في حضورك: أرتقي بحبل أسئلتي نحو مئذنة سموّكِ، أيتها المدينة القادمة مِنْ مدائنِ القُرْبِ مِنَ الله تعالى، أشعلي قصائدي وتاريخي وأمنياتي، أنا طفلُ الأمنيات، رفاقي: المطر، الزهور، العصافير، الحنين، الفراشات، الليمون، الشِّعْر، شارع الجامعة الأردنية، مكتبة شومان، الدوار

الثالث، سكَّة حديد عمَّان، زينة وسط البلد في شهر رمضان، مقهى السنترال، مطعم هاشم، جغرافيا عمَّان في شعر عرار.

**4**

**الأحد 29 آذار 2020 الساعة التاسعة مساء**

أيا عمَّان..

كلُّ الأشياءِ تذهبُ في حال سبيلها، النَّهرُ نحوَ البحرِ، السنابلُ نحوَ الحقولِ، القلمُ نحوَ الورقة، الضياءُ نحوَ القلوبِ المؤمنة، والأمل نحوكِ، باتَ هتوني قلمٌ لا يجيدُ الكتابة إلاَّ على أوراقِ زهوركِ، إيمانُكِ علَّمني أبجدية أخرى أتهجَّاها بروحي، ولهذا أنتِ عمَّان ونحنُ تلاميذكِ.

بهاؤكِ ونقاؤكِ وصمودكِ، أنتِ مَنْ أنضجَ رغيفَ كلامنا، ثقتكِ وصبركِ أشعل هزارَ بوحنا، أنفاسُكِ المؤمنة ـ وليس شراعنا الورقيّ ـ أوصلَ سفينتنا إلى الشاطىء الآخر من نهر التردُّد.

يومٌ جديد، وليلٌ جديد، ومعركة يوميَّة مع «كورونا»، ولكنَّ عمَّان تُعلن أنَّه لا هروبَ مِنَ المواجهة أبداً، وكيف الهروبُ إذا كانَ كلّ عمَّانيّ يتوحَّد مع مدينته كما العطر والزهرة، كما المؤمن والمسجد، كما الفراشة والحديقة، كما الزُرْقة والكون، ولأنَّها لؤلؤة هذا الزمان، لم يكن مستغرباً أنَّ في سويداء جميع أهلها صَدَفَة حدودها الإداريَّة، من

الشمال المودَّة، ومن الجنوب الانتماء، ومن الشرقِ الصبر، ومن الغربِ البناء، أمَّا جميع الجهات فهي عمَّان ذاتها.

اليوم يا عمَّان تبدو مناجاتكِ عَذْبَة، وحديثي معكِ ليس يتقنهُ الحديث..

أملكُ مِنَ الحنين اسمه، ومِنْ أصدقائي غيابهم، ومِنْ نبع المودة ورقة زرقاء صغيرة، وأنا مِنْ أملاكك الخاصَّةِ التي لا يمكن استبدالها أو إرجاعها، إنِّي لكِ إقطاعٌ أبديٌّ حتى تصافح مقلتانا الجَنَّة معاً، لستُ حرّاً كيما أنظر مِنْ نوافذ القلب، ولستُ عبداً كي أُحطِّم قيودي، أنا ابن عمَّان، وعمَّان مولاتي، أتدرين: اثنان لا ينضبان: الأمل والحنين، الأول بحرٌ كبيرٌ والثاني طوق نجاة، اثنان لا تصل إليهما الأحزان: جِبَالُكِ وميدان الراية، اثنان لا يعرفهما النسيان، أنتِ والقدس، واحدٌ لا ينقسم: أنتِ وأنا، ولنا أنْ نحذفَ حرف العطف لأنه لا مكان له بيننا، وسحابةُ «كورونا «يا عمَّان سوف تظلُّ سحابة.

## 5

### الخميس 2 نيسان 2020 الساعة الواحدة ظهراً

العالم خارج المنزل يمورُ بالأحداث، وأعداد المصابين ب «كورونا» في ازدياد خارج البلاد بصورة تُثير الخوف في الصدور، ولكنَّ رؤية أبناء الأردن ممَّن يواجهون هذا الوباء على التلفاز كفيلة بإرسال الطمأنينة إلى الجميع، وأنَّ بلادنا بخير، وهنا، ولعلَّها المرة الأولى منذ سنواتٍ

طويلة أرى شبابنا الذين سيطرت عليهم وسائل التواصل الاجتماعيِّ، والألعاب الإلكترونيَّة، للمرَّة الأولى نكتشف نحنُ، ويكتشفوا هم، أنَّ لديهم مواهب في القراءة، والكتابة، والرسم، والموسيقى، والتمثيل، والتصوير، وأنَّ وزارة الثقافة انتقلت من الهامش إلى المركز، وأنَّ وزارة الصحَّة جزءٌ من منظومة حياتنا بصورة حقيقيَّة، بل ووزارة الإعلام تنخرط في الشؤون اليوميَّة للنَّاس، وبالتالي «كورونا» فشلت في تمزيق نسيج بلادنا، ونجحت في استردادنا لعائلاتنا، وشبابنا، وطرقاتنا، وإصرارنا.

ربَّما تظن الصحف الأردنيَّة أنَّها خسرت خلال هذه الأزمة، وربَّما تعتقد صناعاتنا المحلية أنَّها تضرَّرت، وقد يخطر في بال الطلبة أنَّهم حُرموا من مدارسهم وجامعاتهم، غير أنَّ الحقيقة تستلزم القول بأنَّ قراءة الصحف والمواقع الإخباريَّة بات هاجساً يوميَّاً، وإقبالنا على كلِّ شيء مكتوب عليه: «صُنعَ في الأردن» مسألة لا تحتاج إلى كثير جدال، وإصرار العائلة الأردنيَّة على متابعة الدراسة في ظلِّ الانقطاع عن المدرسة والجامعة، والحظر الشامل، وضعف بعض الإمكانيَّات، كلّ هذا كان دافعاً إلى قبول التحدِّي، فكان الآباء والأمَّهات هم المعلّم والمعلّمة، والصديق والصديقة، وبات الأردن خليَّة عمل من أقصاه إلى أقصاه.

## 6

**الثلاثاء 14 نيسان 2020 الساعة التاسعة مساء**

يا عمَّان..

من قصائد عرار، وحيدر محمود، وحبيب الزيودي، وإبرهيم نصر الله، وخالد الكركي، إلى روايات تيسير السبول، ومؤنس الرزاز، وأمين شنَّار، وغالب هلسا، وزياد قاسم، من دراسات ناصر الدين الأسد، وإحسان عبَّاس، ومحمود السمرة، وعبد الكريم غرايبة، وعلي محافظة، وسليمان الموسى، إلى مذكرات عودة القسوس، وأحمد الطروانة، ومعن أبو نوّار، ووليد سيف، وجمال الشاعر، هكذا تمرُّ أيامي في ظلِّ حظر التجوُّل، من زهرة إلى زهرة، ومن خميلةٍ إلى حديقة، فكانت ليالي عمَّان تزدانُ بالذكريات، والأفكار، والصمود، والأمل، ولم يكن «كورونا» قادراً على هزيمتنا، وأنَّى له ذلك أمَام عمَّان.

هلْ أكشفُ سرَّاً مُعلناً إذا قلتُ: الآنَ فقط لمْ أعد أخافُ الموت لأنَّي أعلمُ أينَ سأكون، من أقاصي أبو نصير حتى مطار عمَّان الدولي، ومن غرب صويلح حتى نهايات شارع ياجوز، وأرجو أنْ أحيا وأموت بين حرفيْ العين والنون، لا أعلم كيفَ أصبحت الأبجدية في أبهى تجلّياتها هكذا: ع م ا ن.

اسألي حروف اسمكِ يا عمَّان لأنَّها أصبحت اللغة، والكتابة، والمستقبل، إذ اقترابي من زمانكِ، ومكانكِ، ومنكِ، أصبح كالأمل

يَكْبُرُ كلَّ يوم، وابتعادي عنكِ كالحزن يضيقُ في كلِّ لحظة، وأنتِ أكبر من الأفكار والأشخاص والأشياء، وأنتِ مدينتي.

**7**

**الأحد 19 نيسان 2020 الساعة 11 ليلاً**

يا عمَّان..

مساء هذا اليوم سقطتْ هَتونٌ مذهلة.. ووالله ما كانت إلاَّ من أجلنا.. أنتِ وأنا

بحثتُ اليوم بُعيْد مغادرة مكتبي في عمَّان عن عمَّان، فلم أجد إلاَّ الأمل قنديلاً يضيءُ عيوني، نحن محكومون بالأمل، حدِّقي بعد صلاة الفجر بالسماء حتى تشاهدي أجملَ الأمنيات، أنتِ شهد المدائن الوحيدة، هكذا أنتِ، وهكذا نحن.

اليوم يا عمَّان، حزمتُ بقيَّتي وتركت كُلِّي عندكِ وأخذتُ فقط ظلالي، هذا القلب، وهذه الروح، وهذا الجسد، وهذه العيون، وهذا الأنا، وهذه الأنتِ، ما كان لأمنياتي أنْ ترافقني دونكِ، فالنَّهارُ نفس النَّهار، والليل ذات الليل، والفجر هو الفجر، كلُّها عادتْ بلا معنى لأنّي في السادسة صباحاً؛ لأنّي لنْ أقول لمدينتي ما كان يردّده سليمان عويس في الإذاعة الأردنية قبل ثلاثين سنة بعد أنْ حاول «كورونا» تقييد اشتعالنا اليوميّ بمدينتنا الأحلى:

«صباح الخير ع الصوت اللي صحّاني ودقّ الباب
صباح الخير ع أهل الخير ولمّة الأحباب
صباح الخير ع الزارع وع الصانع على الطلاب والعسكر
صباح الخير ع التلّة وع الوادي
على الطيّون واللزّاب»

صباحُكِ جَنَّة يا عمَّان، الطريق يتبع طريق، والكلمات هاجرت اللغة، وحُداء الأملِ أضحى نشيدَ الفراشات التي ترافقنى كلَّ يوم من إشارة النَّبعة مروراً بجامعة العلوم الإسلاميَّة حتى دوّار المشاغل، كانت الفراشات ترفض الاعتراف بالهزيمة دوماً، وتواصل مرافقتي نحو شارع الاستقلال حتى بدايات عمَّان الشرقية بانتظار أنْ تسكن بين أشجارها وزهورها كما فعلتْ طيلة سنوات مديدة، ولهذا لا يمكن أنْ ينتصر «كورونا» على الأمنيات، والفراشات، والطرقات، فضلاً عن أنْ يواجه عمَّان.

عمَّان تنأى بمقياس البشر كأن تكون في عمّان وأنت في الزرقاء، أو ترتقي قلعة عجلون وأنت في حواري السلط القديمة، أو تُعانق بحر العقبة وأنتَ على قمَّة مرتفعات الكرك، أو تشتعل بهديل سهول إربد وأنتَ بين حنايا معان، هذا لم يحدث مع عاصمة أخرى، هذا لا يحدث إلاَّ مع عمَّان، إنَّ عاصمتنا تنأى بمقياس البشر، وتَقْرُب بمقياس خفق القلب، وشوق الروح.

## 8

**الجمعة 24 نيسان 2020 ميلاديَّة**

**1 رمضان 1441 هجريَّة، الساعة الرابعة عصراً**

يا عمَّان..

مَنْ لم يُشاهد وسط البلد في عمَّان بُعيْد صلاة التراويح خَسرَ أبهى أمسيات رمضان في حياتهِ، ومَنْ لم يقرأ سورة الكهف في المسجد الحسينيّ قلبهُ بحاجةٍ إلى صيانةٍ فوريَّة، يا الله ما أجمل عمَّان في رمضان، وما أرقى رمضان في عمَّان!!.

«كورونا» يُريد أنْ يفرض شروطه على عمَّان، وأنَّى له ذلك، فأسمعُ وأقرأ عن اشتياق العمَّانيين إلى مساجدهم، والتزامهم بحماية مجتمعهم، وأزعم أنَّ عبارة «صلّوا في بيوتكم» كانت المطلوب رقم واحد لديهم، وقد صبروا من أجل بلدهم، ومدينتهم، وجعلوا من منازلهم بيوتاً للعبادة، فأضحى المسجد في كلِّ مكان، وانتقلت الكنيسة إلى حيث يسكن روّادها.

اليوم في صلاة الفجر سمعتُ مئذنة «مسجد الهمشري» في خلدا تُنادي على المُصلّين، وفي صلاة الظهر كان «جامع الشركس» في جبل النظيف يُسلِّم على البيوت واحداً واحداً، وفي صلاة العصر قام «مسجد الفاروق» في شفا بدران بتوصيل الدرس الرمضانيّ إلى كلِّ الأحياء، أما صلاة المغرب فهي للمسجد الحسينيّ الكبير وحده؛ لأنَّه

يعرف أهل عمَّان جميعهم، فما منهم أحد إلاَّ وقد دعا له ورافقهُ وألهمهُ، فإنْ جاءت صلاة العشاء والتراويح أضاءت قرابة 2000 مسجدٍ في عمَّان قلوب وأرواح أهليها.

**9**

**الأربعاء 29 نيسان 2020 الساعة العاشرة مساء**

أيا عمَّان..

لقد ركبتُ قطاراً نحو غاية، كنتُ أرقبُ دربه فأراه طويلاً، ولكنّه حين انطلق أخذ يقطع المراحل بسرعة تطوي الزمن، فنهضتُ أُبدّل مقعدي وأهرب من المستقبل، خشيتُ من لهفةٍ تصيبُ حياتي إنْ بقيت هكذا، ولكن جبال عمَّان صنعت جداراً حَجَبَ عنّي ذلك الأمر، إلى أنْ أحسستُ بمحرّكات القطار تهدأ، وصوت صافرته يعلو، في حين انطلقت أمامي سبعة جبالٍ كأنَّها ظباء تركضُ في الحقول، فتبعتها مُتمنيّاً أن ينشقّ الفضاء عن سدٍّ من المودّة يوقفها معي إلى الأبد، وحينما أدركت لا محالة أنَّها راحلة، وقفتُ أرقب خطاها، فإذا بظلّي تكسّره الأمنيات، وإذا بالهواء يسخو ولكن بالجفاف، فأطلقتها نظرةً بغير هدى، بعيدة المُنى، تنادي: يا يوم حظر التجوّل، مَنْ يأخذكَ؟، ويأخذ الحاضر، ويمنحني سنوات حنين لا تنتهي بين أهداب عمَّان، أشتاقُ إلى لحظة اللقاء بشوارعها القديمة، أشتاق إلى المقاعد، الجدران، واجهات المحلات، الأبراج، الأقلام، الورق.

وحين تغيب الأمنيات ليلاً بين قمم جبالكِ أُحدِّق في ناظريكِ قليلاً وأسرحُ في البهاء، والنقاء، والمودّة، والقرب من الله، وحين تغيبين أنتِ أعلم أنّكِ هناكِ في روحي تعانقين أعماق أعماقي.

للمرَّة الأولى، منذ ألف عام، لا أُحبّ المطر، إنِّي أرتعد كعصفورٍ خانهُ الوصول، يركض الحزنُ في شراييني، وتهتف كريّاتُ دمي باسم عمَّان، لِمَنْ يَقْطُرُ دمي حنيناً إذا لم تُشرق شمسُ عينيكِ على جبين أهلكَ كلّ يوم، كَمْ هو شرِّيرٌ هذا الحنين، وكم هو مؤلمٌ هذا الوباء الذي يحرمنا من مدينتنا، وكم هو رائعٌ هذا الأمل.

اليوم يا عمَّان، استيقظتْ أسرابُ العصافير الملوَّنة وأشعلتْ روحي بألق اللهفةِ إلى جبالكِ المُدْهشة، لم أستطع اعتقال خافقي المسافر إليكِ، توضّأ دمي من إرهاق التفاؤل الذي لا يأتي، حتى تأتي أنتِ.

## 10

**السبت 2 أيار 2020 الساعة الواحدة بعد منتصف الليل**

أتدرين يا عمَّان؟..

أعلمُ تماماً أين تختبىء ذكريات عمَّان الشرقيّة، وأعرف مساحة المدرَّج الروماني، وأستطيع أن أجمع لكِ جميع العصافير المذهلة أمام القصر الأموي في جبل القلعة، وأقدرُ أنْ أكتب اسمكِ بجميع اللغات، وأرى «عبد الله رضوان» الآن يسير في شارع الملك طلال،

وأسمع خالد محادين يُناجي الزهور في الساحة الهاشميَّة، وألمحُ فهمي جدعان وهمام غصيب وإبراهيم العجلوني وماجد الكيلاني وعبد الكريم خليفة يجلسون في ندوةٍ في المركز الثقافيِّ الملكيّ، وأظنُّ أنَّ ذلك الرجل القادم من بعيد هو عبد الرحيم عمر، هنالك عشرات الأشياء التي يمكن أن أفعلها من أجلكِ، ولكِ، ولكنّي أرجو شيئاً واحداً، واحداً فقط، أنْ نهزم معاً «كورونا» بسرعة فائقة حتى نستنشق رائحة العبق العمَّاني الشفيف.

اليوم، تمَّ الإعلان عن عقد مؤتمر عمَّاني بامتياز من أجل مناقشة مستقبل الأمل في المدينة، وسبل مواجهة «كورونا»، واتفق مُنظِّمو المؤتمر على أنْ يكون مكان انعقادهِ في جميع طرقات المدينة القديمة، وكان رئيس المؤتمر جبل عمَّان، وأبرز الحضور شجرة زيتون من حدائق الحسين، وزهرة بيضاء من حديقة المدينة الرياضيَّة، وكتاب «الوثائق الهاشميَّة» بأجزاءه العديدة، وقصيدة «عمَّان» للشاعر عبد المنعم الرفاعي، ورفيقتها قصيدة «أرْخَتْ عمَّان جدائلها فوق الكتفيْن» للشاعر حيدر محمود، وبعض الغيوم الجميلة من غابة غمدان، أما المتحدِّث الرسميّ للمؤتمر فكانت الكلية العلميَّة الإسلاميَّة، وأصدر المؤتمر عدة قرارات أبرزها: استمرار المواجهة مع «كورونا» حتى هزيمته، والتمسُّك بالأمل والصبر والوحدة والتضامن، وبعد انتهاء المؤتمر أوصلت العصافير هذه القرارات إلى جميع البيوت في عمَّان.

اليوم، خلال هذا المؤتمر كانت محبَّة عمَّان تفوق التصوُّر، وجميع

الإجابات على أسئلة الباحثين عن الأمل هي عمَّان، كلَّما سألوا عن التاريخ والحاضر والمستقبل، كتبتُ على أوراقي أربعة حروف، أجمع حروف اسمكِ مثل صيّادي اللؤلؤ القدماء، وأكتبهُ بخطٍّ كوفيٍّ شفيف على جدران قلبي، ثم أجمع العين إلى الميم إلى الألف إلى النون وأهتفُ: كلُّ مُرٍّ سَيَمُرُّ، ولم يتمكَّن سوى ذلك الهُدْهُدُ القادم مِنْ «صَرْح الشَّهيد» أنْ يكشف بريق الأمنيات كلّما كتبتُ اسمكِ، جاء بعد المؤتمر وقال: يا أهل عمَّان، عليكم بالأمل.

## 11

**الخميس 14 أيار 2020 الساعة العاشرة صباحاً**

يا عمَّان..

الآن، أجلسُ أمام نافذتي الصغيرة أنظر إلى بيوت عمَّان كأنَّها منمنمات عتيقة وبهيَّة وعنيدة ومدهشة، وكلَّما دقَّ هذا القلب المفتون بهديل طرقات عمَّان، أرى وجوه النَّاس تنثرُ ياسمين ذاكرتها بين يديّ، مدينتي بيتي الوحيد، وحديثها كلَّ يومٍ عن الأمل في مواجهة الوباء مشروعنا الوطنيّ، ثمَّ تسألني أمنياتي عن قلبي الساكن بين أدراج عمَّان التي كنَّا نتسابق في حفظ عددها: كيف نواجه شيئاً لا نراه، كانت الأسئلة طليقة في بحر الحيرة، تجلس داخل غرفتي، تُغرقني مرَّة، ويُنقذني الأمل مرَّات، وفي الحقيقة كنتُ أظنُّ أنِّي قادرٌ على تغييب لهفتي أمام هذه المدينة، وجبالها، وأهلها!!، إنَّ كلَّ لحظةٍ مرَّتْ عليَّ بعيداً عن

عمَّان، وأسواقها، وطرقاتها، ومكتباتها، وأهلها، كانت قاسية، وغريبة، ومُزَلزِلة.

أقرأ الآن في كتابٍ كئيبٍ عن الفكر المُعاصِر، وهو كئيب لأنِّي مشتاقٌ إلى وسط البلد وهو يدعو إلى العزلة، فأرى عصافير عمَّان تنادي على كريَّات دمي، وأرى شجرتيْن تتوهَّجان لهفةً مِنْ أجل أنْ ترتوي مِنْ نقاء اللقاء بين المدينة وأهلها، ثمَّ أرى أمامي حلماً يتألّق كقصيدة أمويَّة، ومعي أقلامي التي لا أعرف مثلها إلاَّ في عمَّان الشرقيَّة، فإذا اجتمع الحلم مع القلم في حضرة عمَّان، كانَ الأملُ هو العنوان والمتن والسَّنَد والإسناد، وفي هذه اللحظة يمكن لأهل المدينة أنْ يجمعوا خبز روعتها، ويقولوا لأطفالهم: هاكم شهد عمَّان.

## 13

### الخميس 7 أيار 2020 الساعة الرابعة فجراً

تسحقني الساعة في عمَّان كأنَّ خطاها لا تسير، لم أعرف في حياتي أنَّ الاشتياق لمدينتي في ظل «كورونا» سوف يكون صارخاً هكذا.

ساعتي كاذبة، الباب كاذب، النافذة كاذبة، الجدران، الطريق، الأصوات، الانتظار، الألم، الإحصاءات، الفيروس، الخوف، كلّها كاذبة ونحنُ لا نُعانق عمَّان في كلِّ لحظة، الحياة كذبة كبيرة جداً، الحياة كذبة كبيرة جداً، الحياة كذبة كبيرة جداً، ونحنُ لسنا معاً، أرأيتِ يا

مدينتي أجمل من التقاء الطفل بأمِّهِ، والغيث بالأرض، والأمل بسورة النَّصر.

الآن، في هذه الليلة الآسرة، وأنا أمام النافذة قبيل الفجر، وبعيداً في أقاصي شمال عمَّان، لا أعلم لماذا أتذكّر بلهفةٍ قاتلةٍ ذلك اليوم «العمَّاني» الحنون جداً، كانت السماء تُمْطر بصورةٍ فاتنة، إنّه ذلك المطر الذي يرجو الأطفال أنْ يركضوا فيه ودموعهم تعانق الفرح، الفرح لأنَّ قطرات المطر هذه لا يعرفها إلاّ عمَّان وأنا، كنتُ ذاهباً إلى مكتبة «شومان» في أجمل مناطق جبل عمَّان، أجمعُ أفكاري وأستقي أخرى من «تاريخ الطبري» كيما أحاور فيها رفاق درب أضاعتنا الدروب بعدها.

هل تعلم الدنيا كيف تبدو أشجار «جبلٍ عمَّان» في الشتاء؟، كيف يهفو المطر إلى أوراقها الخضراء؟، أشعر الآن بألم غريب لأنَّ بهاء ذلك الشتاء لم أتمكّن من حضوره سوى مرتين، كانَ الدخول إلى المكتبة بُعيْد العصر أشبه بالمعجزة، أكادُ أُحسُّ بتلك الخطوات كأنّها حدثت قبل دقائق، وأقول في نفسي هل أعود من جديد إلى ذلك المكان، هل أجلسُ على ذات المقعد العجيب، هل تمنحني الحياة فرصة التجوّل بين كتب التاريخ العربيِ والإسلاميّ مرَّة أخرى؟، كم ديوان شِعْر سوف أستعير؟.

أنطلقُ بعد ذلك بمحاذاة سور الكليَّة العلميَّة الإسلاميَّة باتجاه فندق «بيل فيو» ، أرى من بعيد «العبدلي» تعانق سحابة لمّا تمطر بعد،

يخفق قلبي، وتهرب دمعة دافئة من عيوني، وأنظر نحو الأفق، وأسألُ الأطيار والأشجار: متى أبعثرُ يا عمَّانُ أمتعتي وكتبي وأوراقي ونظَّارتي وهمومي وأمنياتي وأستريح، أولستَ ترحمُ يا طريقُ حصاني!.

ثمّ يسقط المطر.. ثمّ يسقط المطر.. ثمَّ يسقط المطر.

## 14

**الأحد 10 أيار 2020 الساعة العاشرة صباحاً**

يا عمَّان..

كيف أرفع قامتي أمامَ سماء روعتكِ، وأنا منكِ، تأجَّلَ رحيلي عنكَ ألف عام، يزورني الحزنُ كلَّ يوم كما فعل مع ملوك الطوائف فأهزمهُ بكلمة واحدة، هي الأمل، يلاحقني لصوص الوقت كلَّ لحظةٍ من أجل اعتقال عُمْري الذي وهبتهُ من أجل عمَّان، فأهزمهم بكلمةٍ صغيرة هي الأمل، جاءتْ إليَّ أوراقٌ وقصائدٌ وأزاهيرٌ وأطيارٌ ووفودٌ تفاوض قلبي مِنْ أجل التنازل عن هُنَيْهَةٍ أحياها قريباً من المسجد الحُسينيّ، جاءت إليَّ مدائن لا تنام، أنهارٌ، وأبراج، ومآذن، ومكتبات، جاءت إليَّ الدنيا كلّها تفاوضني على هجرة، وظيفة خياليَّة، إعادة انتشار، اعتراف متبادل، اتفاقيّة سلام، هدنة، تبادل ثقافي، مجلس انتقالي، وإجابتي منذ ألف عام لا تتغيّر: عمَّان عاصمتي الوحيدة.

وقفـتُ أمام شارع بسمان، مغروراً باختراعهِ لي، وباكتشافِ أهدابي لبهاء ذكرياتي فيه.

طفلاً وقفتُ مشتاقاً، ومذهولاً بهذا الضياء، يُشعُّ من يد والدي التي أمسكتُ بها قبل ثلاثة عقود، وهو يشرح لي تاريخ هذا الشارع، رأيتُ اليوم أبي الذي غادَرَ عمَّان منذ سنوات وهو يحتوي ضلوعي التي لم تتوقّف عن الحنين إلى عمَّان منذ العصر العباسيّ الأوّل، وها أنا أسيرُ معه وفي ثنايا هذا الشارع أوراقُ حياتي، وفي رؤيتهِ أَمَلي العَذْبُ، وفي أصوات روَّاده دفقة طيبة لا تُدانى، وفي أدراج سوق «منكو» تتساقط دموعي كلَّما هبطت إليه من الأعلى، ومعي ظلال أبي التي لا تفارقني هناك.

يا عمَّان في زمن «الكورونا» كَمْ أرجو أنْ أرسمكِ الآن مثل لوحةٍ في القرن الهجريِّ الأول، وعندئذٍ سوف يُشعلني الغَزَلُ العُذْريّ مِنَ الشوق إلى مشارف عمَّان الشرقيّة، كَمْ أرجو أنْ نسيرَ معاً يا أبي من جبل النَّظيف باتجاه وسط البلد كما كنَّا نفعل كلَّ يوم جمعة، نسيرُ بجانب محلات بيع بنادق الصيد، وأختلسُ النَّظر نحوَ جمال بناء الكنيسة التي كانت من أمنياتي التجوّل في أرجائها، ثمَّ نعبر الشارع العريض باتجاه مواقف سيَّارات جبال عمَّان القريبة، وصولاً إلى ساحة المسجد الحسينيّ حيث محلاَّت العطور، والمكتبات القديمة، والملاجىء التي اندثرت مع مرور الزمن، والمكافأة الأسبوعيَّة من والدي هي الحصول على كوبٍ من الليمون الذي كنتُ أظنَّ أنه من الجنَّة؛ بسبب عذوبته وحلاوته.

ولهذا عمّان مئذنتي، ونخلتي، وتُحْفَتي، وكتابي، وجنّتي، وحينَ تقرأ القرآن العظيم قبيل صلاة الظهر في المسجد الحسينيّ، تأتي إليكَ حديقةٌ من الإيمان، وبستانٌ من الدفء، وأُمنيات لا تنتهي للفقراء في عمّان الشرقيَّة، وزيت قنديل صغير في الجانب الغربيِّ من المسجد الأقصى، حيث يرجو كلُّ عمّانيٍّ أن يصلِّي يوماً ما.

يا الله كم تبدو عمّان الشرقيّة جميلة في الشتاء، حتى و«كورونا» يظنُّ أنَّه أرخى سدوله علينا، فأرى الأطفال يرتدون سحابةً من حنين دعاءِ أمهاتهم، تجعل قطرات الغيث الصغيرة تشبه دروس اللغة العربيّة في جامع «طارق بن زياد» قرب طلوع «المصدار»، ولهذا نتوقُ إلى ضمِّ حروف اسم عمّان بين جوانحنا، وأنْ نزرع اشتياقنا على هديل موّدتها، ثم نستنشق عطر حدائق بيوت شارع «المهاجرين» المليئة بالياسمين، ونصنعُ لانفسنا عِقْداً من لؤلؤ الكلمات أوّله: ع، وثانيه: م، وثالثه: ا، ورابعه: ن !!.

أتدرين يا عمّان؟ في كتاب أرواحنا الأسماء كُلُّها مُنْصَرِفَة، إلاَّ اسمُكِ هو الوحيد الممنوع مِنَ الصَّرف، وكلَّما كتبنا شيئاً جميلاً وضعناه بَيْن قوسين إلاَّكِ أنتِ حيث تجلسين بين ضلعيْن في كتاب قلوبنا، ولهذا لا حاجةَ بنا للسير على الماء، أو الوصول إلى المريخ في خمس دقائق، عمّان نهضتنا، وتاريخنا، بها انتصرنا دوماً، ومعها سوف نهزم «كورونا».

لكِ يا عمّان في أعمارنا، الأردن، وحديقة ياسمين، وسجَّادة صلاة.

سوف نستلهمُ فروسيَّةً من خالد بن الوليد، وقصيدةً من جدّنا

المتنبّي، وحكمةً من أبي العلاء المعرّي، وطيراً من فريد الدين العطّار، ورقَّةً من ابن زيدون، وبياناً من أبي حيَّان التوحيديّ، وفتوحاً من عبد القادر الكيلانيّ، وطوق حمامةٍ جديد من ابن حزم الأندلسيّ، وفلسفةً من ابن رشد، وعُذوبةً من الشريف الرضيّ، وكبرياءً من أبي فراس الحمدانيّ، سوف نستلهمُ كلَّ الأشياء من كلِّ البشر باستثناء الأمل والصمود والإباء والكرامة والوحدة، فإنَّها منكِ وحدكِ، وحدكِ يا عمَّان.

**15**

**الخميس 14 أيار 2020 الساعة السابعة صباحاً**

يا عمَّان.. ها نحن قابَ لهفتيْنِ من هزيمة «كورونا»، يا نخلةَ دمي العمَّانيّ الحنون، لَمْ تبقَ مدينة عربيّة إلاَّ وحاولتْ أنْ تكونَ حديقةً للفرح الذي يهمي من ينابيع قلبكِ البدويّ الشفيف، بغداد حاولتْ، والقاهرة حاولتْ، ودمشق، والقيروان، والرباط، وبيروت، وحيفا، والإسكندريّة، وحدها القدس كانتْ لكِ وكنتِ لها، وحدها القدس تُنيرُ ألف سراج كلّ ليلةٍ مِنْ ضياء عينيكِ، ولهذا نحبُّ القدسَ جدَّاً، ونحبُّ عمَّان جدّاً.

كلّ يومٍ في السابعة صباحاً أكتبُ: الأمل في عمَّان مشروع حياة.

كلّ يومٍ في السابعة صباحاً تبحثُ أنفاسي عن حروف اسمكِ الراكضة بين ضلوعي، يهفو قلبي إليكِ وترتعش دروب عمَّان

القديمة، أشواقي إليكِ عصافير، رحلت قبل الأوان، أشعرُ بابتسامتكِ التي أيقظتْ فيَّ حُداء الأمل المسكوب على صفحة الأمنيات، أشعرُ بابتسامتكِ تقول: تعال أيها الطفل إلى مدينتكَ التي روَّضت المستحيل.

لقد يمَّمتُ قلبي وروحي وماضيّ وتاريخي ومستقبلي شَطْرَ بهاء صمودكِ يا عمَّان، لكِ في حياتنا ثلاثُ مُهَجٍ، واحدة لكِ، والثانية لكِ، والثالثة لكِ.

أُسمّي البهاء شارع الثقافة في الشميساني، أُسمّي قصيدتي شارع الصحافة، أُسمّي صلاة الفجر جامع الملك الحسين، أُسمّي مرتقى الأنفاس عمَّان، ألا تعلمين أنَّه للأمنياتِ اسمٌ واحدٌ: الأمل، للصبرِ اسمٌ واحدٌ: جبل القلعة، للفرح اسمٌ واحدٌ: الأطفال، للحنين اسمٌ واحد: الشتاء، للذكريات اسمٌ واحدٌ: رأس العين.

منذُ ألف عام يا عمَّان كنتُ أعلمُ أنك منتصرة، وما تبقّى في أعمارنا يكفي كي نصلّي مرّةً أخرى في شوارعكِ القديمة، ولم يعد سؤالاً تاريخياً متى التقيتُ بكِ أوّل حنين، لا أحد يعلم متى رأى أُمّه وهو طفل، ولا أحد يدري مِنْ أيّ معهد موسيقى تخرّجت العصافير، الشيء الوحيد الذي أعرفهُ أننا نعشق عمَّان وسوف نهزم «كورونا».

وها أنتِ يا مدينتي الغالية تركضين في جميع أرجاء ذاكرتي الأردنيَّة من «العيْنِ»إلى الأبد، ثم تجلسين في تمام الإيقاع المُحاذي لشذى الروح.

# شِدَّةٌ وَتَزُولُ ـ يوميات الأزمة

موسى إبراهيم أبو رياش

## 1

**الأحد 8 ـ آذار ـ 2020**

عندما بدأت أخبار فيروس كورونا تتصدر نشرات الأخبار، كانت الإصابات حصرياً في مدينة ووهان الصينية، وكنت أتصور أن الإصابات ستبقى محدودة مكانياً، كما حدث في أمراض أخرى من قبل مثل سارس وأنفلونزا الخنازيز والطيور وإيبولا وغيرها. لم يتوقع أحد أن يضرب الوباء معظم دول العالم، وبعنف شديد في بعضها، ولكن ما لا يُتصور وقع، وانتشر الوباء كعاصفة هوجاء وبسرعة عجيبة، وفي متوالية هندسية غير مسبوقة.

في الأردن، كنا نشعر بالأمان، وأنَّ الوباء بعيد عنا على الرغم من حدوث إصابات في دول عربية، ولكن ما أن أُصيب أول أردني بالمرض ناقلاً إياه من إيطاليا، حتى شعرتُ بأنَّ الأمر جِدّ، وأن لا دولة بمنجاة من هذا الوباء الذي يتسلل بخفة ودهاء، دقت أول إصابة

ناقوس الخطر، وآن أن نستعدّ للسيل قبل أن يجرفنا، وللنار قبل أن تلتهم الأخضر واليابس، خاصة مع الأنباء العاجلة هنا وهناك التي تعلن عن إصابات بالألوف، ووفيات بالمئات، وحتى في دول أوروبية متقدمة، الأمر جلل، والعاصفة تقترب، ولكن رحمة الله فوق كلّ شيء.

**2**

**الأربعاء 11 ـ آذار ـ 2020**

عندما أُغلقت الحدود البرية، ووُضع العائدون في الحجر، ومن ثم عُطّلت المدارس، وبعدها عُطّلت جميع المصالح الرسمية والخاصة، وأُعلن الحظر الشامل تحت مظلة قانون الدفاع، كان الأمر أشبه بالكابوس، هل يعقل أن تتعطل الحياة تماماً خوفاً من فيروس مهما بلغت قوته وبطشه وجبروته وسرعة انتشاره؟ حتى في أثناء الحروب، لم تتوقف الحياة كلياً، ولكن يبدو أنَّ الحرب على الفيروس أشدّ وأعتى، كمواطن أيّدتُ هذه الإجراءات على قسوتها، فالمحافظة على الإنسان وصحته أولى من أي اعتبارات أخرى، فالإنسان أغلى ما نملك، كما قالها الملك الراحل الحسين بن طلال رحمه الله.

معظم دول العالم، أغلقت الحدود، وأوقفت حركة الطيران، وعطّلت الحياة، وفرضت حظر تجول، وأغلقت المدن، التي أصبحت مدن أشباح؛ شوارع خالية، ومطارات خاوية، وقطارات متوقفة كأفاعٍ

أصابها الشلل، ومستشفيات تفيض بمرضاها، وموتى يتساقطون كالذباب، وصراخ يتعالى في كل مكان، الأمر يفوق الخيال، بل إنَّ كل الأفلام والكتب والتصورات، التي تخيلت كوارث وأوبئة وحروباً، لم تصل إلى هذه الدرجة من الخواء والخوف، الذي حدث وبشكل متزامن عالمياً، الواقع تفوّق على الخيال وهزمه، في سابقة تضع الخيال على المحكّ، وأنّه محض هراء ومتخلف، وأنَّ الخيال كلَّ الخيال في الواقع!

**3**

**السبت 14 ـ آذار ـ 2020**

النداء العالمي للجميع من أجل الوقاية من وباء كورونا «#خليك_بالبيت»، أصبح الهاشتاق الأكبر عالمياً، وبشكل غير مسبوق، لا أدري، لم يذكرني هذا النداء ببيت الحُطَيئة في هجاء الزِّبْرِقان بن بدر:

**دعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغيتها**

**واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي**

وبما أن الحكومة هي من تطلب منا «#خليك_بالبيت»، فلا عمر يقتص لنا من الحطيئة، فهي عمر اللحظة، وما أرى إلا أن «فيروس كورونا» هو من ألزمنا القعود في البيوت؛ تجنباً للقائه، ونحن والله لا نريد لقاء العدو، ولا نتمنى لقاءه، أليس الحبيب محمد صلى الله عليه

وسلم القائل في الحديث الصحيح: «لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ العَدُوِّ، وسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ»، وأي عاقل يتمنى لقاء العدو؟ بل وأي عاقل يحب أن يكون له أعداء ابتداءً؟ إذاً فالبيوت البيوت؛ لئلا نجعل لكورونا علينا سبيلاً.

صحيح أنَّ القعود في البيت يتعارض مع حرية المرء وحقّه في الخروج، وحقّه في العمل، وحقّه في التزاور، وحقّه في التسوق.....، لكن عندما تحكم الظروف، تصبح حرية الفرد مقيدة بحق المجموع، وحق المجتمع يتطلب تقييد الحركة والمكوث في البيوت.

ولكن في المقابل، من قال إنَّ قعدة البيت شرّ، أو تحولنا إلى مجرد عجزة بلا فائدة؟ أليس البيت هو مبتدأنا ومنتهانا؟ منه ننطلق صباحاً وإليه نعود مساءً؟ أليس البيت مستراحنا ومحل سكننا وسكينتنا وطمأنينتنا؟ فيه ننام ملء جفوننا بأمن وأمان؟ أليس البيت من يضم أسرنا وأفراد عائلاتنا، وفيه نعيش مع أحبتنا؟

«#خليك_بالبيت» فرصة ذهبية؛ لتوثيق الصلات مع أفراد العائلة، والاستماع إليهم، وتفقد أحوالهم، والإطلاع على آمالهم وأحلامهم، وهمومهم وآلامهم ومشكلاتهم ومطالبهم، ودواخلهم وما يخططون لمستقبلهم.

«#خليك_بالبيت»، فرصة ذهبية؛ لمراجعة الذات، ومحاسبة النفس، وإعادة النظر في مسيرة حياتنا، وتصرفاتنا، وسلوكياتنا، وأعمالنا، وعلاقاتنا، وطريقة حياتنا. فرصة لتحديث خططنا المستقبلية

بناء على ما حدث ويحدث، فثمة متغيرات كثيرة تتطلب التعديل والتغيير والحذف والإضافة.

«#خليك_بالبيت»، فرصة لإشباع هواياتنا التي أهملناها من أجل الدنيا ومطاردة الأموال والمناصب، متعللين بضيق الوقت، وضرورات الحياة، فها قد جاءت الفرصة على طبق من ذهب، فرصة لأن نقرأ ونقرأ، أليس أول كلمة نزلت على الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم كانت ﴿اقْرَأْ﴾، فلِمَ لم نجعل لها في حياتنا نصيباً؟ القراءة حياة بل حيوات، تمنحنا ونحن في البيت متعة عظيمة، وفوائد كبيرة، ووعياً واسعاً، وفهماً عميقاً، واطلاعاً لا حدود له، فقد جاءت اللحظة المناسبة فلنغتنمها.

الكتابة أيضاً هواية جميلة، ومنحتنا الأزمة الوقت الكافي لنكتب، ليس شرطاً أن نكتب روايات أو قصصاً أو قصائد، بل يكفي أن نكتب ما يجول في خواطرنا، ما نحسّ ونشعر به، ما يؤلمنا، ما يحزننا، ما يقلقنا، ما نرجوه، ما نأمله، أحلامنا، أفكارنا، مخاوفنا.... فلنكتب بعفوية، ففي داخل كل منا كاتب يستطيع أن يعبّر عن نفسه إن أراد، البداية صعبة، لكن ما إن تبدأ بالكتابة، حتى ينطلق القلم كحصان سريع العدو على مروج الورق الأبيض، وإن كانت العلاقة قوية بالشاشات، فما أسهل الضغط على المفاتيح والأزرار حتى تتدافع الكلمات تترى، وسرعان ما تمتلىء الصفحات دون أن ندري.

الهوايات والنشاطات التي يمكن أن نعود إليها في هذه العطلة الإجبارية كثيرة جداً، وكل إنسان أدرى بما يفيده ويهواه، ومن أمثلة ذلك: الرسم، الموسيقى، تعلم برامج تصميم، الحفر على الخشب، تعلم الطبخ، الخط، الزراعة البيتية، الرياضة... إلخ.

«#خليك_بالبيت»، لا أحد يتمنى أن تتكرر ثانية لأي ظرف كان في المستقبل، لكنها الآن نعمة، ووراء كل شرّ خير، فلنستغلها، ولا يذهب وقتنا هدراً، ومناكفات ومشكلات بيتية، أو نوماً طويلاً، أو تسمّراً طوال اليوم أمام الشاشات. ولندعُ الله من أعماق قلوبنا أن تنتهي هذه الأزمة على خير، وبأسرع وقت، ولنكن على يقين أن كل مرّ سيمرّ.

## 4

**الاثنين 16 ـ آذار ـ 2020**

أُعلِن بالأمس تسجيل ست إصابات بداء كورونا، كان وقع الخبر صادماً ومخيفاً على الجميع، فقد بدأ العداد، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ أين ومتى سيقف؟؟ فما يحدث في الدول الأخرى وخاصة المتقدمة منها، يجعلنا نتوقع مئات الحالات يومياً بعد أسبوع.

الخوف في هذه الحالة مشروع، وهو شعور فطري، ورد فعل طبيعي، والترقب أصبح سيد الموقف، وكل منا هدف لفيروس كورونا، لا

يدري من أين يأتيه أو يهاجمه أو يباغته. ولكن لا أظن أن الأمر مخيف لهذه الدرجة، صحيح أنّنا لا نرى الفيروس، ولا نعلم مدى خلو المكان حولنا، إلا أننا نعلم كيف نتجنبه ونتفادى خطره، يتبدى ذلك كما هو معروف بالنظافة، والتباعد الجسدي، وعدم الاختلاط والتجمع، وارتداء الكمامات والقفازات، وعدم الخروج إلا للضرورة القصوى، وتقوية جهاز المناعة بالأغذية والأشربة المساعدة على ذلك، وغيرها من الإجراءات، وحتى ـ لا قدر الله ـ أصيب الإنسان بالفيروس، فثمة أعراض تُنبئ عنه، وسرعة تصرف المريض تحميه بعون الله، وتسارع في شفائه من الفيروس؛ فالمرض ليس بعبعاً لا يمكن التخلص منه، ولا هو وحش مفترس لا حيلة ولا قوة تنفع معه، بل هو كائن يمكن إخضاعه والسيطرة عليه بفضل الله ورحمته، صحيح أنَّ الإصابة مؤلمة نفسياً بحد ذاتها؛ لما تحدثه من صدمة للمريض ومن حوله، ولكنها اختبار لصبر المريض وإرادته، ومحبة من حوله ودعمهم ووقوفهم إلى جانبه، كما أنها في النهاية، مناعة دائمة للمصاب، ولن يقربه الفيروس إلى الأبد إن شاء الله، نعم، الإصابة مرة، ولكنها مرّ سيمرّ، وستصبح ذكرى للسمر.

## 5

### الجمعة 20 ـ آذار ـ 2020

«صلوا في بيوتكم»، عبارة مؤلمة عندما نسمعها بعد كل أذان، من المؤكد أنها قيلت من قبل، ولكن في ظروف مختلفة، ولوقت محدود، وفي مكان محدود، أما أن تشمل معظم دول العالم، وتقفل المساجد بأمر السلطة، وبموافقة المراجع الإسلامية، ومثلها الكنائس، فهذه تحدث لأول مرة في التاريخ، ومن هنا جاء تأثيرها الصادم الجارح المحزن لقلب كل مسلم وعابد.

لستُ من المحافظين على الصلاة جماعةً في كل الصلوات، ولكني أجد أبواب المسجد مشرعة لكل راغب، فهي بيوت الله التي تستقبل عباده في كل الصلوات دون أن تردّ أحداً. نعم الله موجود في كل مكان، والأرض كلها مسجد، والبيوت مساجد، ولكن للمساجد روحانيتها وخصائصها التي لا تتوفر في غيرها، وعندما تقفل في وجوهنا، فثمة غصة وحسرة، وأتساءل: هل هي رسالة؟ أم تحذير؟ أم ماذا؟ لا بدَّ أن هناك حكمة وراء ذلك، وعلينا أن نتفكر فيما وراء هذا الإغلاق؟

وفي المقابل، أحمد الله أن ديننا دين يسر، ولا يتعارض مع مصالح الناس، وإذا كان الإغلاق للوقاية من الوباء، فالدين أولى به، وهو من يحض عليه، ويدعو إليه، وليس ديناً عدمياً لا يأبه بمصالح البلاد والعباد، بل يدور مع المصالح العامة ولا يتعارض معها أبداً.

عندما أسمع النداء «صلوا في بيوتكم» دبر كل أذان، أقول «اللهم ردنا إلى بيتك رداً جميلاً عاجلاً غير آجل»، وأنا على يقين من هذه العودة قريباً، وكل شوق للمساجد هو عبادة، وما يزيدنا البعد إلا محبة وتمسكاً، وننتظر أن يأذن الله بالفرج، وأن يعيد للأرواح بسمتها، وللقلوب دفئها، وللأجساد مستراحها الجميل، وكل مر سيمر بعون الله ومنه وكرمه.

**6**

**الجمعة 27 ـ آذار ـ 2020**

على الرغم من أني متقاعد وبيتوتي جداً، فقد شعرت بالضيق لمنع التجول الجزئي، فالإنسان بطبعه لا يطيق أن يفعل شيئاً بالإكراه ولو كان لمصلحته، ومن خلال شبكات التواصل الاجتماعي، لاحظت الحالة النفسية التي يعيش تحت وطأتها الناس؛ بسبب الحظر، وتقييد حركة التنقل، ومنع التجمعات، علماً أنهم يدركون جيداً أن هذه الإجراءات مؤقتة، ولمصلحتهم هم بالدرجة الأولى.

هذا الضيق الذي عم الجميع، والحالة غير المسبوقة، جعلني أفكر في حال ملايين البشر، المرغمين على المكوث في أماكن محددة، على مدار الساعة، وربما إلى الأبد، وكيف هي مشاعرهم، وكيف يعيشون ويتكيفون مع ظروفهم القاسية، دون أمل بأن تتحسن أو تنتهي.

الفئات التي فرض عليها منع التجول الدائم كثيرة، ومنها الأسرى في سجون الاحتلال، وحتى المساجين العاديين في السجون، هؤلاء، كيف يتحملون العيش دون حرية في زنازين أو غرف محدودة المساحة، ولا يسمح لهم بالخروج منها إلا لساعات في ساحات صغيرة، لا يرون ولا يخالطون غيرهم، وهم محرومون من معظم وسائل العيش الكريم ووسائل التعبير، أما التنقل فهو من الأحلام التي تراودهم، وكلهم يترقب لحظة الخروج بفارغ الصبر، ويبني حياة أخرى زاهية في مخيلته، تنسيه ما عاناه في معتقله وسجنه.

كبار السن العجزة والمقعدون والمرضى الذين هدَّهم المرض وألزمهم بيوتهم، هؤلاء شريحة كبيرة محرومة من التنقل والخروج، ولا حظَّ لهم في كثير من متع الحياة، يعانون على مر الأيام والسنين، ينتظرون الشفاء أو الموت؛ ليتخلصوا مما هم فيه من معاناة وألم.

عندما أتفكر في حال هؤلاء جميعاً، أدرك أني في نعمة كبيرة، وفضل من الله لا حدود له، وما هذا التقييد الجزئي والمؤقت، إلا لندرك ما نحن فيه من نعيم، يتمنى صيفه وربيعه وأقل من ذلك عشرات الملايين من البشر ولا ينالونه، ما نحن فيه هو حلم مُشتهى بعيد المنال لهؤلاء، وهي فرصة أن نتذكرهم، ونتعهدهم بالرعاية والدعم النفسي والزيارة، وألّا نتركهم لهواجسهم المقلقة، ومعاناتهم المؤذية، وهذا حقهم علينا، لا منّة منا ولا تفضلاً، ولنعلم أننا الآن في خير وصحة وعافية، ولا ندري، قد

يبتلينا الله، ونصبح في عدادهم ومنهم ذات يوم، نترقب من يسأل عنا، ويتحسس أحوالنا، ويجالسنا لنشعر بآدميتنا ووجودنا وأهميتنا.

ما يمر به هؤلاء مؤلم وموجع، ومر لا كاشف له إلا الله، وما نمر به نحن من مر سيمر بعد حين لن يطول، بفضل الله ورحمته.

**7**

**الاثنين 30 ـ آذار ـ 2020**

لأزمة كورونا إيجابيات أيضاً، فهي ليست شراً كلها، ومن أهم إيجابياتها العودة إلى البيت، وتوثيق العلاقات الأسرية، والجَمعة العائلية على مدار اليوم.

وبسبب القعود في البيت، وإغلاق المطاعم، فقد عادت الأسر إلى الطبخ البيتي، واكتشفوا من جديد لذة الوجبات البيتية ونظافتها، ومتعة إعدادها وطهيها، وتسابق أفراد الأسرة في ذلك ذكوراً وإناثاً، ونشروا صورهم افتخاراً بإنجازاتهم المطبخية.

لا أحبذ نشر صور الطبخ والطبخات والطباخين، ولكن أسعد بالعودة إلى المطبخ والابتعاد عن الوجبات السريعة والجاهزة التي ضررها أكبر من نفعها، والتي تفتقد إلى الحميمية والنكهة العائلية، وبركة اليد التي تطبخ، وجاءت الأزمة لتعيد للمطبخ مجده، وتعلمت الفتيات فنون الطبخ والحلويات والمعجنات وغيرها، وقد كنَّ من قبل

يعجزن عن قلي بيضة، والشباب بالمثل تعلموا طبخات ووصفات تسعفهم عند الضرورة، بدلاً من الاتكال الكامل على الأم أو الأخت، أو اللجوء إلى الوجبات السريعة، ولعل من أهم الدروس تجريب الخَبز في البيوت بالوسائل المتوفرة، وهذا لعمري جميل ورائع يسرّ الخاطر.

كما أن الأزمة أنقذت الأسر، ولو إلى حين، من التسوق لأجل التسوق، وشراء ما يلزم وما لا يلزم، وتكديس الملابس والأشياء دون داعٍ، وألزمت الأسر إلى تفقد ما عندها من مواد تموينية وغذائية، واستغلالاً كل موجود، وفتحت خزائن الملابس المكدسة، وأُجريت عمليات إخلاء وتمرير لكثير من الملابس التي لم تعد مناسبة من حيث الحجم أو الطول أو الموضة.

من قال إن الأزمات شرٌّ كلّها، ومر كلها، فهذه الأزمة على علاتها وأضرارها، لها إيجابيات وحسنات وخيرات.

## 8

**الجمعة 3 ـ نيسان ـ 2020**

الأزمات تعيد ترتيب كثير من الأمور، وتدفعنا لتغيير زاوية النظر، أو على الأصح النظر للأشياء من عدة زوايا، أزمة كورونا، وما ترتب عليها من منع تجول، وإغلاق المحلات التجارية والحدود، ومنع الحركة بين المدن، جعلتنا ننظر إلى الأمور البسيطة والهامشية بشكل

مختلف، وأنها في الحقيقة هامة وضرورية في حياتنا، وتسدّ ثغرة مهما كانت صغيرة، فلكل شيء دوره وأهميته في هذه الحياة.

بقالة جاري «أبو السعيد» مثلاً، على بساطتها وصغرها، كننا ننظر إليها أنها تحصيل حاصل، وفي متناول اليد في أي وقت، ولكنها مع حظر التجول أصبحت شديدة الأهمية بحجم مول كبير، ومطعم الحارة على بساطته وتواضعه، أصبح أهم من مكدونالدز وجبري.

زيارة وكالة الدستور في الزرقاء، كانت طقساً أسبوعياً؛ لمتابعة آخر المجلات الثقافية الجديدة، صحيح أن زيارتها كانت على الهامش كملحق للتسوق، ولكنها بدت الآن مهمة وضرورية.

ركوب الباص، على الرغم ممّا فيه من مكدرات مادية ومعنوية، تبين أنه من النعم التي لا تقدر بثمن؛ بما يوفره من أحاديث ونكات ونهفات وتصرفات لا تخلو من طرافة أحياناً.

أشياء كثيرة، كنا لا نلقي لها بالاً، بل ونتكدر منها أحياناً، أظهرت لنا الأزمة أنها جميلة ومهمة، وغيابها محزن، وفقدها إلى الأبد –لا قدر الله ـ مؤلم.

هل نعيد النظر ـ بعد الأزمة ـ بقيمة هذه الأشياء، وأدوارها المهمة في حياتنا؟ أظن أننا فعلنا مقدماً، وأدركنا ذلك جيداً.

## 9

**الأحد 5 ـ نيسان ـ 2020**

فرضت الإجراءات الصحية الوقائية منع الجنائز بصورتها المعروفة، واقتصرت على عدد محدود من أهل المتوفى، ومنعت بيوت الأجر أيضاً. ربما يكون هذا الإجراء مؤلماً للوهلة الأولى، وكيف أن الميت لم يشيعه أقاربه ومحبوه، بل وحرموا أيضاً من تقديم واجب العزاء مشافهة، ولكن عندما أتفكر في هذا الأمر، أتذكر قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 216]، وقد كنتُ من قبل، أمقت مظاهر النفاق الاجتماعي في الجنائز وبيوت الأجر، وما يرافقها من تصرفات وعادات تسيء للميت، وترهق كاهل أهله، وتثقل على الجميع، حتى لأشعر أن الوفاة مصيبتان: مصيبة الموت ومصيبة التكاليف التي تأتي فجأة وعلى حين غفلة، لا يحتاط لها الناس، وخاصة كلفة الطعام على أيام لمئات الناس، وأجرة صيوان العزاء وتجهيزاته من مقاعد وسجاد ووسائل تدفئة أو تبريد، وماء وتمر وغيرها.

لقد جاءت أزمة كورونا، رسالة لنا أنّ الجنائز تتمّ بعدد محدود، دون تكاليف، ودون إرهاق الناس للقدوم من مدن أخرى وربما من دول أخرى، وأن العزاء يُؤدى من خلال مكالمة هاتفية أو عبر مواقع التواصل الاجتماعي، وكلها تقوم بالواجب، وتناسب العصر وتطوراته، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

لا أقصد أن تبقى الأمور كذلك بعد انتهاء الأزمة، ولكن هي مناسبة للمراجعة، وإعادة النظر في كثير من العادات والطقوس، التي لا علاقة لها بالتقوى، ولا أجر ولا ثواب فيها، وقد تعود وبالاً على الميت وأهله، لنتخفف من النفاق الاجتماعي، والمظاهر الزائفة والطقوس الجاهلية، والتكاليف الباهظة التي ترهق كاهل الجميع.

وفي السياق نفسه، أعرف بعض الأصدقاء والمعارف، الذين أقاموا حفلات زواج لأبنائهم، اقتصرت على عائلتي العروسين، وبشكل رمزي، وتم الأمر على أحسن حال. نعم ربما لم تكن هذه الحفلات المتواضعة بطموح العروسين اللذين يحبان أن تكون ليلة العمر أجمل الليالي على الإطلاق، ولكن ما ضرّ، ورب ضارة نافعة، ولينظرا إلى النصف الثاني من الكأس، وكم وفّرا من تكاليف ونفقات، وجهود وأوقات على أنفسهم وأهليهم والمدعوين، وسيدركان يوماً ما، أن الجمال في البساطة، والبركة في التيسير والتخفيف، وأن حفلتهما المتواضعة ستزيد من رصيد سعادتهما، وجنبتهما القيل والقال، والانتقادات، ونظرات الحسد والتباهي، والمشكلات وغيرها، مما لا تخلو منه الحفلات، التي تتميز بالمظاهر والنفاق الاجتماعي، والتباهي المقيت. وهي مناسبة لإعادة النظر في حفلات الزواج مستقبلاً، وتخليصها من المظاهر الزائفة والتكاليف غير الضرورية، ولندرك أن السعادة غير مرهونة بالحفلات الكبيرة، والحضور العريض،

والصخب والغناء والرقص، بل هي قرار داخلي، ومن لا يسعد بوجود أسرته وأسرة عروسه، لن يسعد بوجود أهل الأرض جميعاً.

لا يقتصر الأمر على الجنائز وبيوت الأجر وحفلات الزواج، بل يتعدى ذلك إلى حفلات التخرج والنجاح، وأعياد الميلاد والخطوبة وغيرها، فكلها مثقلة بالتكاليف والزيف، ويمكن التخلص من كثير منها بقرار صاحب المناسبة أو أسرته، ولندرك أن الجمال والبركة في البساطة والتواضع، وآن الأوان أن نعيد الأمور إلى نصابها دون إفراط أو تفريط.

نعم، حرمتنا الأزمة من تجمعات ضرورية لا غنى عنها مثل الجُمعة والجَماعة في المساجد، والنشاطات الثقافية وأضرابها، وهذه لا يمكن التخلي عنها إلى الأبد، بل هي مطلوبة في كل حين، وبأكبر عدد ممكن، ولكننا نعي أنّ هذه الأزمة مؤقتة، وستعود الأمور إلى ما كانت عليه من قبل وأفضل، بعد أن شعرنا بقيمة الفقد والحرمان، وأنّنا على ثقة أن كل مرّ سيمرّ لا محالة.

## 10

**السبت 11 ـ نيسان ـ 2020**

عندما أعلن وزير الصحة د. سعد جابر أن عدد الإصابات يوم أمس الجمعة صفر، عمت الفرحة أرجاء الوطن، وشعر الناس كم أن الصفر

رقم عظيم، وأصبح الصفر الرقم المفضل بعد أن كان هامشياً لا قيمة له، وتغزل الجميع بالصفر، وكتبوا فيه المدائح والخواطر والأشعار، وتمنوا أن تصبح كل الأيام صفراً من كورونا وحزبه.

شعور مريح ومطمئن، يبشر بالأمل والفرج، صحيح أنه ليس خاتمة المطاف، وأن الأيام القادمة قد تحمل أرقاماً لمصابين جدد، ولكن مجرد حدوث معجزة الصفر مرة مؤذناً بحدوثها مرات ومرات إلى أن تكون هي القاعدة والأساس. صفر إصابة يعني أن الجهود الطبية والاحترازية وتكاتف الجميع والتزامهم قد أثمر، وحقّق إنجازاً كبيراً وعظيماً ومذهلاً في فترة قياسية، وهذا يدل على الجهود الرائعة الكبيرة في كافة المستويات وتناغمها، بالإضافة إلى وعي المواطنين ومساندتهم للإجراءات الرسمية المتخذة، وإن على حساب حريتهم ومعاشهم وعلاقاتهم الاجتماعية، فهي إجراءات مؤقتة من أجل مستقبل قريب مشرق، نضغط على الجرح لكيلا يشتد النزف، ونتحمل الكي لنبرأ بسرعة، وكما يقولون «درهم وقاية خير من قنطار علاج»، وصبر ساعة يقربنا من النصر على الوباء الخبيث.

إذاً، هو الصفر، بشرى خير، ورقم مؤمل، جميل، مطلوب بقوة، محبوب، رقم خفقت لسماعه الأفئدة، وطربت الآذان، وتبادل الناس التهاني بالصفر، فمرحباً بالصفر، حللت أهلاً ووطأت سهلاً، ويا حياك الله.

من قال إنَّ الصفر رقم لا قيمة له؟! ولا أهمية له؟! الصفر رقم الفرح والبشرى، رقم منتظر على الدوام، اللهم اجعل كل أيامنا صفراً من الأمراض والأحزان، والذنوب والمعاصي، والمشكلات والديون، والهموم والأعداء والخصوم.

## 11

**الثلاثاء 14 ـ نيسان ـ 2020**

لم يكن أداء وزيري الصحة والإعلام خارقاً، ليحظيا بهذه النجومية، فهما وزيران يقومان بمهام وظيفتهما التي يتقاضيان عليها أجراً، ولكن الظروف صنعت منهما نجمين، فالناس في الأزمات والظروف الصعبة والكوارث يبحثون عن نجوم أبطال؛ لأنَّ وجود هؤلاء يبعث في نفوسهم الأمل، ويطمئن قلوبهم القلقة.

تناغم الوزيرين وتكاملهما، هما السبب الذي قربهما إلى المواطنين؛ فوزير الصحة، وعلى الرغم من إعلانه عدد الإصابات التي تتزايد يومياً، إلا أن نغمته المطمئنة، وثقته العالية، وشعور الناس أنه يخاطبهم بمحبة وخوف عليهم، وحرص على صحتهم، جعلهم يثقون به، ويترقبون ظهوره اليومي بشغف، ومثله وزير الإعلام، ومع أنه يتكلم بلهجة حازمة، وكلمات قاطعة، إلا أنه يحظى بالترحيب والاحترام؛

لأن الناس يشعرون أنه يكلمهم كأخ كبير يخاف عليهم، ويعلن عن إجراءات قاسية لأجل حمايتهم.

كلا الوزيرين ابتعدا عن التعالي والتفاخر والنرجسية، وأشعرا الجميع أنهم منهم ويعملون من أجلهم، أشعرا المواطنين أنهم يكافحون ويسهرون لخدمتهم وتجنيبهم الأسوأ، نعم يقسون ولكن رحمة بهم، ويحجرون عليهم، ولكن حماية لهم، ولذا تقبل الناس الإجراءات الوقائية بتفهم ووعي، واستجابوا لها طوعاً، ولم يتمرد عليها إلا قلة لا تؤثر على المناخ العام.

ما أقصده أنَّ المواطنين عندما تتواصل قلوبهم مع المسؤولين الذين يعملون لأجلهم وخدمتهم دون منٍّ وتفضل واستعلاء، فإنهم سيكونون أول من يستجيب ويطيع ويلتزم،؛ لأنهم يؤمنون بالمثل «لاقيني ولا تغديني»، فالوجه البشوش، واللسان الدافئ يصافحان القلوب، فتثق وتنقاد، وتكون خير داعم ومساند.

سعد وأمجد، وزيران يؤسسان لنمط مطلوب من وزراء المستقبل، فهما يُحسنان الخطاب في إيجاز، وبكلمات واضحة، ومعلومات أكيدة، ذات مصداقية عالية لا لبس فيها، والمواطنون يريدون ذلك، يريدون الصدق والحقيقة ولو كانت مرة وصادمة، يريدون الوضوح والشفافية، يريدون التواصل الدائم؛ لأن التواصل المستمر خلال الأزمات واطلاع الناس على المستجدات مهما كانت يطمئن الناس،

ويبقيهم على علم بما يجري، ويجعلهم يتكيفون ويحسنون التعامل مع الأزمة وتطوراتها.

الجميع يدرك أن أزمة كورونا مرة كالعلقم، قاسية كحجر صوان، ولكنها مع أمثال المسؤول الصادق الشفاف المخلص، تصبح أخفَّ وطأة، وأقل قسوة، ومع هؤلاء، فإن كل مُرّ سيمُرّ بعون الله.

## 12

**الجمعة 17 ـ نيسان ـ 2020**

لفت نظري من خلال مواقع وتطبيقات التواصل الاجتماعي حجم السخرية والتنكيت الكبير منذ بداية منع التجول، وتساءلت عن سر هذه الموجة المرافقة لجائحة تهدد الجميع، ولكن سرعان ما أدركت أن السخرية سلاح فاعل ومؤثر؛ لإحداث التوازن النفسي، والتغلب على عوامل القلق والتوتر التي تجتاح المرء في أثناء الأزمات، وتذكرت المثل الشعبي «إن كثرت همومك غنيلها»، فالغم والخوف يفاقم المشكلة، ويجعل الشخص عرضة لمشكلات أخرى تضعف جسده ومقاومته.

السخرية الهادفة اللطيفة، دون شطط أو إسفاف ضرورية وقت الأزمات، وتؤدي دوراً نفسياً مهماً، لا يقل عن دور النظافة، واتخاذ التحوطات الصحية الضرورية، وهي من أهم عوامل الالتقاء

الاجتماعي، والنفس بطبعها تبحث عما يفرحها ويخفف عنها، وتبتعد وتنأى عما يكدر خاطرها.

ساهمت بدوري ببعض الكتابات في هذا الجانب، ونشرتها على صفحتي في الفيسبوك أو في الصحف الأردنية، مثل: «كورونا العطر الرخيص»، «كيف تسلق بيضاً بطريقة احترافية إبداعية بدون معلم»، «شوربة الفلفل»، «بكائية الربيع»، «يوم أكلنا خبزات العنزات»، وغيرها.

بالطبع لا يعني هذا أن ننسى ما يتهددنا من وباء ومشكلات كثيرة بسببه، وأن ننجرف خلف السخرية دون وعي أو بصيرة، بل لنجعل من السخرية أداة وعي، وسلاح مقاومة، لتكون معيناً لنا ودافعاً إلى الأمام في سبيل تجاوز المحنة، وجعلها ذكريات «تنذكر وما تنعاد».

## 13

**الاثنين 20 ـ نيسان ـ 2020**

بسبب منع التجول والحركة بالسيارات، تقطعت السبل بالناس، وخاصة بين الوالدين والأبناء الذين يعيشون في أماكن متباعدة، وهذه القطيعة الإجبارية تؤلم الطرفين، وخاصة الوالدين الذين لا يصبرون على البعد عن أولادهم وفلذات أكبادهم وأحفادهم.

ومن أجمل وأروع ما قرأت، حكاية رواها الصديق الروائي محمد

حسن العمري على صفحته في الفيسبوك أن أحد أقاربه يقيم في إربد، ووالداه يقيمان في كفر كيفا من قرى إربد، أقدم براً بوالديه على زيارتهما مشياً على الأقدام؛ لأنه لا يملك تصريح تنقل، فمشى من إربد مستخدماً طريق قصر العوادين، مروراً بجحفية، ووادي أبو العدس، ثم دير يوسف، وأخيراً كفر كيفيا، حيث قطع المسافة في حدود ثلاث ساعات مرهقة، لكنَّ تعبه زال بمجرد أن رأى والديه، وفاز بابتسامة أمه وأبيه، التي تعادل ثلاث دول ملأى بالذهب، كما يقول الصديق محمد العمري.

هذه القصة وهذا الموقف الجميل، لا بد أنه تكرر في غير مكان ولأهداف نبيلة لزيارة والدين، أو لزيارة مريض قريب، أو لتقديم مساعدات مالية وتموينية، وغيرها، وكلها تدل على قيم راقية، وأنَّ الخير موجود في هذا الشعب المعطاء الجميل، وأنَّ العوائق والصعوبات لا تثنيهم عن عمل الخير وبر الوالدين.

أزمة كورونا تكشف المعادن النبيلة، وتعيد الناس إلى إنسانيتهم وفطرتهم، فهي ابتلاء، وكل ابتلاء يجلو الصدأ، ويزيل الران، ويكشف الحقائق، ويمحو الزيف، ويمزق الأقنعة.

## 14

**السبت 25 ـ نيسان ـ 2020**

لعل المؤلم في أزمة كورونا وإغلاق المدن والحدود، هو حرماني من عودة أبنائي في العيد من الخارج، ولكن الأكثر إيلاماً هو عدم استطاعتي رؤية حفيدتي الأولى والوحيدة حتى الآن منذ شهر ونيف، التي تسكن في عمان، صحيح أننا نراها كل يوم ونلاعبها عبر الماسنجر، لكن ليس الماسنجر كالرؤية وجهاً لوجه، والتفاعل الحي المباشر.

«زينة» الحفيدة والأنثى الأولى في العائلة، ومن هنا، فغلاوتها كبيرة جداً، وإطلالتها ضرورية لبث الحياة في البيت، على الرغم من شهورها السبعة، ولذا فعندما حصل ابني على تصريح صباح اليوم، سارع بإحضارها إلينا، في مفاجأة صباحية، كانت الحدث الأبرز في البيت في أزمة كورونا، فملأت البيت حياة وحركة ومشاعر، وشحنتنا بدفقة قوية من البراءة والنقاء والطفولة، قضت معنا سحابة يوم كامل، وغادرتنا بعد الإفطار وقلوبنا تتفطر على فراقها، فلا نعلم متى نراها ثانية.

ما أسعدنا، أن شهراً وأكثر، لم يشعرا «زينة» بالغربة والوحشة، فكانت الابتسامة الهادئة الدَهِشَة إطلالتها الأولى التلقائية، وتقبلتنا بيسر وسعادة طفولية. بوجود «زينة» استعدنا توازننا النفسي، ونشاطنا العاطفي، وحيويتنا الجسدية، وكانت رؤيتها بشرى خير، واستبشاراً بفرج قريب آت إن شاء الله.

## 15

**الأربعاء 29 ـ نيسان ـ 2020**

أدرك تماماً أن كل شيء بقدر، والخيرة فيما اختاره الله، ولكننا كبشر عاجزون أن ندرك حكمة الله ورحمته بنا، وتتألم قلوبنا وتتوجع لقصورنا وعدم صبرنا ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾[المعارج:1922]. كنت وعائلتي ننتظر عيد الفطر لنفرح بخطبة ابني الثاني «لقمان»، عندما يحضر في إجازة العيد من السعودية، ولكن قدر الله وما شاء فعل، وكل تأخيره فيها خيرة.

وعلى الأغلب، فإن الإجازات في كثير من الدول، ومنها السعودية سوف تلغى لنهاية العام، ومعنى ذلك أنَّ أمر الخطبة سيتأجل حتماً، إلا إذا فكرنا بالخطبة عن بعد، وهي خيار مطروح تماشياً مع ظروف وباء كورونا، الذي غير كثيراً من الأشياء، وفرض على الناس والحكومات أنماطاً جديدة من التعاملات كانت محدودة من قبل، ولكنها ستصبح هي الشائعة على الأغلب في قادم الأيام.

القلوب تتألم، ولكننا نستسلم لأمر الله ونخضع لمشيئته، وندرك بمنّه وفضله أن كلّ مُرّ سيمرّ.

## 16

**الجمعة 1 ـ أيار ـ 2020**

في الظروف العادية، يعمل الجميع وفق ترتيب معين لخدمة الوطن وتحقيق أهدافه، بما يكفل حقوق الجميع في الحياة والكرامة والحرية، وتكفل القوانين العدالة، وأن يأخذ كلٌّ حقَّه، وأن يقوم بواجبه على أكمل وجه، وكل مقصر أو مخالف سيعاقب، وهذا يكفل استمرارية الدولة ونموها واستقرارها.

في الأزمات والكوارث والحروب، تصبح المهمة الأكبر والأخطر ملقاة على عاتق جهة معينة، تتصدر الصفوف، وتقوم بالعبء الأكبر، ويساندها الجميع كل حسب دوره المنوط به. في الحروب مثلاً، يتولى الجيش المهمة، تسانده الأجهزة العسكرية الأخرى، ومن الخلف يعمل الجميع للدعم والمساعدة والتعزيز، وفي الكوارث الطبيعية مثل الزلازل والسيول والعواصف، يتولى رجال الدفاع المدني المهمة الأكبر، وتساندهم الأجهزة الأخرى. وفي وباء كورونا وقفت الكوادر الطبية الأردنية ببسالة وشجاعة وكفاءة؛ للقيام بالمهمة على أكمل وجه في المستشفيات والميدان وفي الحدود والمطارات؛ للتعامل مع الوباء، وتتبع الإصابات والمخالطين، والقيام بالفحوصات العشوائية، وقد أثبتت كفاءة وجاهزية وفعالية أثلجت قلوب الأردنيين، وعززت

ثقتهم بكوادرهم الطبية ذات السمعة العالمية الطيبة، وجعلت من الأردن موئل خبرة طبية تُحترم ويُقتدى بها، ومطلوبة في كل مكان.

إن الحرب التي تخوضها الكوادر الطبية، لا تقل خطورة وأهمية عن حرب يقودها الجيش في الدفاع عن الوطن، بل قد تكون أهم في بعض جوانبها؛ لأنَّ العدو واضح ومكشوف، وكيفية ردعه وصده ممكنة بما يتوافر من أسلحة ومعدات، ولكن فيروس كورونا عدو خفي، يشاغل الجميع، ويفاجئهم من حيث لا يتوقعون، ولذا يجب أن تكون كل الجبهات مفتوحة، وكل الاحتمالات متوقعة، وأن تبقى الجاهزية في أعلى درجاتها للسيطرة على الفيروس.

الكوادر الطبية أُرهقت وتعبت، ولكنها سعيدة بإنجازاتها، وبما أدخلته من فرح وغبطة في قلوب الأردنيين جميعاً، فكل القلوب والألسنة تدعو لهم وتثني عليهم، وتربط آمالها بهم، وهم على قدر المسؤولية والأمانة كما عهدناهم دائماً، والتعب سيزول، والغمة ستنكشف، وسيعود الوطن نظيفاً من كورونا وغيره إن شاء الله، يحدونا أمل كبير بالله أولاً، وثم بكوادرنا الطبية، ونحن على يقين أن كل مُرّ سيمرّ.

## 17

**الاثنين 4 ـ أيار ـ 2020**

يا رب لك الحمد، أيام عدة ولا إصابات في الداخل، خبر مفرح يملأ القلب بشراً وسروراً وطمأنينة، قد تحدث إصابات في قابل الأيام، لكنها ستكون تحت السيطرة إن شاء الله، وحسب التوقعات. وما دمنا حافظنا على صفر إصابات لعدة أيام، فهذا مبشر بالفرج القريب، وأن الكوادر الطبية تتفوق في ساحة المعركة، وتجبر كورونا على التقهقر، ولكنها لن تقبل إلا أن تقضي عليه وتستأصل شأفته تماماً، فهذا العدو لا يؤمن جانبه، والموت الموت ما يستحقه، ولا أقل من ذلك.

عندما تتوالى أصفار الإصابات، تلهج القلوب بالدعاء، ويحدوها الأمل، وتعلو شفاهها الابتسامات، وتتبادل الأخبار السارة، فما أجمل من يوم بلا إصابات جديدة، بل وتعافي حالات كثيرة، فكيف إذا تكررت الأيام، وتراكمت الأصفار، وزاد منسوب الفرح عند الناس، وتحسنت نفوسهم، ورقصت قلوبهم؟!

عندما تتوالى أصفار الإصابات، فهذا يؤكد كفاءة الكوادر الطبية وتفانيها وجهودها العظيمة ونجاحها في معركتها الشرسة ضد كورونا، ويؤكد في ذات السياق نجاح إدارة الأزمة وسلامة الإجراءات الوقائية والاحترازية التي تمّ اتخاذها للوصول إلى هذه النتيجة الذهبية غير المسبوقة عالمياً. نعم بلدنا صغير بحجمه، فقير بموارده، ولكنه

كبير بإنجازاته، غني بكفاءاته، قوي بقيادته، فالدول الآن تقاس قوتها وجدارتها وإنجازاتها بكيفية مواجهتها لفيروس كورونا، وبلدنا ولله الحمد أثبت تفوقاً في هذا المجال، وإنجازاً عظيماً ونتيجة ما زالت رائعة، وكلنا أمل ورجاء وتضرع أن تبقى كذلك أصفاراً إلى الأبد، فما أجمل الصفر وما ألطف وقعه على القلب قبل الأذن.

عندما بلغت الإصابات أربعين في يوم واحد، وضعنا أيدينا على قلوبنا، وأصابنا الخوف والرعب مما ينتظرنا في الأيام التالية، ولكن الله كان رحيماً لطيفاً، فبدأت الإصابات تقلّ وتقلّ إلى أن صفرت، أليس القائل سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[الشرح:56]، لقد لمسنا ذلك بقلوبنا، ورأيناه بأعيننا، ولم نشك لحظة بوعد الله، وأن كل مرّ سيمر.

## 18

**الجمعة 8 ـ أيار ـ 2020**

«سنزوركم بعد كورونا»، «سنراكم بعد كورونا»، «سأذهب إلى... بعد كورونا»، «سأفعل... بعد كورونا»..... هذه العبارات وأضرابها المرتبطة بها (بعد كورونا) هي العبارات الأكثر تكراراً وترديداً بين الناس، فالكل يربط أعماله وآماله إلى ما (بعد كورونا)، تماما كما كنا نفعل خلال شهر رمضان عندما نؤجل كل شيء إلى ما (بعد رمضان)،

وخاصة عندما تراجع موظفاً في مؤسسة حكومية ويقول لك: «تعال بعد رمضان»، وفي هذه الأزمة، تزامن كورونا مع رمضان، لكن لا أحد أجّل إلى ما (بعد رمضان)، بل إلى ما (بعد كورونا)، فالأزمة ما زالت تضرب أطنابها في جميع دول العالم، تخف هنا وتزداد هناك، والخلاص منها مرتبط بخلاص الجميع، فلا منجاة لأحد دون غيره.

أظن أنّ أزمة كورونا، ستحدث تغييرات هامة في جميع المجالات، ولجميع الدول دون استثناء، فالأزمة ضربت مفاصل حساسة سواء في الصحة والاقتصاد، والتعليم والسياحة، والنقل والعلاقات الاجتماعية وغيرها، وتأثرت جميع جوانب الحياة بالأزمة سلباً وإيجاباً، ولكن لن ندرك الخير من الشر إلا بعد حين، عندما تستقر الأمور، ونجرد الحساب، ويتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

كمواطن عادي بسيط، أبحث عن الستر وراحة البال ولقمة العيش، أتساءل: ما الذي يعنيني (بعد كورونا)؟ وهل عليّ أن أشغل نفسي وعقلي وفكري في هذا الأمر؟ وإذا كانت التغييرات ستشمل كل شيء كما هو متوقع، فما الداعي لأتعب نفسي وأرهق فكري؟ ولم لا أسير مع التيار «حط راسك بين الروس وقل يا قطاع الروس»!

ولكن، من يحترم نفسه، ويرفض أن يكون قشة في مهب الريح، تأبى نفسه أن يُساق كشاة في قطيع، ولا بد أن يكون له موقف وتصرف ورأي فيها (بعد كورونا)، ولو على مستوى الصعيد الشخصي فقط،

وبما ينعكس عليه إيجاباً. (بعد كورونا) يحتم عليّ كشخص أن أستفيد من دروس الأزمة، وخاصة التخلص من ثقافة الاستهلاك والتكالب على السلع دون ضرورة، وتقنين العلاقات الاجتماعية وترشيقها، والتحكم في انسيابها، وترشيدها لتكون في مصلحة وفائدة الجميع دون نفاق أو تزلف، وإعادة النظر في طقوس الحفلات والمناسبات والجنائز وبيوت الأجر، والتقليل ما أمكن من النفقات غير الضرورية، والإيمان بأن الفرح لا يرتبط بالضرورة بكثرة المدعوين والإسراف في المظاهر والأطعمة والأشربة والحلويات، وأن الميت أحوج إلى الدعاء وليس إلى نوع الصيوان ولون الكراسي وصنف التمر.

يجب أن نعيد النظر في خريطة حياتنا المستقبلية نحو علاقات إنسانية شفافة، والعمل من أجل الجماعة بعيداً عن الأنانية والنرجسية، وتعظيم قيم التكافل والتعاضد والتعاون، والاهتمام بالإنتاج والتدبير المنزلي، والعودة إلى الأرض وإلى الزراعة ولو في شبر من التراب.

(بعد كورونا)، مرحلة آتية لا ريب لمن كتبت له الحياة، ولكنها ستكون مختلفة مضطربة في البداية، والعاقل من يتهيأ لها ولا تغافله وتأتيه على حين غرة، وذلك بأن يحتاط لأمره، ويحسن توقع ما يحدث، ويقرأ التغيرات الحاصلة، واتجاه رياح المصالح والقوى.

(بعد كورونا)، مرحلة ليست مخيفة، ولكنها ليست سهلة، وما جاءت الأزمة إلا لتعيد ترسيم حياة البشر على أسس جديدة، بعد

أن ابتعدوا عن إنسانيتهم وفطرتهم، وانجرفوا وراء الأهواء والأطماع بعمى ودون تبصر، ولن ندرك أين الخير وأين الشر إلا بعد أن تضع الحرب أوزارها، وتستوي سفينة الحياة على الجودي بعد أن ينحسر الطوفان، ومما تعلمناه من دروس التاريخ على مر الازمان والأقوام، أن لا شيء يدوم، ولا محنة تستمر، ولا وباء يستقر، ولا عدو يمكث في الأرض إلى الأبد، وأن كل مر سيمر لا محالة.

# افتحوا الأبواب للشمس

نداء الشويخ

لقد انتظرت سنة 2020 بشغف كبير، رقم مميز عشرون عشرون، نعم فهي تدعو للتفاؤل بكل تفاصيلها أو هكذا قرأتها على الصعيد الشخصي، ففي مطلع عامها التقيت حضرة صاحب الجلالة الملك عبدالله الثاني حفظه الله، وتحدثت أمامه عن مدينتي الجميلة العقبة، الذي وعدنا أن يشرف على تطويرها شخصياً، والتقيت أيضاً جلالة الملكة، وكان يكفيني من هذا العام لقاؤهما.

تأشيرة دخولي للولايات المتحدة الأمريكية سارية المفعول، وفي نهاية آذار عرس أخي الأصغر هناك، شجعت صديقاتي المقربات لندمج زيارتنا لجامعة نوفا الأمريكية في توقيت زفاف أخي، لأتمكن من حضور كلتا المناسبتين؛ كيف لا أدمج الفرح بالعمل؟و أنا أم لأربعة صبيان.

لم أشعر بتردد حين زرت محل المجوهرات لأبيع سلستي الذهبية وأشتري تذاكر السفر لي ولصغاري. فالعديد من الالتزامات المالية

بانتظاري، هناك طائرة وزيارة جامعة وزفاف وتأشيرات وهدايا العرس، فأنا أخت العريس! جهّزت ثوباً فخماً لحضور زفافه.

لقد زرت مع صديقتي مكاتب الحجز بحثاً عن أوفر سعر للتذاكر، فثمن السلسة كان بسيطاً. إذن تذاكر العروض هي الحل.

فاتني عروض كثيرة بسبب تردد صديقتي، تعاتبنا وتخاصمنا وتصالحنا، ثم حصلنا على أفضل سعر بتاريخ السابع عشر من آذار لعام 2020!

هذا التاريخ محفور بوجداني، كيف لا؟ وهو التاريخ الذي سألتقي فيه أهلي بعد طول غياب، سأطير إليهم، سأفرح معهم، وسأزيد رصيد مسيرتي المهنية بزيارتي لجامعة أمريكية، وأنا المدربة والناشطة بكل ما يتعلق بحقوق المرأة، مهنتي محامية ومقررة لجمعية نسائية وأخرى خاصة بالطفولة ولم أتوقع أن يكون هذا التاريخ مميزاً بطريقة مختلفة!

أخذ التوتر يسري في أعماقي، مرض جديد يتصدر الأخبار، بدأنا نقرأ عن فيروس يهاجم جهاز التنفس يقال له (كورونا)!

اتصل بي أهلي وأخبروني أن رحلة شقيقتي من أوروبا ألغيت وأنّ عليَّ تقديم رحلتي، لأتمكن من حضور الزفاف، كيف لا ومصاغ العروس الذهبي معي؟ وفي حقيبتي «أربعة وعشرون شماغاً مهدباً» نصفهم هدايا حملتها لمستضيفينا في الجامعة، والنصف الآخر للفرقة

التي ستدبك في الزفاف! ما أحمله الآن ثميناً من ذهب وهدايا، وأشواق وأحلام.

**اليوم الخميس الثاني عشر من آذار**

أنا الآن أتسوق للسفر، كمامات، قفازات، أحتاج إلى أخرى صغيرة لأطفالي، مناديل طبية.

أتسوق ما يلزمني لأحظى بـ«رحلة آمنة» فيها طرق وقاية وهو مصطلح جديد علي.

فور عودتي للمنزل، افترشت الأرض، وبدأت أفرز أغراضي وأوضبها بين ما يلزمني للطائرة، وبين أشياء ستوضع في صندوقها. وأضع في أجندتي العقلية مهاماً عليَّ القيام بها الليلة، سأتصل بزوجة خالي لتعد لي فطائر مخبوزة للطائرة، فأنا لا أجيد فنون الخبز، وأنهي تعزيل المنزل لغايات السفر.

قطع أفكاري رنين الهاتف، كانت رفيقة رحلتي وقد اختنق صوتها، أخبرتني: (لقد أغلق المجال الجوي اعتباراً من تاريخ السابع عشر من آذار!)

لم أستسلم بل أخذت نفساً عميقاً وأغمضت عينيَّ وقلت لها مخففة: (لا تقلقي، سنسافر، سأتصل الآن بخطوط الطيران لأقدم الحجز، لا تقلقي فقط تفاءلي).

فكرت في ردة فعل أهلي، لم يكن سهلاً إخبارهم، لكنني استسلمت عن محاولات التواصل هاتفياً بعد أن بقيت يومين أحاول الاتصال بشركة الطيران التي كان أحد خياراتها: (للمعلومات المتعلقة بفيروس كرونا المستجد اضغط الرقم ثلاثة).

عرفت حينها أنّ العالم كله على خط واحد، فليس سهلاً أن تغلق مجالاً جوياً دولياً، والجميع يتحدث عن هذا المرض حتى المجيب الآلي في شركة طيران!

**السبت الرابع عشر من آذار**

حاولت التماسك بعد أن رفض مكتب الحجز تقديم تذكرتي ليوم غد، قبيل إغلاق المجال الجوي، سرت محاولة البحث عن الجانب المشرق من الموضوع، الساعة تقارب الرابعة عصراً وزوجي يُلّح عليَّ بالعودة ويقول: كفاك محاولات للسفر!

عدت إلى المنزل والضيق يتملكني، حاولت فرض نظريات جديدة، ماذا لو غادرت ولم أتمكن من العودة؟ماذا لو علقت هناك؟ عليَّ الآن العودة للواقع وأتناسى السفر، لقد انشغلت بسفري ونسيت أن أغسل ملابس أبنائي المدرسية.

وضعت وجبة غسيل، الجو بارد وعلي نشره بسرعة.

لكن صوت الصخب في ممر العمارة وأطفال تركض وتهلهل جعلني

أفتح الباب وأنادي على أحدهم متسائلة عن سبب الصراخ، فأخبرني الصغير وهو يغني فرحا: (عطلونا بسبب كرونا وفرحونا)

لوهلة لم أستوعب ما قاله الصغير، إلا بعد أن فتحت التلفاز وقرأت في شريط القناة الرسمية خبر عاجل مفاده «أن المدارس والجامعات دخلوا في عطلة لإشعار آخر»!

**اليوم الاثنين السادس عشر من آذار**

كنت أتواصل مع شقيقتي الصغرى المقيمة في ألمانيا، كانت ترسل لي صوراً للمطارات المكتظة في الولايات المتحدة حين طرق أحدهم الباب بلهفة، فتحت الباب بعد تأكدي أنَّ الطارق امرأة.

وجهها لم يكن غريباً، لكنني لم أعرفها.تداركت نظراتي وقالت: (أنا جارتك زينة بالشقة رقم سبعة) خجلت لأنني لم أعرفها فطبيعة البناية التي أسكنها فيها اثنتا عشرة شقة، وصدقاً لم أدخل أيها ولا أعرف جيراني، سألتها الدخول لكنها رفضت، وقالت: (جئت أسألك عن أماكن الحجر الذي سَيُوضع فيها القادمون اليوم من الخارج؟)

رفعت حاجبي وقلت: (حجر؟أي حجر؟) ظهر على وجهها علامة الاستغراب وقالت: (ألا تعرفي أن القادمين اليوم من الخارج ستلزمهم الدولة بالحجر الصحي؟) فركت يدي ببعض وقلت بإحباط: (لم أعد أتابع الأخبار فسفري من المفترض أن يكون في الغد، ولكن كما

تعلمي...) صمتَتْ ثم استطردت قائلة: (سأسأل وأجيبك ولكن لماذا تسألين؟) تلعثمت وقالت: (زوجي قادم اليوم عبر المطار واتصل بي قائلاً إنَّه تبلغ فور وصوله بأنه سيذهب لحجر صحي إجباري، ثم أغلق الخط ولم يعد يجيب على اتصالاتي ونصحتني جارتنا أن أسألك) لم أرد أن أردَّها خائبة.

بعد أن قرأت الأخبار وقمت ببعض الاتصالات ونحن واقفتين بالباب، طمأنتها أن زوجها الآن في حجر صحي في فندق خمس نجوم بالبحر الميت على نفقة الدولة ورعايتها، رأيت الدموع في عينيها، شكرتني وغادرت.

قررت زيارتها فأنا التي طارت أحلامها بالسفر، وهي القلقة على زوجها، لكن أين الشقة رقم سبعة؟ما بالي؟ إنها المرة الأولى التي أصعد فيها للطابق الثاني بالرغم من أنني أقطن البناية منذ سنوات ست، كان عليَّ أن أبعد المقولة المزروعة في داخلي:

( صباح الخير يا جاري أنت في حالك وأنا في حالي).

يبدو في ظل هذه الظروف أن بعض المفاهيم التي نطبقها ونعلم أنها خاطئة علينا تجاوزها.

لقد خجلت من نفسي حين كنت أتعرّف على جارتي وأسألها عن تفاصيل من المفترض أنّي أعرفها بحكم الجيرة.

لقد اعتدت أن أختصر علاقاتي، جارتي سيدة لطيفة تعيش مع

طفليها الصغيرين، وزوجها يعمل في الخليج، عاتبت نفسي كثيراً لأنني لم أزرها قبل اليوم، فأهلها في محافظة أخرى، ألم يوصينا النبي بالجار خيراً؟

اتفقت معها أن أزورها غدا لأطمئنّ عليها، كيف لا؟ وأنا قد فرغت أجندتي من العمل على نية السفر.

**اليوم الثلاثاء السابع عشر من آذار**

لم أنم في الليلة السابقة، بقيت أقرأ أخبار العالم بالرغم من أنّني وعدت نفسي بعدم قراءة أي خبر، فقد كانت بعض الأخبار والأرقام مبالغاً بها.

موعدي مع جارتي بعد العصر كان من الجميل أن أحمل لأطفالها الصغار حلوى، يا ليت أنني أعرف كيف تُصنع الحلوى فأنا لا أحب (الجاهز) لكنني لا أملك أي معرفة بطريقة صناعتها، هذا ما أخبرت به جارتي وأنا أناولها الطبق، ابتسمت وقالت لي: (لو أنك تعرفي جارتنا منى فهي ملكة الحلويات والفطائر وتعمل طاهيةً في فندق أربع نجوم).

رفعت حاجبي وسألتها مستغربة: (من هي منى؟) ابتسمت جارتي مرة أخرى وقالت: (أنت لا تعرفين الجارات هنا كما يبدو لكننا نعرفك كلنا)، شعرت بلحظة رضا فالجارات جميعاً يعرفنني، يبدو أنّني فعلاً

شخصية مهمة، سألتها برضا: ( كيف يعرفنني جميعهن؟) ضحكت وهي تقول: ( لا تغضبي لكنّك الوحيدة التي تضع سياراتها بالعرض، وتأخذين مكان سيارتين، كل من يملك سيارة في البناية يعرفك فأنتِ ذات الاصطفاف المستفز للجميع)! ضحكت معها من الصدمة، حاولت القول مبررة: (عقدتي هي الاصطفاف.) تداركت هي تلعثمي وقالت: (لا عليك أنا أمزح فقط)، سألتها: (كيف زوجك؟) تنهدت بارتياح وقالت: (إنه في فندق فخم وعدني أنه سيأخذني عليه بعد هذه الأزمة، هل أريك صور الفندق؟) نعم صور جميلة ومكان فخم، لكن هاتفي رن حينها وقطع متعة المشاهدة، إنّه زوجي يبلغني ويسألني: (صدر اليوم قانون الدفاع، ماذا يعني؟)

بلعت ريقي متسائلة: ( قانون الدفاع؟؟)

شربت القهوة على عجلة والفضول يقتلني كي أقرأ هذا القانون.

وأنا المحامية التي سيتصل بها أخوها وصديقتها وجارتها وعمها ليسألها عن قانون الدفاع، راجعت ذاكرتي هل درسته في الجامعة؟ نعم لقد درسنا أنّه موجود في الدّستور، لكن لم نتعمق به ولم يكن مادة دراسية مستقلة.

وبالفعل تهافتت المكالمات المستفسرة وكان جوابي مختصراً: (هي إعلان حالة الطوارئ في الدولة، والصلاحيات تعطى لرئيس الوزراء

لإعلان أوامر دفاع يكون قادراً من خلالها على تعطيل بعض القوانين حسب الحاجة).

بالفعل كان يوماً مميزاً، فها هي جارتي زينة تتصل بي وتسأل لأخرى، واتفقت معهم أن نجتمع اليوم كي اشرح لهنّ ماذا يعني قانون الدفاع، لا يهمّ فأنا مدربة أصلاً، وما عليَّ سوى قراءة القانون والاستعانة ببعض الزملاء والاستئناس برأي القضاة.

كانت جلسة شيقة تعرّفت فيها على جاراتي، جلسة ودية بيننا وتعرفت على ملخص من حياتهن في نصف الساعة الأولى:

زينة (عشرينية) أم لطفلين وزوجها في الخليج.

هنادي (عشرينية) أخصائية تغذية تبحث عن عمل وزوجها صاحب مطعم أم لطفلين.

منى(أربعينية) طاهي في فندق أربع نجوم زوجها سائق تكسي متعثرون بالقروض.

هبه (عشرينية) ممرضة في مستشفى خاص وزوجها موظف في شركة تخليص، لديها طفلة.

حنين (ثلاثينية) معلمة لغة إنجليزية في مدرسة خاصة وزوجها أستاذ حاسوب في مدرسة حكومية.

أم أحمد (خمسينية) أرملة لديها ابن واحد يعمل مندوب مبيعات في شركة خاصة.

رندة (أربعينية) مطلقة وتعيش مع بناتها الثلاث ومصدر دخلها الوحيد النفقة وراتب ثابت من التنمية.

إخلاص (ثلاثينية) أم لطفل متوحد وزوجها يعمل سائق حافلة عمومية.

أم فتون (خمسينية) آذنة مدرسة تعيش مع ابنتها فتون (عشرينية)، ابنتها تعاني من مشاكل صحية نتيجة وزنها الزائد.

أم ميلاد (خمسينية) مرشدة متقاعدة لديها ابنتين إحداهما تدرس في مصر والأخرى مصففة شعر.

الحديث كان في الاجتماع من القلب للقلب، جاراتي طيبات بوجوه سمحة، خجلت من نفسي حين كنت الوحيدة التي لا أعرفهن ولا أختلط بهن بحجة انشغالي بصغاري وعملي.

كانت مفاجئة لي أنّ معظمهن صديقاتي عبر منصة الفيسبوك وأنا لا أدري! لاحظت حنين وهي تسجل كلماتي التي أقولها في الاجتماع، سألتها مبتسمة: (ماذا تكتبين بالضبط؟) أجابتني وهي تدون آخر ملاحظة، إنَّني ألخص كلماتك وأرسلها لمجموعة المعلمات، ومجموعة أهلي فأي معلومة تردني منذ مطلع أزمة كرونا أحاول تلخيصها وأرسلها لهم، فكل ما يحدث جديد، علينا بناء خبرات من هذه المعلومات.

شعرت لحظتها بأهمية ما أقوله وأخبرتها: (ما رأيك أن ترسلي لي ما تقومين بتلخيصه كي أساعدك بانتقاء الأهمّ فالأهمّ).

أبهرتني بما أرسلته فقد لخصت كلماتي بطريقة هل تعلم بتصميم واضح وألوان زاهية يا لها من موهوبة!

**اليوم الأربعاء الثامن عشر من آذار**

غضبت من أولادي الذين يتشاجرون على ألعاب الحاسوب، لقد كان العنف سيد الموقف بينهم وهم صبيان أربعة، وأنا اليوم بينهم وهم بلا مدراس ولا أندية حتى.

تغيرت حياتي في الأيام الأخيرة، فلقد دخلت في جمعة الجارات، واليوم صدر أمرالدفاع الأول وأبنائي في عراك مستمرّ ولا أستطيع أن أتمعن بالأخبار.

استقبلتني رندة بصدر رحب في منزلها كي أستعمل حاسوبها وأستطلع أمرالدفاع الأول، لم يكن صعباً ولم أستعن بأحد، بل لخصت الأمر بكلمات بسيطة: أنّ الوضع كله معني بتعطيل أحكام قانون الضمان الاجتماعي، لأنّ المنشآت والشركات تعطلت في ظلّ الوضع الراهن، مما سبب أضراراً ماليةً قد تجعل المنشآت تخلّ بالتزامها مع الضمان، مما حدا برئيس الوزراء أن يصدر هذا الأمر تخفيفاً عليهم.

حضرت لي رندة كوباً من العصير، هندسياً شقتها كشقتي لكنها

منظمة بطريقة كلاسيكية فريدة من نوعها، فكل قطعة موضوعة بعناية، لقد كان جو الحبّ يسود بين رندة وبناتها، فالهدوء يعمُّ المكان والأناقة هي العنوان.

قلت لها وأنا أرتشف العصير: (يقولون إنَّ أمر الدفاع القادم سيكون فيه منع تجوّل، لا أتخيل أن أُحجر مع أبنائي في مكان واحد)، ضحكت رندة وهي تسالني: (لماذا؟) أجبتها وأنا أشير لمزهريّة موضوعة في وسط الغرفة، (إنّهم يحطّمون كلّ شيء أمامهم، ولو كانت هذه المزهريّة في منزلي لما صمدت ساعة).

ناولتني حينها صحناً فيه حلوى شهية قائلة: (تعلمي أن تحبّي أطفالك).استغربت من جملتها وقلت لها معترضة: (لكنني أحبهم!) هزّت رأسها وقالت: (عيشي معهم الحب، اعذريني لكنك تحتاجي لساعات تعيشين فيها ما يحبه أطفالك. هل رسمت معهم؟ هل رقصت معهم؟هل غنيّت معهم؟ هل تعرفين ألوانهم المفضلة؟). شغلت بالي أسئلتها أكثر من أمر الدفاع الأول الذي جئت أبحث عنه. هل غنيّتُ مع أطفالي يوماً أو رقصتُ معهم؟هل أعرف حقاً ألوانهم المفضلة؟

**الجمعة العشرون من آذار**

نظرت لصغاري النائمين مساء اليوم في أسرتهم، قبلتهم وزوجي يستعجلني: (هيا!علينا أن نتسوق قبل الحظر الشامل صباح الغد).

استوقفته لحظة ممسكة هاتفي وأرسل رسالة لجارتي زينة، رندة وأم فتون كونهم لا يملكون مركبة إن كانوا يحتاجون شيئاً من السوق.

طالت القائمة والتسوق؛ احتاج تسوقي وقتا طويلاً، فالناس تتهافت على الأسواق لكنني مستمعتة كوني اتسوق لجيراني، معي خبزٌ وحليب وطحين وسكر، مساعدة الناس تعني لي متعة بلا حدود.

ذهبنا لشركة زوجي الخاصة لنحمل أجهزة الحاسوب وبطاقات الذاكرة ومزوّد الانترنت، وأي شيء قد يحتاجه لمواكبة عمله من المنزل. فلزوجي مشروع صغير عدا عن عمله الرسمي.

وقف زوجي أمام المحمص، حمل القليل من المكسرات والبزر، وحمل من البقالة الكثير من البطاطا المحضرة صناعياً (الشيبس).

غداً هو اليوم الأول في الحظر الشامل بموجب أمر الدفاع الثاني الذي صدر اليوم، وعليَّ إيجاد طريقة أبتكر فيها شيئاً لجاراتي وأطفالي، فالجميع يقول عني «مبادرة»، والوضع الراهن أفضل وقت للمبادرة على صعيد الأسرة والجيران.

عدت من السّوق متعبة، وبدأت أضع خطوطاً عريضة لشيء يجمعنا نحن الجارات، هل أضمّهم لمجموعة الجمعية التي أترأسها؟ لا لن أضمَّهم، فنحن نحتاج شيئاً أكثر خصوصية، الخبرات لدينا منوعة لِمَ لا أضمهم في مكان واحد؟

في ظل الحجر سأنشئ مجموعة اسمها «جاراتي»، سنتبادل من

خلالها الخبرات والمعلومات، فهم أقرب أناس لي في الحجر، عمارة مكونة من اثنتي عشرة شقة فيها أحد عشر أسرة.

اتصلت فيهن كل واحدة على حدة، مستأذنةً ضَمَّهم لمجموعة «واتسب» مشتركة والكل رحّب بالفكرة، لم أكن ماهرة في إدارة المجموعات، فكلّفت حنين أن تنشئها، والتي اقترحت تسميتها «الربيع»على اسم الشارع الذي نقطن فيه عوضاً عن الاسم الذي اقترحته «جاراتي».

وفي أول حوار بيننا في المجموعة طلبت من كل واحدة منهن وَضْعَ شيءٍ تتميز فيه، لم يُجِبِ الجميع، يبدو أن البعض منهن لا يعرفن أن لديهن شيئاً مميّزاً! أو لم يلتقطن مكنون رسالتي.

**السبت الحادي عشر من آذار (اليوم الأول للحظر الشامل)**

زوجي في المنزل على غير العادة في الصباح، فضول يقتلني كي أرى الشارع في ظل الحظر، لكنَّ الوضع لا يحتمل أن أقف بالشارع فضولاً، فلا عمري ولا مكانتي الاجتماعية تسمح لي بخرق ما يسمّى الحظر، سأكون اليوم الأم المجتهدة، حضّرت إفطاراً شهياً وبدأت بتنظيف منزلي، واحتسيت فنجان القهوة مع زوجي في حديقة منزلي الصغيرة الجافة التي ينقصها الكثير من الاعتناء والقليل من الورد.

أتى ابني الصغير مهرولاً من غرفته قائلاً: (أمي! أمي! هناك صوت صفارة يصدح في الأرجاء) أخبرته: (إنّه صوت سنعتاد عليه كل يوم في تمام السادسة، معناه أنَّنا لن نخرج بعد هذا الوقت).

سألني ابني معترضاً: (أريد عصيراً كيف سأخرج؟)

ابتسمت وقلت له: (لقد أحضرت لكم العصير وكل شيء لا داعي للخروج).

كان شيئاً غير مألوف، وعليَّ تكييف أبنائي، فلا أدري كم ستطول المدة.

ابتكرت تحديّاً على منصة الفيسبوك اسمه «اسألي طفلك»، بما أنّ لدي ألفي صديق عبر المنصة: وهو تحدي فيه عشرة أسئلة منوعة عن لون طفلك المفضل، وأكلته، ولعبته، والحيوان المفضل لديه؛ لتكون فرصة أن نكسب دقائق مع أطفالنا تكون مقدمة لحوارات متتالية.

قرأت مساء نفس اليوم معلومة أكدتها جارتي هبه أنّه سيتم فتح الصيدليات والمخابز يوم الثلاثاء المقبل دون الوصول المباشر، لم أكلف نفسي بالقراءة أكثر، فحنين وَهِبه مهمتهما التأكد من هذه المعلومات وتزويدنا بها.

وخصوصاً أن مصدرنا الآن واحد «موجز الثامنة» من وزيري الصحة والإعلام أو كما يسمى «مركز إدراة الأزمات».

نسقت مع رندة اجتماعاً في بيتها لأشرح فكرتي في اليوم التالي،

وطلبتُ من منى إعداد نوعٍ من الحلوى السريعة، طلبت حنين أن يكون الاجتماع متأخراً لتستطيع حضوره، كونها تسجل فيديوهات لطلاب صفها في المدرسة، فالتعليم عن بعد قد بدأ وأنا ما زلت أحاول أن أدخل في مجموعات الواتسب المنشئة لأبنائي الثلاثة على مقاعد الدراسة، لكن عليَّ استيعاب الفكرة الجديدة أولاً، حاولت أن أبتكر أسلوباً تدريبياً أناقش فيه جاراتي اليوم حول فكرتي، يجب أن يكون سهلاً وبسيطاً يراعي قدراتهن جميعاً.

تركت شعري مبعثراً لحكمة في نفسي قبل أن أضع غطاء الصلاة على رأسي، فلهفتي لرؤيتهن ولتطبيق فكرتي جعلتني أترك الأواني بعد وجبة العشاء بلا تنظيف.

نزعت غطاء الصلاة فور دخولي لمنزل رندة، ووجهت حديثي للجميع بعد السلام: (هل ترون شعري؟) نظرت لهن وقد أبدين استغراباً؛ لم أستطع أن أحدد هل هي نظرة استغراب حقاً أم أنني بالغت في نفش شعري حتى أخفتهن فعلاً!

استطردت سؤالي وقلت: (إنه جاف ولا أعرف لماذا؟ هل منكن من تعرف؟) صمت الجميع لبرهة وهن مصدومات، هل جمعتهن في أول يوم للحظر الشامل لأجل شعري؟ قبل أن تتكلم أم ميلاد وتقول لابنتها التي كانت تلعب في الهاتف (أخبريها يا ميلاد فأنت خبيرة شعر)، رفعت ميلاد وجهها محرجة وقالت: (ما به شعرك؟) اقتربت

منها وقلت لها (المسيه واحكمي)، أجابت بصوت محرج ( إنه مقصف الأطراف ويحتاج للاهتمام)، ابتسمت وأنا أسالها: (وهل تعرفين كيف أهتم بشعري؟) احمرَّ وجهها قائلة: (أجل يا أستاذة)عانقتها قائلة: (لا تناديني أستاذة، وأخبريني بصوت مرتفع ماذا أفعل لأجل شعري) تردّدت ميلاد بالحديث عندما بدأت؛ لأنها كانت محطَّ أنظار الجميع، انطلقت عندما شجعناها بتفاعلنا وهي تنصحني بالقص وخلطات طبيعية للشعر، تركتهن يتحدثن قبل أن ألملم شعري الذي تحوّل لفروة أسد بعد أن أصبح مادة تعليمية وقلت لهن: (نحن هنا اليوم في الحجر بمجموعة خبرات، وعلينا أن نتبادلها فلست الوحيدة التي يمكن سؤالها في هذه البناية! لِـمَ لا نحول حجرنا لقصة نجاح جميلة نُكمل بعضنا بعضاً؟ اسمنا مجموعة الربيع وعلينا أن نحوّل حجرنا لربيع)، تبادلن جميعهن النظرات، فمنهن من فهمت ومنهن من تردّدت في تفسير كلماتي؛ فأكملت قائلة: (لِـمَ لا نتبادل خبراتنا عبر المجموعة فنجعل رسائلنا مفيدة وحجرنا مميزاً؟ ميلاد تنصحنا كيف نهتمّ بشعرنا، أنا أقدّم معلومات قانونية، منى تعلمنا صناعة الحلوى وهكذا)، ضحكت هنادي وقالت: (أنا لا أجيد صنع الحلوى ماذا سأقدم لَكنّ؟) ردّت عليها زينة: ( أنتِ ساعدينا كيلا نسمن)، فرقعت في أصابعي وقلت: (نعم هنادي بإمكانك متابعتنا بأنظمة غذائية تساعدنا على أن نكون رشيقات)كانت رندة تقدم العصير حين قلت:

(أنت يا رندة إن لم يكن لديك مانع فساعديني شخصياً في تحويل منزلي لتحفة مثل منزلك، ودربينا على معاملة أبنائنا، فقد اكتشفتُ أنّني لا أجيد التعامل معهم، ولم أكن أعرف ألوانهم المفضلة حتى).

ساد حديث ودي تبادلنا فيه وعود أن نكون مميزات، وأن ندعم بعضنا، وكان طلب إخلاص الأكثر تعباً بيننا أن نساندها وندعمها كون ابنها يعاني من التوحد، وهو ما رفضته أم ميلاد وقالت لها معاتبة: (لقد قلت لك إنَّ ابنك ليس متوحداً، هو يحتاج متابعة أكثر وتدربيه على ترك الهاتف ليكتسب بعض المهارات وسأتابعه معك).

مرّ يومان كاملان من الحظر، وقد أنجزنا على صعيد البناية العديد من الأمور فقد تفاعلت الجارات مع الفكرة، وأصبحت إمكانية الوصول للمعلومة أفضل، علمتنا منى اليوم طريقة عمل عجينة الخبز. لقد قمت بجميع الخطوات لكنها لم تكن ناجحة، يبدو أنني لن أفلح أبداً بالفطائر، لم أترك الصحف الإلكترونية، وكنت أتابع أوامر الدفاع، لكن لا جديد سوى الحديث عن تأجيل أقساط البنوك لهذا الشهر، وهو ما أفرح منى، والتي علمت اليوم فقط أنَّ زوجها كان محبوساً وخرج في عملية تبيض السجون التي شملت المساجين من أصحاب الديون.

**الاثنين الرابع والعشرين من آذار**

اليوم الثالث من الحجر المنزلي كان محور حديثنا عن فيديوهات متداولة عن الأزمة، ضحكنا على بعض النكات واستهجنا بعضها، وسؤال واحد يدور في المجموعة هل هناك إصابات في محافظتنا؟ إجابات اجتهادية كنت أحسمها حين أقول لم يصدر بيان رسمي بذلك، وقد بدأنا نعتاد على موجز الثامنة، الذي يلخص لنا كل شيء بكل شفافية، الموجز غنيّ بالمعلومات ويجيب على التساؤلات.

وتحول الحديث عن توزيع الخبز غداً عن طريق الحاكم الإداري.

ما أسعدني الآن هو عندما طلبت الشركة زوجي للدوام بنظام الطوارئ، فأنا لا أستفيد من بقائه خلف شاشة الحاسوب، بالإضافة لحصول مركبته على تصريح جعلني أرسم أحلاماً خارقة للقانون، بأخذ فسحة معه، أو هكذا اعتقدت.

رتّبت مع جاراتي أن نجتمع صباح الغد على باب البناية لشراء الخبز دون السماح للأطفال بالخروج، كوننا قادرين على استعمال وسائل الوقاية بعكسهم؛ وطلبنا من أم أحمد إيقاظنا.

في هذا اليوم كان هناك زيارة خاصة من أم ميلاد لمنزل إخلاص لمتابعة ابنها، والتي شددت على أنَّ طفل إخلاص ليس متوحداً بل هو طفل عادي، ولكن متعلق في الهاتف بطريقة أفقدته المهارات، وتعهّدت أن تساعد ابنها في اكتساب مهارات جديدة.

**الثلاثاء الخامس والعشرين من آذار**

فاجئني زوجي في تمام الساعة السادسة والنصف صباحاً، وهو يوقظني ويقول لي منتصراً:

(أحضرت الخبز)!

فتحت عينيَّ معاتبة: (ربطة واحد فقط؟) هزّ رأسه قائلاً: (كنت في طريقي للعمل، صادفت سيارة الخبز تتحرك برفقة أمنيّة فطلبت منهم ربطتين من الخبز لنا ولأهلي، لكنهم رفضوا لأنَّ المسموح للعائلة بدينار فقط).

أم أحمد كانت متحمسة لدرجة أنها طرقت بابي الساعة السابعة والنصف وقالت: سيارة الخبز بالباب.

كان الناس يقفون على أبواب عماراتهم ومساكنهم، لوّحت من بعيد لمن أعرف ولمن لا أعرف، فالخبز اليوم يجمعنا، حسمت أمري وأخذت ربطة خبز اليوم لجارتنا أم فتون التي تأخرت، وأوضاعها المالية سيئة وكانت حصة الخبز خاصتي لهذا اليوم هدية بسيطة لها واستقبلتها بودّ.

شكر الجميع أم أحمد على إيقاظها لنا، وكانت خطوة رائعة من حنين أن توثق صور الحي الخاص بنا من على سطح البناية، وترسل بطاقة شكر مزركشة لنا على التزامنا، ونشرتها أنا على صفحتي في الفيسبوك مفتخرة بالحي الذي أقطن.

لكنَّ فرحتنا لم تكتمل بحصولنا على الخبز بطريقة منظمة، طرقات

أم أحمد قبل الظهر كانت موجعة.، تم إلقاء القبض على ابنها أحمد بمخالفة (قانون الحظر)! نعم مخالفة قانون الدفاع تستوجب اليوم التوقيف.

اجتمعنا في منزلها وهي تبكي، حاولت الاتصال بمن أعرف، لا معلومات عن مخالفي أمر الدفاع، هناك من يقول إنَّهم سيحجزون في منطقة بعيدة في الزرقاء، ومنهم من قال حبس إداري.

لكن عملية تبييض السجون التي حصلت قبل إعلان الحظر جعلت خيار الحبس مستبعداً بالنسبة لي كقانونية.

في ذلك اليوم عرفت أنّ أحمد عاقد قرانه على فتاة تدعى شمس، وأنّه خالف أمر الدفاع كي يوصل لها الخبز، ودموع أمه تحرق القلب وهي تتمتم: (لو استيقظت هي وأمها باكراً لتمكنوا من استلام حصتهم من الخبز ولكنهم استغلوا ابني)، ضحكت على تعليقها وقلت لها مخففة: (صدقيني يا خالة ابنك استغل الخبز ليراها وما أدراك أنها طلبت أو أنها تحتاج الخبز، لا تقلقي فالموضوع أهون مما تتخيلين، الحب وليس الخبز من جعله يخرق الحظر).

عرفت أنّ حفل زفاف أحمد كان مقرراً مطلع نيسان، وأنَّ خطبته استمرّت لعام، وسيقطن الشقة الفارغة في البناية، وأنه قد قام بتجهيزها ليكون جارنا الجديد.

**الأربعاء السادس والعشرين من آذار**

كان السؤال الأهم في هذا اليوم بعد صدور أمر الدفاع الثالث هل سيدفع أحمد غرامة مالية؟ لكن بقراءة قانونية سريعة هو لن يدفع الغرامة لأنّها صدرت بعد خرقه لأمر الدفاع السابق الذي لا يوجب الدفع؛ وكانت فرحتنا بالغة عندما تم إخلاء سبيل أحمد الذي كان موقوفاً في مديرية الشرطة، وبالفعل لم يطبق عليه أمر الدفاع الذي بدأ تطبيقه من صباح يوم 27/ 3/ 2020 فأي شخص يخرق الحظر يتم توقيفه وتحويله للمدعي العام الذي يلزمه بدفع غرامة مالية.

وعلى صعيد البناية كانت هنادي (خبيرة التغذية) قد سمحت لنا بصناعة ما نريد من فطائر وحلويات، فلقد أخذت وقتها كي تبني لنا نظاماً غذائياً سيبدأ السبت القادم، واليوم تعلمنا مع منى طريقة عمل عجينة الفلافل، وأعطتنا رندة بعض الأفكار لترتيب المنزل، تابعت مع أبنائي بعض الدروس لم أغني لهم بل لونت معهم، والآن أناول كل طفل منهم لونه المفضل، فأنا اليوم أعرف عنهم الكثير، ونثرت أخيراً البذور في حديقتي الجافة.

ميلاد كانت تعطينا وصفات غريبة لشعرنا وبشرتنا أيضاً، وبالمناسبة قصصت أطراف شعري اليوم عندها، أجبرتها أن تأخذ أجرتها، بالرغم من إصرارها على أنّها لن تأخذ، لكن الوضع الراهن يحتاج منا أن ندعم بعضنا.

أما أم ميلاد فكانت مشاركتها عن تحسين نفسيتنا وتهيئة أبنائنا لكل ما هو جديد، وكانت ضليعة في الزراعة، لقد جهّزت لكل منا زرعه جميلة، أما أنا فقد حظيت بزيارة خاصة منها لحديقتي، والعديد من الأشتال.

حنين كانت أكثرنا انشغالاً فهي بين أبنائها وتسجيلها الفيديوهات التعليميّة عن بعد ومتابعة طلابها، نعم لقد استهلكت طاقتها في التعليم عن بعد منذ الأسبوع الأول.

أما هبه الممرضة فكانت تتحضر لدوامها يوم السبت القادم، ووعدتها أم فتون أن تُبقيَ الصغيرة لديها في المنزل في ظل إغلاق الحضانات.

وأخبار متتالية بعد الموجز الإعلامي عن فتح المحلات التجارية غداً، وبعض أصحاب المحلات يتواصلون معي ومنهم أقاربي ليتأكدوا من آليّة إصدار التصاريح لذلك، وكالعادة عليَّ أن أقرأ وأتصل بالمحافظة التي كانت تعمل بنظام الأربعة وعشرين ساعة، كمركز إإدراة أزمة.

لكن الأصعب كان خيار الوصول على الأقدام للبقالات غداً، فأنا احتاج خضاراً للرّجيم، وأحتاج بعض صدورِ الدجاج والتونة، وعليَّ أن أسير مسافة طويلة نسبياً.

لكن كلمات هنادي المشجعة والتي قالت إنَّ المسير وحمل الأغراض سيكون مساعداً على تخفيف الوزن، وهو ما أحتاجه.

**السبت الثامن والعشرين من آذار**

كان وزني اليوم 89 كغم! يا الهي هل حقا اعتقدت أنّي رشيقة؟ أخبرتني هنادي أنّ عليَّ إنقاص 19 كيلو من وزني!من أين أبدأ البرنامج؟

بالأمس ناولتني هبه كمّامة كي أتحرك والأمن في كل مكان منعاً للاكتظاظ، الكمّامة تخنق نفسي لكن الجميع يسألني أن أضعها، وواجبي وضعها، فدرهم وقاية خير من قنطار علاج.

لن أتمكّنَ من أكل الكنافة، فاليوم هو أول يوم للرجيم وسمحت لي هنادي بتناول 9 ملاعق أرز فقط، ولم تسمح لي بتناول الحلوى، وكان عليَّ أن أشجع فتون التي أرسلت تقرير وزنها بتجاوزه المئة بعشرة كغم كان علينا أن ندعم بعضنا كما وعدنا.

أعجبتني المفاجئة التي قامت هبه بعملها في البناية فقد وضعت تعليمات السلامة العامة على مدخلها.

علقت سائل مطهرمع عبارة «عقم يديك جيداً»، ووضعت سلة مهملات مع إشارة ضع قفازاك وكمامتك هنا.

سألتها عبر المجموعة ليستفيد الجميع: (لقد لبست الكمامة اليوم؟هل سأرميها؟).

أرسلت وجهاً ضاحكاً وقالت: (لا تقلقي سأعطيك بدلاً منها، ولكن تخلصي منها فقد حملت بها كل فيروسات السوق).

هل حقاً تسوّقت اليوم بكامة؟ كنت أستغرب سابقاً منظر كل من يضعها لكنني اليوم وضعتها.

**الثلاثاء الحادي والثلاثون من شهر آذار**

كان الجميع يسأل عن صندوق همة وطن الذي صدر أمر الدفاع الرابع اليوم بخصوصه، لم يعد تركيزي متوازناً فاليوم الخامس للرجيم، ومعدلات السكر هبطت لديّ تماماً، عليَّ أن أزرع مع الصغار بحسب توصية أم ميلاد، وأن أُحضر لهم البوشار بديلاً عن «الشبيس» بحسب توصية هنادي. ميلاد أدخلتنا اليوم في نصائح للبشرة كي نحافظ على إشراقها.

لكن ما أخذ حيزاً من قراءتي وتحليلي هو أمر الدفاع الخامس، فهو يصبّ في مجال عملي، والذي جاء لتعطيل المدد القانونية تحقيقاً للعدالة وحسم الجدل للمجتهدين.

اليوم أيضاً كان مميزاً، فلقد نظَّفنا البناية كاملة بالمعقمات وساعدنا زينة في تزيين باب منزلها، فزوجها قادم من الحجر اليوم، لم يخرج أي من أزواجنا للسلام عليه، فكما أبلغونا أنه سيدخل حجراً جديداً في منزله، وأنه وقَّع تعهد على ذلك، حتى زينة لن تخالطنا الآن.

**الأربعاء الثامن من نيسان**

لم يكن هذا اليوم مميزاً لي كقانونية، فاليوم تمَّ تعطيل أحكام قانون العمل بموجب أمر الدفاع السادس، وهو ما أدخلني بحالة قراءة طويلة، فالعديد من الموظفين يسألون. زوج صديقة بذات اليوم تمَ إنهاء خدماته وتواصلت مع مدير العمل الذي أرشدني لرقم متابعة، فلا يجوز بموجب هذا الأمر إنهاء خدمات أي عامل.

لكن روعة اليوم كانت بتحضيرنا مفاجئة لأم ميلاد وابنتها، فيوم الأحد القادم عيد الفصح، وتكفّلت منى بعمل أقراص العيد، وتكفّلت أم فتون بخياطة الشبر الملون لربط مدخل العمارة بالألوان الزاهية.

اليوم في نهايته كان مفرحاً عليَّ كأمّ وجارة، فبعد عشر أيام من اتباعنا للنظام الغذائي خسرت 3 كغم من وزني وفتون خسرت 4 كغم، وشقت براعم البقدونس أرضي أخيراً.

لكن البهجة تستدرك نفسها، فأنا اليوم بدأت بالامتحانات الشهرية مع الصغار كارهة الإشاعات القائلة إنَّ المدارس لن تعتمد هذه الاختبارات.

واليوم قدمت طلب تصريح إلكتروني لي ولمركبتي لأتفقد مبنى الجمعية، وأصرف مستحقات العاملات.

كل يوم إنجاز وإحباط، وفرح وتعب، مشاعر مختلطة، فاليوم أيضاً ابن إخلاص بدا يميز بعض الألوان وفقد شغفه للهاتف.

**الأحد الثاني عشر من نيسان**

أم فتون حوّلت العديد من قطع القماش لزينة لباب العمارة، أضفت البهجة لقلب أم ميلاد وقلوبنا، حاولنا مواساة أم ميلاد في عيد الفصح، فالقلق بدأ ينتابها على ابنتها في مصر التي يتفشى فيها المرض، ولا صلاة في الكنائس تريحها. رائحة الكعك تفوح من المكان.

قمنا بزيارة خاطفة وحملنا الهدايا لها، استقبلتنا بالدموع معانقة كل واحدة فينا بعينيها.

اتصلت بي أم ميلاد في المساء قائلة: (شكراً للبهجة التي أدخلتموها لقلبي، لِـمَ لا نحاول أن نفرح أم أحمد بتزويج ابنها الذي خرق الحظر عدة مرات ليزور خطيبته وها هي الأعراس تتوالى بلا حفلات).

كلماتها أضفت الفرح لقلبي، والفيديو الذي أرسلته إخلاص لابنها وهو يلون أبهجني، فتون متحمسة لما تخسره من وزن زائد بتشجيعنا.

طلبت أن أهاتف شمس «خطيبة أحمد» أولاً التي أبدت استعدادها للزواج بلا حفل، لكنّها ربطت موافقتها بموافقة أهلها.

**الأربعاء الخامس عشر من شهر نيسان**

اليوم أثلج صدري حين صدر أمر الدفاع السابع الذي قرر اعتماد الدراسة عن بعد، وأنّ كل ما أخذه الصغار محسوب، وما أسعدني أكثر هو وصول رسالة إلكترونية لي أنني حصلت على تصريح مدته 24

ساعة لزيارة الجمعية، لكن أي جمعية التي سأزورها فقط، لقد رتبت موعداً سريعاً مع والدة شمس، كي أتحدث معها عن زواج ابنتها بلا حفلة.

قابلت شمس، كانت جميلة وخجولة، وكانت أروع مبادرة من أم ميلاد أن جعلتنا نساعد أحمد في زواجه، تطلب مني الحديث مع والدتها جهداً كبيراً، لكنها تفهمت واشترطت أن تتزين ابنتها لدى صالون نسائي، وترتدي بدله بيضاء، وأن يكون البيت جاهزاً تماماً ولكن على أحمد أن يتحدث مع والدها رسمياً.

لقد كان أمر الدفاع الثامن خاصاً بإصدار تعليمات جديدة حول منع انتشار الوباء، ولغاية هذا التاريخ لم تسجّل أي حالة إصابة في العقبة، والحمد لله الأمور اليوم مبشرة مع استمراري وفتون بنزول وزننا.

**الجمعة السابع عشر من آذار**

مكالمات أخي المتواصلة لسؤاله عن أمر الدفاع التاسع والخاص بالتعطل كانت كفيلة أن أفتح خطاً ساخناً مع كل من أعرف كي أفهم هذا الأمر.

مجموعة كبيرة من الإنجازات حدثت، والتحضر لرمضان كان خبر الموسم، فلقد اتفقنا أن نحضر حلوى رمضان منزلياً، والخبر المفرح

الآن أنه سيسمح بحركة السيارات في العقبة يوم الأحد كأول محافظة يُفكّ عنها الحظر جزئياً، وستعود بعض المديريات للعمل، واليوم الحكومة تعلن فتح باب العودة للطلاب، يا لفرحك يا أم ميلاد فميرا ستقدّم عبر منصة إلكترونية، سأبشرها لكن حنين أرسلت الخبر قبلي على المجموعة.

**الجمعة الرابع والعشرين من نيسان 1 رمضان**

كان أول يوم في رمضان حظراً شاملاً نعم سنفتقد صلاة التراويح في الجوامع خلال هذا الشهر، لم أعرف كيف كنت سأقضي رمضان بلا جاراتي. منى تعلّمنا صنع القطايف، وهنادي تحذرنا من تناولها تماشياً مع النظام الغذائي، وأم أحمد تحاول تحفيزنا لمساعدتها بتجهيز منزل ابنها، وأجواء الأعياد لا تزال متواصلة في العمارة، وحنين تقضي وقتاً إضافياً في تعبئة نماذج الضمان، والمساعدات المتاحة عبر المواقع الإلكترونية، ونعيش بين فرحتين فرحة انتظار ميرا وفرحة استعداد أم أحمد لتزويج ابنها، وفرحتي باللون الأخضر الذي كسا حديقتي، وفرحة إخلاص بتحسن ابنها، وفرحة فتون بنزول وزنها، الجميع اليوم كلنا يعيش الفرح.

كان الخيار الأصعب التصريح الذي حصلت عليه زينة، ذهاب بلا عودة لمحافظة العاصمة مع زوجها قبل رمضان، لكنها وعدتنا بالتواصل معنا دائماً.

**الأحد الثالث من أيار 10 رمضان**

صدر أمر دفاع العاشر المختص بالضرائب، وهي أمور لا أفهمها كثيراً لكنها تذكرني دوماً بلزوم تقديم إقراري الضريبي، اليوم أنا سعيدة، سأزور إأخلاص فقد أرادت لابنها أن يتواصل مع أبنائي، وحملت معي لها عروقاً من البقدونس التي انتشرت في حديقة منزلي.

**الثلاثاء الرابع من أيار 11 رمضان**

لم يبقَ الكثير كي نصل ليوم العيد اليوم، فميرا حضّرت حقيبتها وتستعد للعودة من مصر غداً الأربعاء الخامس من أيار مع أول دفعة طلاب خصصت لطلبة الإناث، ولطلاب المدارس، وطلاب السنة الأولى، وصدر قانون الدفاع الحادي عشر الذي يشدّد على إجراءات التباعد ولبس الكمامة في ظل توجّه الدولة لفتح المناطق جزئياً، اليوم كان الموعد بين ميلاد ورندة ليرافقوا شمس لمحلات بدلات العرائس، ميلاد ستزين العروس أيضاً، منى ستحضر الحلوى والعشاء للعرسان ليلة الزفاف، أما أنا فمشغولة بامتحانات أبنائي النهائية، وبحوض البقدونس وشتل الورد.

**الخميس الحادي والعشرون أيار 28 رمضان**

هذا اليوم كان تاريخي، فهو يوم يسبق الحظر الشامل، في العيد أيام ثلاث، غداً ستعود ميرا بعد انقضاء مدة حجرها، وثالث أيام العيد ستأتي شمس، الأفراح تتوالى ورندة قابعة في شقة العرسان ترتبها.

روائح الكعك تملأ المكان.

اليوم ميزاني أظهر خسارتي 8 كغم، وخسارة فتون 13 كغم، نعم خسارة الوزن أعظم خسارة.

اليوم ابن إخلاص في منزلي يلعب مع أبنائي في حديقة المنزل يزرع معهم أشتال النعنع. العمل على قدم وساق وزّعنا المهام، جزء منا في السوق، وجزء أخر تكفّل بتزيين مدخل العمارة، منى تحضّر لنا مع أم أحمد كعك العيد والعرس وحلواً بمناسبة عودة ميرا.

**صباح العيد**

**السبت الثالث والعشرين من أيار**

أجواء العيد والفرح ظاهرة بمدخل عمارتنا، افتقدنا هبه التي كانت مناوبة في المستشفى، لكنَّ صغيرتها معنا، لقد كانت العمارة تضجُّ بالألوان الزاهية، وبروائح الكعك والمعقمات كان عيداً مميزاً بكل تفاصيله!وضعنا تكبيرات العيد على سطح العمارة كما فعل الجميع، نعم افتقدنا صلاة العيد كذلك.

**صباح الاثنين 25 أيار / عيد الاستقلال**

ياله من يوم تاريخي مميز في ذاكرتي، فالأعلام في كل الشارع واليوم ستأتي شمس للعمارة لتصبح جارتنا الجديدة، لم أتحضر لزفاف سابق كما تحضرت لهذا الزفاف، لأول مرة أشعر أنَّ عمارتي وطن.

نعم ارتديت نفس الثوب الفخم الذي حضرته لزفاف أخي! سيارتي اليوم ستزف العروسين.

العريس زيَّن سيارتي بألوان العلم، وضع ألوان الورد بين السوسنة السوداء وجوري أبيض وأحمر وعروق خضراء، أبهرني كم السيارات التي صاحبتنا في موكب العروس، فكلّها مزينة بالأعلام والشَّبَر.

لم أشهد زفة عرسان أجمل، وضع والد العروس يدها في يد عريسها وانطلقنا في زفة الأحلام، وعلقنا في مسيرة وطنية بعيد الاستقلال، لكنَّ الجميع أشَّر لموكب عروسنا ودخلنا في المسيرة ذاتها حتى اندمج الفرح.

وصلنا شارعنا، شارع الربيع، حنين رتّبت مسبقاً مع بنايات شارعنا أن يضعوا البالونات والأعلام، وقف الجميع ملوحاً، كان شارعنا زاهياً فرحاً.

ووقفنا بباب العمارة نغني للعروسين، والجيران في كل الشارع تطلق الزغاريد وتطلق البالونات بكل الألوان في الأجواء.

وقفت أم أحمد تعانق ابنها وعروسه وتنادي علينا ودموع الفرح بعينيها:

**(افتحوا الأبواب للشمس).**

**كلُّ مُرّ...سيمرّ**

نستطيع أن نحول حياتنا لعمارة الربيع، فالتفاؤل بدأ يدخل في قلوبنا حين حولنا المحنة إلى منحة.

جوامعنا عادت لاستقبال الملصين في صباح الخامس من حزيران، وعادت الصالات الرياضية والمطاعم والمقاهي لاستقبال زوارها بعد تخفيف إجراءات الحجر الشامل في صباح السادس من حزيران.

الكنائس تدقُّ أجراسها صباح الأحد السابع من حزيران بعودة الصلاة، وبدأت أوامر الدفاع تعيدنا للعمل بالقوانين المعطلة.

مئات الطلبة يعودون لأرض الوطن بكل سلاسة.

نفتقد الموجز اليوم، لكننا لن نفقد ما اكتسبناه من ترابط وحب وإدارة، ومفاهيم ترسخت بداخلنا.

**أعظم نداء اليوم: حي على العمل.**

**كلنا مسؤول.**

**#شدة وبتزول.**

## صباح الخير أيتها الحياة

نهله آسيا

ربما نحن بحاجة لوقت كافٍ كي نلتقط أنفاسنا اللاهثة في دائرة الحياة، ونحن نعمل ونعمل، ولا نتوقف كي نوفر لنا كفاف يومنا، ربما هي أرواحنا طلبتها فاستجابت الأقدار لهذه الأرواح المتعبة التي أتعبتها الحياة سواءٌ بقصد أو بدونه. إجازة لم تكن أبداً بالحسبان، ولكن هي حرب شنّت على العالم من حيث لا يحتسب ودون أن يحسب لها أي حساب.

كأن الكون يعيد ترتيب هندامه ويمنح إجازة لعبث البشر فيه، ويمنحنا إجازة كي نبتعد عن الضجيج اليومي، ونستمع لنقر المطر على النوافذ، ولتغريد عصافير الصباح الذي لم نعد نسمعه منذ أمد بعيد في المدينة الممتلئة بالحياة والضجيج.

يرغمنا على سماع حفيف الأشجار التي بدأت بالاخضرار، كيف لا ونحن نستقبل الربيع بكل فرحه الموسمي.

كل الأشياء التي لم نعرها اهتماماً في السابق، اليوم رغماً عنا ندقق

في تفاصيلها المهملة لنرى جمال الحياة من خلال ثقب الجائحة التي اجتاحت هذا العالم.

نحن نحو طريق العزل مع العالم الخارجي، حالنا حال العالم أجمع، هي فرصة كافية لنا وللجميع، إعادة ترتيب البيت الداخلي وإعادة التفكير بحياتنا على كافة أصعدتها بطريقة أخرى، بعيداً عن الركض نحو أقدارنا المحسوبة، التي لم نحسب لها أي حساب، هو درس سنحفظه جيداً للأيام وربما السنوات القادمة.

بالرغم من كل الخوف الذي انتابني في لحظة يتيمة، إلا أنني استطعت أن أطرد كل ما هو سلبي في هذه اللحظة، وكأنني مقبلة على حياة لم أخض غمارها من قبل، شعرت حينها كأن لدي جناحين أحلّق بهما كما أحلو وكما تمنيت في يوم ما، تحرّرت فجأة من قيود العمل التي أصبحت كجبل مشنقة أعلّقه كل يوم لمدة اثنتي عشرة ساعة وأكثر كل يوم. شعرت حينها كمن ترتدي لباساً ثقيلاً وآن لها أن تتحرر منه.

ولكنني في نهاية الأمر وبدايته أحمد الله أنني أعيش في وطني في هذا التوقيت بالذات، وكلي فرح أنني ابنة هذا الوطن.

إعلان حظر التجول وإقفال المحلات لم يكن قراراً مفاجئاً بأي لحظة من اللحظات، ولكنني تفاجأت من تلك الهستيريا التي أصابت الشارع خلال ساعات قليلة جداً.

كنت أقف على باب محلي وأنا أراقب ملامح المارة التي لم أجد لها

أي تفسير سوى الخوف والهلع، ذاك الذي عشعش في كل تفاصيلها، فكانت الخطوات متسارعة لا تريد أن تتوقف، جموع زحفت على محلات الخضارالمقابلة لموقع محلي، اكتظاظ لم أشهده إلا في المحال الكبيرة في ليلة إعلان عيد الفطر أو الأضحى.

لا أعرف! هذا المشهد أعادني للوراء أعواماً ثقيلة كثقل ألمها، وأنا أرى الأكياس الكثيرة والأشياء المكدسة، حتى إنَّ المحل بات فارغاً في أقل من ساعة، إلا من بعض الفواكه غالية الثمن، أسفت كثيراً على ما رأيته وأنا ألمح أحد الوافدين الذي يعمل حارساً للبناية التي أقطن فيها، وقد عاد دون أن يأخذ ما يحتاجه من الطماطم وهو يتمتم (مخلوش حاجة).

...منذ أكثر من 25 عاماً لم أخزن شيئاً في منزلي؛ لسببين: أولهما أن والدتي في عام 1991 كانت تملأ الفريزر الخاص بالتخزين بكل ما لذّ وطاب، وحين انقطعت الكهرباء شعرت بألمها حين تعبت وهي تقوم على إعداد وترتيب الأشياء في الفريز، وها هو تعبها يذهب إلى حاوية القمامة..والسبب الثاني أنني مؤمنة ومقتنعة بأنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، فمنذ ذلك الحين وأنا أشتري أشيائي بذات اليوم وأكتفي.

أقفلت المحل وبدأت بالسير باتجاه المنزل، كانت الشوارع فارغة، وكأنَّ الحزن بدأ يلقي بوشاحه عليها وأنا أتأمل كلَّ الأشياء الصغيرة التي تصادفني، بينما أعمدة الكهرباء التي على طول الشارع قد أُطفئت،

شعرت حينها بالعمى المؤقت، كما لو أنَّ طبول الحرب راحت تقرع في رأسي المثقل بالالتزامات، بينما بدأ جيشنا اليعربي بالانتشار وزوامير سيارات الأمن العام تكسر جمود الظلام، مجرد وجودهم أشعرني أننا شعب محظوظ بالرغم من كل الظروف الاقتصادية التي نمرّ بها جميعاً.

وصلت إلى المنزل، وكأن كل شيء قد أصابه الخرس! فلم أنبت ببنت شفة، أشعلت التلفاز وأنا أقلب من محطة لأخرى لأتابع ما يجري على هذه الكرة الأرضية من مستجدات الكورونا.

هي حرب لعينة قادمة من نوع آخر، سنكون في منتصفها، فمن لم تقتله رصاصة سيقتله فيروس لا نعرف من أين أتى وإلى أين يأخذنا. صعقت لوهلة من الأرقام التي تتردد على مسامعي، وكأنَّ جنوناً يجتاح هذا العالم ، نعم أصابتني صعقة من السماء وأنا لا أستوعب تلك الأرقام، وبينما أقلب على القنوات عدت لأستمع مجدداً لقناة المملكة حين أطلّ الدكتور سعد جابر وهو يقرأ البيان الأول، كم كان وجهه معبراً بكل أسف عن حالات الكورونا التي دخلت خلسة إلى ديارنا، وأبت إلا أن توجعنا، شعرت حينها لأول مرة أنَّ القادم سيحمل الكثيرالكثير، وعلينا أن نحمله بكلّ رضى؛ لأنَّ وطننا أغلى ما نملك.

كانت خيالات من مات بالكورونا في كافة القارة الأوروبية تمر أمامي ولا تريد أن تتزحزح، وأنا أقول بيني وبين نفسي أما آن لهذا الموت أن ينتهي، فما كاد يرحل الموت عن الشام ويلمم أشلاءه في العراق وما زال يتدثر ببلاد اليمن السعيد.

قلت حما الله أردننا من كلّ مكروه، فأرض الرباط لن تضام وهي حتماً برعاية الله تعالى.

**اليوم الأول**

كما اعتدت في كلّ يوم على الاستيقاظ مبكراً دون منبه، فالساعة البيولوجية التي في رأسي توقظني بذات الوقت ـ ألا وهو الساعة السابعة صباحاً، رحت أُعِدّ فنجاناً من القهوة وعيناي بين الحين والآخر تقفزان من خلف نافذة المطبخ، وأنا أسترق لهذا السكون الصامت، بينما كنت أشاهد بعض العصافير والحمائم البرية التي اعتدت في كل صباح أن أجدها تجتمع على حوض الزرع لتلتقط الحب الذي أنثره كل صباح، ولكنني اليوم لم أفعل، فطارت لتذكرني أنني لم أضع لها هذا اليوم رزقها، فسارعتُ بوضع الحبّ من جديد في حوض الزرع؛ لأنني على يقين أنها لن تغيب كثيراً فهكذا عوّدتني هذه العصافير على هذا الطقس الصباحي منذ خمس سنوات.

وضعت فنجان القهوة وأشعلت السيجارة الوحيدة التي بقيت في علبة السجائر لأودعها الوداع الأخير، وأنا أنفثها بكل هدوء بعد أن اتخذت قراراً لا رجعة فيه فيه بترك التدخين، قبل أسبوعين من حظر التجول، فلا أريد لهذه اللعينة أن تبقيني عبدة لها في لحظة ضعف لما تبقى لي من أيام أو سنوات، لا أدري فالموت غريب ليس له وقت كي

يحلَّ على بيوتنا، ولكننا اعتدنا على قدومه كل عام ليخطف منا أحبة عاشوا بيننا وفجأة يرحلون، وأصبح الوقت مناسباً لفعل ذلك.

ورحت أستمع لصوت فيروز الذي ينساب كخرير الماء الصافي، ولكن هذه المرة لم أدندن معها، ثمة تشويش داخل رأسي، الساعة تجاوزت العاشرة صباحاً وأنا على ذات المقعد لم أستوعب ما يحدث وسيحدث، تسمّرجسدي على الكرسي الخشبي وعيناي تتنقل بين المحطات الإخبارية.

اعتبرت هذا اليوم يوم إجازة عادية وعليَّ القيام بالأشياء التي كنت أقوم بها وقت إجازتي الأسبوعية، وبين ساعة وأخرى ألتقط انفاسي علَّ هذا اليوم يمضي ما دام الهاجس ما زال ملازماً لي حتى اللحظة.

الساعة السادسة أعلنت صفارة حظر التجول، صوتها غريب لم أعتد على سماعه سابقاً، وآخر مرة سمعت هذا الصوت حين تم إعلان انسحاب القوات العراقية من الكويت عام 1991، ولكن اليوم وفي وطني الأكثر أمناً وأماناً، لأول مرة أسمعها عن قرب بينما كانت بعض القوات من جيشنا الأبي تتجول في الشارع الرئيسي المطلّ عليه منزلي، بينما علم بلادي يرفرف على نافذة الصالون، حينها شعرت كم نحن صغار أمام هذا الجيش العظيم الذي ترك ثكناته ليحمي أبناءه من خطر قادم لا يراه أو يعلم عنه شيئاً، سوى أنه يفتك بكبار السن، وممن يعانون من أمراض مزمنة حسب التصريحات الأولية التي انتشرت في العالم أجمع.

حالة حب غريبة تتضح بصورة جلية وعن قرب، فهتفت للوطن ولأسياد الأرض الذين أراهم الآن ينتشرون بكل شارع.

كم كان هذا اليوم بليداً وأخرس، وكم اشتدّت ظلمته على غير عادته.

الساعة تجاوزت الواحدة فجراً، وأنا ما زلت أسافر من بلد لآخر عبر الفضائيات حتى أتخمت ذاكرتي بشتى المشاهد، وكأنَّ الذاكرة بحاجة لمزيد من الصور الأليمة كي تحتفظ بها.

إنه شهر مارس الجميل الذي أعشقه، حيث تتفتح الأزهار وتتلون الأرض باللون الأخضر، مارس المرأة والأرض والكرامة، تعلمت منذ صغري أنَّ المرأة في أقطاب العالم جميلة، وسيظل الربيع في كل الظروف جميلاً، وسيظل يوم المرأة والأرض والكرامة والنصر جميلاً رغم أنف هذا الوباء.

**اليوم الثالث**

كان لا بد من متابعة بعض الأمور التي تركتها يوم أمس، بدأ اليوم يسير بطريقة طبيعية أو هكذا يجب أن يكون، الساعة تجاوزت الساعة الثامنة مساءً، ولا بدَّ من العمل على السوشال ميديا والفيس بوك، حيث أصبح هو المتنفس الوحيد في هذا اليوم، وكان حري بي أن أتابع الصفحة التي أنشأتها سابقاً تحت اسم الجمعية التي أسّستها،

فبدأت الرحلة الأولى لكيفية كسر الروتين اليومي دون أي تذمر، حيث المجهود الذي بذلته خلال عام قد أصبح فيها ما يقارب 6 آلاف عضو، وهي صفحة خاصة بعيدة كلّ البعد عن السياسة وخاصة بكل ما يمت بصلة للفن التشكيلي بكل مجالاته.

مضى اليوم الثالث والسابع وأنا لم أستوعب أو أصدق ما يحدث، هكذا بين يوم وليلة تنقلب الأمور رأساً على عقب، وأنا التي اعتدت أن أقوم بأشياء عدة ما بين إدارة محلي وبين الجمعية التي أرأسها، وبين إدارة شؤون بيتي بعد رحيل زوجي في العام الفائت. أمضيت فيه إكمال بعض الترتيبات وإعادة ديكورات المنزل من جديد، كان انتحاراً من نوع آخر من التعب الذي أتزوّد به دائماً، وكأنني بحاجة إلى مكاييل منه، أنجزت فيه الكثير الكثير.

قبل أشهر كنت أتمنى أن يكون يومي ثمانٍ وأربعين ساعة متواصلة كي أتمكن من إعادة ترتيب كل الأشياء من حولي، واليوم أملك الوقت كله ويملكني، ولكن شعرت أنَّ عقارب الساعة توقفت، كم كان أعرجَ هذا اليوم الذي يحمل قدمين كسولتين، كيف له أن يبدأ ولا ينتهي، ولم يكن أمامي إلا أن أضع برنامجاً خاصاً للأيام القادمة، وكأنني أردت حشو اليوم بكل ما أريد من أمنيات.

أسبوع وأنا أتنقل ما بين النافذة والبلكونة، وأحدق في كلّ الأشياء التي أمامي، والتي لم أكن أعرها اهتماماً في السابق كما اليوم وأنا

أنظر للشارع، فكم بات حزيناً دون ضجيج السيارات وزواميرها الصباحية، وازدحامها في المساء وتذمر السائقين.

الغريب في الأمر حتى حاوية القمامة أصبحت أجمل في ظل هذا الحظر، هكذا رأيتها، فلم أجدها كما السابق تمتلئ بأكياس القمامة، مما يضطر الآخرون على وضع الأكياس بالقرب منها لتأتي قطط الشوارع فتمزقها باحثة عن رزقها من الطعام، فتتناثر القاذورات حول الحاوية دون خجل ودون تأفف مني كلما ألقيت بكيس القمامة، مما يجعلني أضطر أن أجعله يتعربش فوق الأكوام.

لا أريد أن أنظر للجزء الفارغ من الكأس، فاتخذت قراراً أن أنظر للأمر من زاوية إيجابية، وأن أتقبل فكرة حاجتي لإجازة فعلية لم أنعم بها منذ وقت طويل، وأنّ كل شيءٍ يحصل بأمر الله تعالى.

سرقتني اللحظة وأنا أردّد ما المانع في تغيير بعض سلوكاتنا ما دام لا يوجد فيها ضرر لنا وللآخرين، وبعض عاداتنا وتقاليدنا التي أحياناً تُحمّلنا ما لا طاقة لنا به، وخاصة ونحن مقبلون على شهر فضيل وهو شهر رمضان الكريم.

تساءلت: أليس من الواجب الحفاظ على جمالية المكان المحيط بنا؟

لماذا من حولنا قد أحبوا الفوضى بأبسط الأشياء؟ لماذا لم يُدرّس في مناهجنا حب النظام منذ نعومة أظفارنا؟

كان تحديد ساعات إلقاء القمامة وهي على فترتين صباحية ومسائية

موفقاً جداً، وأنا أرقب نظافة الشارع كل يوم، جميلة هي مدينتنا حتى في أحلك ظروفها، لو استطعنا الحفاظ على نظافتها.

كثير من الأسئلة التي كانت تراودني وازدادت اليوم أكثر، فكم هو جميل هذا الشارع دون فوضى وضجيج ودون قمامة، وكان هذا حافزاً لي أن أتولى تنظيف البناية من الداخل كل أسبوع ما دامت غالبية جيراني من كبار السن، فأصبحت كل يومين أقوم على ري الزرع الذي زرعته سابقاً أمام مدخل البناية في غياب حارس البناية الذي غادر إلى بلده.

في هذا الظرف الطارئ، استطاعت حكومتنا أن تمسك بزمام إدارة الأزمة بكل حكمة، وخاصة في البداية، بالرغم من أن هذه الحرب المعلنة على الإنسان.

كثيرٌ من الأسئلة التي اجتاحت هذه الجمجمة الصغيرة، وكأنها غارقة في طوفان لا ينتهي..

كان علي أن أعيد ترتيب هندام الأيام بما يليق بها وكما أحلم وأتمنى.. ربما لم تسعفنا السنوات السابقة بأخذ إجازة، فجاءت عنوة لتوقظنا من لهاثنا وراء ملذات الحياة دون أن نحسب حساباً لشيء، فالعمل الذي لم يرحمنا في يوم جعلتنا نعترف أنها إجبارية لنعيد تهذيب سلوكاتنا وثقافاتنا التي نكن نحرص عليها كثيراً، بدأت أشعر أن لها رونقاً خاصاً وجميلاً بالرغم من كل هذا الموت الذي نراه خارج الوطن.

استيقظت صباحاً، تناولت كأساً من الماء المفلتربعد أن أضفت اليه القليل من ماء الورد، ووقفت أمام نافذة المطبخ وفتحتها لأتنفس بعمق، وشمس الصباح ترمقني وأنا خجلة؛ لأنني لم أغازلها مثل كل صباح حين تشرق، نسمة لطيفة دافئة تدغدغ مسامات روحي المتعبة؛ فأبتسم أو تجعلني كذلك دون أن أدري. هممت بعمل فنجان القهوة السادة، ففي هذا اليوم لم أضع فيها السكر، أردت أن أشعر بمرارتها من زاوية أخرى وكان عليَّ أن أعترف أنني لن أسمح لهذا الفيروس اللعين أن يوقف مسار حياتي وأنا أنتظر البيانات المزعجة... فخلال الأسبوع الأول كنت قد أدمنت البيانات طوال الوقت، فكان على أن أتخذ قراراً سريعاً وحاسماً، ألا أبقى أمام شاشة التلفاز لساعات طويلة كما تعودت سابقاً، فكلاهما يسببان صداعا أنا في غنى عنه، أقله هذه الفترة.

**الأسبوع الثاني:**

بعد ٨ أيام من الحظر الشامل في بداية أزمة كورونا في الأردن، وعند السماح لنا بالخروج مشياً على الأقدام بين الساعة العاشرة صباحاً والسادسة مساء، كان أول مشوار لي.

لولا إرسال شركة أورنج بضرورة تسديد الفواتير المستحقة لما كنت مضطرة للخروج من المنزل، لذلك خرجت، وحين وطأت قدماي

الرصيف شعرت أن قدميَّ لم تعرفا الرصيف ولا الشارع، شعرت أنني طفلة صغيرة فرحة خرجت من أجل اللهو، كانت الخطوة بطيئة والرئتان تأخذان الكثير من الهواء النقي، هل تصدق حتى الهواء أصبح أكثر نقاءً بعيداً عن عوادم السيارات، اضطررت في هذا اليوم أن أسير ما يقارب الكيلومتر كي أتمكن من دفع الفواتير، تكاد الشوارع تخلو من البشر، ولأول مرة أعبر الشارع دون ان ألتفت يميناً أويساراً، قفزتُ للشارع الآخر فوجدت طوابير من المراجعين، والجميل في الأمر أن العسكري المتواجد كان يقوم على تنظيم الطابور ويطلب من الجميع ارتداء القفازات والكمامة، كان يطيب لي كلما شاهدت أحد رجال الأمن أو من رجالات الجيش، أتوقف برهة لألقي التحية لأكسب ابتسامة تسير معي طوال الطريق، وأنا أردد الله يحميكم ويحمي بلدنا..

**اليوم التاسع:**

الساعة تجاوزت العاشرة صباحاً، وكان لا بد من شراء بعض الخضروات التي أعشقها أكثر من اللحوم والفواكه، ومتعة انتقائها ليس بعدها متعة، وبينما وأنا أسير باتجاه المحل، رحتُ أرقب إن كانت هناك الفوضى السابقة أم أنها اختفت والتزم الناس بالطابور، ، في ذلك اليوم، تفاجأت عند اقترابي من المحل أنَّ هناك فوضى والناس تتهافت وكأنها في سباق، فآثرت أن أبتعد عن هذا المشهد وأستمر بالمشي

واستنشاق المزيد من الهواء النقي، ربما هي فرصة كي أجدد نشاطي في هواية المشي مع أختي الكبرى التي كانت سعيدة بممارسة هذا الطقس الصباحي.

تجولنا في المنطقة وشوارعها القديمة التي ما زالت فيها المباني القديمة تحافظ على رونقها العتيق الذي أعشقة، ومضت الساعة الأولى والثانية، وعدنا إلى نفس الطريق المؤدي إلى محل الخضار، عندما اقتربتُ وجدت حافلة الجيش وقد ترجّل عدد من راكبيها ليقوموا بتنظيم الأمور طابور للرجال وآخر للنساء، كل من في الطابورين كانوا في وضع التأهب التام من لباس وتباعد وتعقيم، ما عدا رجلاً تظهر عليه ملامح البؤس والفقر، كان عاري اليدين والوجه، كانت مُطأطِئ الرأس، كأنه اقترف ذنباً محرماً سماوياً، ، إذ هرول أحد العاملين في المحل معطياً الرجل قفازات، تبسم الرجل ونظر بامتنان للموظف، وقفتُ بعيداً عن الطابور، وراح السؤال يقرقع في رأسي الصغير متى نعتاد النظام دون مساعدة وإجبار، هل نحن فعلاً لا نستوعب التعليمات، ممم لا أدري.

مشاهد الناس وهي تشتري ما يلزمها وما لا يلزمها مشهد خارج النص الطبيعي، وكم تمنيت أنَّ المحال وقتها تبيع صكوك المغفرة والعفو مثلما تبيع مواد التعقيم وموادَّ لجلي القلوب وتنظيفها من الضغينة.

**اليوم التاسع**

أصبحت الساعة العاشرة، مهمة جداً لنا للانطلاق والخروج من عتمة المنازل، وكأننا نردّد كلما خرجنا قلنا صباح الخير أيتها الحياة صباح الخير أيها الحب الجميل، لم يكن هناك شيء أفعله سوى التسكع في الشوارع الفرعية والأزقة، وكم كنت فرحة عندما أجد أنَّ المنطقة التي أقطنها جميلة كما لو أنني أول مرة أشاهدها.

أصبحت رياضة المشي يومياً لمدة ساعتين هي المفضلة والمسموح بها خلال فترة الحظر، وعند العودة أصعد إلى سطح البناية لأكمل البرنامج الرياضي الذي وضعته لنفسي منذ الأسبوع الأول، على أن أقوم بتطبيقه في الأسبوع الثاني. رياضة خفيفة في البداية تم هرولة متوسطة، ويليها هرولة سريعة، استراحة وقليل من الماء، ومن ثم العودة إلى ممارسة رياضة أكثر حدة؛ لأنَّ الوقت لم يسعفني لممارسة هذه الهواية أيام العمل، فكانت الوقت المناسب لفعل ذلك، يبدو أنَّ كل شئ في الجسم بدأ بالتوجع، فهو لم يعتد على ذلك، بدءاً بالعضلات مروراً بالعظام وبالرغم من كل هذا كانت السعادة تفتح أبوابها للروح؛ لأنني أمنحها مزيداً من الحرية لتنطلق.

**اليوم العاشر**

قررت أن أسير باتجاه البلد منطلقة من مكان سكناي، وكان هذا تحدٍّ بيني وبين نفسي أنني قادرة على فعل ذلك، الذهاب إلى البلد من

جبل الحسين إلى وسط البلد ليس بالأمر السهل، فحملت كلَّ الأشياء الجميلة في روحي، وانطلقت فرحة مثل طفلة متشوقة لرحلة تنزّه حاملة معي زجاجة ماء، واضعة الكمامة والقفازات.

أكثر من 3 كيلو متر سرتها منفردة وأنا أتجول مروراً بجبل القلعة نزولاً إلى وسط البلد، حزنت وأنا أجدها تكاد تكون خالية، أين الازدحام الذي كنت أعاني منه سابقاً، أين الرجل الكهل الذي يبتاع ألعاباً للأطفال وأين وأين، رغم كل فرحي بنزولي إلى وسط البلد إلا أنني حزنت كثيراً، وكيف لا وأنا أجد ذات الملامح التي شاهدتها في اليوم الأول وقد عادت من جديد.

عدت إلى المنزل بعد ساعتين ونصف الساعة منهكة القوى ووعدت نفسي ألا أفعلها مرة أخرى.

**اليوم الحادي عشر:**

الساعة الثانية عشر ظهراً.

أحياناً تولد الفكرة من فراغ بمجرد النظر إلى الشيء تحلق الفكرة بشكل عفوي، ويعمل خيالك بسرعة الضوء ولم يبقَ لديك إلا الوقت للتنفيذ.

قمت على فرز بعض الأشياء المهملة، والتي كنت أجمعها في ركن معين، طبعاً هذه الأشياء لم أكن أمتلكها بالأصل بل بعضها جمعته من

مكان كنت أذهب إليه في الربيع برفقة زوجي العام الفائت، ونحن نتنقل ما بين جرش وعجلون واشتفينا، كلما شاهدت قطعة من شجرة لم أتركها وحيدة بل حملتها إلى منزلي ووضعتها في المخزن المعد لذلك، ربما في يوم ما تتخمّر فكرة في رأسي، لم يكن زوجي يعترض على أي فعل؛ لأنه متيقن أنني أستطيع أن أجعلها تحفة، وكلما فعلت ذلك كان ينتابه الفرح أنني تمكنت من إعادة الجمال للقطع المهملة.

أما وادي رم فجمعت من الحجارة ما يرضيني بأشكالها الهندسية المختلفة التي كانت تلفت انتباهي، حتى عظام الحيوانات النافقة بالصحراء كنت آتي بها دون تردد.

أحياناً أفرح وأبتسم حين ألتقط شيئاً كقطعة خشب أو كرسي أو زجاجة مكسورة من أجل إعادة تدويرها، وآن الأوان لذلك.

حالة عشق بيني وبين اللون، وكأنه حبيب أتأنق له وأتجمل حين أبدأ بممارسة العشق مع اللون، بكامل زينتي ألتقيه لأنني أعتقد أنَّ للون روحاً خاصة أمتزج بها في لحظة ما. واعتذرت من نفسي كثيراً لأنني أرفض أن أرسم هذه الوباء البشع، فرحت أرسم أعمالاً بمختلف الأحجام عن الأرض، على هيئة الجذور التي هي مقدسة لكلّ وطني حُرّ.

# مرثية الأمكنة

هاني البداينة

ليست هذه الكتابة بديلاً عن شيء، أقصد أنّها لا تُشبه التدوين ولا تنحاز أبداً للقصة أو لمبتدأ الرواية وفق شروطهما الحداثية.

إنّها تباريح الأيّام الطويلة في الأزمان التي توجّب فيها الحجر الإجباري. وهي محض أحلام سكنت الذاكرة، فأيقظتها تداعيات الجائحة العالمية من سباتها، كما لو أنها بوحُ ليلة في تموز، كما لو أنّ حروفها سنبلة قمح على سفح تلعة[1] أو تل، انتظرها منجل المُغنّي قليلاً حتى يلقي بها إشمالا[2]يليق بغمر[3]ذهبي، أو تحويشة سنابل الصيفة[4]، وهي تُزفّ إلى برّاكية[5]على بئر الحرير[6] فتخرج من هناك صبع[7]حلاوة أو صبعين...

(1) مفرد تلاع. (2)حزمة من سنابل القمح.
(3) كمية سنابل القمح المحصودة.
(4) ما يلتقطه الفتية من سنابل القمح بعد انتهاء الحصاد.
(5)بقالة صغيرة مبنية من الخشب.
(6) بئر ماء عذب في الطفيلة. (7) قطعة الحلاوة.

## السلع أول الطهر، أول الحياة

أنتهز ساعات التجوال الممنوحة فأعود للقرية، للبيت الذي كان فيه لجَدّي متكأٌ في العمارة [8]، وهي ليست من العراق في شيء، تلك بيارةٌ من برتقالٍ وليمون في الدليبة [9]، كانت سلالُ تينها تزيّن أكتافَ الورّادات [10]، من الحماطة[11] التي تسكن أعلى الساقية، كريمةً سخيّة.

أعود إليها في تلك الساعات طفلاً في منتصف المشهد، في القيظ، حين كانت الشمس ترمي مرّة واحدة ما خبأته من دفء، فنهرب إلى بيت من قصب إلى الزير [12]، وقد اكتسا بالخيش الرطب، إلى عناق المناجل[13] للسنابل نهار الحصاد، إلى لهاث نهار الورّادين على أم سراب، إلى شوقٍ لليلة صيف على سطح الدار، والصينية[14] التي

---

(8) حديقة أشجار الفاكهة والزيتون.

(9) عين ماء عذبة غزيرة.

(10) تُطلق التسمية على النساء اللاتي يردن الماء ويحملنه في أوعية حديدية على رؤوسهن.

(11) شجرة التين.

(12) وعاء الماء الفخّاري.

(13) جمع منجل وهو آلة الحصاد.

(14) من الألعاب الشعبية التي تعتمد على كشف غرض معين مخبأ في في أحد الفناجين.

يتسامر فيها المتعبون، أو شدّة [15] من لامظة [16] ناعسة تلعب الريح في فتيلتها رقصة وشحبار[17].

كلّما أوغلت في الطرقات التي يحفّها شجر العلّيق، رأيتني أختزل الحياة هناك، أتزحلق على الحماطة في المدخل الوعر المفضي إلى عين الماء، ثم أتسلقها محمّلاً بالعنب والتين والليمون، أبحث عن أعشاش الطيور، وأُخبىء أحلامي للنوم، أركل الكرة على ملعب في الجرانه[18] التي أصبحت قبوراً لوالديّ فيما بعد، فتتدحرج إلى سويلمة [19]. ليس في نيتي البحث عنها، ربما هي هناك، ربما أصبحت صحناً لمياه المطر انتظرته الشنانير [20]...

في السلع مكان هو أكثر من مسجد، إنه موضع الجباه التعبة الساجدة لربها، وفضاء الأكفّ المرفوعات للغيث، وعاء الذاكرة للمصلين وللمؤذنين، وجار العنب والتين والزيتون، مستقر صيحات النقيل وسويلمة والنقب[21]، هذا جامعٌ للخير وللذكرى العتيقة.

---

(15) الكوتشينة.

(16) الفانوس المضاء بالكاز.

(17) السناج، الغبار الأسود المتراكم جراء اشعال الفتيلة بالكاز.

(18) جمع جرن وهي البيادر.

(19) اسم مكان فيه مزارع زيتون أسفل قلعة السلع.

(20) جمع شنّار وهو طير الحجل.

(21) أسماء أمكنة في مزارع الزيتون في السلع.

حدّثني ثقات من أهل السلع، أنهم جمعوا لبنائه مالاً ( ليس فيه بيع رباً ولا مهر بغيّ)، ثم إنَّهم عبروا الأودية ومشوا في السهول، أوقدوا ناراً في ليل الشتاء الطويل، واستظلّوا من لظى الشمس أسفل الشجر وفي تجاويف الكهوف، فاحتطبوا جذوع اللزاب، ونقلوها على الأكتاف للمسجد وللمدرسة.

وكان الجامع يا ما كان، ملتقى المؤمنين الموحدين، يذكر الطيبون المرحوم الحج إبراهيم القرارعة، إمام المسجد ومؤذنه، يذكرون ويتحسّرون على أيام السلع الجميلة، على طقوس الجمعة والحج ابراهيم (يزكّر) للصلاة في وقت مبكّر، وقد أبدل الناس الذال التامة بالزين، في إقلاب لغوي لا أجد له تفسيراً.

في السلع خارطة القلب وغرفه الملأى بالحنين، فيه الجرانه ملعب الصبا، وفيها المدرسة التي حوّلتها وزارة السياحة والآثار لمركز زوار سياحي، فيه شجرة البطم التي تمارس واجب الخفير على حافة المقطع الصخري المطل على بساتين الزيتون والفاكهة.

في السلع البدّ[22]، وفي ذاكرة أهله رحلة نقله من صنفحة إلى مقره في بيت الحج حامد العمريين، وقد اقترحت على أهله، أخوال والدي، أن يعاد ترميمه ووضعه في مكان خاص في مركز الزوار ليتحدث قليلاً لهذا الجيل، عن معاني الحياة والتعب والحضارة الأولى.

---

(22) آلة حجرية لعصر الزيتون.

لا تكفيني ساعات الحركة القليلة كي أروي ظمأ شوقي، أنتظر بصبر الساعات التالية لأقرر الصعود من السلع إلى جبال الطفيلة الغربية.

تزرعني الفضاءات في المكان من جديد، كنّا فتية تسكننا عفاريت المغامرة، نذرع الجبال والأودية والتلال جيئة وذهاباً، حتى إذا وصلنا آخر فسحة يمكن أن تسير عليها بانتظام ـ كما كل الخلق ـ نرتكز لنتوزع المؤونة، من الطحين والسردين والماء، ثم نتتشي ونترك لأقدامنا والحصى، مهمة عزف التزحلق، في طريق لا أظن أن الذي اكتشف إفرست يعرفها.

من لا يعرف الجفيّات[23]؟ لا يفصلها عن موائل الوعول، سوى الصدى في وادي الجمل[24]، حيث ينضج البقل على مهل، وقد بات ليله خفيراً بين يدي القلعة، على الطريق الممتد من أم النجيل وحتى القصير، وجد الرعاة والقناصين في الجفيّات غايتهم، تنهض القلعة امامهم، وفي الأودية ترقص الشياه بُعيد الغروب يلجأون للكهوف، فتتطاول النيران.

مرّ كثيرون عليها، منهم من ألقى السلام ومضى، ومنهم من

(23) منحدر من الأرض يقابل قلعة السلع فيه مأوى الرعاة والشياه.
(24) وادٍ سحيق يجاور قلعة السلع.

استظلّ، لم يبقَ إلّا نقوش لأسمائهم، هل يذكروها الآن وقد شاب اللزاب[25] فيها.

على خطىً قبّلت الحصى في الأزمان الغابرة، مشينا، كان التراب حديثُ عهدٍ بالقمر، ترنح ضوءه البارحة على الآكام والصخور، انتظره اللزاب طويلاً ثم نام بعد أن تعب، حين أشرف علينا متأخراً، بدا متعباً كسولاً...لكنّه جميل وبعيد، لم يكن بوسعه أن يقترب، لكنه نثر ما استطاع من ضوءه ثم اتخذ من واد سالم والحمّة [26] طريقاً للهروب..

تنكّبنا بنادق الصيد وأطلقنا للتراب والصخور الأقدام، لا نضلّ الطريق أبداً، ليس نحن، وقد كنّا نهتدي برسم الراحلين الواضح، والمناطير ترسم الطريق، كثيراً مشينا، كثيراً ألقينـــا التحية على الكلتات[27]والأودية والتلال من بعيد، من أطراف طبق المنازي[28]، بدت شجرة الدوم في السدرة [29]، وحيدة تنتظر الإياب، كان خشم النخلة حارسها القديم، أما وادي الجمل فأيقونتها التي تذكرها بدرب الراحلين...

---

(25) شجر معمر دائم الخضرة.

(26) مناطق صيد غرب الطفيلة.

(27) جمع كلته، وهي التجويف الصخري المملوء بماء المطر والسيول.

(28) اسم مكان في المناطق الوعرة.

(29) اسم مكان.

إنّهُ سيل «جميلة»[30]، بكامل مياهه وبهائه، سمكه وسلطعونه وذبابه، يبدأ رحلته من التلال في السدرة، فيمرّ سريعاً وهادراً في سيق يداني في عُلوّه سيق البترا، يجلب لنا السمك والذباب والقصب، ويهبنا ماءً بارداً لذيذاً....

رأيت السيل غافياً، والشنانير تتثاءب على ضفّتيه، وبينما تنحدر الشمس على التلال لتوقظ القناصين، أتساءل عمّا أتى بي هنا، عمّا علّقني بالسيل، وبالشنانير المتثائبة، وببندقية تركية أقْطَعْتُ لها (خمس عشر) طلقة نمرة 6 لأشق لنا طريقاً قريبة من الماء، ومن التاريخ، فيمضي جلّ يومي دون الظفر بشيء.

دهشة المكان هي أجمل علامة في ضانا، لقد اختلط الجمال على الرائي في مشهد فريد ومختلف لا تسنح رؤيته ساعة المغيب دائماً، بل لا يمكن ذلك في مكان ما، دون ثمنٍ غير يسير.

في ضانا متحف مخلوق دون صنعة، ودون أن يكون مجلوباً بتطرية، ينساب الجمال من أعالي البلوط إلى بدايات الرمل الأولى قبل أن يتشكل وردياً صامتاً، حيث تركل الشمس الرمل في الصباح فتوقظه، وحيث شجر البلوط قامات باسقة، تُدني على الرمل من وارف الظلال، ثم تغفو وتنام، ذاك شأن جمال التكوين وبديعه.

وكأي عاشق، يُدني من الرمل روحه، فتختلط دموعه بحبات

(30) واد دائم الجريان في المناطق الغربية من الطفيلة.

التراب، ألتفتُ في الأرجاء، وألقي بالتحية لزملاء المساء، وقد أوقدوا على الشاي ناراً من جمر الغضا والبطم واللزاب، فتسامروا وتركوا لي مهمة الأرجحة بين الفضاءات المترامية، فأبدأ بالنشيد: يا إعيال يا مشرقين اثنين، يا إميلين المناديل، فإذا ملت نحو أفق ضانا البعيد المترامي حتى أطراف الشوبك، أنشدت قول القائل، اتمنيت واد الجيب سمن(ن) إمقشّد، وجبال ضانا العاليات خباز، ثم رجعت القهقرى والشمس تأوي في أعالي التلال للمغيب.

## مرثية الشخوص

### أبي أمّي

عادت إلى السلع أمّي وبين يديها صبر كبير، وسلة تين ذات أسلاك ملويّة كانت تملؤها من كرم (الدليبة)، الذي شهد قصة التحاقها بعرب ارحيل إبّان قنصة أبيها الشهيرة، تلك التي قُتلت فيها خطأً عمتي (زلهة)، فكانت آمنة بنت عطالله بن جديع، غرّة المدّى[31] لها.

في السلع كان البيت الذي زفّت فيه إلى مزلوه، أكبر أبناء ارحيل بن عبدالله وأحبهم اليه، وفي البيت ذاته ولدتني قبل حرب عام 1967 بأشهر ستة، فتلقت آمنة مولودها الذكر بفرحة كبيرة ممزوجة بزهو

(31) من عادات العرب تزويج أمرأة من أهل القاتل لرجل من أهل المقتول وتسمى غرة مدّى أي مقدمة الدية.

النصر، ذاك أنَّ نساء القرية كنَّ يتهمن (القرّاعيات)[32] أنهن لا ينجبن ذكوراً.

في شعفاط والنبي يعقوب من ضواحي القدس، عرفتْ أول مبادىء المدنية وعرفت طريقها نحو الحياة البعيدة عن طوابين القرية وسهول الحصاد، ولكنَّ القدر كان لها بالمرصاد، فقد عادت إلى السلع حين رحل مزلوه شهيداً عام 1971 تاركاً لها خمسة أبناء ووصية بصبر أربعة وأربعين عاماً قبل أن يلتقيا من جديد.... عادت إلى السلع، وأنا في لوعة دائمة، لا آبه بالمسرّات، فقد ودّعتها يوم نسيت اللبن وإبريق الشاي، ونادراً ما أكتفي بدمعة واحدة لحظة ارتباكي، فأنتحبُ لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم.

عادت فأطالت الغيبة، لم تأتِ بعدُ، جرّة الفخار تنتظر على الشرفة لتملأها بالماء، وعيوننا حيرى ومتعبة: عين على طريق القادمين من السلع ترقب إيابها محملة بسلة العنب والتين، وأخرى على مئذنة المسجد المقابلة ترقب حركة المؤذن لينهي بالآذان عطشنا الطويل.

الغربال وقمحها المسرّب يولولان... والجارات بانتظار هاتفها للعجين والخبز، رمضان يسأل عن القهوة والحلبة والمقطف [33]، ثمة سؤال عن الصيام والقيام، فيجيب الصدى أنَّ شهرها الآن أجمل.

---

(32) نساء عشيرة القرارعة وكانت والدتي إحدى نساء هذه العشيرة.

(33) وعاء متوسط الحجم يصنع من سنابل القمح.

في الضحى، في رأده القريب، تكف السجادة طرفها الأمامي اليمين، ثم تثني الركبتين على شماغ[34] بدأ أول هدبه[35] بالظهور، وبينما تدندن بلحن حزين قديم، تعرّج فجأة بحديث عن أبي وعن جدّي وعن لياليها الطويلة التعبة.

أما أبي، فهو ابن السلع والحصاد والبيدر، ابن المنجل والبندقية، ترك الحُداء والمواويل، وأسقى الأرض من خالص دمه، فتركني حصّاداً في تلاع الحروف، وجندياً منذوراً للوطن...

أربعة وأربعين عاماً وهو يسكن (جرن البداينة)[36]عند بوابة السلع، قدّم للوطن أغلى ما يملك، روحاً وثّابةً نحو تأصيل مبادئ الرجولة، ودماً زكياً سال على (الأقرع)[37]، وصدراً واسعاً استقبل به رصاصة الغدر، فارتفع خالداً مخلداً.

من السلع إلى القدس، من «باب القرية» إلى باب العامود، لا يفصلهما كثير مسافة، ولا كثير تعب، ما كان يفصلهما إلّا تلك الومضة الخاطفة بين الرجولة والشهادة، يرحمه الله، وقد وقف مدافعاً عن القدس وعن عمان.

ثمة وجوه كثيرة تشبه وجه أبي. وجوه طيبة تحمل ملامح الزمنِ

---

(34) منديل يرتديه الرجال على الرؤوس.

(35) الهدب هو تطريز حواف الشماغ بخيوط بيضاء سميكة.

(36) الجرن هو البيدر، وكان لكل عشيرة بيدرها.

(37) تلة تشرف على بلدة ساكب في جرش

الجميلِ، تعرفُ القسمات فيها دروب السلع والنقيل كما يعرف الدمُ أوردته، زينةُ موائدهم (البَرْوَلْ)(38) ، أمّا الفاكهة فما يجود به (العلّيق) (39) وشجر التين العتيق، الطيبون أصدقاء الطيبين، ما زالوا في طليعة النماذج التي تتحفنا بالعتيق من المروءات.

**جدتي**

لا يمكن أن أزور القرية دون أن أعرّج على زيتونة تنتصب في الفضاء شامخة. لقد علمتُ بعد عشرين حِجّةٍ، أنَّ لجدتي زيتونة ريّانة في أسفل الوادي، تشرب من أعلى الساقية في النقيل، وتسقي ـ قبل أن تشرب ـ خمس زيتونات أخريات، ذاك شأنها الذي نامت عليه في السلع بجوار أبي وأمي وجدّي، ذاك بابها الذي لا يُغلق، وهو ليس من شأن تدفّق الماء في القناة، ذاك من شأن صندوقها الغامض الذي تملؤه بالحب واللبن. كانتْ جدتي ـ يا ما كانت ـ لبؤةً في الضحى، تدحرج كومة القش في وجه الغولة، وحنونةً كاملة الحنان، وشيخة على راوية الحبوب، تلك هي جدتي لأبي، حِسِن، سلامٌ على روحها النائمة في جوار الطيبين.

الحجة لطيفة، طبيبة الأعشاب (40)

---

(38) ثمر شجر الدوم وكان الناس يطبخونه مع الماء فإذا نضج كان إداما لذيذاً.

(39) شجرة شوكية لها ثمر صير لذيذ يشبة العنّاب.

(40) عن كتاب «حديث الأمكنة» بتصرف، وهو كتاب قمتُ بإعداده وقد هدفَ تدوين الذاكرة لدى خمسة عشر معمرا في محافظة الطفيلة.

هي لطيفة بنت بخيت بن حرب البداينة، زوجة المرحوم الحاج هلال عبد القادر الصقور، والدتها تمام بنت سليمان بن حمد الصقور.

ولدت في أم القرى صنفحة، وهي القرية التي كانت عشائر الحمايدة تقطنها حتى ثلاثينات القرن الماضي، حين انتقلت هذه العشائر للإقامة في السلع والنمتة والمعطن وارويم وعرفة وعابل، قبل أن تبنى مدينة عين البيضاء التي تضم الآن في سكانها خليطاً متجانساً من قبيلة بني حميدة وغيرهم.

مارست الحاجة لطيفة طيلة حياتها، ما كانت تمارسه نساء عصرها، جمع الحطب، وقطاف الزيتون، وحصاد الحبوب، ثم جلب المياه، فضلاً عن الطبخ وحلب الماشية، وسلسلة إخراج مشتقات الحليب من الترويب وصنع الجميد والسمن، واختصت دون كثير من نساء عصرها بمهنٍ استثنائية، بالإضافة إلى الواجبات التقليدية، المداواة بالأعشاب وصنع الفخار.

لقد ورثت عن والدتها مهنة العلاج بالأعشاب، واستخدمت «الصبرة أو القدحة» في علاج أغلب الأمراض، وفي طليعتها «عرق النسا، والمملوع، والمخلوج، والمفري، وداء الشقيقة، والقذى، والكارف»، فضلاً عن تخصص كامل إن جاز التعبير في علاج النساء اللواتي يتأخر حملهن، وأمراض نسائية أخرى.

كانت نجمة مضيئة من نجوم «حديث الأمكنة»، تقطع الآن جسراً

يفضي إلى نهاية مشروعها الجميل، لتلقى ربها وهي واثقة من طهر اليدين بينما تلقي على الناس تحية الوداع، في مشهد بالغ التأثير لسيرة امرأة وطبيبة....في ذمة الله صبرها وجمال روحها، ورائحة الحلبة في طيّات عصابتها...

**الشيخ المرحوم أحمد مسعود الدبّاغ**

لا أحد في محافظة الطفيلة لا يعرف المرحوم الدباغ، لا أحد لم يسمع عبر سنيّ حياته، سيرته العطرة ونهوضه بعبء القضاء الشرعي وواجب تعليم الناس أحكام الدين.

كتب عنه عطوفة الاستاذ هزاع البراري فأبدع الوصف وأجاد، وأقتبس: «شكّلت الطفيلة خلال تاريخها الطويل، نقطة عبور واستقرار، فقد جذبت قبائل ورجالاً استعذبوا الإقامة فيها، لفرادة موقعها، وخصوبة تربتها وغناها بمصادر المياه، وهذا ما جعلها مركزاً حضارياً في فترات كثيرة، وهذا الغنى الديموغرافي عم الديار الأردنية منذ فجر الحضارة حتى اليوم، حيث يعد الشيخ الفقيه أحمد مسعود الدباغ حالة ممثلة لكل ذلك، فهو من أبرز علماء الأمة الأجلاء.

كان أحمد مسعود الدباغ المولود في المدينة المنورة عام 1882 يلقب بالشيخ السيد، وبعد عمل طويل مميز في الحجاز، تم نقله إلى مدينة الطفيلة بناءً على طلبه، وفيها أصبح معلماً في مدرسة الطفيلة للبنين،

وكان يدرس فيها مادتي اللغة العربية والتربية الإسلامية، وقد تخرج على يديه عدد من كبار رجالات الطفيلة، الذين لعبوا دوراً وطنياً بارزاً.

تميز الشيخ أحمد الدباغ خلال عمله في التدريس، بأسلوب يعتمد التشويق والإثارة، فهو لا يؤمن بالعقاب القاسي، لكنه عرف بصرامته في الصوت والملامح، مخفياً رقة القلب التي اتصف بها، فقد كان محبوباً من طلبته، ومهاباً ومقدراً من الجميع، حيث واصل عمله مدرساً في مدرسة الطفيلة، حتى أحيل على التقاعد في عام 1945، بعد خدمة طويلة تميزت بالجدية والإخلاص والاجتهاد، لقد تحول مع الأيام إلى مكوّن أساسي في الحياة التربوية والدينية في مدينة الطفيلة، وكان يقصده الطلبة والأهالي في أي وقت من الأوقات، حيث حظي بمكانة اجتماعية كبيرة بين الأهالي.

لم يركن الشيخ أحمد مسعود الدباغ للراحة والدعة، فقد كان محباً للعمل، راغباً في مساعدة الناس، في التربية والتوعية، وتبصير الناس بأمور دينهم، ونظراً لما حصّله من علوم وخبرات، وما تميز به من ذكاء وفطنه وتوخي العدل، فقد وجه شيوخ ووجهاء ومخاتير الطفيلة رسالة إلى جلالة الملك عبد الله الأول ابن الحسين عام 1946، يطلبون فيه تعيين الشيخ الدباغ قاضياً للقضاة، كون الطفيلة تحتاج إلى من ينهض بهذه المسؤولية، أسوة بباقي مدن المملكة، فاستجاب جلالة الملك لمطلبهم، وهو الذي يعرف تماماً قدرات الشيخ في مجال القضاء

الشرعي، فعينه قاضياً للقضاة في الطفيلة، وقد أظهر عمله الجديد في القضاء نجاعة ما ذهبوا إليه، فاكتسب مزيداً من الاحترام والتقدير، حيث قُوبلت أحكامه الشرعية بالثقة والارتياح.

سعى الشيخ الدباغ للمساهمة في مساعدة المجتمع الريفي، الذي يعاني من تفشي الأمية وهيمنة الأعراف المتداولة، ليتحول ولو بطيئاً إلى مجتمع مدني، من خلال عمله على تأسيس «نادي الفضائل» بمساعدة من أبناء الطفيلة المتنورين، حيث لعب هذا النادي دوراً مؤثراً في التوعية والتثقيف من خلال أنشطته المختلفة، وقد اختير الدباغ رئيساً للنادي بالتزكية، وخلال رئاسته للنادي عمل على استقطاب عددٍ من أصحاب الفكر من أبناء المدينة، وكان ينظّم الجلسات الحوارية في مختلف المجالات: الدينية والثقافية والفكرية، وكل ما يهمّ الناس خاصة الشباب. ومن الأنشطة الفريدة التي كان يقوم بها، زيارته الأسبوعية للسجناء، يلتقي بهم يعظهم ويرشدهم إلى سبل الصلاح، وكيفية عودتهم إلى الطريق السليم. كان بيته في الطفيلة القريب من مسجده، بمثابة صالون يلتقي فيه الأهالي، من أجل فهم كثير من المشاكل والقضايا التي تواجههم، وكان يفسر ويشرح، ويقدم الحلول والمشورة، ولم يكتفِ بذلك، بل كان يقوم برحلات كل فترة إلى الفلاحين في القرى البعيدة، مشياً على الأقدام أو على دابة برفقة أحد الأصدقاء، ليقوم بدوره الذي اختطه لنفسه، فيرشدهم ويعظهم

ويجيب على أسئلتهم، ولم يكن يبخل عليهم بشيء من المعرفة، وعُرف عنه عمله على تغيير أسماء رجال غير متفائلة، ويستبدل بها أسماء ذات فأل طيب، وعندما يتأخر المطر، كان يتقدم الجموع بوجود الأطفال والماشية في صلاة الاستسقاء، وغالباً يستجاب لصلاتهم ودعواتهم. ويبدو أنه احتفظ بطريقته الصوفية، التي ورثها عن والده القادم من المغرب، وكان له مريدوه من مناطق الأردن كافة. كان للشيخ أحمد الدباغ علاقة حسنة بسمو الأمير الحسن بن طلال، وقد ترك مكتبة خاصة تضم كتباً قيمة، تم التبرع بها لمكتبة الجامعة الأردنية، وقد قرر تأليف كتاب موسع عن الأحاديث النبوية الشريفة، لكنَّ تعدد المهام والأنشطة التي يقوم بها، حالت دون تمكّنه من تنفيذ مشروعه. وتزوج الدباغ ثلاث نساء، الأولى توفيت قبل وصوله الطفيلة، أما الثانية فقد كانت من جزيرة جاوا، وقد توفيت في الطفيلة ودفنت فيها، أما الثالثة فمن الطفيلة وقد أنجبت له خمسة أولاد وثلاث بنات. عرف عنه حبه العميق للطفيلة، التي يعدها أرضاً مقدسة محاطة بمقامات عدد من الصحابة الأجلاء احتراماً له، ولارتباط نسبه بالسادة الأشراف، فقد انتشر كثير من الأشراف في الديار» [41].

فضلاً عن هذه الإحاطة الكاملة بسيرة حياة الشيخ الجليل، فقد

---

(41) الشيخ أحمد الدباغ: الشيخ الجليل والتربوي الفقيه ـ صحيفة الرأي الاستاذ هزاع البراري. http: //alrai.com /article /10293.html

أشار عددُ من شخوص كتاب «حديث الأمكنة» إلى كرامات للشيخ، وقد قال المرحوم محمد علي الرعود، إنَّ الشيخ أمّ لصلاة المغرب ذات موسم جدب، فاسستسقى ربه في الركعة الأولى، ولم يكن في السماء غيمة واحدة، فما انتهت الصلاة حتى كان الناس يستغيثون من السيول والأمطار، فيما حدثني المرحوم الحاج محمود الداودية أنَّ المرحوم الدباغ كان يمشي أمام سيارة حجاج بيت الله دليلاً للطريق مهتدياً بالنجم.

**الخاتمة**

تتداخل المشاعر عندما أشرع للكتابة أبوابها، هذا من شأن ازدحام الفكرة والحب والحنين لكلّ شيء جميل في هذه الحياة، كتبت عن أيقونات في حياتي الثقافية، ولم أسهب في الوصف ولا في لغة المشاعر، فهم يستحقون أكثر مما كتبت أو كتب غيري، إنَّ مجموعهم يشكّل ذاكرة الزمان والمكان، إنَّ نظرة واحدة منصفة لكل إبداعهم في فنون الحياة، تُنبي عن فرسان خاضوا غمار الحياة، ركبوا الصعب منها كي تلين قناة التلال والأودية والسهول، في زرعهم وبيوتهم وماشيتهم، في طرائق الطهي وفي استعمال البيئة أصدقاء لها لا أعداء، في بركات البيادر، وفي أحمال البهائم وهي تمشي الهوينى في الأودية والسهول.

شكراً لوزارة الثقافة أيمّا شكر، وقد أشرعت بالتعاون مع مؤسسة

ولي العهد، باباً واسعاً للحنين ونوافذ لاستحضار التاريخ. ولا عجب أن تبتدر هذا النشاط، فوزيرها قامة ثقافية باسقة مذ كان في جامعة الحسين، ومذ كان عميداً لمعهد الإعلام، أمّا أمينها العام، فقامة أخرى من كتّاب الذاكرة ووصف الروّاد وامتهان تعزيز حضور الثقافة، وتكريس هويتها الوطنية وتفعيل وسائلها في التنمية الشاملة، ودور الوطني، الوزارة الوطني المبين، يساهم في ترسيخ قواعد الثقافة، ويطلق إنجاز المهمة التي لخصتها الوزارة بأنها «النهوض بالفعل الثقافي الأردني، وإطلاقه في فضاء إبداعي حرّ وبناء قدرات المجتمعات المحلية لإدارة الفعـل الثقافي وتوظيفه للتأثير على نوعية حياة الإنسان، واحترام التنوع الثقافي وتجسيـد قيم الحوار وتقدير الآخر».

وإنني إذ أتقدم بجهد المقل إلى «جائزة التوثيق الإبداعي في زمن كورونا، كل مُرّ سيمرّ»، فإنني واثق من أن كل مرّ سيمرّ، على هذا الوطن الذي درأنا عنه العاديات، بالكلمة والموقف، وبدماء الشهداء الذين قالوا للدنيا كلها، لن يعبروا.

## «حظر»

جولفدان العباسي

وصلت إلى المنزل مرهقة مليئة بالإجهاد بعد يوم عمل طويل الأمد! خلعت عني كل ما حملت من أفكار سلبية وجهد، ووضعت أكياس الخضراوات في أرضية المطبخ، ألقيت القفازات في سلة المهملات، استبدلت بملابسي ملابس أكثر منها راحة بعد أن عقمت ما ظهر من جسدي، وما وصلت له يدي! وجلست في الصالة أنتظر أمي أن تفرغ من صلاتها حتى ألقي عليها تحية المساء كما اعتدت... ولكن! هذه المرة كانت مختلفة.. فبالتزامن مع إنهاء أمي لصلاتها، تجمهر إخوتي كلٌ يحمل هاتفه وعلى وجهه علامات متباينة، بين قلق واستغراب والبعض «بهجة وحماس»... «اعلنوا حظر تجول»... ترافق صوت اخوتي مع صوت مذيع التلفاز وضجيج الناس في الشارع؛ ليرسموا معاً مشهداً مسرحياً تراجيديا يؤلم القلوب!

في قلبي هبط شيء من الذعر للحظة... حظر تجول! أين نحن من

هكذا وضع، فلم نشهده، ولم نعرف مذاقه ولم نتخيل أن يمرّ علينا يومٌ نجبر فيه على البقاء في منازلنا، وألّا نعرف إلى متى، وما هي العقبات! لم أقبّل جبين أمي في ذاك المساء، واكتفيت بالنظر إلى قسمات وجهها التي تضررت بسماع هذا الخبر، أمي ذات الوجه السمح دائم الابتسامة، تكدرت!

حاملة كل مخاوف قلبي اتجهت إلى أخي الاكبر، لنضع سوياً خطة عقلانية بعيدة عن العواطف لما يلزمنا في الأيام القادمة من بقايا راتب شهر سلف، بعض المواد المعقمة، الأدوية الأساسية، الأطعمة ذات الصلاحية الطويلة، والتي تقيت الجميع ويرغبها المعظم! وابتدأنا بعجالة في تنفيذ الخطة ليستلم هو مهمة الشراء، أما أنا فاستلمت مهمة التعقيم، أما أخي الأصغر فشاركنا بمهمة إرضاء الرغبات الثانوية لمن طلبها من بقية العائلة!

كانت أفكاري ممزوجة بالتوتر، ويزداد توترها كلما رأيت تسارع خطوات سكان الحي وهم يكدسون أيديهم وصناديق سياراتهم بالأطعمة، متجهين إلى بيوتهم التي بدت وكأن المسيرة إليها أميالٌ وليست أمتاراً. كان قلقي يتزايد كلما تعالت أصوات أبواق السيارات متسابقة للوصول إلى وجهتها قبل أن تحجز في مكانها، وتحول الحدود الوهمية من وصولهم إلى منازلهم سالمين، لكما رأيت أمّا تشدّ طفلها

من بوابة المنزل إلى الداخل كيلا يصاب بأذى، ونظرات الرعب تملأ عيونهم والخوف والتوتر يملأهم، ويملأ الجو، كانت أوصادي ترتعد. كان الجو شاحباً، والبرد يلفّ المكان، أما الغمة، فقد كانت كغيمة رمادية، أقبلت لتعلن عن هطول غزير يشي بالموت المحتم!

**وكان الحظر!**

لم أعهد نفسي جبانة، ولكني شهدت جبني لأسبوعين منذ إعلان الحظر، توقفت عن ملامسة أي شيء في المنزل دون أن أغسل يدي لدقيقة أو اثنتين، وقسماً بأن المدة كانت تتزايد مع كل خبر كنت أسمعه في التلفاز أو أقرأه على وسائل التواصل الاجتماعي! كنت أغلق فمي إذا ما ساعدت في تحضير الطعام مرتدية مع كل مرة قفازات جديدة، والتي لم تكن عادة جديدة لفتاة درست عن البكتيريا والفيروسات، ما درست أثناء الجامعة وتعرف حق المعرفة مواطن انتقال العدوى وانتشار المرض، حتى وإنَّ اسمي كانت نرافقه «الآنسة هايجين» لسنوات من عمري، إلا أن هذه المرة كانت محفوفة بالخوف والقلق أكثر من أي وقت مضى. كنت حريصة لدرجة أني كنت أقطع نفسي عند مرور أحد إخوتي من قربي، أجلس مبتعدة عن الجميع، أعقّم كلَّ ما ألمس من قبل وبعد ملامستي له، أتنازل عن مشاركة الطعام مع أي أحد، وأفضّل أكل أي شيء وحيدة كمن اعتزل الدنيا لفقدان حبيب

أو غالٍ، كل ذلك خوفاً من أن أكون قد التقطت أي عدوى في آخر الأيام، قبيل إأعلان حظر التجول، وأن أُصيبَ بها أهل بيتي.

الخوف في بعض اللحظات، نعمة! كمثل طفل يخاف أن يمسك إبريق الشاي بعد أن حرق اصبعه يوماً ما، والحرص نعمة أخرى، فهو يقينا التعرض لمواقف بشعة، وسمة الاهتمام بالآخرين وإأيثارهم عن الذات نعمة ثالثة، لا يعرف معناها إلا من ذاق أثرها على غيره؛ إلا أن النعم تلك قد تنقلب إلى نقمة إذا ما تركنا لها الحق بأن تأكل دواخلنا وتنهانا عن حب ذواتنا وحياتها، ولربما تكون السبب في إبعادنا عن مسارنا الذي نتمناه لأنفسنا وننغرس في أماكننا بلا تقدم ولا تطور!

ومن هنا كانت البداية، كنت بحاجة ماسة لأن أفكّر في شيء يخرجني من حالة الخوف تلك، والعودة للحياة الطبيعية بالرغم من الظروف الاستثنائية التي لم يعشها أيُّ أحدٍ من جيلنا. لذا قررت بيني وبين ذاتي أن أحيل بيني وبين كل سبب يجلب لي الخوف، التوتر أو القلق! أغلقت كل صفحات الإنترنت التي تعلن عن تطورات المرض وتقدمه في الدول المجاورة، وفي بلدنا قبل الجميع، حظرت استقبال الرسائل البريدية من مؤسسات الصحة العالمية، وكل ما يصلني، دون أن أسعى له أو أبحث عنه، ملقية حملي على قناعتي الداخلية بأني أقوم

بما يتوجب عليَّ فعله وأن قطاع الصحة لدينا يقوم بكل ما أوتي من قوة بعمله في الميدان، أجلس في المنزل، أتبع إجراءات السلامة المتوجبة عليَّ، أقوم بعملي كالمعتاد، أستفيد من وقت المساء مع أسرتي، وأقلب شاشة التلفاز عن كل مثير لرعب وخوف، وأبقي فقط على مصدرٍ واحدٍ كنت وما زلت أراه الأكثر مصداقية وشفافية، أسعى لحفظ طاقتي لما هو أفضل لي ولعائلتي، وأقوم بأنشطتي المعتادة من داخل جدران منزلي كما أنَّ شيئاً لم يكن.

**كذبة نيسان!**

**عمّان ـ 1 نيسان 2020**

كم تمنيت لو أن اليوم هو اليوم الذي يخرج أحدهم للعالم ويخبرنا أنَّ الفايروس ما هو إلا كذبة! كذبة بشعة! إلا أنها كذبة بالنهاية! وأن الفايروس سوف يختفي بغضون أيام، وأنه أضعف مما كنا نتوقع، وأن من روّج له في البداية كان مختلاً أو محباً للنفوذ والسلطة، والتحكم بأرواح الناس!

كنت أتمنى أن تكون التحليلات التي بتنا نسمعها من كل فوه صادقة، وأنَّ كل مصدّقي نظرية المؤامرة لم يكونوا على خطأ، وأن من أخبرنا بأن العاشر من نيسان القادم سيكون اليوم الأخير لزوال هذه اللعبة القبيحة هو صادق.

إلا أنَّ كذبة نيسان لم تأتِ في هذا العام، وحس الدعابة وفرض النكات في هكذا يوم لم يكن موجوداً مع تمديد الحظر لأيام قادمة، وأنَّ محاولات الاعتقاد أنَّ الحياة ستعود لطبيعتها خلال أيام قصيرة باتت محض أمنيات، وأنَّ الأكثر واقعية هو أننا سنلازم منازلنا لمدة تفوق توقعاتنا، وأنَّه قد حان الوقت للتعامل مع الأمر الواقع بحنكة وصبر وطولة بال.

عقدنا الأمر واخترنا أنا وإخوتي مجتمعين أن نجلس في الصالة، المكان الذي قلما جلسنا فيه سوية لكثرة مشاغلنا واختلاف أذواقنا بصورة جذرية، فلا أذكر مرة أن اجتمعنا على فيلم واحد يرغب الجميع في متابعته، وندرت المرات التي توافقت أوقات فراغنا مع بعضنا، إلا أنَّ هذه المرة ـ مجبرين ـ جلسنا في ذات الغرفة، توزعنا على الكنب، والبعض على الأرض، وأعدنا من ذكريات الطفولة بضع ألعاب ورقية، بدأنا أنا وأختي الكبرى والصغرى بلعبة «حيوان ـ جماد»، وبدأنا باختيار الأحرف بالتوالي، تعسرت بضع الكلمات معنا وتفاجأنا من سرعة أحدنا في جولات معينة وهمس أخي الأصغر بضع همسات في أذن أختي الكبرى ليساعدها على الفوز، أما أمي فقد كانت كما كنا في الطفولة: الحَكم!

أنهينا اللعبة الأولى، واخترنا اللعبة الثانية لتكون «حاكم جلاد»، إلا أنَّ اللعبة كانت في هذه المرة مختلفة! فقد أرسل أخي الأصغر للجميع

باستثناء أختي الصغرى رسائل على هواتفنا تفيد أن الأوراق جميعها متشابهة، وكل ما عليها هو لص! وهدفه كان أن يحكم عليها في كل مرة شيئاً جديداً، كنا نلعب اللعبة بضحك هستيري لم نشهده منذ سنوات، وأدخلت البهجة إلى قلوبنا وازدادت الضحكات شدة حين استطاعت اختي ومن المرة الثانية أن تكتشف اللعبة! لتكون الأكثر ذكاءً منا جميعاً.

مرت بضع أيام واخترنا أن نجرب حظنا مع الورق «الشدة»، والتي لم تكن لعبتنا المفضلة أبداً إلا أنها الوحيدة المتاحة في المنزل، والتي أتت لي كهدية تذكارية من إحدى صديقاتي من لبنان، وبدأنا فعلاً أنا وأختي الصغرى اللعب لتكون هي معلمتي عديمة الصبر، كما كنت أنا في معظم أنشطتنا المشتركة. إلا أنني كنت لا أزال أنتظر فتح المتاجر لأشتري لعبة «أونو» أو «السلم والثعبان»؛ لأحيي من طفولتي ما استطعت، وأستجمع اللحظات مع إخوتي التي أبعدتنا عن دفئها مشاغلنا اليومية، واختلاف وجهات النظر التي كثر ما أسفرت عن شجارات كسرت ألفة المنزل ودفء العائلة، والتي ربما كان الحظر العلاج اللازم لمراجعة أنفسنا والاستناد على بعضنا أكثر، والوقوف سوياً كما كنا دوماً في الشدائد رغم الاختلافات الكثيرة.

وهناك، وفي تلك اللحظة ـ حين اجتمعنا ـ حيث البعض يلعب، والآخر يراقب، وثالث يصور فيديو قصير بتعليقات كوميدية عن احتدام المنافسة، ورابع يغفو على طرف كنبة بعد يوم منهك! تمنيت ألّا

نفيق من تلك اللحظة، أو أن نعود أطفالاً يضمّنا بيت صغير، ونقتات بكوب شايٍ دافئ مع كسرة خبز؛ ليكون قوتنا الحقيقي محبتنا لبعضنا، التي اكتشفت اليوم أنها لم تغادر قلوبنا أبداً.

**من نافذة الصالة!**

**عمان ـ 15 نيسان 2020**

كانت نافذة الصالة متنفسي الوحيد كوني أعمل من المنزل، فرفاهية الجلوس في السرير لساعات طويلة أو اللعب على الهاتف أو متابعة التلفاز لساعاتٍ طوال لم تكن متاحة لي، إلا أن النافذة التي تقبع وراء ظهري كانت تتيح لي النظر إلى تمرد القطط على قرار حظر التجول، وتمرد الأطفال لأوامر ذويهم بالاستقرار في إطار المنزل، وما أتيح له من حديقة صغيرة كانت، أو شرفة ضيقة تعجّ بخردوات المنزل أو قطع الغسيل المتدلية.

كانت نافذتي بالطبع مَنْفَذي لمراقبة مُلقي القمامة المتسارعين منهم والمتباطئين، أولئك الذين يقتنصون بين دقائق الإلقاء فرصة إلقاء التحية على جار من بعيد، محاولين بذلك إدخال قصص مغايرة عما يسمعوه داخل بيتهم، والتي ملّوا منها مع تزايد ساعات المكوث

سوياً، مجبرين على الالتزام بالصبر على نكات سخيفة لأحدهم، هوس ووسواس ثانيهم، أو لامبالاة ثالثهم!

كانت نافذة الصالة وتزامناً مع أوائل أيام فك الحظر الكلي وإعلان تدرج ساعات الخروج من المنزل في حظر أُسميَ «حظر تجول جزئي»، مكاناً لمراقبة خروج بعض الرجال والنسوة في تمام الساعة العاشرة صباحاً؛ ليسعوا لمحلات البيع المنتشرة في الحي، ولحسن الحظ، أو سوءه ـ كان السوق يبعد عن منزلنا بضعة عشرات الأمتار، والشارع الموازي تماماً لنافذة الصالة هو المخرج من بين البنايات لأكثر الأماكن زيارة من قبل الجميع بلا استثناء، ألا وهو المخبز وبجواره تماماً يقبع محل الألبان والأجبان! لتكون نافذتي موقعاً إستراتيجياً يحسدني عليه من كانت نافذته تطلّ على حائط الجيران وشبابيكه المشرعة، والتي تجبره ليل نهار على إسدال الستارة احتراماً لحرمة الجيرة وخصوصيتهاـ!

أما الأهم بين هذا وذاك، كانت النافذة تطلّ على أبي محمد! الجار وربما لم يكن جاراً حتى! الذي لم أره مسبقا ولم ألحظ وجوده، يبيع من باب سيارته المصطفة أمام أحد المنازل بعض الحاجيات! لا أعرف من أين أتى بها، إلا أنه كان قد قرّر أن يكون شباك سيارته الصغير متنفساً لبعض المارة والأخص المدخنين! والحق يقال! فإن أبا محمداً هذا كان

من أهم من طبق التباعد الاجتماعي والتعقيم اليدوي قبل وبعد كل عملية شراء.

كان وجود أبي محمد في الحي فكاهياً بعض الشيء، يلقي على المشترين قوانينه المستوحاة من قواعد التبادل الاجتماعي، مهدداً كل من سولت له نفسه أن يتعدى على قوانينه بالتوقف عن البيع أو المغادرة بلا عودة! الكل يترجى أبا محمد بالتجاوز عن هفوات هذا وذاك، وأبو محمد يعيش دوره في الدلال اللامتناهي مستفيداً من ندرة سلعته وقرب مكانه من متناول أيديهم.

تكرر وجوده بضعة أيام، وأصبح أبو محمد مصدر متعة للجميع ممن في المنزل، وأكثرهم أختي الكبرى التي كانت تجلس لمراقبته من نافذة غرفتها تارة، ومن نافذة الصالة تارة أخرى، وتعيد حياكة قصصه التي غفلتُ عنها أثناء عملي أو لنهوضي لمساعدة والدتي في عمل ما بين أعمالها المتراكمة! لتتراجع أهمية أخباره بعض الشيء، والتي تزامنت مع اختفائه بشكل مفاجئ بين سويعات مساء أحد أيام الأسبوع، تزامناً مع مرور دورية شرطة من المنطقة!

شهدت من نافذتي أحداثاً كثيرة عبّرت بنظري عن الكثير من الصفات الإأنسانية المتفاوتة، كهذا الذي يمرّ بسيارته مسرعاً من

طريق لا تتجاوز فيه السرعة عن صفر لاكتظاظه، أو ذاك الذي يلملم فتات الخبز عن الطريق كيلا تدوسه الأقدام، كالنسوة التي تحمل أكياساً تكاد تقطع أيديها الهشة وزناً، وكثرة أو كالرجال المتعطلين عن العمل الذين ترتفع أصواتهم شكوى لبعضهم عن ضيق الحال. كتلك الفتاة التي وجدت مخرجاً من المنزل لتضع عليها زينتها وتخرج من إطار المنزل لتشتري من أقرب دكان بعض الحاجيات التي تتسلّى بها، وتضيع وقتاً كادت أن تعدّ ثوانيه بعد أن كانت ساعات يومها تضيع في الثرثرة مع صديقاتها في مقهى كان أو مطعم. كذاك الذي يبحث بين ضجيج أطفاله على مكان ليعمل مقابلة عمل أو اجتماع ليخرج على شرفة المنزل ويأخذ قرارات ربما تكون مصيرية في ظروف أقعدته عن أن يكون على رأس عمله وبين فريقه، كمثلي ومثل أخي ممن نعمل بين ضجيج المكالمات الهاتفية، بائعي الخضار والفاكهة وموسيقى بائعي الغاز ـ التي باتت أشهر موسيقى في عمان ـ وبين رغبتنا الجامحة أن نتوقف قليلاً عن العمل حتى نأخذ نفساً عميقاً يساعدنا على شحن طاقاتنا ليوم آخر.

ومع قرب حلول رمضان، شهدت من نافذتي تكبيرات الجيران من النوافذ والشبابيك، شهدت الأضواء وهي تزين الأبواب والشرفات، شهدت الفرحة برمضان على وجوه لم ألمحها، ولكني لمحتها من بهجة

الأضواء والأهلّة وهي تزين حبيبتي عمان، كما فعلت دوماً وعادت لتفعل اليوم كاسرة كل خوف كان أو مرض، معلنة أنَّ الحياة ستعود إلى مجراها غداً قريباً كان أم بعيداً!

## تسوّق في زمن كورونا!

**عمّان ـ 22 نيسان 2020**

في صباح يوم أحد، قررت أخذ يوم إجازة من عملي، كان يومها قد مرّ على آخر مرة داست قدمي بها الشارع خمسة وثلاثين يوماً، ارتديت قفازاتي، وضعت الكمامة على فمي، تركت هاتفي في المنزل وأخذت معي بعض النقود الورقية التي سبق أن مسحتها بمعقم كحولي، وهو الشيء الذي لم يكن غريباً على فتاة ترى أمها تفعل ذلك على مدى 30 عاماً، ناهيك عن غسل القطع المعدنية بالماء والصابون أو الخل، آملة أن يكون التماس بيني وبين كل ما حولي على أقل درجة ممكنة! وهكذا فعلت أمي.

نزلنا إلى الشارع، وكانت مشاعرنا معجونة بين الخوف من انتقال العدوى، الشوق لرؤية ما وراء جدران المنزل، الحماس لخوض مغامرة الخروج من الحظر بعد تلك المدة الطويلة، الخجل من شكل الكمامة على فمي وأنفي، والكثير من المشاعر المتداخلة! إلا أنَّ الشعور الذي

طغى علينا حين وصلنا إلى السوق والذي يبعد عن منزلنا بضع عشرات الأمتار، هو الاستهجان! الاستهجان من التصرفات اللامبالية لمعظم من في السوق من مارة! التخبط والتقارب اللامبرر بين المشاة، الأمهات التي خرجت مع أطفالها غير مبالية بجهالة الطفولة وتعديها على المحظورات، من لمس هذا أو ذاك، الرجال المتجمهرون ككتل بشرية صغيرة وقفوا لتبادل أخبار مغامراتهم وتحليلاتهم السياسية والاقتصادية، لا وبل الطبية أيضاً لوضع العالم ككل والأردن بشكل خاص!

بكل مشاعرنا المتضاربة، أسرعنا في مشيتنا أنا وأمي، مررنا من أمام بضع محال كنا قد وضعناها ضمن خطتنا للمشتريات، وتنازلنا عن معظم قائمتنا لاكتظاظ الشوارع، وعدنا أدراجنا كما يقال بخفي حنين.

قبيل وصولنا إلى لمنزل استوقفتنا إحدى الجارات، سيدة لطيفة تَودُّ أمي وتدعو لها بالخير دوماً، أمٌّ لأول الأطفال الذين استقبلونا بحفاوة في منزلنا هذا قبل ما يقارب ست سنوات. ألقت علينا التحية، سألت عن أمي وعن صحتها وعمّا فعلت بنا الأيام، حيث لم نصادفها منذ مدة، تمنت زيارتها لشرب كوب قهوة لولا ما يحيلنا جميعاً من هكذا زيارات، ومضى كلٌّ منا بحاله وإلى وجهته مع دعوات الصحة ترافقنا جميعاً من كلا الطرفين.

قررت وأمي أن نطلب حاجاتنا عبر تطبيق إلكتروني، كما اعتدنا في الأربعين يوماً الأولى، ذلك الشراء الوهمي ذو النكهة الخاصة والمليء بالمغامرات! فقد اعتدنا على شراء الأطعمة، الألبسة أو الكتب أو بأقصى الأحوال بعض الكهربائيات البسيطة عن طريق المتاجر الإلكترونية! أما شراء حاجيات المنزل، فهي وبشكل بحت من الأشياء التي يتوجب علينا رؤيتها بأعيننا، وتفقد تاريخ الصلاحية وطريقة التغليف والنظر في البدائل، إلى أن نصل إلى طلبنا وما يناسب مواردنا! إلا أنه وفي فترة الحظر، كان التسوق عن طريق الإنترنت هو الحل الأوسط الذي يكفينا شر التزاحم، ويترك لكل بائع المجال لفرض قوانينه والالتزام بها بما يرضي ضميره وما تفرضه عليه الدولة!

أذكر في أول مرة قررت فيها شراء بعض الحاجات للمنزل ومتطلبات أخواتي للتسلية، أني بدأت عملية الطلب في حدود الساعة الثانية ظهراً؛ لأمرّ على معظم من في البيت وأريهم محتويات المتجر من مواد، وأسألهم عن متطلباتهم، وأقوم في كل مرة بإعادة الكرة مع كل راغب في شراء شيء ما؛ لأنهي الطلب بعد ما يقارب الساعة! ليكون الجواب على طلب الشراء من المتجر أن رُدَّ إليَّ بسبب التأخر في إرسال الطلب وازدحام الطلبات في ذلك اليوم، واقتراب ساعة فرض حظر التجول مجدداً! لقد كان الشعور بالخيبة هو كل ما ملأنا في تلك اللحظة.

أما عن المرة الثانية، فأذكر تماماً أني عبأت طلب المشتريات في تمام الساعة العاشرة صباحاً، وخزّنته لأرسل الطلب في تمام العاشرة والنصف حين يعلن التطبيق الإلكتروني عن بدء المتجر باستقبال الطلبات! وكم كانت فرحتي غامرة حين أُرسلت إلي رسالة المتجر بأن طلبي قد تم إرساله بنجاح لتعود الخيبة لزيارتي بعد أن ألغي الطلب لخلل ما لم أفهمه، وأنّ كل ما أخبرتني به موظفة خدمة العملاء أن طلبي قد ألغي وأنه يتوجب علي التجربة لاحقاً!

عاودت الكرة مرات عدة حتى نجحت أخيراً في معرفة المتجر الأفضل من ناحية تعدد المواد والوقت الأنسب للطلب وحتى التطبيق الأكثر مصداقية من ناحية تتبع الطلب وخدمة العملاء!

كانت وما زالت تجربة التسوق الإلكتروني محط تجربة بالنسبة لي، ولمعظم من أعرف، وفكرة نحتاج لأن نعتاد عليها أكثر، كأشخاص اعتادوا شراء حاجياتهم بيديهم، لا بل كان التسوق وما يزال هو المتنفس الأكثر رواجاً لأناس اكتظت أيامهم بالعمل وقلة الموارد، وقلة المساحات المتاحة للتنزه وغيره من الأنشطة الخارجية، فإننا بحاجة لأن نعتاد ولو لمدة من الزمن على أن نحصل على احتياجاتنا من أيدٍ غير أيدينا.

**رمضان بلا «مفرقعات»**

**عمّان ـ 29 نيسان 2020**

لم أتوقع يوماً أنَّ ضجيج أول رمضان سوف ينقلب لصمت مدقع، وأنّ المسحِّر الذي أحببت صوته في طفولتي وانتظرت اكتشاف شكله في مراهقتي، وانزعجت من قدومه تزامناً مع وقت نومنا في شبابي، لن يأتي ويضرب الطبول في منتصف ليلة اكتظت شوارعها بالأطفال والرجال والنسوة.

لم أتخيل ألّا يصطف الأطفال أمام دكان الحي ليشتروا مأكولاتهم ذات القيمة الغذائية الزائفة وقيمتها المعنوية الغنية، بانتظار قرب انتهاء صوم «العصفورة» ليأكلوها مستمتعين بإنجازهم العظيم بصيام يوم أو بعض يوم، وألّا يخرج إخوتي إلا لصلاة الجمعة في الجامع القريب من المنزل مرتدياً أحدهم جلابية بيضاء يمازحه الآخر على شكلها عليه لطوله وقصرها، وألّا أكون قد اشتريت أنا وأمي حاجات رمضان وأنهكنا في صباح أول يوم في ترتيبها في خزائن المطبخ ونحن نعيد ذكر المشتريات الفائض منها والناقص، ونستذكر مع بعضنا ما يلزمني شراؤه قبل المساء، وقبل ازدحام الشوارع في السيارات المجهولة التي يقودها صبية لم تخطّ شواربهم وجوههم بعد!

إلا أن رمضان هذا قد جاء ليفوق كل التوقعات، جاء صامتاً، ذا بهجة باهتة، ألوانه رمادية وأنواره تتلألأ في المساء دون ضجيج يصمّ

الآذان وفرحة تغني القلب! جاء لنا بشكل مبهم فلم نعرفه ولم يعرفنا.

لطالما انزعجت من ألعاب الأطفال وأصواتهم المتعالية بلا معنى في أمسيات رمضان، وأصوات المفرقعات الليلية التي كانت تخيف السيارات المصطفة في أماكنها، لتجدها تستغيث مطلقة أبواقها من كلّ حدب وصوب، أو تلك التي تدوي قرب شباك غرفة يرقد فيها طفل صغير أو رجل نائم، فتلاحق مُصدرها أصوات امرأة تدعوه بالذهاب من أمام المنزل، مهددة إياه بالاتصال بالشرطة! أما اليوم! فإنّي أشتاق لتلك الأصوات بشدة، أشتاق لضجيج الحي في اليوم الأول من رمضان ولمساء الرمضان المليء بالحياة!

**إلى خط الصفر.. مجدداً!**

**عمّان ـ 8 أيار 2020**

ثمانية أيام متتالية والفرحة تدخل قلوبنا من كل حدب وصوب، ثمانية أيام والسعادة تغمرنا كأطفال بعمر السادسة، يحصون عدد النجوم المتجمعة في دفاترهم والدكتور سعد جابر كمعلم يقف مصفقاً لنا ويشكرنا على جهدنا وصبرنا مفتخراً بنا وبإنجازنا.. كان يقف شامخاً فخوراً بذاته وبفريقه وبنا.. لم يحتج للكثير من الكلمات في أي يوم من تلك الأيام الثمانية، كان يكفيه أن يبدأ كلامه بالحمد لتطمئن القلوب وتبدأ أرواحنا بالرفرفة والعودة لسعادة الطفولة من جديد.

في الأيام الثمانية تلك، تراودت الشكوك لي في الأيام الأولى قائلة: لربما كنا محظوظين اليوم! وبعدها: الحمد لله.. الحمد لله، وفي رابعها وخامسها: حمانا الله من الحسد! وسابعها: ها قد بدأ العد التنازلي، أما في ثامِنها فقد بدأت الكثير من المخاوف في داخلي بالتلاشي والفرحة بأن أخرج إلى الشارع يدي بيد أمي بعد أكثر من 50 يوماً دون خوف أو توتر، نجوب الشوارع دون أن ترتدي كمامة تضايق وجهها أو تحجب رؤيتها، ونفرح بمشترياتنا الصغيرة، ونجلس ساعات بعدها بذكر تفاصيل مشوارنا لكل من أتى وسألنا كيف كان يومكم!

بدأت الملامح القديمة لشوارع عمان المضاءة في رمضان تتبدّى أمام ناظري، هناك أمام الجامع الحسيني الكثير من الباعة يتجولون بكل راحةـ وتتعالى أصواتهم كلما اقتربت خطواتي منهم، وتتقاطع مع أصواتهم وتطغى عليها أصوات المكبرين من داخل الجامع وهم يصلون بضع النوافل وآخرون يعكفون على أنّ قراءة بضع آيات من قرآن كريم منتظرين المغرب ليشقوا صومهم بتمرة وبعض من ماء، وأمامهم سوق البخارية تتلألأ بوابته بإنارة من صوب وبأحجار ملونة من صوب آخر، وعلى الطرف الآخر من الشارع تعج المحلات بالمارة وبائعو الحلويات يرحبون بكل من مَرَّ بهم، بقلاوة هشة أو كنافة ساخنة أو بعض الهريسة الطرية تخرج من بين أيدي صانعيها إلى أيدي حامليها

بوجوه سمحة وكلمات طيبة! وفي الطرف الآخر صائم جائع، يجوب الطريق مسرعاً فاقداً لصبره جراء زحمة الشارع، جاعلاً من صوت بوق سيارته نذير تهديد ووعيد لكل من اعترض طريقه، وفي الطرف الآخر شرطي سير أضناه التعب وجف ريقه من صفارة استخدمها لساعات طويلة لينفث الهواء، منظماً حركة سير باتت لكل من رآها عقيمة بلا حل أو جدوى إلاه. رأيت أحد الشوارع المتفرعة من أمام الجامع، وباعة العصير فيها تزداد أعداد مرتاديها مع اقتراب ساعات الإفطار وارتفاع حرارة الجو.. رأيت أماً تجر حولها خمسة أطفال، وحيدة بلا مال أو عون، تخرج بضعة دنانير من جيبها، تحاول إرضاء أطفالها بما يحمله صبرها وعدد الدنانير في جيبها، وعلى وجوه خمستها علامات رضا بأن يكفيهم وجودها معهم لتهنأ قلوبهم. رأيت مطاعم عمان الشعبية تكتظ رويداً رويداً بطالبي الفلافل أو الفول الساخن، أو الحمص الطري، أو بعض أصابع البطاطا المقلية، تعاجزوا عن صنعها أو اشتهتها أنفسهم، رأيت معالم رمضان التي كنت أرسمها في خيالي في كل يوم من الأيام العشرة الأولى من رمضان لهذا العام، مستحضرةً صوراً من الذاكرة تعود لتحيي عمان التي أحب بروحها القديمة الحديثة، وتنعش الذاكرة بصورة جديدة مليئة بالحياة والبركة!

إلا أنَّ الفرحة تلاشت في اليوم التاسع، وانكسر الفرح في العاشر

وعاد الحزن أعمق من أي وقت مضى محملاً بالغضب والخيبة وانعدام الصبر هذه المرة! كمن يعيش داخل قصة مرعبة أعطاه الراوي هدنة للتنفس لوهلة ليعود لغرسه في أخمص زوايا القصة رعباً من دون مقدمات أو تأهيل..

أعلنت 11 إصابة جديدة، لدرجة أنَّ عدد حالات الشفاء لم أسمعه، وكأنّه لم يعد يهمني أو أنه بات محض رقم غير مهم، بما أننا نعود أدراجنا إلى خط الصفر من جديد! ولم تصبر وسائل الإعلام على صدمتنا الأولى لتلحقها بثانية وثالثة في مدينة، اثنتين ومن ثم ثلاثة! ثلاثة مدن و21 حالة حصيلة تجمع واحد، كانت كفيلة بأن تأخذ من عمري عمراً وأن تطفئ أنوار عمان المتلألئة في قلبي من جديد وإلى أجلٍ غير مسمى هذه المرة!

**عمان ـ 27 آذار 2020**

# يوميات أردني في زمن الكورونا

عوني رافع الهنداوي

## 1

**البتراء. يوم الأربعاء 26 شباط**

صحوت من النوم السادسة صباحاً، أعددت قهوة سريعة في غرفة الفندق، حيث وصلت ليلة أمس برفقة وفد سويسري.

هاتفي الخلوي يشير إلى وصول رسالة نصية من أحد الأصدقاء الطليان الذي يقطن في مدينة ميلانو...

وحدها القهوة تعلن عودة النبض إلى شرايين الوعي...

أجهزت على كمية النيكوتين الصباحية.. بعد أن سرقت منفضة سجائر من ممر الفندق، حيث إنَّ التدخين ممنوع داخل الغرف.. وعدت نفسي أن أعود في إجازة قادمة لقضاء عدة أيام في هذا المنتجع الأنيق... كان في يوم ما قرية مأهولة بالناس، وتحول إلى منشأة فندقية غاية في الفن المعماري، يجمع بين روح الأصالة ولمسات الحداثة..

بدأت أستعيد على مضض شيئاً من عافية الجسد والذهن...

قرأت الرسالة النصية: الأردن يحظر دخول الإيطاليين إلى المملكة...

كانت الأنباء قد بدأت تأخذ جانب القلق لاتساع أعداد المصابين بفيروس الكورونا... دون أن تأحذ طابع الهلع... أنظار العالم تتجه نحو الصين وكوريا الجنوبية وإيران... حيث الأعداد من المصابين والموتى في تسارع غير مسبوق...

غادرت غرفتي على عجل... صعدت الدرجات المؤدية إلى الساحة الرئيسية نحو صالة الطعام.. ضباب كثيف يعانق المكان هابطاً من جبال الشراه نحو قرى الراجف والطيبة ووادي موسى...

تمنيت ألّا يطول هذا الطقس... رأفة بالذين أتوا من كل فجّ عميق لرؤية المدينة الوردية..

المطعم يمتلئ بالزوار، تعلو قسمات محياهم فرحة عاشق يتلوى على جمر موعد لقاء الحبيبة..

قادني النادل الذي يبدو عليه النعاس إلى ركن شبه فارغ...

نحيل القامة، ذو عينين واسعتين وقد مسّد شعره إلى الخلف..

سألني بأدب ويده اليسرى من خلف ظهره: قهوة اكسبرسو كالعادة بدون سكر؟؟؟

هززت رأسي بالإيجاب...

قرأت ثانية وثالثة ورابعة الرسالة التي «نزعت» صباحي...

عادل النادل الشاب يحمل القهوة فوق صينية فضية اللون...

بصوت خافت ومسحة أسى وهو يتطلع من حوله: صحيح ممنوع دخول الطليان ؟؟؟

سألته: من أين لك هذه الأخبار ؟؟؟

رفع كلتا حاجيه الأعلى: معقول ما بتعرف... ؟؟؟؟

التمّ شملي مع الوفد السويسري...

الأنظار شاخصة نحوي... وتارة نحو السماء والسؤال: سيتحسن الطقس.. أليس كذلك ؟ ملابسنا ملائمة ؟ هل ستمطر من جديد ؟

لهجة الكلام لا تحمل معنى السؤال...

تنطوي على الرجاء بأن تكون الإجابات بحجم الأمنيات..

أحد الزملاء برفقة وفد إسباني... لا أعرف اسمه ولا أذكر أن تبادلنا يوماً مجرد التحية العابرة...

قصير القامة ذو نظارة سميكة، تلهو أصابعه بمسبحة من حَبّ الزيتون، يرتدي نفس الحذاء والسترة منذ أمد..

اقترب مني، حيّاني بحرارة، بانت أسنانه الأمامية شبه «المهترية»: شو... شكلها

خربت مع الطليان ؟؟؟ لا حول ولا قوة إلّا بالله...

ونطق بآية قرآنية تحثّ على الصبر.. أخطأ في لفظ الأداة الشرطية...

أدرت ظهري نحو السويسريين....

سائق الحافلة أدلى بدلوه: صحيح الخبر عن منع الطليان؟

أمام شباك التذاكر تعالى الضجيج...

عند أول السيق، أمام الخزنة... الكل يسأل عن الطليان ؟؟؟؟

الصبي الذي اعتاد بيع «خراخيش الفضة» سأل بدوره عن صحة الخبر؟؟؟

شعرت كأني في بيت أجر، أتلقى العزاء....

## 2

**البحر الميت.**

**الجمعة.28 شباط..**

مع الوفد السويسري تهبط بنا الحافلة من مرج الحمام نحو أخفض بقعة تحت سطح البحر.

تسألني السيدة السبعينية التي تجلس في المقعد المجاور عن سبب انقطاع خدمة «النت»

سألت سائق الحافلة عن ذلك؟

أدار رأسه الأصلع نحوي فارداً يديه إلى الأعلى: بعيد عنك، أرض ملعونة من أيام لوط..

أطلق ضحكة مدوية واهتزت أكتافه من مبدأ «خفة الدم»...

العجوز تسأل عن سبب الضحك المفاجئ؟؟؟.

أردت التخلص من الإلحاح: سيدتي نحن في الجهة المقابلة «لأرض الميعاد» ولا أحد يعلم لماذا تختفي إأشارات البث كلما اقتربنا من جبل الزيتون... ؟؟؟

يحدث بعد مرور أسبوع من السواليف مع السواح أن «تسوح مرارتك» ويتجلى الإبداع في «خلق القصص»

هزت رأسها الذي غزاه بياض ساطع وتنهدت، فانتشرت خطوط التجاعيد على امتداد ملامح وجهها.

همست في أذني: هل من أنباء عن «فيروس «كورونا»؟؟؟

عبر نحوي خيط عطر اختلط بأنفاسها اللاهثه..

أجبت وأنا أمسح قطرات عرق سالت فوق جبيني: إصابة واحدة في شمال إيطاليا... رجل في أواخر الثلاثين كان في زيارة إلى كوريا الجنوبية... تم الحجر عليه مع زوجته، التي على موعد مع ميلاد أبنها البكر...

ـ اوووووو... مسكين... وهل من أنباء عن صحة الجنين...؟؟؟؟

ـ لا والله يا ستي... لا أنباء.. يقولون بأن الكبار في السن هم الزبائن المفضلين عند «الفيروس»... ويقول الأطباء «على ذمتهم»: سريع الانتشار عن طريق رذاذ الفم.. ويقولون: من الأفضل الابتعاد عن الآخرين مسافة متر وقلة الكلام خير من قنطار علاج...!!!!

فزت العجوز من مقعدها تفتش عن مقعد في الصفوف الخلفية... تعثرت، تناثرت محتويات حقيبتها... مشط ذهبي اللون، قلم أحمر شفاه، وحفنة من العملات المعدنية..

على جانبي الطريق طوابير من السيارات...

عائلات تكدست في ظلال أشجار الموز، ألسنة الدخان تصعد من فوق أسياخ اللحم المشوي، رجال منهمكون في العثور على أغصان ندية، أغلبهم يرتدي سراويل قصيرة وفالينات شبه بيضاء إلى جوار نساء «غاية» في الاحتشام وقد طغى اللون الأسود على الإناث من عمر اثنتي عشرة سنة فما فوق..

أخبرني السيد أنتونيو وهو طبيب ورئيس بلدية قريته ذات الثلاثة آلاف نسمة في الكانتون الإيطالي: عدد الإصابات سيرتفع إلى أرقام قياسية، وسيحصد الكثير من الأرواح..

أضاف ومسحة من قلق امتدّت على اتساع ملامحه: هذه كارثة... وأمدها طويل...

تم ابتسم وأردف: نعم... الكبار في السن أوائل الضحايا....

عند وصولنا إلى الفندق.... كان عمال الحقائب يرتدون الأقنعة والقفازات.

سألت الصديق محمود مدير الفندق عن سبب ذلك ؟؟؟

ردَّ بغير اهتمام: من باب الحيطة... لا أكثر...

ودّعت الوفد بدون مصافحة...

العجوز السبعينية سألت وهي تغطي فمها بباطن يدها التي تتدلى منها إسوارة على شكل صليب: كيف يمكن الحصول على كمامات؟؟؟؟

يغزو رأسك السؤال: هل نحب الحياة أكثر مع تقدم العمر ؟ هل يرعبنا اقتراب الآخرة ؟

ثمة شعوب لا ترتوي من متاع الدنيا حتى الرمق الأخير... وأقوام آخرون تلوذ قلوبهم خلف خنادق التقوى...

صاعدين نحو عمان ، ، ، ، لا زالت أعمدة الدخان تتلوى أمام شمس تودع نهارها على مهل ، ورفيف صبايا تجمعن بعيداً عن ضجيج الأهل، أشارت إحداهن إلينا بأن رفعت أصابع يدها وهي تحمل عدة أغصان من شجر الدفلى..

**3**

**يوم الاثنين. الثاني من آذار**

ألقيت هذا الصباح نظرة على الأجندة، منذ ثلاثين سنة غدت عادة يومية... توثيق مستمر لكل ما جرى ويجري والذي يتمنع في قفص الأمنيات..

في أعلى السطر: الأردن يعلن عن أول اصابة بفيروس الكورونا...

الشاب السلطي الذي يعمل في إحدى المراكز التجارية في عمان، وعند وصوله البلد قادماً من إيطاليا تم «التحفظ عليه»، وباللغة الرسمية: دخل الحجر الصحي الإجباري لمدة أسبوعين... وأصبح فارس المرحلة... وقد مَنَّ الله عليه بالشفاء.

تذكرت المقولة الشائعة: كلُّ الحق على الطليان... لا أحد يعلم أصل العبارة..

أخبار الطليان لا تسرّ عدواً ولا صديقاً...

عدد الإصابات 1700 حالة، والعشرات فارقوا الحياة... وأغلبهم من كبار السن، ويتمتعون بسجل حافل من الأمراض: ضغط، سكري، زهايمر... من المؤلم أن يتحول الموت إلى «أرقام» في نشرة أخبار الثامنة..

نظرة أخرى إلى السطر الأخير من أخبار الأمس...

سارة ذات العشرين ربيعاً أرسلت رسالة نصية: إنّهم يموتون بالجملة هنا... شكراً للأيام الجميلة في الأردن... سأعود ثانية، وسنلتقي..

سارة ويعني أسمها في اللغة الآرامية السيدة، الأميرة... كانت ضمن الوفد السويسري، برفقة أخيها ماركو وأبويها بالتبني..

أخبرني الأب السويسري: كنت راهباً ذات زمن... وفي زيارة إلى الهند علمت بوجود توأمين يتيمين، كان لهم من العمر خمسة عشر شهراً..

وأضاف وبريق فرح يلمع في عينيه من خلف نظارة سميكة: أرسلت خطاباً إلى قداسة بابا الفاتيكان ألتمس إعفائي من مهامي الكنسية لأكرس العمر في رعاية هاذين اليتيمين، ولاحقاً تزوجت المرأة التي أحببت...

سألني بنغمة صوت دافئ: هل أحسنت القرار؟؟؟؟

هبطت فوق شفتيّ الكلمات وقلت: أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا، وأشرت إلى الإبهام والسبابة، وأوضحت: من أحاديث النبي العربي محمد...

لم تسعفني اللغة في قول: صلى الله عليه وسلم...

حدّق الراهب المعتزل نحو السماء: هل حقاً قال ذلك ؟؟؟

هززت رأسي من الأعلى إلى الأسفل...

ولأنَّ الواحد منا يبكي على موتاه فقد سامرني القلق على مستقبل السياحة... هذه المهنة أول الضحايا «كلّ ما دق الكوز بالجرة»...

كانت تتماثل إلى الشفاء بعد «طاعون داعش وأخواتها»...

لم يمضِ سوى أشهر حين احتفلت البتراء بالزائر «المليون»..

كانت سائحة أمريكية برفقة «بعلها»، يقضون شهر العسل، وقد بادر التلفزيون الأردني، وأجرى لقاء مع العريسين بترجمة سيئة.. تصيبك بمغص حاد في المعدة..

العاملون في السياحة دخلوا في اجازة مفتوحة... وبدأ شقّ الصدور واللطم على الخدود..

وبحكم «طول العشرة» مع الطليان، فقد تم تفعيل الاتصال مع العديد من أبناء «روما» سيدة المدن والعواصم بعد بيروت..

ملامح رعب مبكر أطلت علينا...

العرس في إيطاليا «والطخ عنا»...

وأينعت النظريات كرؤوس الفطر عند أول البرق..

نحن من أكثر شعوب الدنيا المؤمنين بالخرافات والمؤامرات وما وراء الغيب، وخوفاً من الغضب الساطع.. هل هو قادم يا فيروز؟؟؟؟

السيدة روبيرتا من مدينة فينيسيا، والتي يسمّيها العرب «البندقية» كتبت تقول: نأسف لإعلامك عن تأجيل فعاليات مهرجان السلام، الذي دعونا حضرتك إليه كضيف محاضر في شهر أيار القادم...

زرت صديقنا فؤاد العامل في إحدى أهم مكاتب السياحة...

ابتسامة صادقة على محياه «كعادته» وقد أضافت «السكسوكة» فوق ذقنه لمسة أنيقة

ـ برامج شهر آذار تم ترحيلها إلى شهر نيسان..

مازحته بالقول: من أي سنة ؟؟؟؟

**4**

**يوم السبت. السابع من آذار**

فرحت ضمن «حدود»؛ لأنَّ السلطة الفلسطينية أغلقت مدينة بيت لحم على أثر انتشار «محدود» لفيروس الكورونا... يعني الجماعة «مسموح لهم» بالتدرب على لعب دور «محدود».

منذ بدء «فعاليات مونديال الكورونا» لجأت إلى مشاهدة القنوات الأخبارية الأجنبية... الشاشة الأردنية «تمارس أقصى درجات عدم

الانحياز: نشرة أخبار لا تسمن ولا تغني من جوع... سيل من الأغاني التي يسمونها» وطنية «وبرنامج يعاد للمرة الألف عن ربوع» بلادي، «ثمة سائحة بملابس البحر تطفو فوق سطح مياه البحر الميت رافعة ساقيها بدلال مصطنع وهي تطالع جريدة.. وإأعادة لحلقات مسلسل بدوي: رهط من

«الزلم» يتوسطون بيت الشعر ممدودين على الأرائك يزعق من بينهم صوت مهيب:

ـ صُب القهوة يا خلف...

خلف الذي يجلس «مقرمز» إلى جوار عازف الربابة «أمام دلال القهوة الصفراء» بشماخه الذي شده إلى أطراف مناخيره منذ الحلقة الأولى يلبي النداء فارداً طوله: لعيناك يا عمي الشيخ....

عدد الإصابات في إيطاليا يقفز إلى حاجز خمسة آلاف حالة... والموتى بالمئات..

و الحكومة تعلن عن عدة إجراءات للحد من تحركات الناس في مدن الشمال، لا سيما في مدينة ميلانو التي أضحت «بؤرة العدوى» ..

تعمدت التمعن في صيغة التعليمات على لسان رئيس الحكومة...

ثمة حيطة واضحة في اختيار الكلمات.. بعيداً عن لهجة «الأمر»...

ملامح وجهه وحركات يديه كأنها طقوس رجاء..

بلع ريقه ومسح الزبد عن أطراف فمه عدة مرات...

لم تفلح عدسة الكاميرا في إخفاء ارتعاش شفتيه..

في غضون ساعات شهدت محطة قطارات ميلانو، تدافع آلاف من البشر وأغلبهم من سكان مدن الجنوب: نابولي، سردينيا، صيقيليا...

وصلني نص حزين من صديقي أندريه: سيمونا !! هل تذكر خطيبتي سيمونا ؟؟؟ عدت قبل قليل إلى البيت، تركت لي رسالة ألصقتها فوق باب الثلاجة، تُعلمني برحيلها إلى نابولي حيث يقطن أهلها... وتقول: لا أدري متى نلتقي ثانية...

قبل منتصف الليل اتصلت بالصديق الصحفي الإيطالي كلاوديو مراسل التلفزيون الإيطالي في نيويورك... والذي عملت معه في عمان أيام اجتياح العراق «لجارته الكويت الشقيقة» !!

في صوته قلق: لا زالوا هنا «مرتبكين» ...

يريدون إلصاق التهمة ضد الصين...

سألته: هل من إصابات لديكم ؟؟؟

أطلق تنهيدة طويلة قبل أن يجيب: الوضع سيكون كارثياً... نتصل لاحقاً..

لمست رغبته في عدم الإطالة...

قبل أن ينهي المكالمة سأل: كم أشتهي عشاء في مطعم «البستان»..

أخبرته بأن المطعم مغلق..

شهق بحرارة: بسبب الكورونا ؟؟؟

ـ لا يا كلاوديو... اختلف الشركاء...

ضحك بعالي الصوت: ومنذ متى اتّفق العرب ؟؟؟

ثم أردف: لا شيء شخصي يا صديقي...

كلاوديو عمل مراسلاً صحفياً في العديد من عواصم الشرق الأوسط...

رنّ هاتفي الخلوي...

ـ هل نمت ؟ أنا جارك الساكن «فوقك»، اعتاد أن يبدأ كلامه على هذا النحو منذ عشرين سنة...

ـ أهلاً جاري...

ـ شو الأخبار ؟؟

جاري الأرمني، لا يراوده النوم، زوجته تمنعه من التدخين في البيت...

فهمت الرسالة..

ـ تفضّل يا جاري....

## 5

**يوم الثلاثاء. العاشر من آذار**

تركت الباب نصف مفتوح بانتظار طلة جاري الأرمني...

عند عتبة بيت جارتي ثمة كيس شبه مغلق، تفوح منه رائحة بيتزا وورقة خس ذابلة..

الأرمني حضر بكامل أناقته المسائية..

روبه يميل لونه إلى الاخضرار، يرتدي قبعة صوفية ملونة كالتي يرتديها الأفغان، يحمل جهازين: هاتفاً وعلبة سجائر ومنديلاً مطوياً بعناية..

طويل القامة، هزيل الجسم ، ذو شارب كثيف، وفي أذنه اليسرى جهاز تقوية سمع..

أشعل سيجارة على عجل بعد أن القى النظر مطولاً على لوحة مرسوم عليها كلبان باسطان ذراعيهما بين عامودين من الرخام...

ـ جاءتني هدية بمناسبة لا أتذكرها..

ـ من إيطاليا. صح ؟؟؟

أكدت له ذلك بعد أن رجوته أن يجلس..

جلست في الجهة المواجهة لسماعة أذنه.. تفادياً للصراخ

يعتقد جاري أن أخبار البلد في حوزتي على الرغم من العكس تماماً، بحكم عمله في «موقع حساس» ..

سألني عن آخر أخبار الكورونا ؟؟؟

قلت له: تم إغلاق الجسر مع الضفة الغربية والمعبر الشمالي مع «إسرائيل»

امتقع لون وجهه، نهض على شكل مصارع ينوي الانتقام وصرخ: شوووو ؟؟؟

هدّأت من روعه وسألت إن كان ثمة أقارب له من خلف النهر؟؟؟

أجاب بصوت حيادي اللهجة، وهو يعضّ على طرف سيجارته: أبداً...

وأضفت: ومن الغد أعلنت الحكومة عن منع مواطني ألمانيا وفرنسا وأسبانيا من دخول المملكة...

ـ شوووووو ؟؟؟؟

اعتقدت بأني أجلس في الجهة الأخرى لأذنه المعطوبة...

وبعد أن تأكدت من سلامة «موقعي» نهضت لإأعداد القهوة...

سمعت تكة القداحة، يشعل الآن سيجارة أخرى...

زوجته الوديعة اعتادت أن تسألني بين الحين والآخر عن عدد السجائر التي «يبلعها»، كانت تستخدم هذة الكلمة بلكنة أرمنية، لها وقع لا تملك معها أن تمنع شفتيك من الابتسام..

ـ لقد أذاعوا خبراً قبل قليل عن آخر المستجدات..

التفت إليّ وقد بان الذعر في تقاطيع محياه: ها.. ها.. ها.. شووووو؟؟؟

ـ منظمة الصحة العالمية تعلن أنَّ فيروس كورونا وباء عالمي...

صرخ مجدداً: شووووو ؟؟؟؟

حاولت أن أفهم سبب قلقه....

اكتفى بتنهيده رفعت صدره إلى الأعلى... وقال: أكلنا «خرا» ....

صديقي الأرمني الذي تجاوز سبعين خازوقاً كما يحلو له أن يصف

مراحل عمره، لا يكره في الدنيا شيئاً أكثر من رؤية سيارته «مش نظيفة»، وقد أدى ذلك إلى طرد أكثر من حارس للعمارة... ناهيك عن حقده المزمن للأتراك بسبب الإبادة الجماعية للأرمن في مطلع القرن المنصرم..

حاولت مداعبته ذات مساء عند التقائنا في «كراج» العمارة: سأودع العزوبية يا جاري

زوجته التي كانت تقف إلى جواره تهللت أساريرها: يا ألف مبروك جارنا، وقد مدت الحرف الأخير...

سألني: العروس ظغيتالية ؟

ـ كان حلمي ومنى عيني.... حط النصيب جناحه على تركية... اسمها دينيس..

اختفت الابتسامة عن وجه كليهما..

سقط من يده كيس أسود ، تناثرت حبات المشمش وانفرط قطف عنب على امتداد بلاط الكاراج...

**6**

**نهاية الأسبوع. 12 إلى 15 آذار**

أجواء خماسينية ، يهطل مطر بلون الرمل الأصفر، تقول النشرة الجوية «شبه انعدام في الرؤية الأفقية» ... ماذا يا ترى عن باقي

اتجاهات الرؤية !!!! قد يكون غائماً جزئياً.. والله تعالى أعلم.. في بلاد الرمل تتعدد الفتاوي...

من نافذة المطبخ التي تطلّ على عشب محير: أخضر على أصفر. يتشكل سيل مياه ينحدر غزيراً نحو شجرة اللوز التي شبت عن الطوق قبل أوانها.. أينعت أوراقها بعناد واضح..

غابة من زهر أنيق يليق بشرفة سجين في زنزانة انفرادية ، ثمة غصن مشاغب امتدّ نحو نافذة جارة حديثة الترمل...

وجاء في الأنباء: 17 ألف حالة إصابة في إيطاليـــا بفيروس الكورونا...

ابتسمت لخبر آخر: الأمريكان يعلنون «حالة الطوارئ»... اتسعت الابتسامة..!!!

صهيل سخرية يراودني عن نفسه...و قد شقّ قميص صرختي من الدبر والصدر.. السلطات... أقصد الحكومة تغلق الحدود، وعلينا الاكتفاء بممارسة التقوى في المنازل «إسلام ومسيحية»، يسمح فقط برفع الأذان والكنائس برنين الأجراس... ويمنع زيارة المساجين... كما تمّ إغلاق الأماكن الأثرية... شاهدت في المساء عمالاً يطهّرون واجهة الخزنة في البتراء، وقد أختفى الجمل الراقد وسيقان السائحات وبائعو «الخراخيش».

سألني سائح ذات زمن: كم من الوقت استغرق حفر الخزنة ؟؟؟

ـ الورشة ما أخذت وقتاً ، صار «شوية تأخير» في أذن الأشغال من البلدية

رشقني بنظرة عدائية: كم يبلغ معدل عمر الحمير عندكم ؟؟؟

ـ أطول مما تتصور يا صديقي... يعمرون ويتمتعون بوافر الصبر والبلادة... ويتناكحون أمام الملأ بلا أدنى خجل...

أعلنوا عن ستة إصابات في الأردن...

أكّد ذلك وزير الصحة بلهجة الطبيب الهادئ والعسكري الصارم... وإلى جواره وزير الإعلام... الذي عهد إليه بإطلاع الناس على آخر الأنباء في إيجاز صحفي كلّ مساء

بدأت السلطات بترحيل الأردنيين العائدين إلى الوطن إلى مناطق العزل الصحي في فنادق البحر الميت والعاصمة عمان.. نحو خمسة آلاف نفر.. ماكلين ، شاربين، نايمين من كيس الدولة...

في المطار سيدة ترتدي بنطلون جينز، وعلى الرأس ما يشبه الميني ـ حجاب وحين أعلموها بأمر الحجر صرخت في وجه طبيب بردائه الأزرق والكمامة التي تغطي نصف الوجه: أنتم أكيد بتمزحوا...

وأضافت وهي ترتجف: هلأ بخلي بابا يتدخل...

ولم نعلم من هو البابا...

أحد خفيفي الظل نشر على صفحته بوست لبابا الفاتيكان بوجه مكفهر: لا هي بنتي ولا بعرفها...

تتوالى الأنباء تباعاً: يُحظر التجول بين المدن الأردنية...

اتصل صديقي القاطن في مأدبا، صوته ينذر بهبوب عاصفة: الجيش والأمن لا يقومون بدورهم كما يجب في حظر التجول...

بدي أعرف كيف حماتي اخترقت ثلاث محافظات....!!!

**7**

**يوم الجمعة. 20 آذار**

لم أكن أعلم أنَّ أحد بنود الدستور الأردني تنص على صلاحيات لوزير الدفاع بتفعيل «أوامر دفاع»، وهي بمعنى آخر تعني «حزمة» من أحكام الطوارئ في أوقات بعض الأزمات...

وأول الغيث قطرة، صدرت الأوامر: يمنع من صباح الغد التجول بدءاً من السابعة صباحا، وللمخالفين عقوبة لا تتعدى «سنة سجن»..

الأنباء تتحدث عن ربع مليون من البشر حصدت أرواحهم «الغضيبة الكورونا» ...

المصابون في البلد 99 بني أدم...

أصبح للكورونا اسم جديد: «الجائحة»

في أوقات الشدة تبرز أوصاف جديدة...

تذكرت وزير الإعلام العراقي الصحاف الذي أطلق على القوات الأمريكية الغازية لقب «العلوج».. إبان الاجتياح في ربيع عام 2003.

السماء صافية هذا المساء، خيط من ضوء قمر باهت يتموج ببطء...

سألت أمي ذات طفولة عن البقع الباهتة داخل وجه القمر ؟

نهرتني وهي تهزّ أصبعها: هذا الله... وأمرتني بقراءة سورة الفاتحة...

و قد عبرت كثير من المياه تحت جسور العمر، وما زال السؤال رهين الحيرة..

من يملك يقين الإجابات ؟؟؟؟

يلازمك رنين في الروح إلى آخر العمر...

يغدو رأسك «سلة فلسفة» ..!!!

قررت الخروج من البيت بدون ضرورة...

عبرت عدة شوارع في التي أسموها عمان الغربية...

طابورمن الكائنات أمام محطة وقود...

سيدة ترتدي معطفاً رماديَّ اللون ينتمي إلى زمن أغبر، وقد غطت رأسها بوشاح أسود، تحمل زجاجة مياه فارغة أمام خرطوم الكاز، تمتد يدها إلى جيب المعطف ، كانت تتأكد من عدد القروش...

من أمامها شاب يرتدي فلذة عسكرية ويحدق مبتسماً في شاشة هاتفه.. إلى يمينه صبية اتخذت ركناً قصياً ، تفرك يديها وتطيل النظر إلى سيدة المعطف الرمادي... أشارت إليها بأن تأخذ مكانها...

تناثرت خصلات شعرها على أثر مرور هبة ريح لاسعة، كانت تنتعل «زنوبه» مرسوم على مقدمتها وردة دائرية الشكل..

عند دوار الواحة تكدست كتل بشرية أمام أحد المخابز، وشرطي

سير نزق يلوّح بذراعيه في كل الاتجاهات... يتمتم بألفاظ ما.. يصيح أحياناً: تحرّك يا هونداي..

عجوز يتكأ إلى جوار عامود إنارة، أطلّ من جيب سترته كيس أدوية أسود اللون...

أمتدّت يده بدينار ألقاه في حجر فتاة تبيع كتيب «المعوذات» ...

الطفل المرافق لأبيه يسأل: بكرا عطلة يابا؟ يعني في رحلة على الغور؟

يتنهد الأب وهو يستغفر الله... بعد أن هبطت يده فوق رأس الولد: أسكت يابا...

واستطرد الولد: أمي بتحليك: جيب قرشلة وربطة خبز حمام..

تنهد الأب ثانية بعد أن هبطت يده ثانية فوق رأس الصبي..

سيارة جيب لون شمبانيا يطلّ من نافذتها الخلفية رأس كلب دالقاً لسانه وذيله يتراقص فرحاً... السيدة تنهره عبر شفتين غارقتين تحت طبقة من أحمر شفاه... لا أدي لماذا أغلب الذين «يربون» الكلاب يتحدثون اليها باللغة الإنجليزية...؟؟؟؟

علّق صديقي ذات مرة: عهر هوانم... نعم.. هو كذلك... عهر هوانم.

عمان تأوي إلى أرقها القادم..

## 8

**يوم الأحد. 22 آذار**

شعار المرحلة: خليك بالبيت.. أيها الناس. لبّوا نداء فيروز... وقد تصرخ الضرورة: زوروني كلّ سنة مرة... وربما يعدون نشيداً: ما في حدا، لاتندهي... ما في حدا..

كلمة كورونا باللغة الإيطالية تعني التاج، وهنالك صنف «بيرة» اسمها كورونا، ويتم ترجمتها عند ورودها في فيلم أجنبي «الجعة»، ويباع أيضاً ملمع أحذية يحمل ذات الاسم..

يطالبونك بالتباعد الاجتماعي... هذه الأخيرة ترسم في القلب غصة..

هل تمادينا في الاقتراب ؟؟؟

وزير الإعلام يُبشّرنا: هنالك مرحلة «صعبة» قادمة ؟؟؟ قال ذلك بعد أن صرّح وزير الصحة الواقف إلى جواره في مركز إدارة الأزمات: بلغ عدد الإصابات 129، من بينهم طفل ذو أربعة أعوام..

وقت الغروب يشابه ما تبقى من زمن قبل نهاية يوم صيام... تدريب مبكر لموسم التقوى الجماعي..

شوارع شبه خالية... أفق أرجواني يدوزن لحناً حزين المدى..

غيمة تائهة تحط بجناحيها فوق رأس مئذنة...

حمام المساء يهدل محلقاً، متباعداً في الهبوط فرادى، ثنائي القبلات..

حين تخلو المدن من ساكنيها تخونك الاتجاهات، يملؤك الفراغ... تتسع المسافة بين المألوف والطارئ

عند زاوية بائع الكعك عامل نظافة بزيه الأخضر، يلوك الوقت ويطيل النظر في اللوحة النحاسية: ممنوع الوقوف... والتوقف.

تحت مظلة شرطي السير فاع عشب جريء، خرفيش منزوع الشوك..

أمام ثانوية البنات يرقد كتاب «كيمياء» مشرّعَ الورق عند سؤال: شروط تطابق النقائض..

من نافذة بيت مهجور يتدلى ذيل قط ، أدار وجهه للمدينة... ثمة مواء وفعل خادش «للحياد العام» ...

تسألني على الهاتف: أين اختفيت ؟؟؟؟

ـ هل يختفي أحد في هذا الوضوح ؟؟

ـ هل قرأت رواية «مائة عام من العزلة» ؟؟؟؟

هب نسيم معتدل المزاج...

ـ قرأته في عز «الضوضاء»...

صافرة الإنذار تعلن وتلعن الوقت..

هذا الأزيز يصيبك بالقشعريرة... كم يلزم من دفء أزعر ؟؟؟

## 9

**الأربعاء. 25 آذار.**

من خلف غيم متردد تلوح شمس خجولة هذا الصباح.. زعيق ريح يراقص الطقس الخماسيني.. تترنح أغصان شجرة اللوز شبه عارية، تراكمت في زوايا الساحة المقابلة عناقيد من الزهر.. حيث الصغير أندرو ابن جاري الإيرلندي يقذف بكرته المطاطية نحو الحائط... جينات العناد تلمع في محياه..

تعودنا أن نتبادل التحية... بينما أعد قهوتي أراه من نافذة المطبخ... يمتطي حقيبته المدرسية ذات ألوان علم بلاده على ظهره...يبتسم بخجل ويلوح بيده قائلاً بلكنة تجاهد أن تكون صارمة: سلام...

بينما أمه السيدة مارجاريت تشيعه بنظراتها... تقابل ابتسامتي بأحسن منها، وتلمّ الثياب عن حبل الغسيل...

لا مدارس في زمن الكورونا...

تتشابه الأيام إلى حدّ الملل... تناكفك عقارب الساعة... يتشح الوقت بالبلادة..

أوامر الحكومة الجديدة تسمح لنا بالتسوق فقط من دكاكين الحارات، على ألّا تتجاوز أعمارنا الستين.. كانوا قد أعلنوا عن إجمالي عدد الإصابات 173.

فرحت لسببين.. أولهما لأني لم أبلغ بعد العمر المقرر من «الدولة»، والسبب الآخر يتعلق بجاري أبي قاسم.. الذي يقطن في الطابق الثالث في الجهة المقابلة لجارنا الأرمني..

بعد أن تمت إحالة أبي قاسم إلى التقاعد من السلك العسكري أمضى نحو عامين من «البطالة»، التي كان يحلو له تسميتها «استراحة محارب»، وكان يؤكد دوماً لي وللجار الأرمني: الدولة ما بتنسى أولادها... مسألة وقت... ما بحرث الأرض غير عجولها..

وكان يكرر على مسامعنا العديد من أسماء «دفعته» الذين عادوا وتسلموا مواقع «محترمة» ..

طال انتظار أبي قاسم...

بدأ الملل، كنت أراه في الصباحات الباكرة بثياب النوم وقد مرت أيام دون أن يحلق ذقنه.. يتسلى بشيء ما في غرفة التخزين... ويسألني كلّ مرة: خير... على وين يا مسهل ؟

يطل الجار الأرمني بأناقته الأوروبية وخيط عطره يعلن حضوره، ويتمّ سؤاله نفس السؤال ؟؟؟

ونخبر أبا قاسم: إلى الشغل يا جار...

يتنهد ويلوي عنقه: أرزاق !!! وتصدر عنه حركة عصبية وهو ينادي على الحارس: يا زفت يا رمضان...

دعانا أبو قاسم إلى عشاء فوق السطوح.. تصاعدت ألسنة اللهب فوق أسياخ اللحم، وأشار إلى أنَّ «العرايس باللحمة» من صنع أم قاسم..

بعد أن أعد أرجيلته ، اتكأ فوق وسادتين ، مادّاً ساقيه القصيرتين

بأتجاه منقل الحطب، أخبرنا عن مشروعه الذي وصفه «تسليك حال» إلى أن يفرجها رب العالمين..

باركت له سلفاً... الأرمني يسأله: شو بفهمك بشغل الدكاكين؟؟؟

ابتسم له وقد لمعت أسنانه: أصلاً جدي كان من كبار تجار الحبوب في إربد

تطلع إلى أم قاسم يطلب تأكيد أقواله.. التي شدَّت على أطراف شالها: صح.ثم أدارت رأسها نحو زوجة الأرمني وقالت هامسة: وبشر الصابرين...

لم يكن قد مضى سوى أشهر على بدء ممارسة أبي قاسم مشروعه المؤقت، حين دعت الحكومة المواطنين للتسوق من دكاكين الأحياء...

رنّ هاتفي....

جاري الأرمني يدعوني لمرافقته إلى دكان أبي قاسم...

لا مدارس في زمن الكورونا...

## 10

**الخميس. 26 آذار.**

لبيت دعوة جاري الأرمني لزيارة أبي قاسم في دكانه...

تباعدنا مسافة متر ونحن نحث الخطى مروراً بمدرسة الراهبات الوردية.. من خلف أسوار البيوت تعالت خدود الورد الجوري... قط

كثيف الشعر باسطٌ قوائمه في وسط الشارع... يوزع نظرات الحيرة ويكاد ينطق: أين اختفوا ؟؟؟ يعقب ذلك مواء ناعم

يلوي عنقه إلى الوراء... يهزّ ذيله ثم يلعق بلسانه فراء بطنه..

يخبرني الأرمني وهو يمسك بذراعي حيث من عادته أن يتوقف عن المشي حين يريد إخبارك بشيء: ولي عهد بريطانيا مصاب بالكورونا... وكذلك رئيس وزرائهم..

سأل وأنفاسه تهبط وتعلو: يعني معقول يكون «غضب رباني»؟؟؟

أجبت وباطن يدي يغطي نصف وجهي: لم نعرف بعد كل أسرار الكون..

توحد الأمراء والفقراء...

الإصابات في العالم تقترب من رقم نصف مليون...

في الأردن 212 حالة...

و في إيطاليا نحو 80 ألف مصاب..

الرئيس الأمريكي ترمب يأمر شركة جنرال موتورز بتصنيع أجهزة تنفس..

إمام مسجد حارتنا جالس فوق كرسي مغطى بسجادة صلاة ، زائغ النظرات، يمسّد لحيته، بينما تلوك شفتاه مسواكاً شبه مهترئ وهو يتمتم بما يشبه الدعاء على عزف حبات مسبحته...

يعلق الأرمني: صاحبك عاطل عن العمل...

الإمام صديقي، اسمه عدنان، متعدد المواهب، يدرس اللغة

العربية، مأذون شرعي، يتقن الزراعة ويحفظ عن ظهر قلب مئات الأبيات من قصائد المتنبي... يرعى في باحة المسجد حاكورة تمتلأ بالريحان والبقدونس، وبيت فلفل أخضر، وشجرة توت عملاقة.. اعتاد صبيان وصبايا الراهبات الوردية قطف حباتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً..

يمتد طابور من الكائنات أمام دكان أبو قاسم...

كانت زوجته تجلس عند المدخل وقد سال من تحت شالها شلال من العرق امتد من جبينها إلى التقاء طرفي ذقنها...

كان من الواضح أنَّ أبو قاسم أوكل إليها «صلاحيات» ترتيب دخول الزبائن..

كانت تردد: بالدور يا أخوان... بالدور... متر... متر بين بعظكم... أيوا... متر..

حين رأتنا أكدت التعليمات: بالدور... بالدور...

لمحت أبا قاسم، تدلى شماخه إلى طرف كتفه ، وبقايا سيجارة تذوي بين شفتيه..

أشار إألينا بالدخول...

صرخ الأرمني: أم قاسم بتقول بالدووور..

كذلك احتجت سيدة: ما في نزام...ليش إحنا هيــك... ليش؟؟؟

ثم أدارت وجهها وألقت ذراعاً فوق ذراع وهي تقول: مو معئول...!!!

ألقى أبو قاسم بتعليمات جديدة... طلب مني الوقوف إلى جواره عند الصندوق... بينما أشار إلى الأرمني بترتيب الدور بعد أن أخلى سراح زوجته التي كانت تفرك أصابع يديها وهي تهرول نحو حمامات المسجد... الفرع النسائي..

ثمة حيرة في وجوه الزبائن... يغدو الشراء خوفاً... وليس حاجةً..

تمتد الأيادي إلى الرفوف، تمتلأ الأحضان...

معلبات لا أحد ينظر إلى تاريخ انتهاء صلاحيتها..

رولات من الورق الصحي...

نَفِدت زجاجات سوائل التعقيم...

كذلك أوشكت على الاختفاء مكعبات الماجي..

إحداهن خطفت زجاجة ماء ورد.. وثلاثة قداحات...

صرخ أبو قاسم: يا أخوان الله جبر....

بقي نصف ساعة إلى موعد زعيق صفارة الإنذار...

النمل البشري يهرول إلى البيوت..

صديقي الشيخ ما زال يتمتم زائغ النظرات...

مرّت صبية ترتدي الكمامات... برز بهيّاً لون عينيها الساطع الاخضرار.

## 11

**السبت.28 آذار**

صحوت على صهيل ريح واضح الملامح في هذا الصمت المتقن، على امتداد زجاج نافذة المطبخ تهبط خيوط مطر متعرج، تحدق في ملامح إقامتك الجبرية، يرتد إليك البصر شديد التأمل فيما حولك... ضجيج ذكريات يداهمك... صرير مفتاح الزنزانه يأن تحت أصابع حارس عزلتك.. الوقت عدو، يناصبك بندول الساعة العداء... لا شيء سواك وهذا الفراغ، وكلّ هذا الامتلاء بالغياب، تناجي الوجوه البعيدة، زئير من الأمنيات يهدهد حرمانك، تصغي إلى حيرتك، يتعمد قلبك بما أحل لك من وضوء الاضطراب..

مساء آخر يعلن بدء الانسحاب... وغيم يغطي وجنات الغيث ويرحل..

يرتب الليل انتشار عتمته وخيبات العاشقين من قمر لا يحمل بريد السهر..

كل هذا القلق...كل هذا الذي لا نفهم...لا ندرك لغز «المراد»؟؟؟؟؟

تتمنع الإجابات... يحرج روحك هذ «العناد» ...

أسأل العامل الوافد وهو يبدل أنبوبة الغاز: كيف حال الشوارع؟

أرى في عينيه انكسار الغريب وهو يجيب لاهثاً: شبه فارغة...

أسأله ثانية: ماذا تعمل في أشهر الصيف ؟؟؟

تاهت فوق شفتيه ابتسامة صادقة: عامل بناء..

أخبرني أنه قلق من أجل زوجته وابنته ذات العامين واسمها «إيفا»

نطق حروف اسمها وطيف دمع يترقرق...

أول ضحايا الكورونا التي فارقت الحياة سيدة في الثمانين من العمر.. وعدد الإصابات 235.

اتصل بي جاري الأرمني بصوت مشحون وأخبرني بالذي جرى..

ـ خير جاري؟

ـ سمعت الأولاد يقولون لأمهم: هو بابا رح يعيش معنا على طول؟؟؟

دعوته إلى المشي...

تعمدنا... وللأمانة تعمد «هو» أن نسلك غير الطريق المؤدي إلى دكان أبي قاسم..

قبل مبنى رئاسة الوزراء هنالك دورية «مختلطة» من الشرطة والجيش وآخرون بملابس مدنية...

ألقينا عليهم السلام..

كانوا يرتدون الكمامات الزرقاء، ويتأكدون من تصاريح سائقي المركبات..

مررنا من جوارهم وهم يدققون في تصريح أحدهم وبرفقته طفل في حضنه، وإلى جواره سيدة تلهو بحواجبها...

سمعنا الشرطي يقول: اتقوا الله في أطفالكم...

ضابط الدورية تعرف على جاري الأرمني...

أدار ظهره بعد أن ارتدى نظارته...

أشار الضابط إلينا بالاقتراب...

اختلف لون جاري...

كنت قد قلت سابقاً بأنه يعمل في «مكان حساس»

تناولنا برفقة الدورية قهوة ساخنة...

أخبرونا بصدور الأوامر الجديدة: تقرر إغلاق مدينة إربد.. وذلك بعد ظهور عدة إصابات لمجموعة شاركت في حفل زفاف..

بعد أن شكرنا رجال الأمن على حسن الضيافة، عدنا أدراجنا مع بدء زعيق صفارة منع التجول، بينما كان جاري يلتفت إليّ قائلاً: جماعتك أهل أربد...

## 12

**الأربعاء. 1 نيسان**

ربيع هذا العام «عن بعد» ..

لا وقت لطفولة الدحنون، ترجل يتيماً، طوى خدوده على شفاه الزنابق السوداء...

يوجع القلب غياب شغب الأشياء..

إلى أين يحملنا هذا التحالف السافل ما بين صفارة الإنذار وعتمة ليل شاهراً سيف «الأمر» ... ؟؟؟؟

و نحتار بين «الفتاوي» : غضب السماء، تآمر البشر، عجز العقل، طبائع ما لا نعرف... نأوي إلى وسائد القلق... يعانق ليلك «كوابيس الآتي» والليل قدر لا يرد ولا يزول...

«فائض من الوقت»... يتسع لصدر بيت من شعر غاضب وقافية تأبى الحضور..

توزع الروح على صور الذين غادروا «مبكرين الرحيل» ...

هؤلاء الذين «نحب» يستعجلون الوداع... يسلبون الميناء والمناديل وآيات الصبر..

يملؤون حقائبهم بآخر ما جاد به القمر.. وهذا العتم لئيم...

أمسيات هذ العام «عن بعد» ...

كم يلزم من حصار ؟؟؟

من يذود عنك سهام الصمت ؟؟؟

والدمع الرابض ما بين حنين وانكسار ؟؟؟

«حاصر حصارك» إن استطعت...

وكأن المدينة إلهة التعري على مهل...

كانت تسمى «تايكي» إألهة الحظ عند الرومان

من نزع عن صدرك أوسمة الابتسام ؟؟؟
و أحل دمك على مذبح الحشمة والانتظار ؟؟؟
كل الوقت «عن بعد» ...
مزيداً من فائض «أيوب» ...
الآهة تلو الآهة...
والمؤجل من الأمنيات شواهد على الخيبة تلو الخيبة...

**13**

**الجمعة.الثالث من نيسان.**
لعل الخير يكمن في الشر...
ولا تقنطوا من رحمة الله...
ورب ضارة نافعة... وقدر الله وما شاء فعل... إلخ... إلخ
تنهال عليك المواعظ والحكم...
نتحول إلى حشد من التقاة والورعين والمؤلفة قلوبهم...
يلجأ الناس إلى كل المخزون العاطفي والديني في زمن البلاء...
البعض يغدو أكثر حناناً، وآخرون يمدون جسور الود مع البعض الآخر..
وتحسب أنَّ البغضاء قدر دائم واللامبالاة عدو شرس..
وتشرع المودة فجأة نوافذها وقد حسبت أنها لا تفرج..

شعور بالذنب كمن يودع وصاياه إن أزف الأجل..

خالفت أمر الحظر الشامل...

ثمة لذة في خرق القوانين...

قررت ألّا ابتعد كثيراً... تذكرت وصايا وزير أإعلامنا الذي لا يبتسم: نجاحنا بالتزامكم وحمى الله البلد والقائد والإنسانية... حسدته على قصة شعره... وتلمست «كشتي» ... وقلت في نفسي: حلاقين الوزراء خارج الحظر...

صرخ صوت من خلفي بينما كنت أغلق باب العمارة: وين يا مسهل.....

التفت إلى مصدر الصوت...

جاري الأرمني الجالس إلى جوار أبي قاسم في فسحة البلكون المطل على الشارع، أعاد سؤاله: يا مسهل...؟؟؟؟

وحدث ما توقعت....

صرنا ثلاثة «ضد» أمر الدفاع...

لا خيار أمامنا غير المرور من أمام مدخل «فيلا الباشا»، حيث يربض كلبا حراسة...

وبالرغم من عشرة عمر ونحن جيران، كانا يصران على إطلاق صليات من النباح في كل مرة يرانا نقترب من سور الحديقة....

أبو قاسم الذي اختار أقصى اليمين: كلب الشيخ... شيخ..

ردّ عليه الأرمني وهو يمضغ طرف سيجارته: مين قصدك ؟؟؟

ـ كف شرك عني يا رجل..

ـ الشر من جماعتكم... عرس وكورونا...

التفت أبو قاسم نحوي: عجبك قصده عن جماعتنا ؟؟؟؟

أخبرته بأني لست محامي دفاع عن أهل إربد...

أراد أن يخلق جبهة مضادة ضد الأرمني...

ـ أبو قاسم... صرت أردنياً بالصدفة... ومعي كرت لاجئين من الأمم المتحدة بعد أن هربنا من طبريا إلى الباقورة...

تلعثمت الكلمات بين شفتيه: والله... كلنا أهل وإأخوان... شو الفرق يعني...

كان من الواضح شعوره بالإأحراج... فقد «خبص أمامي» العديد من المرات ونحن نتحدث عن «أيلول الأسود» .

أمام روضة وهبي تماري، عند الإشارة الضوئية... دورية مختلطة تمثل جميع الفعاليات الأمنية: درك وشرطة وأمن وسير وذو الملابس المدنية ممن يحملون أجهزة لاسلكي وقد انتفخت أطراف خواصرهم... هؤلاء يتعمدون رفع طرف قمصانهم...

العودة إلى الوراء قد تثير الشبهات.... هاذا ما أكده أبو قاسم..

ارتدت أبصار الحشد الأمني نحونا عند الحد المسموح...

بادرهم أبو القاسم بالسلام: قوهم النشامى... قوهم...

بملامح عابسة ردّ الشاب ذو النجمة اليتيمة على كتفه: مش عارفين يا حجاج عن منع التجول ؟؟؟؟

كنت أنظر إلى سرب حمام متناغم الهديل والحركات... وثمة قط يحاول القفز نحوهم

بنظرات شهوة عدائية...

يبدو أنّ لتقدم العمر فوائد... يغفر لك بعض الزلات من العيار الخفيف...

بدا ذلك جلياً من لهجة الضابط الودية حين أعلمه أبو قاسم عن «رتبته السابقة»، فقد قال حرفياً: يا سيدي.. تعليمات.. ونحن كما تعلم سيدي.. العبد المأمور...

تجرأت على أثر الأجواء الأليفة وسألت ظابط السير عن سبب البطء في الإشارة الضوئية أمام الروضة ؟؟؟

أجابني وهو يبتسم أخيراً: يا سيدي منطقتكم فيها ثلاث مدارس مسيحية...

أسرع أبو قاسم قائلاً: كلنا أهل وإخوان... نعم إخوان...

عدنا أدراجنا صامتين...

أطلت زوجة الأرمني من نافذة المطبخ: طردوكم ؟؟؟؟

## 14

**الأحد. السادس من آذار**

بينما أرتب بدء فوضى الصباح، كانت فيروز تعلن: ضاق خلقي يا صبي من هالجو العصبي...

نهار آخر يلوذ بالصمت اللئيم، والأخبار تقول: الحدود تبقى مغلقة إلى ما بعد رمضان، ولم يحدد الناطق الإعلامي لأي عام... ترك النهاية لخيال الفجيعة.. وأضاف معاليه: عدد الإصابات الإجمالي 345...

الشريط الإخباري ذو اللون الأحمريسرق لذة القهوة عن شفتيك: تقترب أعداد المصابين في العالم من المليون...

نطلق تنهيدة عند سماع مصائب الآخرين... أكثرنا إنسانية يدعو لهم بالرحمة، وثمة نفر من التائهين في بيداء الفتاوي الجاهزة يدعو عليهم... وينتظر منهم ترياق الداء ؟؟؟

بلاوي الغير تطفأ لديك بعض القلق...

الموت أرقام... لا وقت للحداد..

الحزن مؤجل.... خَبِّئ قوارير دمعك...وأتلُ ما تيسر من أيات الصبر.. وعلى ذمة الرواة:

يقال إنّ أحد أبواب الجنة يسمى «باب الصبر» ...

أقرأ في كتاب سقوط الدولة الأموية في أول سطور الخلافة «بالقوة» ما قال معاوية بن أبي سفيان بعد أن استتب له الحكم في الشام: إنّي لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا... جميل

وضوح الرؤية والهدف... كأنَّه أول تشريع «للأحكام العرفية» في تاريخ هذه الأمة...

قلبي مع الطليان...

ينقلون جثث موتاهم بآليات الجيش... لا وقت للوداع الأخير...

و يعلو الصراخ: من علم الذباب أن ينام في الأهداب ؟؟؟؟

لايليق بروما النواح ولا الرايات السوداء...

لكِ الألق كله سيدتي.. ولك ما رتّل العشاق للعشاق...

ولكِ سرّ الفرح ولك الآتي من مواعيد الصباح...

ربيعٌ آخرُ سيكون لكِ وحدك، وننشد سوية مواويل العناق...

## 15

**الجمعة. العاشر من نيسان.**

صحوت على صياح...

تعرفت على صوتين... جارتي أم بلال وصبي الغاز رمضان..

المدام تريد «جرة نظيفة» ... ويرد عليها رمضان: والنبي دي أنظف واحدة...

تقول له من خلف الباب وقد تدلى عن كتفها شال الصلاة: دور منيح.. يوه...

يطلق زفيراً حاراً العامل الوافد: يا مدام والنبي دي أنظف واحدة...

يحمل «الجرة» على كتفه الناحل، يتدلى من يده المفتاح الأإنجليزي..

رأيت خطين من العرق ينسابان على أمتداد جانبي وجهه..

حين رآني أطل برأسي أبتسم بمرارة:

ـ عاوز يا أستاز واحدة نظيفة ؟؟؟

العبارة «ملغومة» ....

تذكرت بأني لم أبدل جرة غاز المطبخ منذ ما يناهز السنتين..

وجدتها فرصة...

مرر لسانه على «الجلدة» .. تناول الجرة برشاقة لاعب جمباز..

أشعل بقداحته أطراف رأس الأنبوبة... تأكد من عدم جاهزية «انفجارها» ...

صوت أبي قاسم يسبق خطواته هابطاً من الدور الثاني: عسى ما شر يا جيران...

كان يرتدي بيجامته ذات الخطوط الزرقاء، تشبه ملابس السجناء..

أشرت إليه بالدخول واضعاً باطن كفي على شفتيّ...

خفض من صوته: خير ؟؟؟؟

طلب أن يشرب قهوة «الإكسبرسو» ...

تعرفت على صوت جاري الأرمني الذي التقى بصبي الغاز وهو يغادر العمارة..

هو أيضاً بملابس النوم «لون خمري»، وبيده علبة سجائره.. من الواضح بأنه لم يحلق ذقنه منذ أيام...

أخبرنا بأنه يعاني من بوادر زكام...

اعتلت ملامح وجه أبي قاسم تكشيرة واسعة وهو ينهض متخذاً مقعداً نائياً عند زاوية النافذة... ووضع ساقاً فوق ساق..

جلسنا على شكل مثلث متساوي الأضلاع...

سألته إن كان يعاني من ارتفاع في الحرارة...؟؟؟؟

أجاب وهو يمسح أنفه بمنديل أبيض: آه.. شوي....

أنتقل أبو قاسم إلى المقعد الأخير...

سأل جاري الأرمني: قحتك ناشفة جار ؟؟؟

أخرج أبو قاسم من جيبه زجاجة معقم... فرك يديه جيداً على طريقة الأطباء بعد خروجهم من غرفة العمليات... وشدَّ شماغه إلى فوق أنفه... وقال: يا لطيف تجعل البلا خفيف !!!

لا أذكر من سأل عن آخر أخبار الكورونا في ايطاليا...

الشريط الإخباري الأحمر يوافينا بآخر الأنباء: الشلل يصيب مختلف مستشفيات مدن الشمال... وصلت إلى ميلانو كمامات من الصين وأطباء من روسيا وكوبا..

أمريكا تتصدر أرقام الإصابات: نحو نصف مليون أصابة ومائتين الف من الموتى تليها اسبانيا... صديقي فؤاد الطراونة ارسل لي رساله: على هالحال رح تلعب امريكا مع اسبانيا على «دور النهائي» ..

في الأردن: 9 حالات جديدة: عدد اجمالي الإصابات.... 381..

يقترب موعد زعيق صفارة الأنذار...

على شاشة التلفاز مشاهد لتهافت الناس على شراء الخبز والخضار..

يعلق الأرمني: آخر هَمّ البهايم علفها...

مدن خاوية على عروشها...

طوابير من الأكفان بلا زهور..

صفير سيارات الإسعاف...

و هذا الصمت: لئيم...

**16**

**الاثنين. الثالث عشر من نيسان.**

يقول المثل الإيطالي: الوحدة خير من الرفقة السيئة...

ثمة لذة بشيء من العزلة، تكتشف التفاصيل المهملة..

والمؤجل على جدول ما ينبغي انجازه يدخل حيز الاهتمام..

يذهلك هذا الكم المتاح من الوقت الفائض، الجاهز ليمتلئ على مهل..

لا أدري أين قرأت هذه العبارة: «إن لم تجد ما تفعل في وحدتك فأنت على أبواب الكآبة» .

المألوف مما نعمل يغدو مع الوقت «فرضاً» عصيّاً على المساومة.. يصلب أيامك على خشب «الإدمان» ..

تغريك الأحكام العرفية وحظر التجول بإعلان «بياناتك الخاصة»...

حين سمعت على لسان أحد الضباط في بداية أزمة كورونا وهو يبدأ حديثه بصوت جهوري قائلاً: بيان رقم واحد... سَرَت على جلدي قشعريرة وهبط في قلبي ما يشبه سقوط صخرة على وجنة زهرة...

ألقيت نظرة على مكتبتي «أغلى ما أملك» ...

ثمة فوضى في الصفوف المتعرجة... والكثير من التراب الناعم..

يداهمك الرضا وأنت تهمس لروحك: هل قرأت كل هذه الأوراق؟؟؟

يسقط من بين دفتي كتاب عرق ياسمين... تنظر إلى الورقة، هنالك رسم قبلة لشفتين ؟؟؟

عبثاً تحاول أن تصل إلى هوية «الفاعل» ... تجفف عن جبينك عرقاً ينسال بغزارة..

أنجزت بعض «النظام» للصفوف المتعرجة..

أفعل ما يفعل عمال الورشات حين تزف استراحة المحارب

أُعدّ إبريق شاي ، أسند ظهري إلى الجدار، أشعل سيجارة وأطيل النظر حولي... الى الدفاتر العتيقة وما أكثرها... !!!

خليط من الأوراق... قواشين لأراضي لن تعود، ونصف رسالة حبّ تعذّر الحصول على عنوان المرسلة إليها..و شهادة ميلاد ملتصقة

بصورة خالة ترملت على أثر رصاص فرح بمناسبة «الانتصار» في معركة الكرامة...

أشرعت دفتي خزانة الملابس...

تتجلى فوضى «العزوبية» ... وانتهاء «صلاحية الموضة» ...

و أحذية تنتمي إلى أرصفة غادرت «الصياغة» منذ زمن...

أربطة عنق مزركشة وسادة ومعرقة... بعضها عادت إليها الموضة من جديد...

أقدمها مرسوم عليها جمال بأعناق طويلة بقماش حريري «أحبها إلى القلب» ...

وذات زمن أفرحتني رؤيتها تتدلى على صدر المرحوم الحسين بي طلال...

رنَّ جرس الهاتف... تسألني أمي عن الحال ؟؟؟ عندك خبز يما؟؟؟

والدي قلق: معك مصاري يا ولد ؟؟؟

صارت المكالمات يومية وبنفس الإيقاع.... أنت منيح ؟ أنا منيح... إنتوا مناح ؟ إحنا مناح....

أختي تفكر كيف يمكن إيصال طنجرة محاشي من دابوق إلى الشميساني..

أخي «صاحب حرية» الحركة «بحكم رتبته العسكرية يطمئن على مخزوني من «النيكوتين والقطران»؟؟؟؟؟؟...

حارس العمارة يعلمني: غريب يا أستاز.. فواتير الكهربا متأخرة الشهر دا ؟؟؟؟

أردت أن أقول له شيئاً عن «الخوازيق المؤجلة» ... ولم أفعل...

**17**

**الأربعاء. 15 نيسان.**

بدأت تظهر أعراض «النزق» ... يسفر الملل عن ملامحه..

في المبنى المجاور حيث أسكن لم يسبق أن سمعت أدنى ضجيج...

في غمرة الصمت تصلك الأصوات أنقى من خرير نبع في أول الربيع...

صوت أنثوي يصرخ: زهقت هالعيشة بين خمسة حيطان....

الصوت الغاضب يرد: شو قصدك يا بنت.... ال.....

نعت زوجته بصفة بذيئة من العيار الثقيل...!!!

سمعت خبط شيء يتكسّر، أعقبه الصوت الذكوري الغاضب: واسطة أبوكي كانت قوية في الأحوال المدنية... أقنعهم أن جنس المولود «أنثى» ...

يبدو أنه يوم «الردح الوطني» ...

«الدلوعة» تؤكد لحارس العمارة: مو هادا نوع العلكة... أحكيلو بدون سكر...

يقلب نظره في السماء، يبثّ شهيقاً ويطلق زفيراً...

الساعة تقترب من التاسعة مساء..

ـ مو هادا البزر... أحكيلو... مالح... لا تتأخر...

أتذكر مقولة أبي قاسم الذي كان يكرر دائماً: يرحم جدكم إليّ كان يتهاوش مع الحمار على قشر البطيخ.. العرق دساس...

يهرول الحارس.. كان ينتعل «زنوبة» تحدث طرطقة وهو يحث الخطى..

يمسح طرف جبينه وشفتاه تتمتم بكلمات عن الصبر وأيوب...

الرجل الغاضب في المبنى المجاور وهو يغلق بعنف نافذة غرفة النوم، رآني حيث أقف أمام المجلى عند نافذة مطبخي: أخ لو المحاكم الشرعية مش معطلين...

لا تسمع في الشوارع المحيطة لحارتنا غير أصوات العمال الوافدين..

قامات نحيفة، ملامح سمراء، أغلبهم تتدلى حول أعناقهم سماعات الهواتف الخلوية..

وتسمع بعض الحديث:

ـ والنبي يا مدام الكوسا خلصت من شوية...

حاضر... مربى مشمش.. وسجاير لايت... حاضر...

ـ بيتقولي إيه حضرتك ؟ أيوه... حليب خالي الدسم... وتفاح أخضر... حاضر...

ـ هو أصله مقطوع يا مدام من يومين... لأ ما فيش غير فلفل أسود... حاضر..

ـ يا مدام ما أقدرش أروح بعيد عشان خاطر منع التجول وحضرتك عارفة أصل تصريحي خالص..

على امتداد الشارع من مدرسة راهبات الوردية باتجاه مول بلازا تصطف عشرات السيارات... أمام مداخل البنايات يتوزع ويتلون المشهد...

الشغالة الآسيوية تدفع بساعديها الكرسي المتحرك، حيث تربض السيدة ذات الشعر الناصع الأبيض، ترجف أصابعها وترسل نظراتها في الفراغ... فوق ساقيها غطاء ذو أشكال مربعة باللونيين الأسود والأبيض..

لمة صبابا عاطلات عن الدراسة، يرقص بينهن كلب أشقر اللون مع تموج بني، غزير الشعر يكاد يغطي أنفه وفمه... وعلى ظهره ما يشبه الغطاء وقد تدلى من عنقه جرس مربوط بحبل يصل آخره إلى معصم فتاة ترتدي بنطال «جينز مخزق»، وعلى ذراعها وشم لتنين مكتوب عليه «سامحتك كتير» ...

صار لدينا أربع حالات إأصابة جديدة ، ليرتفع الإجمالي إلى 400...

أحدهم سائق «تريلا» قادم من دولة خليجية...

يبدو أن من شدة شوقه أقسم اليمين على أن يعدي نص الحارة...

**الخميس. 16 آذار...**

تمت دعوتي إلى «خلوة عاجلة» في بيت أبي قاسم..

كان ذلك قبل زعيق صفارة الإنذار بقليل..

مساء هادئ، كانت السماء قد جادت بزخات غيمة عابرة... ثمة رائحة عشب طازج وعبق ياسمين مؤقت في أول دلعه... في زمن أوامر الدفاع تكاثرغناء العصافير.. قال أحدهم على إحدى المحطات بما معناه: خزق الأوزون توقف عن تلوث البيئة..

سألني على الهاتف جاري الأرمني: شو قصة الاجتماع عند أبو قاسم ؟؟؟

ـ علمي علمك يا جاري.. إن شالله خير..

ـ ماشي... بنلتقي فوق.. يمكن ناوي يسكر الدكانه... «سمعت انها مش زابطة» ...

بدأ الاجتماع الثلاثي...

لمحت أم قاسم عند طرف باب المطبخ جالسة أمام طاولة، منهمكة في حفر كوم من حبات الكوسا.... أشارت إلينا بالسلام... تناهى إلينا همس أصوات نسائية..

نزع الأرمني كمامته وكذلك فعلت، أبو قاسم مقتنع أن الشماخ

يؤدي دوره على أحسن وجه..

ـ الدنيا مسا... الله يمسيكم بالخير...

النبي وصّى بسابع جار...

تنحنح قليلاً ثم أردف: الدنيا عسر ويسر... وعلى رأي المثل:

لم يكمل المثل... لبى نداء أم قاسم التي أعدّت لنا القهوة..

همس الأرمني في أذني بعد أن ارتدى الكمامة: يمكن طفران... بدو مصاري.. ترى أنا على الحديدة...

تم توزيع فناجين القهوة بعد أن أغلق باب المطبخ من خلفه... لم نعد نسمع الهمس النسائي...

ـ يا إخوان...

بدأ حديثه...

كان يتكلم ببطء شديد، وكأنه يزن كل كلمة قبل أن يلفظها...

ـ على خير وهداة بال...بكرا جاهة بنتي سلمى.. العريس مهندس، ملازم أول في الجيش.. عصام ما غيرو ابن جارنا أبو الوليد.... جماعة محترمين... الولد نشمي..

قاطعته وأنا أنظر إلى الأرمني بالقول: أبو قاسم في منع تجول إلى صباح الأحد..

أكّد الأرمني بأن قال: الغرامة 110 دينار ومصادرة السيارة وتحويل إلى المدعي العام

من يومين تم توقيف ضابط ونائب سابق... الجماعة ما عندهم

مزح هالمرة..

أبو قاسم وقد اعتلت محياه علامات الضيق: بعرف... بعرف...

العدد محدود... من نفس الحارة.. العريس وأهله.. ومن طرفنا.. يعني عالضيق..

مش هاي القصة....

تشاورت أنا وأم قاسم: من رأيها جاهة النسوان عندنا وعند دار أخونا الأرمني

وجاهة الزلم في بيت عوني... عالضيق يعني... كتب كتاب وتلبيسة العروس وكنافة.. حفلة عالهادي... عالضيق..

خيم علينا الصمت...

سمعت أزيز باب المطبخ ، ، ،

رأيت طرف شال أم قاسم... من الواضح أنها كانت تسترق السمع..

سألت بينما كان جارنا الأرمني يتحدث بالأرمني إلى زوجته على الهاتف: طيب.. عملوا فحص التلاسيميا وشو بالنسبة للمأذون ؟؟؟؟

ـ كل شي مرتب وحياتك... جارنا مازن طبيب الأسنان.. ما قصّر... أخذ العرسان بسيارته لمستشفى الأردن... وصاحبك الشيخ عدنان تمّ إبلاغه، نشمي هالشيخ... وأزيدك من الشعر بيت.. جارنا أبو عماد دق على صدره بشأن الكنافة... لم نكن نعلم بأن جارنا الجديد

يدير محل حلويات في طبربور.

جاري الأرمني أخبرني بأنَّ زوجته لا مانع لديها... بل غمرتنا بكرمها: تسريحة العروس عندي..

من طرفي أعلنت ترحيبي... وقلت: البيت بيتكم...

من محاسن الصدف أني أجيد صنع القهوة السادة ولدي «بكرج» قهوة جاءني هدية من الديار المقدسة...

تم تحديد فترة فعاليات الخطبة.. من السابعة إلى التاسعة مساء

بعد معاينة عدد الكراسي في منزلي قمت بتمرير المعلومات إلى أبي قاسم الذي بدوره أجاب: بركة... عقبال فرحك حبّوبي..

ساهم جميع سكان العمارة بأن أشعلوا كل لمبات البيوت الخارجية...

حارس العمارة كان قد أنجز مهام نظافة بيت الدرج، وارتدى قميصاً أبيض..

جلسنا بانتظار الجماعة الذين لا يبعد منزلهم سوى عشرين متراً...

أشرعنا بوابة العمارة....

تم تكليف خليل الابن الأصغر لأبي قاسم بالمرابطة في الشارع لإأخبارنا بقدوم الجاهة...

سمعنا زعيقه: هيهم جايين يابا...

طلب مني أبو قاسم أن أحتل أول الصف.. وكان قد كلّفني بأن أردَّ على الجاهة عند الطلب ومن أجل إضفاء مزيد من الهيبة ارتديت دشداشاً أبيضَ، واعتمرت شماغاً أحمر مهدّباً.. وألقيت فوق كتفي

عباءة مزركشة بخيوط ذهبية..

سلمنا على أعضاء الوفد... من خلفهم رفيف نساء... لم أتمكن من عدهن...

حمدت الله على اتساع بيتي...

كبيرهم الذي يرتدي بدلة أنيقة وربطة عنق زاهية الألوان.... جلس في صدر الصالون

كنت قد علّمت خليل بأن يصبَّ فنجان قهوة ويضعه أمام الرجل الأنيق..

تمت مراسم الطلب والقبول والتفاصيل المالية... إلخ...

حسدت العريس على قصة شعره... ولمعان رقبته...

جارنا الحلواني في كراج العمارة ينزف عرقاً أمام صدر الكنافة وهو يوزع القطع بالقسطاط...

لا تجد ما تقول في هذه المناسبات....

تكتشف أن ما لديك من أخبار يعلمها الجميع...

أطلّ خليل زاعقاً: يابا.. أمي بتقلك خلصت الكنافة عند النسوان...

ودّعنا الرجال...

بينما امتدت سهرة النسوان إلى ما بعد التاسعة...

و بالرفاه والبنين...

## 19

**الأحد. 19 نيسان...**

يصادف اليوم عيد الفصح المجيد لكافة الطوائف المسيحية...

اعتدتُ منذ عهد من الزمن تهنئة الأصدقاء والزملاء..

انتهز بعضهم المناسبة وبادر مسبقاً: «رمضان مبارك»

تعادلنا... المسيح قام والشهر الفضيل قادم... تجمعنا الكورونا تحت سقف الأمنيات أن تأتي الأعياد القادمة وقد تحررت أرواحنا من هذا الكابوس..

مساء أمس تلقّيت دعوة لتناول الغداء في منزل أصدقائي «الفنيقيين»

كلود وزوجته بولين لبنانيان يقيمان في البلد منذ سنين... آخر الأصدقاء الطيبين...

من حارتي في الشميساني، إلى منزلهم في ديرغبار، أمامي ساعة من المشي على الأقدام

انتعلت حذاءً رياضياً خفيفاً، وأخيراً حلقت ذقني، لا وقت للأناقة، أغلبنا على امتداد الشهر الماضي اكتفى بالقليل من الثياب... مع بروز واضح لوزن زائد...

حركة سيارات نشطة بعد يومين من المنع الشامل للتجول... ثمة غض بصر وروح تسامح لدى دوريات الشرطة..

افتقدت عند تقاطع حدائق الملك عبد الله بائعي الورد والجرائد،

والرجل المقعد بائع العلكة الذي كان يقترب من نوافذ السيارات عند الوقوف أمام الإشارة الضوئيه...

أوقفني شاب يرتدي كمامة، تبدو عليه ملامح الحيرة...

سألني بأدب هازّاً رأسه وهو يرفع قبعته: سير...وين دوار... خمسة...

أيقنت من لهجته أنه غريب ديار... ربما هندي..

حين يفاجئنا أحد بمثل هذه الأسئلة نتلفت حولنا ونفرك الجباه بأطراف أصابعنا

أشرت إليه بالاتجاه الصحيح...

شكرني باللغة الإنجليزية...

حسدته على رشاقه خطواته...

رأيت وأنا أسحب قدميّ الكثير من الدراجات الهوائية... أغلب الذين يمتطوها صبايا وشباب وبعض الأجانب..

في الساحة الممتدة أمام فندق الفور سيزن جلست فوق درج رخامي أستردُّ بعض أنفاسي

حارس الفندق اقتربَ مني مادا بيده زجاجة مياه صغيرة... الرجل بكامل الأناقة الكورونية: قفازات لون حليبي وكمامة شبه جديدة.

سألته عن الشغل...

ـ أي شغل عمي: شوفت عينك، مواقف السيارات منذ شهر خاوية على عروشها..

شكرته على «شربة الماء» وأنا أجهز جثتي للمسير..

رأيت في عينيه ما يشبه الرجاء أن أطيل البقاء...

هوانم تحايلن على شروط خريف العمر بصحبة كلاب ذوات شعر كثيف وقوائم قصيرة.

يحدث لقاء سريع بين كلاب الهوانم، احتكاك على الخفيف مع نباح خافت.. بماذا تهمس الكلاب لبعضها البعض ؟؟؟ كان لي كلب ذات زمن بعيد، وكنت حين أقوم بنزهته الصباحية أراه يشتمُّ بين الحين والآخر جذوع الأشجار التي نمرُّ من جوارها...

و قد علمت السبب من جارتي «الضليعة» في عالم الكلاب حين أخبرتني بأن الكلاب تفعل ذلك لتشمَّ روائح كلاب أخرى.... يعني تبادل رسائل شوق...؟؟؟؟

كنت اقترب من الدوار الخامس.. الذي يحمل اسم أحد الأمراء.

تفصح الشوارع عن هويتها باختفاء الناس، للمدن مذاق مختلف وأنت شبه وحيد في هذا السكون المدوي.. تغزوك وجبة دسمة من صفاء الذهن..

شمس النهار تجود اليوم بكرم دفء لذيذ

يلوح الربيع بمنديل الوداع... بقايا عشب في النزع الأخير، يطل من بين إسمنت الرصيف..

كنت أقول لها ذات حبّ رحل: سرق الربيع ألوانه من بيدر عينيك...

نهار لا يبدأ برنين هاتفك لا يجوز فيه الفرح.....

ثمة أماكن ومواسم وغناء يتحالفون ضد «حزنك القديم» ...

شوارع الصويفية ذاوية كعريشة عنب لم يقطف أحد عناقيدها...

طاولة الطعام جاهزة... تم ترتيب المقاعد على شكل مثلث...

يتخلى عنك شعورالحرج في بيوت من تحب..

تناولت بولين طبقي وسكبت بما يشبه تلة صغيرة من «التابولة» ..

بينما انشغل كلود بإعداد كوؤس «العرق البيتوتي الأصيل» ...

كرم القلوب أغنى من كرم الجيوب....

حكينا كتير ونحن جالسين نرشف القهوة في الشرفة المطلة على الشارع الممتد من طرف الدوار السابع إلى المثلث الذي ينحني يساراً إلى حيث مطرانية اللاتين...

للمرة الأولى على مدى سنين من صداقتنا كنت أنظر إلى ساعتي...

بعد قليل يقرع الجرس...

تعود وحيداً حيث جدران الوحدة بانتظارك...

**20**

**الثلاثاء 22.نيسان**

طقس متطرف يتبرأ من تحرش آخر نسيم ، غبار الخماسيني يشبه الكورونا يفتك ولا تراه، كم من عدو لا نراه ؟؟؟... صباح صيفي

كامل الدسم... شجرة اللوز اليتيمة عارية الأغصان... وقد أحنت قاماتها نحو حضنها المهيأ للغياب المؤقت...

أنظر من نافذة المطبخ... صديقي الطفل الأيرلندي أندرو يلهو بكرته في ساحة الكراج

يبتسم لي ، يرفع يده بالسلام قائلاً: سلام... يقذف بالكرة نحو الجدار... ترتدّ إليه، يعالجها بضربة مرتدة... يزم شفتيه ، تعلو فوق محياه علامات غضب ما..

هل يلعب الطفل الأيرلندي أم يفرغ ملل الحصار ؟؟؟

الجهات الرسمية تعلن: لا إصابات جديدة..

يقترب عدد المصابين من ثلاثة ملايين...

موسم التقوى الجماعي يقترب...

هل من مراسم هذا العام لتحري الهلال ؟؟؟

أقصد مجلس أصحاب السماحة والمعالي والعطوفة المتراصين بملامح الوقار أمام الميكروسكوب قبل الغروب... وثمة مذيع تتعلّق عيون المشاهدين بطلته، ويعقب ذلك دعاء مولانا بأن يزيل الله الغمة عن الأمة ، تخلو الديباجة منذ سنين عن عودة القدس، لا يهم.. فالقدس «خط أحمر»، قد يدعو هذا العام شيخنا بالشفاء للإنسانية جمعاء

أفتى سماحته في وقت لاحق: تجوز أشكال الزينه في الشهر الفضيل.. وأضاف: صلاة التراويح «بيتوتيه» لهذا العام... الكثيرون هدأت نفوسهم وتنفّسوا الصعداء

وزير المواد التموينية بدوره يؤكد: مخزون «الطبيخ» مريح..

ثمة حيرة عند الحكومة بشأن القطايف والتمر الهندي والعرق سوس!!!

من المؤكد بأنَّ أمر دفاع جديد سيضع حدّاً للغط الدائر بهذا الخصوص..

وفي الأسبوع الأخير أمر دفاع آخر عن «آلية» صلاة العيد... وتفاصيل «الزكاة»

والنصائح المتعلقة بقضايا صلة الأرحام ورضا الوالدين وإطعام المساكين وعابري السبيل.. إلخ.. إلخ..

هل تختفي يا تُرى بسطات الفجل والجرجير وأكياس عصير الليلمون على الأرصفة ؟

وأصحاب القلوب الطيبة وهم يوزعون حبات التمر وكوؤس الماء عند الإشارات الضوئية قبيل موعد الإفطار ؟...

بينما كنت أُعدّ «غلاية قهوة أخرى» ... عزف هاتفي يعلن وصول رسالة نصية

تسأل حلوة العينين: شلونك ؟؟؟

ـ لون رضا خدود الصحراء إذ تعانق شفاه المطر...

تعلو ضحكتها، يصير نهاري أجمل وأحن من دعاء قلب أم تحمل صرة صبرها في يوم زيارة ولدها السجين...

## 21

**يوم الخميس. 23 نيسان.**

يمعن الربيع هذا العام في التردد ، أوله مطر وأوسطه ريح، وآخره بعض غيم حائر.

لا بهاء للدحنون ولا رفيق للورد الجوري سوى الغبار السري العابر..

من علم الغبار وقاحة السطو على خدود الأوركيدا ؟؟؟؟؟

و أباح الفوضى بين أعناق السنابل ؟؟؟

أسعى إلى عقد هدنة بين الأحكام اللئيمة، وهذا الشوق لأبسط الأمنيات..

يوزعني الوقت على طرفي الحرمان والرغبات...
إلى أين يقودنا كلُّ هذا الصبر ؟؟؟
إلى أين تأخذنا يا سيد الجهات..؟؟؟
الموت «رقم» ... يعلن على مهل أعداد «الفجيعة» ...
لا قت للحزن... دع دمعك إلى إشعار آخر..
تأخذك الرعشة تلو الخيبة... إلى حيث لا تدري..
نودع موتانا على عجل...
لا وقت للوداع...
فارغة أروقة المساجد..
نحمل على الأكتاف نعش «أرواحنا» ...

الموتى لا يتألمون...

قد يضرعون: «غادرونا» أيها الباقون..

وقد يطلبون المعذرة لهذا التوقيت...

أعلن سماحته: غداً أول أيام شهر رمضان... بدون صلوات التروايح، ولا تجول بعد السادسة مساء.

عدد إصابات الكورونا «نفران» .

لم يخطر ببالي مرور دورية شرطة في أعلى الشارع، حيث كنت عائداً من دكان الحارة إلى منزلي...

كنت أقود سيارتي حين لمحت ذراع الضابط من نافذة السيارة، يطلب مني الوقوف وقد رافق ذاك إطلاق زامور الإنذار..

سألني بلهجة لا تخلو من عتاب صارم: هل تعلم أنَّ التجول بالسيارة ممنوع؟

ـ خرجت لشراء «شوية أغراض»، وأشّرَت إلى الأكياس الجالسة إلى جواري.... بيتي في نهاية الشارع...

أعاد نفس الموشح: ممنوع يا حجي التجول بالسيارة... ما عندك أولاد.. زوجة.. ؟؟؟

ابتسمت وقلت له: وحياتك لا زوجة ولا أولاد...

تبدلت ملامحه وشبح ابتسامة طفت تحت شاربه الكثيف: ما حدا قدك، اللهم لا حسد...

أخلى سبيلي والابتسامة تتسع عل وجهه: توكل على الله ، ، ، دربك خضرا.

## 23

**يوم الجمعة. 24 نيسان**

اليوم الأول من رمضان «موسم التقوى الجماعي» ...

يخبرنا القرآن بأن الصوم فرض علينا كما فرض على غيرنا من الأمم بل إنَّ بعض المصادر تقول إنّ عرب ما قبل الإسلام كان لهم أيضاً صيامهم، ويطوفون حول الكعبة ويحرمون شرب الخمر والميسر، ووأد الإناث، كان اسمهم الطائفة الحنيفية..

صوم وكورونا ويوم جمعة ومنع تجول... ومحطات إذاعية تبث المواعظ وصوت ناي حزين.

يرافق برامج الأحاديث التي حفظناها عن ظهر قلب...

يسأل أحدهم شيخنا عبر الأثير: هل تبطل الكمامات الصوم ؟؟؟

آخر يريد أن يتأكد: شو بالنسبة لوصل الأرحام شيخنا ؟؟؟

صوت نسائي ناعس: شيخنا.. هل أحمر الشفاه يبطل الصيام ؟؟؟

بعض الأسئلة أطول من إجاباتها...

بعضها الآخر يعرف تحريم ما يسأل عنه، راجياً أن يتعاطف فضيلته ويحلل ما حرم الله.

يبدو ذلك واضحاً من نبرة السائل...

أخبرني أبو قاسم بأنه اعتاد ختم القرآن في الشهر الفضيل..

تلاقينا في كراج العمارة...

كان يرتدي ثياب النوم، نفس البيجاما ذات الخطوط الزرقاء وقد اعتمر قبعة صوفية ملونة... لاحظت انتفاخ جيب سرواله... شيء بحجم علبة سجائر..

أخبرني بأنَّ قلبه يتوجع لعدم زيارة أخته الأرملة هذا العام، والتي تقطن في إحدى قرى إربد..

نسي أبو قاسم ما رواه لي ذات سهرة عن القطيعة مع أخته، والتي ما زالت قائمة منذ عشرين سنة على أثر خلاف حول ورثة والدهم... هي قطعة أرض لا تتعدى الدونم.

بالرغم من أنَّ البلدية وضعت اليد عليها لتوسعة الشارع مقابل مبلغ مالي للورثة، غير أنَّ سوء الفهم استمرّ إلى يومنا هذا...

سألني إن كنت صائماً...؟؟؟

قلت له: هذا شأن خاص مع الله...

أراد أن يؤدي دور الواعظ: يوم لا ينفع مال ولا بنون...

هل تعلم أنَّ في الجنة باباً يسمّى الريان، لا يدخله غير الصائمين؟؟؟

أجبت ؟ وهل تعلم أنّ هناك في الجنة باباً اسمه الصبر ؟؟؟ دلالة على ما يحتمل البشر من بعض البشر ؟؟؟؟

ـ اعذرني جارنا، لا أقرأ الكثير من الكتب الدينية... زوجتي لديها

الكثيرمن الكتب عن الطبخ وعذاب القبر، وتفسير الأحلام وأهوال يوم القيامة.. «اشي بقشعر البدن يا خوي»

ـ أبو قاسم لا توجد آية قرآنية واحدة تتحدث عن عذاب القبور.

صوت أقدام تقترب من درج العمارة...

جاري الأرمني يلقي علينا السلام ويبارك لنا بحلول الشهر الفضيل...

بكامل أناقته... بدلة لون كحلي وربطة عنق «فايعة» ... على

جانبه الأيسر يلمع العلم بألوانه الأربعة...

يخبره أبو قاسم عن حظرشامل اليوم للبشر..

يبتسم الأرمني... تعلو وجهه ملامح رضا...

أبو قاسم يفاجئني: خطبة بنتي سلمى على المهندس «مش زابطة».

## 24

**السبت. 25 نيسان**

في وفرة الأشياء تغيب الرغبات...

الحرمان ينبت الشهوات.. والصبر سيد يطاع أمره..

غياب من نحب يشعل الغضب في القلب...

على كاهل الروح يمتدّ جدار الفصل بين شفاه عطشى وخدود أضناها الجفاف...

طقس مغبر وحرارة تمارس أقصى درجات «الولدنة» ...

حيث تمتد يدي تلمس غباراً ناعماً.. تنظر إلى أصابع يديك وقد تكحلت باللون الأصفر

بلاد الرمال والربيع المنزوع الدسم...

أسمع ترتيل القرأن بصوت عبد الباسط الآتي من غرفة الحارس..

هو عامل، وافد وهذه هي التسمية الرسمية للمصري الذي يعمل في البلد الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن الكريم... «ادخلوها بسلام آمنيين» ...

شكا لي رمضان أكثر من مرة مما يعانيه من غنج بعض الهوانم....

وقد أقسم لي: والنبي يا أستاز دنا شايف المر من أم... دي أول امبارح مودياته السوبر تلات مرات عشان خاطر ضمة بقدونس... ملعون أبو الغربة...

تخيلوا معي البلد بدون الإخوة «الوافدين» ... يزرعون أرض الغور، يحرسون البيوت، يعملون في ورش البناء، عمال وطن... من ينظّف البلد سواهم ؟؟؟

اقترحتُ عليه أن يعلن مواعيد ثابته كل يوم لقضاء حاجات الهوانم.. والجمعة عطلة رسمية.. والعمل من الساعة الثامنه صباحاً إلى الخامسة مساء..

ـ ربنا يكتر خيرك يا أستاز...

وقد كتبت صيغة الاتفاق، وتمَّ تعليقه على زجاج كل السيارات الرابضة في الكراج..

إصابات الكورونا: فقط حالتان... ولا بوادر لنجاح الوصول إلى عقار يوقف هذا البلاء

دعاني أبو قاسم إلى تناول طعام الإفطار، حضر المأدبة الأرمني والحلواني أبو عماد، وأبو الوليد والد العريس المهندس عصام...

قبل رفع أذان المغرب ونحن جالسون امام المائدة العامرة تناول الأرمني نصف حبة فجل...

همست في أذنه: جاري لم يحن بعد موعد الأذان...

حين رأى كل العيون مصوبة نحوه قال: سامحونا يا جماعة...

وقد صوب نظرة حادة إلى أبو قاسم: كمان التدخين ممنوع أبو قاسم.؟؟؟

قال الجملة الأخيرة عند رفع الأذان...

الدعوة لهذا الوليمة كما فهمنا لاحقاً يندرج على جدولها بند «الأزمة» التي أصابت علاقة النسب بين أبي الوليد وأبي قاسم.. وامتد الأخذ والردّ إلى منتصف الليل...

## 25

**الأحد. 26 نيسان**

ليلة أمس كانت عاصفة في بيت أبي قاسم..

بعد الانتهاء من تناول طعام الإفطارحيث احترمنا مسافات التباعد. انتقلنا للجلوس في صالة الضيوف.

التلفزيون يبثّ برامج ما بعد الإفطار وتسأل: من سلّط علينا كلَّ هذا «القرف».

بدلاً من قمر الدين والقطايف يستحق المشاهد حبوباً مضادة للكآبة.. وتحاميل منع الشعور بالهبل..

حملت إلينا أم قاسم فناجين القهوة، وانزوت إلى داخل المطبخ.

كم نحن متشابهون إلى درجة التطابق..

لون الستائر، أطقم المقاعد، دهان الجدران، رخام البلاط، على الجدار لوحة زيتية لحصان وسط المراعي، يمتدّ عنقه نحو مجرى نهر دافق، واخرى لآية الكرسي إلى جانب صورة غير ملونة لأبي قاسم وحرمه تنتمي لعهد بائد.. متجاورين وكلٌّ منهما منتصب القامة ، ينظران إلى السقف..

جارنا الحلواني أبو عماد يسأل بلهجته النابلسية وعلى محياه ما يشبه دهشة طفل:

ـ يسلموا ايديها أختي ام قاسم ، ، عئبال الفرحة الكبيرة يا رب...

كان يمغط الحروف بكامل الوفاء لجذور ربعه..

أدّوا صلاة المغرب جماعة بقيادة الحلواني...

له صوت رقيق يكاد ينزلق حرف القاف إلى غير لفضه من الإدغام..

يسألني الأرمني هامساً: شو بقية البرنامج عندكم بعد الأكل والقهوة والصلاة ؟؟؟

وأضاف: رمضان السنه بلا تراويح...

والله صيامنا «أصعب» ... لا لحمة ولا جاج ولا بيض ولا لبن...

أبو قاسم أغلق باب صالة الضيوف... أراح أعصابنا بأن أطفأ التلفزيزن..

نسيبه أبو الوليد جلس في المقعد الأخير المطلّ على حديقة المنزل...

كان ترتيب جلوسنا مشابهاً لحضور حفلة الخطوبة التي لم ينقضِ عليها سوى أسبوع.

أبو الوليد فتح الجلسة بأن تلا علينا آيات قرأنية تتحدث عن أبغض الحلال عند الله، أعقبها بحديث نبوي عن الغبن والغش..

ساد صمت القبور...

أنظارنا مصوبة نحو أبي الوليد الذي داهمته نوبة سعال جاف وأضاف: زي ما دخلنا بالمعروف...

أسهب في حديث طويل أطول من يوم جمعة في حياة أعزب...

لم ينطق أبو قاسم بحرف...

نهض بقامة محنية يفرك كفاً بكف... غادرنا إلى المطبخ وقد تناهى إلى أسماعنا خليط أصوات، كان أكثرها وضوحاً صوت أم قاسم..

الأرمني يدنو برأسه نحوي وهو يزيل طرف الكمامة: يعني بدهم الطلاق...؟؟؟

لكزته من طرف خاصرته... رجوته بأن يصمت...

التفاصيل رواها أبو الوليد..

أثناء زيارة العروس إلى بيت أبي الوليد حيث تمت دعوتها من شقيقات العريس عصام

لاحت نظرة من أم العريس إلى كتف سلمى، تحديداً من أسفل العنق نحو الكتف الأيسر

وعند سؤالها أجابت: هاي «وحمة» خالتو... وكمان أخوي خليل عنده متلها.. بس أكبر شوي... بابا عالخفيف...

و حيث إنَّ كيدهن عظيم فقد تمت معاينة حثيثة للعروس...

قال: «وحمة... قال... على مين ؟؟؟ هذا برص.. نعم برص...»

بهذه الكلمات أنبأت أم الوليد زوجها... وتمّ إعلام العريس هاتفياً حيث إنّ حالة الطوارئ بسبب قصة الكورونا استدعت تواجد كتيبته في إحدى نقاط الغلق خارج العاصمة... وقال لأمه بلهجة عسكرية صارمة: اعملوا ما يجب..

عاد إلينا أبو قاسم حاملاً صينية فضية بأكوام من الفاكهة..

يبدو أنّ أبو القاسم غادرنا متعمداً؛ لنسمع القصة من أبي الوليد من طقطق إلى السلامة عليكم...

شعرت بواجب التدخل...

أردت أن أقول:

شدني من طرف يدي: لا تغلب حالك...

نهض ابو الوليد يستعدّ للمغادرة...

عند باب البيت قال: كلّ شي قسمة ونصيب...

وكأنَّ على رؤوسنا الطير...

سمعنا شهيقاً يفطر القلوب من ناحية المطبخ

وأدعية شتى..فيها غضب ساطع...

**26**

**يوم الثلاثاء 28 نيسان...**

فسخ خطوبة سلمى بنت أبي قاسم بالمعنى الشرعي مسألة وقت...

العريس «مشغول» ... وحدته العسكرية في حالة طوارئ..

زرتُ إمام مسجد الحارة الشيخ عدنان بناء على طلب من أهل العروس

كان يجلس في باحة المسجد تحت شجرة التوت الوارفة الاخضرار وإلى جواره قطته الغزيرة الشعر... تداعب طرف قطعة خيش تتدلى على أطراف جرة ماء من الفخار.

أسماها دلال...و كان يبتسم حين كنت أناديه «أبو هريره» ...

ـ هل تذكر خطبة ابنة أبي قاسم..

قبل أن أنهي قاطعني وهو يلوك مسواكه...

ـ على الضابط المهندس... ؟؟؟...

ـ نعم..

ـ خير ؟؟؟؟

ـ والله يا صاحبي في نية طلاق...

ـ عادي..

قالها بحياد أفزعني..

وأضاف: يتمّ تسجيل 67 حالة طلاق في البلد كلّ مغيب شمس. أرقام رسمية من دائرة الإفتاء...

وأغلبهم «هيك» مثل جيرانك في فترة الخطوبة...

مسّد لحيته المطلية بحناء طازج... وسأل: على «شو» اختلفوا ؟؟؟؟

ـ لم يختلفوا... يدعي أهل العريس أن البنت مصابة بالبرص..

اسرع الشيخ عدنان وأجاب: طلاق عالسريع... والعياذ بالله..

وسرد لي لائحة من الأحكام الشرعية... وحديث نبوي عن الجذام والبرص..

أحسد الشيوخ على سرعة الافتاء...

وأكّد: بسيطة... شرعاً يجوز... قصتهم سهلة... حرام.. البنت مرتبة... وجامعية وموظفة.. يا سيدي.. الخيرة فيما اختار الله...

تركته مع قطته ومسواكه شبه المهترئ...

سألني وأنا أغادر باحة المسجد: متى «ناوي» تكمل نص دينك؟؟؟

ـ أخشى يا شيخي ان يرتفع عدد حالات الطلاق...

أراد أن يزكي صيامه بدعابة: الزواج أهم أسباب الطلاق...

قدت سيارتي عائداً إلى البيت الذي لا يبعد عن المسجد سوى ثلاثة شوارع..

عند الانحناء المؤدي إلى الشارع المغلق سيارة شرطة إلى الجانب الأيسر..

من النافذة اليمنى رأيت يداً تمتد إلى الخارج تشير إليَّ بالوقوف..

يسألني الملازم الشاب من خلف القناع الذي غطّى نصف محياه: وين يا حجي ؟؟؟

ـ عائد إلى بيتي..

ـ ما بتعرف عن منع التجول في السيارات...؟؟؟

ـ والله بعرف يا حجي. تعمدت أن أسميه «حجي» ..

خرجت لشراء بعض الحاجات للمنزل...

سأل مجدداً: خلي حدا من أهل الجار... أولادك... زوجتك..

حين أقسمت له بأني لست متزوجاً ولا أولاد لي... نزع الكمامة... أخرج رأسه من النافذة، تطلع وأطال النظر في لون شيب رأسي..: أمانة عليك صحيح «هالحكي ؟؟؟

هززت رأسي من الأعلى إلى الأسفل: والله صحيح...
اتسعت ابتسامة على امتداد وجهه: روح دربك خضرا.... الله معك...

# من نافذة بيتي

سميه عطا بشير الشخانبة

## 1

**اليوم: الأحد**

**الساعة: الثانية عشرة وخمس وثلاثون دقيقة بعد منتصف الليل.**

توقفَ الطلبةُ عن الذهابِ للمدارسِ، لكن ما زالت عروبة وسلمى تنامان مبكراً كما لو كُنا في يومٍ طبيعي، في الحقيقة، لا أستطيع الجزم بوصف يوم ما بالطبيعي وآخر بغير الطبيعي إلا بمنظور الروتين اليومي الذي يختلفُ من شخصٍ إلى آخر، وعلى الرغمَ من ذلك أكادُ أجزم اليوم تحديداً بأن هناك شعوراً غريباً ينتابُ الجميعَ من حولنا على اختلافِ طبيعة حياتهم وتفاصيلها اليومية.

شعورٌ يجعلني لا أستطيع إكمال الدرس الإلكتروني الذي أُتابعه بحماسٍ منذُ مدة، حيث كنت أكتبُ تفاصيله بشغف شديد على دفتر ملاحظاتي انطلاقاً من إيمانٍ داخلي متأصل بأن «ما لا يُدَون لا يُحفظ»! تابعتُ الدرسَ لأقل من خمسِ دقائقَ لأُغلق شاشة حاسوبي المحمول

بينما تُفلت أصابعي القلمَ بمللٍ شديد، تُترجمه تنهيدةٌ يائسةٌ أسأل بها نفسي... هل هذا حقيقي؟ ماذا سيأتي بعد؟

بَرد فنجان الحليب الذي أضعه مُنذ أكثر من نصفِ ساعةٍ أمامي، وأنا أسرح بخيالي ما بين الماضي والحاضر، ما بين الحلم والحقيقة، ما بين التكذيب والتصديق، ما بين المبالاة ونقيضها، والأهم... مسؤوليتي عن تلك الصغيرتين في ظل ظرف استثنائي لم نشهدهُ من قبلُ!

كنا نسمعُ في نهايات العام الفائت عن فيروس خطير يجتاح دولة الصين العظمى التي طالما أبهرتنا بمُنتجاتها واختراعاتها حتى ظنناها كوكباً آخر في مجرة بعيدة.

كانت بعيدة لدرجة لا يسعُنا القول أمام أخبارها الفيروسية الغريبة سِوى: ـ «نسمعُ ونسلم»، هكذا وبلا أدنى اهتمام ليطمئن القلبُ بعدَ قلبِ القناة التلفزيونية، وكأنّ الأمر لا يعنينا في ظل هذه الفجوة الجغرافية الكبيرة، وتكدّس الأخبار السيئة والغريبة المُنتشرة حول العالم من حرائق ومجاعات، وحروب وتغير مناخي، وكوارث طبيعية وإنسانية، يَظنّ أمامها الإنسانُ للحظةٍ ما بأنه بمنأى عنها لمجرد أنهُ يسترخي على أريكتهِ المريحة، ممسكاً بثبات الريموت الكونترول الذي يمنحه فرصة تغيير مناخه الفكري في ثوانٍ قليلة تُنسيه كلَّ ما كان في لُجة فضاءات المتعة والتسلية، التي لا نَجِدُ أكثر منها في صناديقَ كبيرةٍ

وصغيرةٍ حبسنا بها أنفُسنا بكبسة زرٍ تدوسها أناملُنا نحن لا غيرنا، وبسبق الإصرار والترصد.

لم نُطل الاستراخاء، ولم يُسعفنا جهاز التحكم الصغير في أيدينا، واقْتَرَبَ ما كُنا ندعو السلامة مِنه، ليستبيح عُقْر دارنا، ويُزاحِمنا في مجلسنا الوثير، فينفضُ عنا رداء الراحة والطمأنينة، ويُسدل علينا ظِلالاً من التوتر والفوضى التي لم نختبرها من قبل، ليتفق العالم المترامي الأفكار والمذاهب والأطراف على أنَّه أمرٌ غير طبيعي يفرضُ معه مرحلة غير طبيعية تكاد تمس الجميع دون استثناء.

أذهب للغرفة لأتفقد صغيرتيَّ النائمتين بكل سلام وبراءة، وأُفكر في أمر فيروس لا يُرى بالعين المجردة، بينما يستطيع اختراق العالم بأسره ليوقِف عجلةَ الحياة المُعتادة، فتدور الأرضُ بنا ويتعاقب الليلُ والنهار، ولا ينالنا سوى دُوار الوقوف طويلاً، حيث لم نعتد على ذلك من قبلُ!

كانت تلك سذاجة في التفكير عندما اعتقدت أنّ المسافات قادرة على خلق حواجزَ لا يُمكن خرقُها، في وقت يكادُ به يكون العالم بلدة صغيرةً يسهُل اختراقها فكراً وجسداً. اليوم وبعد خروقات وامتزاجات ثقافية وفكرية واجتماعية كثيرة، حان للجسدِ أن يتحرك ليُصبحَ الناقل الرسمي لفيروس شاذ وضئيل يُجثي العالم على ركبتيهِ فيما يسمى بالجائحة، فتتناقله الأجساد راغمةً في حِلها وترحالها،

ليجوب العالم مُعيثاً به الفساد مع سبقِ إصرار وترصد ودون رقيب... كُل هذا، لأجلس أنا اليوم بلا حولٍ لي ولا قوة، في بقعة قاصية من هذا الكون، وببيتٍ صغيرعلى طرف قرية بعيدة، أُجاهد شر الوساوس من حيث لا أعلم، وأشعر بنفسي أخوض حرباً ضد عدو مجهول الهوية، متقلب المزاج، لا أعرف منه سوى اسمه «كوفيد 19»! أظنُ أنّ اسمه أقرب لاسم إنسانٍ آلي مُطور، قد أستطيع كتابة رسالة أشرحُ له فيها أن لا مآرب له لديّ ولا حتى لدى غيري، لِنَحُلَّ الأمر بطريقة دبلوماسية سلمية، فلستُ ضليعة بمصارعة المجهول، وجسدي لا يتحمل شرور الهزائم، بينما قلبي... فهو أضعف من احتمال الفقدان!

ولأنَّ في الروح شجناً للحياة لا ينتهي، قَلَبْتُ صفحة التفكير البائس تلك، ووكلت لله أمري وأمر أُسرتي وأمر هذا العالم بأسره. شحذت روحي بقُبلةٍ على جبين الطفولة النائمة، وقررتُ الاستسلام لرفرفات الجفون المنهكة من مصارعة النعاس، وأنا أُواصل الثرثرةَ مع نفسي مُردداً عليها: «كلُ شيءٍ سيكون على ما يُرام» «كلُ شيءٍ سيكون على ما يُرام»!

## 2

**اليوم: الخميس.**

**الساعة: السادسة بعد العصر.**

تطورت الأمور كثيراً، وغدا ذاك الحُلم الغريب المزعج حقيقة حية نعيشها بكامل تفاصيلها في إطارٍ حياتي جديدٍ، انعكس بآثاره على

الجميع. في حينها، كان لا بُد من إعلانِ الحرب على الفيروس الشرس، ومنعه من فض حصون مُحيطنا الجغرافي. وبالفعل هذا ما كان، لتُطلقَ الحكومةُ صفارات الإنذار وتتوقف عجلةُ الحياة تماماً بعد ما كانت مقتصرة في بداية الأزمة على الجامعات والمدارس، ليطال هذا التوقف الآن كافة مؤسسات الدولة، ويتمّ إعلان العطلة في كافة البلاد إلى أجل غير مُسمى. وعلى أثره تحددت في البلاد ساعات التجوال من الثامنة صباحاً إلى السادسة مساءً، ومَنعتِ الدولةُ المواطنين من استخدام سياراتهم، والاكتفاء بالمشي لسد احتياجاتهم اليومية من الأسواق القريبة.

اقتضت تعليمات المرحلة الجديدة التشديد على إجراءات السلامة العامة والتعقيم المستمر، يُرافق ذلك ايقافٌ تامٌ لكل أنواع التجمعات حتى العائلية منها، والمباعدة بين الناس في كافة الأماكن لضمان عدم انتشار الفيروس وتفشي المرض!

لم يكن الأمر يسيراً على أيدٍ اعتادت التصافح في كل لقاء، فاندست الأنامل على مضض في سجونها الانفرادية، تحاول النأي بنفسها وغيرها عن ذاك المرض، وانتشرت لعنة الخوف لتذبُل معها القُبلات على خدود الأحبة، بينما بَرْد المسافة يطفىء دفء الأحضان المتحابة بلا حول منها ولا قوة.

تباعد الجميع وارتفعت أسوار البعد، فحتى أمي لم تعُد تزور

والدتها التي تبعُد عنها أمتاراً قليلة خوفاً عليها، لعلمها بأن هذا الفيروس تزداد شراسته حينما يستوطن أجساد الكبار والمرضى دون غيرهم؛ لضعف مناعتهم. ذلك الإحساس بالمسؤولية تجاه الآخرين لم يكن فقط لدى والدتي، بل تعداه لمجمل المحيط الذي ارتأى إيقاف الزيارات والاجتماعات من باب المسؤولية أمام الله أولاً بعدم رغبة أي أحد بأن يكون سبباً في ضرر الآخر، وتالياً مسؤوليتهم أمام المجتمع الذي نحن فيه كالبنيان المرصوص الذي يتداعى به كل فرد للآخر في السراء والضراء!

في ذلك الوقت كانت مشاعر الخوف طازجة وعجيبة لدرجةٍ حدت بالبعض لغسل أكياس الشيبس والبسكوت، والمعكرونة والحبوب بالماء والصابون! يبدو الأمر مضحكا جداً بالنسبة لي، فلستُ شخصاً يبالغُ في ردود أفعاله، وخوفي لم يلتهب بتلك الطريقة المتطرفة بالنسبة لي. نعم تساورني الشكوك ويدور طيف الخوف حولي يحاول تلبّس قلبي، ولكنّ شيئاً من الإيمان يُسدل عليَّ ثوباً من الطمأنينة، لأجدَ نفسي في شدّ وجذب بين مشاعر جديدة من الخوف والترقب، وأخرى متأصلة من اللامبالاة!

في السادسة تماماً من كل يوم، تجهر صفارات الإنذار بدويها الغريب الباعث على التوتر، مناديةً لوقف وقت التجوال، والتزام البيوت ومنع التجول حتى صباح اليوم التالي. كانت العصافير مصدر الإزعاج

الوحيد حولي بُعيد العصر، وكنت دائماً ما أفكر بطريقةٍ للتخلّص من تجمعاتها ومنع أصواتها بتعليق مرواح كرتونية، أو حتى وضع فزاعات صغيرة تمنع ضوضائها الرقيقة، والتي قد يحبّها الكثيرون، لكنَّ هذا الحبَّ قد يتغير مع فرط ثرثرتها وعلو صوتها الذي يفقدك التركيز بأي شيء، ويحرمك النوم الهانيء. وسبحان الله، لا يعرف المرء قيمة الأشياء إلا حين تبدلها، فالصوت الذي كان يزعجني لم يكن سوى تغريدٍ جميل يضفي للمكان حياة وصخباً لم أدركه إلا حين سمعت خفقات قلبي الذي سبّبته صفارات الإنذار، التي لم أشهدها بحياتي من قبل، فكان وطء ضجيجها قاسياً على قلبي، وكأنّ حالةً من الرعب تدبُّ في أطراف المكان فتشعله توتراً وخوفاً!

من حُسن حظي وحظ ابنتيَّ أن نعيش في بيت محاط بمزرعة نستطيع المشي فيها والخروج للعب واللهو والتنفيس عن أنفسنا، وهو الأمر الذي لم يكن متاحاً للجميع، فأحزن كلَّ الحزن على أطفال صديقتي التي تعيش في الطابق الرابع وسط مدينة مكتظة لا تستطيع فيها الخروج بسهولة مع ثلاثة أطفال! ويعيدني هذا الشعور لمربعي الأول، حيث الامتنان لأشياء لم أكن ألحظ أهميتها من قبل، أو أنها بدت طبيعية جداً في وقتها، لدرجةٍ لم نكن فيها نُعيرها أي أهمية. حينها فقط علمت أن عليّ إعادة النظر في كل ما أملك وكل ما يحيطني من شخوصٍ وأشياءَ لأُعيد ترتيب أولوياتي، وأعطي قليلاً من الوقت والاهتمام

وحتى بعض الامتنان لأشخاص وأشياء هم ركيزة حياتي اليومية، التي اختطفتني بسرعة وتيرتها وكثرة تعقيداتها، فأفقدتني انتباهي لكل عطايا الله حين كنتُ أجذفُ نحو اللانهاية، في حياة تكادُ تسرقنا حتى من أنفسنا! اليوم.. كلّ الأشياء التي ظَنَنْتها لسنوات بسيطة وبدهية، تبدو لي أساسية لدرجة لا أستطيع تخيل حياتي بدونها أصلاً.

أحيانا.. خطوةٌ باتجاهٍ مختلف، أو رُبما تغيرعميق، أو حتى تحدٍّ من نوع جديد، يَمنحُنا الفرصة المُثلى التي قد لا تتكرر؛ لإعادة تكوين أنفسنا، وتحديد ماهية ذواتنا، ورؤية الحياة من زوايا طالما كانت مُظلمة أو ربما مهملة لدرجة الغياب!

اليوم وبالرغم كلّ هذا التوتر والترقب والخوف، أستطيعُ إيجاد بصيص أمل يلوح في الأفق، وجانب إيجابي يختبئ وراء كل هذه الميمعة، مما يشجعني مجدداً لأفتح جهاز حاسوبي المحمول، وأُكمل ذاك الدرس الإلكتروني الذي كان اليأس قد أغلق بابه، بينما شعاعٌ خفيٌ من الأمل يُشرع له النوافذ فأكمل درسي على أمل أنّ القادم سيكون حتماً أفضل، بينما العلمُ تجارة لا خسارة فيها رغم كل الظروف!

## 3

**اليوم: الأحد.**

**الساعة: السابعة صباحاً.**

بالرغم من العطلة وتوقف ابنتيّ عن الذهابِ للمدرسة بسبب ما أُطلق عليه جائحة كورونا العالمية، وما ترتب عليها من إجراءاتِ حظر صارمة لمنع انتشار الفيروس، خصوصاً في التجمعات الكبرى كالمدارس والجامعات، ما زلتُ أستيقظُ مبكراً لمتابعةِ دروس المدرسة التي تُرسلها المعلمات إلكترونياً لابنتيّ... هذا بحد ذاته تطور غريب وجديد لم نعهدهُ من قبل وفالفيروس المُستجد جلب معه العديد من المُستجدات، التي كان أكثرها تعقيداً هو التحول للتعليم عن بُعد.

لم يكن الأمر سهلاً أبداً لا على الطالب الذي لم يعهد هذا الأسلوب من قبلُ، ولا على المعلمِ الذي يحتاجُ لعمل فيديوهات تشرح الدرس، أو ربما عن طريق التواصل مباشرة مع الطالب عبر منصات التحادث المباشر عبر الإنترنت ولساعات طويلة. الأمر في الحقيقة مرهق ويحتاج لمعرفة إلكترونية وحاسوبية على حد سواء، بالإضافة لقدرةٍ معرفية عالية على توصيل المعلومة عن بُعد وبأسهل الطرق وأنجحها! كان الأمر محزناً لابنتي الصغيرة سلمى، التي ما زالت في عامها الدراسي الأول في الروضة الصغرى، حيث كان معظم وقتهم بالمدرسة ينقسم ما بين اللعب واللهو، وبين التعليم عن طريق الأنشطة الممتعة التي

تُشعِلُ الحماسَ في نفوسهم ليكونوا كل يوم على استعداد للذهاب للمدرسة وبكل رضاً وحب!

خسرت سلمى هذه الفرصة الذهبية، حيث تتناقص جرعات اللعب واللهو كلما عَلَتْ الصفوف وكبُر الطالب، وعلى الرغم من ذلك أكملنا دراسة الحروف والأرقام في المنزل، وحاولتُ جاهدةً صنع شيء من التسلية والمتعة لتسهيل المهمة، ولكنها لم تكن بالطبع توازي متعة المدرسة بالنسبة لها، كان الله في عون المعلمين والمعلمات ممن يعطون المعلومة بضمير وشغف، فالأمر يحتاج لجهد وموهبة لا يتمُّ صقلُها وتنميتها إلا ببذل جهد كبير!

***

فاجأتني سلمى اليوم بسؤالها لي وهي ما زالت في فراشها، لتستفسر ببراءة قبل أن تقول صباح الخير:

ـ «ماما... مين قرر إنه الكورونا تطلع هلأ.. مين قرر إنها تيجي علينا ويصير حظر ؟؟؟»

كان السؤالُ غريباً في توقيت غريب أيضاً، ولم أُرِدْ أن أدخل معها في تفاصيل معقدة في هذا الصباح الباكر، لأنني عرفت من طريقة سؤالها أنّها لا تعني السبب ذاته بقدر ما تَرتَّب عليه من تبعات، وهذا ما أثبتته دموعها فيما بعد عندما أجبتُها مستفسرةً:

ـ «وما مشكلتك أنتِ؟ كل يوم عم تلعبي وتنبسطي مع أختك بره بالحديقة وبالبيت وما عم تنحرمي من شي!!!!»

بلحظة وكأنني أصبت جزءاً حساساً داخلها، فبدأت دموعها بالانهمار وهي تُفسّرُ لي كيفَ أنَّ المدرسة أفضل، وكم هي تفتقدُ اللعب مع الطلاب والمعلمة، وتفتقد النشاطات اليومية هناك!

تبدو كل هذه التفاصيل معقدة جداً على طفلة في الرابعة من عمرها! في الحقيقة، نحن الكبار لا نجد لكل أسئلتنا تفسيرات واضحة فكيف الأمر على الأطفال الذين تعبوا لدرجة أن تصبح دمعتهم حاضرة بهذا الشكل، وأن تكون أقصى أُمنياتهم القدرة على الذهاب إلى البقالة القريبة بعد انتهاء الكورونا... على الأقل هكذا تفكر صغيرتاي! وهذا يلفتُ نظري لانقسام حديثِنا اليومي، ليدور حول فترتين زمنتين مختلفتين، وكأن بينهما عقوداً طويلة، فيتمحور كل حديثِنا حول ما كان قبل أزمة الكورونا وما سنفعله بعد انتهاء الكورونا، وكأننا نبثُّ في النفس السلوى، ونبعث بها شيئاً من الأمل بأن هناك قادماً أفضلَ بإذن الله.

فتحتُ منصة الدروس الإلكترونية وأنا أُفكرُ في من لا يملكون أجهزة محمولة في بيوتهم، أو حتى لا يملكون وصولاً للإنترنت يُخول لهم التواصل مع مدراسهم وجامعاتهم، فليس الجميع يملك هذا الترف الذي هو في الأصل من أساسيات حياة اليوم، ولكنَّ الحاجة

وضيمها هي من جعلتها من الكماليات التي لا يملكون إليها سبيلاً، ليغدو أمر التعليم عن بُعد ـ وفي ظل هذه الظروف ـ مُعضلة حقيقية تواجه الطالب والمعلم والدولة على حدٍّ سواء!

إحدى الصديقات قالت لي إنها تَحلُّ كلَّ امتحانات أبنائها وهم يلعبون، وقد يتذكر أحدهم أن يسألها آخر النهار عن علاماته، وآخر قد يغضب من أمهِ لأنها لم تحصُلْ على علامةٍ كاملة في الامتحان!!! هذا ما أسميه بالمضحك المُبكي، الذي لم يزدني سوى إصرارٍ على جعل ابنتي عروبة ـ وهي في الصف الأول ـ أن تحلَّ كل امتحاناتها وحدها دون مساعدة؛ لتكون هذه أيضاً فرصة لزرع قيمة الأمانة واحترام الذات والاعتماد على النفس. هذا النوع من الفجوات القِيمية يختبئُ في حقيقته بين تفاصيل حياتنا اليومية بطريقة لا مرئية أو غير مُباشرة، ولكنه يكون دوماً على المِحكّ في أكثر المواقف صعوبة!

***

الظروف التي فرضتها هذه الجائحة جعلتنا نُجرّب الحياة بطريقةٍ أخرى لم تكن متاحة من قبل. اليوم مثلاً يجلس الأب في المنزل بعد سنوات من الغياب الطويل الذي يبدأ صباحاً وينتهي ليلاً؛ ليكون في حالة تواصلية جديدة بينه وبين أبنائه من جهة، وبينه وبين زوجته من جهة أخرى. وهكذا العديد من الحالات سواء أُمهات عاملات، أو ربات بيوت، أو طلبة جامعات، أو حتى طلبة مدارس، فالجميع

أمام روتين جديد تماماً قد ينعكس سلباً أو إيجاباً على حياتنا! كان هذا الأمر قد لفت نظري كثيراً عندما كنت أُتابع صفحات مواقع التواصل الاجتماعي، وأقرأ تعليقات مدهشة في هذا الخصوص تكشف لنا أن الأُسر تحديداً تُعيد اكتشاف نفسها تحت سقف هذا الحجر القصري، وأكثر ما آثارني ضحكاً وحزناً في آنٍ واحد، تعليق إحدى السيدات التي قالت بالحرف «إنَّ ابنها الصغير يسألها عن والدِه إن كان سَيُطيل الإقامة في منزلهم أم لا!!

استفزتني كل تلك الردود لأقوم وفي وقت متأخر من الليل لأكتب تدوينةً حول هذا الخصوص، أوجزتُ فيها هذه الأفكار كلها، وأرسلتها سريعاً للنشر وأنا أسأل نفسي... كيف كان سيكون الحال لو كان زوجي هنا معنا في الحجر المنزلي الطويل؟ أظنّها حالة مثيرة خَسرنا تجربتها بسبب سفره، الذي علق به خارج البلاد بعد غلقِ حركة الملاحة الجوية؛ لينحجرَ كلُّ طرفٍ على حِدة وبهدوء، دونما تجارب جديدة! قلتُ لنفسي ما أُكرره على الدوام: الخيرةُ فيما اختاره الله، فربما ربحنا ولم نخسر هذه الجولة والله أعلم!

## 4

**اليوم: الثلاثاء.**

**الساعة: الحادية عشرة مساءً**

عادةً وفي العطلة تحديدا تَفْلُتُ الأمور من يديّ بخصوص تنظيم ساعات النوم، فكيف الأمر اليوم والعطلةُ العامة تتزامن وشهر رمضان المبارك الذي اعتدنا فيه النوم المتأخر والاستيقاظ المتأخر! لقد أثّر هذا الأمر على صغيرتيّ وأصبحنا ننام متأخرين معاً، فلا ضرورة قصوى للاستيقاظ المبكر هذه الأيام. وضعتُ رأسي على الوسادة لأسمع بعد لحظات صوت ابنتي الصغيرة تدعو الله:

ـ يارب ترجع الحياة الطبيعية، يا رب ماما تقوم بالسلامة، يا رب بابا يرجع بكير!!

ذاب قلبي لِما سَمعت، ذاب حُباً وألماً في ذات الوقت! ليس الأطفالُ بالسطحيةِ والسذاجةِ التي نظنّها، إنّهم يدركون أضعاف إدراكنا عندما يتعلقُ الأمر بالعاطفة. وضعتُ يديَّ على بطني أتحسس حركة صغيري، التي كانت لأكثر من شهرين هي لغة التواصل الوحيدة التي أطمئِنُّ من خلالها على صحة طفلي القادم في غيابِ الزيارات المُعتادة للطبيبة النسائية، هذه الزيارات والمراجعات الدورية لم يُسمح بها إلا قبل فترة وجيزة جداً ضمن شروط صحية تضمن سلامة الجميع. أشعر بالسعادة أن تمّ فتح هذا القطاع أمام المرضى والمراجعين، فبالرغم من

جهود القطاع الصحي الجبارة لتغطية كلّ هذه الاحتياجات بالتعاون مع الدفاع المدني والعديد من المتطوعين، إلا أنَّ المتوفر يفوق هذه الحاجة على امتداد رقعة الوطن الكبير بامتداده الجغرافي والروحي، وعليه... كان فتح الباب أمام هذا القطاع وغيره من القطاعات المتعثرة والأكثر طلباً، التي عانت خلال الفترة الماضية، وهو الحل الأنجع لاستمرار عجلة الحياة بأقل الخسائر المُمكنة!

من العجيب بالنسبة لي أن أضع مولودي تحت وطأة هذه الظروف الاستثنائية، سوف نَتندَّرُ كثيراً حول ميلاده وسنقول له تفاصيل كثيرة عن «سنة الكورونا»، هذه السنة التي سوف يوسَمُ بها كل مواليد هذه الفترة. ابتسمتُ حينما تذكرتُ أُختي الأصغر مني، التي وضعت طفلتها في أول أيام الأزمة، ومع بدء فرض الحظر العام وللآن لم تسجل ميلاد ابنتها رسمياً، فتأتي كلّ يوم وتقول: ما زال لديّ مُتسع من الوقت لتغير اسمها!!! لقد أسمتها «كنزٍ» وهذه المرحلة تحتاجُ لمثل هذا الكنز، تتفاءل أُختي بالأسماء، ودائماً ما تقول: سيكون وجهها خيراً علينا! حتماً أُصدّقها، فكل ميلاد هو انبعاث جديد للحياة والأمل والتجديد، وربما ما نحن به الآن ما هو إلا انقلاب على الحياة نفسها التي ستظهر بعد مدة من الزمن بثوبٍ جديد، يفْرِض علينا نمطاً حياتياً جديداً لا نعرف كُنهه حتى الآن!

ما زال لدي إيمانٌ بأن الحياة تنحاز ـ كما يقولون ـ للأشخاص الأكثر

استعداداً، وما نحن عليه اليوم لا ينتظر منا الوقوف على الأطلال أو ندب سوء الحال، الحياة أسرع من أن تنتظر أحدنا، فإذا لم نواكب التيار بفهم عميق وقرار صائب فسنغرق بين جمر الماضي وشراسة المستقبل الخفيّ!

اليوم، ورغم الألم الذي يعتصِرُنا بسبب غياب العديد من المظاهر الرمضانية الجميلة التي اعتدناها في كل عام، إلا أنَّ البعض وجد فرصته باغتنام الوقت الذي لم يتسنَ له من قبل وربما لن يتكرر لاحقاً ليتقرب إلى الله أكثر، ويصنع حالة من الروحانية التشاركية بين أفراد الأسرة الواحدة في المنزل لتقربهم من بعضهم أكثر، وتصنع ذكريات مختلفة تبقى مدى الحياة، نرويها لأبنائنا بعد عمر طويل.

نظرتُ مجدداً لطفلتي التي غفت سريعاً بعد صلواتها المسموعة تلك، ودعوتُ الله أن يَمُنَّ علينا بفرصة تعليق زينة العيد وصُنع كعكه اللذيذ، كما مَنَّ علينا بتعليق زينة رمضان التي لم يمنعنا هذا الطارىء مِنْ أن نُزيّنَ بها شُرفاتِنا وحوائطَ غُرفنا؛ لننشر الأمل والبهجةَ رَغم أنف الظرف وتداعياته!!

ما زالت الروح تُشرّع أبوابها للفرح، وما زال القلب يبتهج للزينة وأضوائها!

## 5

**اليوم: الأربعاء**

**الساعة:**

لا يُحبُّ أبي الرحلات كثيراً، أذكر بدقة تلك الأيام المفعمة بالطفولة، حين نبدأُ منذ أول النهار حتى آخره نرجوه الذهاب في اليوم التالي إلى رحلة عائلية، ونسوقُ له كلَّ أسباب القبول والرضا، خصوصاً في فترات العطلات والأعياد، بينما عيدي الحقيقي أنا وأُخوتي تُعلِنُها موافقته على الذهاب ـ وإن كانت على مضض ـ بعد أن يكون قد استنفد طاقته على الرفض أمام مشاكساتنا وكثرة ملاحقتنا له.

تلك السعادة التي كنا نشعُر بها في لحظات نصرِنا وتحقُّق مطالِبنا البريئة، تَعودُ اليوم تحديداً لتتدفق من جديد في حجراتِ قلبي المتعطش لنصرٍ يشبهُ ذاك النصر الطفولي الساذج البريء. وما السبب يا تُرى؟ ببساطة... أعلنت الحكومة عن وقف الحظر الشامل في مُحافظة مأدبا حيثُ أسكن، وأستطيع أخيراً الخروج من قفصي هذا لأرى العالم من جديد وبعد غياب لم أعتده! قد لا يبدو هذا مسوغاً قوياً لاجتلاب كلّ هذه الذكريات، ولكن أظن أنّ في كل كائن حي حُبّاً وبحثاً فطرياً عن الحرية، حتى وإن لم يكن كثير الترحال والتنقل، ففكرة الحجز القصري تُتْعِبه جداً وتسلبه ارتياحه !

وكما الجميع، لم أقد سيارتي منذ وقتٍ طويل، ولم أخرج خارج

حدود الحي الذي أسكنه مع أهلي لشهرين ونصف تقريباً أو أكثر قليلاً أو حتى كثيراً، فلستُ أهتمُّ بمسألة الأعداد الدقيقة، ودائماً ما أستخدم قياساتي غير المعيارية في قياس كثير من الأمور التي يحدّدها مزاجي الخاص لا أكثر. اليوم تتفتح الأبواب وأستطيع زيارة منزلي الذي كان في طور التجهيز؛ لننتقل له كعائلة بعد شهور من العمل الذي أوقفته هذه الجائحة وأخرت رحيلنا له.

مع فتح القطاعات الصناعية والمتاجر المختلفة وغيرها.. نستطيع اليوم إتمام العمل في بيتنا المنتظر رغم صعوبة ذلك في ظِل انفصالنا عن العاصمة عمان، حيث تتعلق محافظة مأدبا بعمان تعلُّق الطفل بأُمه نتيجة قُربها والتصاقه بها، فكل ما نحتاجه هنا نجده في عمان قريباً وسهلاً على بعد 20 دقيقة، ولكن ما زالت المُحافظات منفصلة بحسب خارطة انتشار الوباء، ومنعاً لتفشيه في كافة أرجاء الوطن.

ورغم هذا، استأنفت المدينةُ حياتها، ودبّت الروح فيها من جديد، وعَلت أصوات الباعة التي لا تُوقِفها سوى صفارات الإنذار عند الساعة السابعة مساءً من كلّ يوم! مأدبا المدينة العجوز الطاعنة في التاريخ والعمر، لم تعتد السُبات مُبكراً، فعلى الرغم من كِبر سنها إلا أنَّ لها قلباً شاباً ينبض بالحياة، وكأن تُرابها تشبّع من إكسير الشباب الأبدي، ليكون كل صباحٍ فيها حياةً تبعثها الأرض في هوائِها ومائِها وأهلِها!

اليوم، تُطفئ المدينةُ أضوائها وتنام مُبكراً امتثالاً لإجراءات الدولة من باب التضامن والمسؤولية الجَمعِيّة المُتحتمة على الجميع دون استثناء، بالرغم من عدم فهمها لتحديد الوقت بهذا الشكل!

وبطبيعة الحال، لا يُوجد عالمٌ مثالي.. وبطبيعة الموقف أيضاً فهذه أزمةٌ جديدة، خلقت ظرفاً استثنائياً لم يسبق حدوثه من قبل، وبالتالي فالتعامل معها سواء على مستوى الأفراد أم الدولة ليس بالأمر السهل، والأخطاء واردة، بينما التغيير يحتاج لوقت أطول مما نظنّ.

اليوم أصبح واضحاً للجميع أنَّ حماية أنفسنا هي مسؤوليتنا نحن تحديداً بالمقام الأول، وبالتالي فالخطوة الأولى تبدأ من داخلنا نحن؛ لنقودَ التغيير بصورته الأكبر والأشمل!

هذه الأيام تزداد جرعات تفاؤلي وأعمل في تجهيز بيتي جاهدةً لأستقبل به مولودي الجديد، وزوجي الغائب الذي حتماً سيكون مع دفعات القادمين للبلاد قريباً، لنبدأ سوياً مرحلة جديدة من حياتنا العائلية التي رسم الماضي ـ بتبعاته وظروفه وغرابته ـ ملامحها، وسطّر الأمل عنوانها بأنَّ «كلّ مُرّ... حتماً سَيَمُرّ بإذن الله».

# غَمَامة ثقيلة الأفنان

## يوميّات في زمن كورونا من آذار حتى حزيران

مهند الرفوع

### حين تطالُ الموجة دفّة السفينة

**«عام الكورونا».**

**الفصل الأول من آذار**

حتى قصص «الفنتازيا» جامحة الخيال لم تتحدث عن أيامٍ كهذه. البشر أفرغوا الأسواق وهُرِعوا إلى منازلهم كأفراخ أفزعها صفَير نسر ضخم. نزعوا عن وجوههم الأقنعة اللطيفة وتصارعوا على الطعام والمناديل الورقية.، تفركُ عينيك وأنت تراقب تزاحم الناس على المواد الأساسية حتى في أرقى بلدان العالم! تنقبض وجوه مراسلي الفضائيات وهم ينقلون من مُدن العالم اهتزاز إنسان الألفية الثالثة «التِقني»، الذي انكمشت في عهده المسافات. تنقلُ الشاشات أيضاً جمود الأسلحة الفتّاكة التي صنعها ذلك الإنسان، في البحار والصحاري تربضُ تلك الأرتال العسكرية العملاقة عاجزةً عن دفع الخطر القادم، ولو تقيّأت

ذخائرها النووية والهيدروجينية لما أسالت قطرة دم واحدة من العدو الجديد. ولا أعرف، أمحظوظٌ أنا أن عشت هذه التجربة الفريدة، أم شقيٌّ ساقته الأيام لهذا الفترة المرعبة؟ فالناس يتحدثون عن سجن إجباري داخل البيوت، ونفاد الغذاء ومواد التعقيم، وخسائر عظيمة، وفقدان للوظائف، وذلك قد يوقظ ذئب الإنسان الخفي الذي تُخدِّره الأيام المُتخمة والأحوال المُستقرّة.

مرضٌ سريع الانتشار يعصفُ بالعالم ويتنقّلُ بين البلدان مُتجاوزاً الحدود وحرّاسها، فيروس اسمه «كورونا» ينتقلُ إلى الرئتين بعد مخالطة شخص مصاب، وهو أشدُّ خطراً على كبار السن وضعيفي المناعة. يقولون إن مصدره الصين، وإذا كانت الصين قد صنّعت كل شيء تقريباً فبعضٌ من الناس يتهمونها بصنع هذا الفيروس، وبصرف النظر عن تلك الاتهامات ومدى دقتها، فإنّ فيروس «كورونا» قد وكزَ العالم في هذا الزمن الذي تَطبعُ فيه لوحة المفاتيح هذه الكلمات.

في الأردن، وقبل شهرين من الآن، كُنا نتبادل الكلام عن هذا المرض دونما قلق، مثلما نتكلم عادة عن كرة القدم العالمية، تحليلات ومعلومات نتبادلها بأريحية بين رشفات القهوة والشاي في المجالس والمقاهي، لكننا اليوم شعرنا بحُمى العدوى بعد اعتلاء الضجيج على مواقع التواصل الاجتماعي.، فهناك من يُطالب باتخاذ إجراءات

صارمة وفورية للقفز فوق أنياب هذا الفيروس، وآخرون يقلّلون من خطورته ويجرّونه إلى حظيرة المؤامرة ومعامل الحرب البيولوجية. وقد بلغَ اللغط حدّاً أجبرَ وزير الصحة أن يخرج علينا في هذا الضباب الرمادي ويُقسم ألَّا كورونا في الأردن.

تتابعت أيام آذار التائهة بين الربيع والشتاء وبين تصديق هذا المرض وإنكاره حتى جاء اليوم الذي اشرأبت فيه قلوبنا ونحن نرى أفراد الجيش يطوفون الشوارع بآلياتهم التي زحفت من الصحراء النائمة. رؤية الجيش تعني أنَّ خطراً قادماً وُجِبَ التصدي له، البنادق المُتأهبة واللباس المُموَّه رسالة ثقيلة تعرف جيداً أين تُلقي بنفسها، ومنذ أن سمعنا عن إصابات في بلدنا لم يعد الحديث عن «كورونا» عادياً، بل حديثاً محفوفاً بالخوف من القادم، وما يجعل هذا الوباء فريداً أنَّ البشر جميعاً يتشاركون الخوف نفسه، وهذا لم يحدث حتى في زمن الطاعون الأسود والإنفلونزا الإسبانية. اليوم رؤساء العالم يتسابقون للحديث عن كورونا تاركين الحديث عن السياسة والاقتصاد والحروب، تنظيف الأيدي بالمعقمات أصبح تقليداً بشرياً، ارتداء الكمامة ثقافة عالمية، تشابهٌ بشريٌ غير معهود لمواجهة الخطر الفيروسي، تكاد رائحة «الإيثانول» تفوح من الكرة الأرضية من كثرة التعقيم، الطائرات التي كانت تُمزّق زُرقة السماء تصطف في المطارات مثل نُوقٍ تتهيأ للحَلب، المدن المزدحمة بالناس تتعرّى منهم وتعرضُ جلدها النقي للشمس.

وصارُ الأمرُ جِدّا. فقد لجأت الحكومة الأردنية لقانون الدفاع، وعلّقت الدراسة في المدارس والجامعات ابتداءً من الخامس عشر من آذار لعام الفين وعشرين، بالإضافة إلى وقف الرحلات الجوية، ومنع الفعاليات والتجمعات العامة بما في ذلك دور العبادة.

حقبة زمنية جديدة يضيقُ فيها مدى المستقبل وتذوي فيها الأحلام والأمنيات، ترقُّب عالمي لإعلان التوصل إلى عقار أو لقاح، الأنظار تتلقّف النشرات الصادرة من شركات الأدوية والمختبرات العالمية، لكن لا شيء حتى الآن يمكن أن يُخفّف من قتامة المشهد. وبينما الناسُ ينعمون بالحياة الطبيعية صدر أمر الدفاع رقم «1» الذي يحظرُ تنقل الأشخاص وتجوالهم في مناطق المملكة كافة، من الساعة السابعة صباحاً من يوم السبت الموافق 2020/3/21 إلى إشعار آخر، ومن يخالف يُحبس مدة لا تزيد عن سنة. إضافة إلى ذلك عُزلت المحافظات وأُغلقت مداخلها ومخارجها، ولا يُسمح بالحركة إلا للمخوّلين الذين يحملون تصاريح رسمية. فجأة تعكّرت الحياة كأنما السماء أمطرت رماداً، صادماً وغريباً ذلك النبأ، فلم نعتد في الأردن على حظر التجول، نسمعُ من خلال التلفاز أنه يُفرض في بعض البلدان، أما هنا، فلا نعرفه إطلاقاً، لذا فقد خدشَ ذلك النبأ هدأتنا وطوى سكينتنا. ولأن حظر التجوال لا تُعرف له نهاية، تزاحمَ الناس على الأسواق بعد أن قُدِّمت «الرواتب» قبل أوانها، ودون أن تُخصمَ منها القروض البنكية.

لقد أخفضنا نفوسنا بضع بوصات استعداداً لدخول مَضيق الأيام المُقبلة، تتلاحق الأخبار العالمية المزعجة وتحشرنا في ثناياها الحادة، هبّةُ رعب عاتية من عدو خفي لا نعرف متى سيتوقف عن سحق معنوياتنا، ثم يأتي الليل فارداً مئات الأسئلة الباحثة عن جواب.

## رهين البيت

**السبت 21 آذار 2020.**

**اليوم الأول من حظر التجوّل الشامل.**

**السابعة صباحاً.**

أووووووووو أووووووووو أووووووووو

هذه أول مرة أسمع فيها الصوت الحقيقي لصافرات الإنذار، لقد أفزعني صوتها رغم كُثبان النوم التي تغمرني، خَدَرٌ لذيذٌ لملمَ إكسيره من جسدي وطارَ فجأة.، أذكر أنَّ أخاً لي كان يصف نومي العميق بعبارة يُردّدها دائماً: «لو أطُخ فوق رأسه ما صِحي».

بالأمس تحدث المسؤولون عن إطلاق صافرات الإنذار عند السابعة صباحاً إعلاناً لبدء حظر التجوال الشامل، تجهزتُ لذلك نفسياً، لكنني لم أعرف أنَّ صوتها يحمل هذا المستوى من الرعب، فقد أضمرتُ في نفسي أنَّ صوتها سيكون عادياً كصوت سيارات الشرطة والإسعاف، ولن يُفلح في انتزاعي من عجينة نومي السميكة، لكنها لم

تكن كذلك أبداً، إنها تنفثُ وحشتها بصرامة، ناشرة في الأجواء رائحة مفزعة. والعجيبُ أنَّ هذا الصوت الذي يُقرّصني الآن بعنف ليس تحذيراً من غارة جويّة أو اقتحامٍ وشيك، بل من أجل فيروس لا يرى بالعين المجردة!

تململتُ في منامي منتظراً انتهاء ذلك العويل الصاخب، كأنَّ صوتها في ذلك الصباح الهادئ آتٍ من بوقٍ ضخم ينفخُ فيه ديناصور عملاق استيقظَ من نومةٍ كُبرى. رجفةٌ هائلة ارتطمت بالفضاء وارتدّت إلى القلوب، لأي عصر جديد هذه البداية؟ كنتُ أسألُ نفسي وأحلّل وأفسر، وما أوقفني عن ذلك إلا ابنتي نور ذات السنوات الخمس، فقد استيقظت هي الأخرى مذعورة، وقبل أن تنشقّ جفونها عن عينين ذابلتين، سألتني بحروفٍ مختنقة: «بابا إيش هاظا الصوت؟». أجبتها أنَّ هذه أصوات سيارات «أصحابنا»، يعني سيارات الشرطة. ودائماً ما أصف لها رجال الشرطة بأنهم أصحابنا.

بدا ذلك النهار غريباً وموحشاً يعصف به الهدوء، كأنما حُقنت بلدتي بـ«المورفين»، أو كأنَّ الزمن توقف ليهشّ عليها كي تنام وتستريح، لا أصوات لسيارات تنزلقُ بخفّة فوق الشوارع، ولا طائرات تظهر في السماء كنقاط بيضاء تتحرك ببطء، لا جلبة للموظفين ولا هديرَ لمحركات الحافلات، خَلَت بلدتي من أهلها فجأة. كنتُ أسأل نفسي: أين ذهبوا؟ وهل هذه البيوت الجاثمة أمامي تتسع لأولئك الذين

كانت تضيق بهم الأسواق، والساحات، والمدارس؟ الشوارع جرداء تشكو قلّة العابرين كأنما لم تطأها من قبل آلاف السيارات والمارّة. وحدها سيارات الشرطة والإسعاف تُمسِّد عليها بين الحين والآخر، ووحدي ألتهمُ هذه المشاهد من غرفتي التي ارتضيتُ بها مُنعزَلاً عن ضجيج طفلتين صغيرتين لا تشعران بتلك الرجفة الهائلة التي أحدثها فايروس كورونا، ذلك الوباء الذي طمسَ الحياة وألزمنا البقاء بين الجدران الصماء.

حان وقت الأخبار المسائية. تنهمر أخبار الكورونا وفي طياتها أعداد الإصابات وأسماء المستشفيات المُجهّزة للتعامل مع المصابين بالفيروس، «مستشفى الملك المؤسس، مستشفى الأمير حمزة، مستشفى البشير». أبذلُ وزوجتي جهداً كبيراً للحصول على «الريموت» من الطفلتين، نتدرّجُ في العقوبات لأجل حيازة تلك القطعة البلاستيكية الصغيرة، نتوعّد، نهدّد، نصرخ معاً، وأخيراً نحظى بدقائق معدودة لسماع مستجدات مركز الأزمات، ثم يعلو من جديد صوت قنوات الأطفال المزعجة رغماً عنا.

إنّ وجودي في البيت ليوم كامل لم يحصل منذ زواجي إلا لأيام معدودات، يمرُّ هذا اليوم وأنا أكتمُ حسرات على ضياع ساعات كانت من نصيب أصدقائي، فيما مضى كنا نلتقي باستمرار مُجدّدين النكات والضحكات، أما الآن، فأنا مضطرٌ للإقلاع عن لقاءاتهم التي كانت

إدماناً. أُبعدتُ كذلك عن المحل التجاري الذي أعمل بهِ، ولسوف يتضرّر ذلك المحل كثيراً من الإغلاق الإجباري، فأمر الدفاع الأول منعَ فتح المحال التجارية كلّها. تُرى ما الحل؟ كيف سأتمكن من دفع التزاماته المتعثرة أصلاً؟ تكاد الأسئلة التي أخُفيها حتى عن أقرب الناس تَشُجُّ وجداني، لكنني أتظاهر بعكس ذلك، وهذه من عاداتي التي لا أعرف إن كانت جيدة أم لا.

هدوء مُريب صبغَ نهار اليوم الأول من الحظر الشامل، وفي الليل طفت وحشةٌ استوطنت النفس وتعصّر معها الفِكر الذي ذكّرني بخلو البيت من أي شكلٍ من أشكال النقود، يسلخُ مني ذلك التفكير الرغبة في الأشياء كلها، حتى اللُقيمات اللاتي ازدرتُهن ببرود تجرّعتُ معهن مرارة التفكير، زيت، وزعتر، وشاي، وقليل من اللبنة بالقرب من صوبة الغاز. يخامرني خوفٌ شديد من نفاد الغاز من الأسطوانة، أراها ستُحتَضر في أي لحظة، وحين تلفظ آخر غازاتها ستندفعُ نفسي لكهف معتم يبحث عن سبعة دنانير ثمناً لأسطوانة جديدة تمنحنا القليل من الدفء، بالنسبة لي قِلّة المال جائحة الإنسان الكبرى، لذا فقد بقيتُ لآخر الليل أبحثُ عن علاجٍ يُرمّم الجيوب الخاوية، وينعش خزائن البيت الباهتة.

## غرفة «اللاب توب»

**الأحد 22 آذار.**

أستيقظُ من نومي في هذا اليوم متأخراً، وبما يشبه انسلاخ الفراشة من شرنقتها أسحبُ جسدي ببطء من فِراشي الثقيل. لا مُنبّه اليوم يَعوي ويُزمجر. يقظتي بسيف المُنبه عرجاء أحتاج بعدها لساعات كي تعمل حواسي جيداً، على العكس من «نور» التي تودع النوم بفرح كبير، تستيقظُ باكراً من أجل الذهاب إلى روضتها وتبدأ الحديث عن معلمتها ورفاقها، وأحياناً تدندن بعض الأناشيد التي تعلمتها مؤخراً في الروضة: «قالت أُمي أنتِ كبُرتِ ومضى من عمركِ سنوات». تنتقل نور الآن من غرفة إلى أخرى باحثة عن جواب لهذا التوقف المفاجئ للحياة، تبدو حزينة على حرمانها من الذهاب إلى الروضة، ربما تمنّت نور أن تنكمش ساعات الليل كي يأتي صباح الروضة النشط، فقد حضّرت واستعدت جيداً لحرف اليوم، وهو حرف «القاف» الذي سَيعلقُ في ذهنها ليذكّرها مستقبلاً بهذه الأيام التي أصبح فيها الإنسان قُندساً هرماً ينزوي في ضفته قارضاً ما جمَّع من طعام ومترقباً الغد بعينين لامعتين. لا أُنكرُ فرحتي لتوقف الدوام، لكن رؤيتي لوجه نور بعد أن حُرمت من تقديم النشاط لمعلمتها لكَمَت دواخلي. لعنتُ في نفسي ذلك الفايروس اللئيم، وتمنّيتُ أن يدوم نشاطها إلى آخر يوم في عمرها، إنّ الهمّة العالية تنقذ الإنسان من ضيق التراخي، أحياناً تضيع

الفرص بسبب ساعة نوم إضافية. قد لا يكون هذا الكلام دقيقاً، لكن النشاط على الأقل يُجنبك نغزات الندم ولوم النفس.

يُقرع الباب وإفطارنا الذي يُعد في وقت الغداء يقترب من التجهيز، إنّها بضعة أرغفة من الخبز البلدي الساخن جاءتنا من بيت جارنا خال نور، رائحة ذلك الخبز المُنمّش بحبة البركة قضت عليه سريعاً، لا يوجد في بيتنا كسرة خبز واحدة؛ فعندما أُعلنَ عن حظر التجوّل الشامل يوم الجمعة أوصيتُ أحد أصدقائي أن يشتري لي خبزاً، لكنه لم يأتِ، عرفتُ أنه نسي طلبي ولم أرغب بإزعاجه، لذا فحين جاءتنا هذه الأرغفة الدافئة شعرنا أنها نزلت علينا من السماء، عرفتُ لحظتها قيمة الجيران الطيبين وجمالية الحياة الريفية، صحيحٌ أنها بضعة أرغفة من الخبز، لكنها بالنسبة لنا تساوي عشرات الدنانير.

ينتهي الإفطار سريعاً وألجُ إلى الغرفة التي أقرأ فيها وأكتب، في هذه الغرفة أستطيع أن أحصل على بعض الهدوء بالرغم من ملاحقة «نور» و«بانة».، وحين تيأسان من البقاء عندي يقرعان الباب بين الفينة والأخرى متذرّعين بشحن الهاتف أو سؤالي عن شيء ما، أنْهَرهُما من وراء الباب وعلى وجهي ابتسامة كبيرة من تحايلهما اللطيف للدخول إلى «غرفة اللاب توب» كما تسميانها، حينئذٍ أتذكّر بعض أبيات الشاعر «بهاء الدين الأميري»:

**يتزاحمـون علـى مُجالَستــــــي**
**والقـربُ منِّـي حيـثما انقلــبوا**
**فنشـيدهم «بابا» إذا فرحـــــوا**
**ووعيـــدهم «بابا» إذا غـضـبوا**

هذا الفراغ الكبير كان من أبرز أمنياتي، فدائماً ما كنتُ أتمنى وقتاً حُرّاً لكي أقرأ وأكتب، كتبٌ كثيرة ما زالت تنتظر أن أجد لها مساحة من وقتي، كما أنَّ هناك أعمالاً كثيرة على شاشة حاسوبي تنتظر أن أُعيد صياغتها من أجل نشرها مستقبلاً، وها قد جاءت الأُمنية السمينة. وقتٌ طويل تَمَلُّهُ ولا يَملك، أدركتُ أنَّ الاعتكاف في غرفتي أفضل وسيلة للتملّص من عذابات الحظر، وبالفعل بدأت أقرأ وأكتب مُدركاً أنَّ الوقت نعمة لا بد من اهتباله.

لا يمكن لشيء أن يأخذك من مكانك عنوة سوى القراءة، مهما كان حيّزك ضيقاً فإنك تتجاوزه مُمتطياً صهوات السطور وقابضاً على مناطيد الكلمات، وإن كان في صدرك حِمماً من الضيق والأسى فإنَّ اندلاق حبر التعبير يُبرّد قلبك ويغمرُ أوجاعك.

ودّعتُ من نافذة غرفتي التلال القريبة والبيوت الساكنة، ثم انزلقتُ إلى نافورة الأخبار، تتراكم الأخبار وتختلط؛ بيانات منظمة الصحة العالمية، فنادق الأردن الفاخرة التي استوعبت العائدين من الخارج دون مقابل، مناعة القطيع، شلل العالم التام، الإصابات المرتفعة في

أوروبا، عدد الإصابات المحلية. لحظة أن تُقرأ أرقام الإصابات أشعرُ أنَّ وطناً بكامله يرجو النجاة، أنا من الذين لا ينزلقون إلى وديان الخوف والقلق بسهولة، لكن نظرة سريعة لصفحات التواصل الاجتماعي تُريكَ أدخنة الخوف تتسرّب من كلمات كُتّابها، تذرعٌ وسكونٌ لافت كسّر قسوة البعض، ولا يُمكن لقلبٍ أن يهلع ويخاف أكثر من قلوب الأمهات، تفوح من صفحاتهن الإلكترونية نبرة الخوف وارتجاف الترقّب، قد تُغلّف الكلمات بالمراهم والعطور، لكنَّها تعجز عن إخفاء بَشَرَتها الحقيقية، حينذاك، قرّرتُ أن أزجّ في تلك الصفحات ما يبعث الأمل ويكبح جماح السواد الآخذ بالتطاول، رأيتُ أنَّ من واجبي بثَّ الأمل حتى لو أصابت كلماتي قلباً واحداً فقط، فأخذتُ هاتفي وبدأت أكتب حتى اقترب الفجر.

## نوافذ ذات بهجة

**الاثنين 23/ آذار.**

تمطّى النهار فوق رؤوسنا كأنها نفذ إلينا من الأبواب والنوافذ، هزَّ وسائدنا بأصابعه الرخوة وقادنا إلى مضماره الخاوي، تتغامز شمسُ الضُحى من وراء غيمات مبعثرات الأطراف تراقبننا ببرود، من ساحة البيت الخارجية أراقبُ المشاهد ذاتها وصدى الهدوء يملأ الأرجاء خَدراً وانكماشاً، الربيع الباكر يتباهى بأعشابه وزروعه النافرة وبعض

الورود الخجولة، بالقرب من بيتنا تتوالد من آنية الربيع بضع دحنونات مفرطات الحُمرة كأنما رضعنَ دم الأرض كاملاً، نسائم هادئة ممتزجة الدفء والبرودة تعبثُ بالأغطية الشتوية التي نُشرت على السطوح والشرفات، حين تخرج تلك الأغطية من زوايا البيوت الرطبة وتعرضُ للمارّة ألوانها ونقوشها أدرك أنَّ الشتاء يُلملم أيامه الأخيرة ترحيباً بالفصل الأخضر، وداعاً إذن لفصلٍ عنيف الملامح كثيف السواد، وأهلاً بالربيع الذي نما هذا العام دون أن يتبرّك الناس بألوانه. آلاف الناس كانوا يوجّهون بوصلتهم في الربيع نحو الشمال للقاء الطبيعة الساحرة والسنابل الفتية. اليوم يُعيد فايروس كورونا الشمال إلى عصر ما قبل الربيع، فقد ترك أهلها مداعبة الأقحوان وملاحقة «الحُمِّيض» و«العِلت» و«العكّوب»، ولزموا بيوتهم منتظرين انتهاء عزلتهم العنيفة، وأكثر من تأذى من الشمال رأسه الأخضر، محافظة «إربد»، فقد تأذت أكثر من أي محافظة أخرى بعد أن أصاب الفيروس المئات من أهلها.

أما هنا، في «بصيرا»؛ البلدة الجنوبية القابضة على زهو الجبال، فالربيع هذا العام ينبعث ببطء دونما إزعاج من مطارديه اللحوحين.

يتناقص الطعام من البيوت في اليوم الثالث من الحجر الشامل، ومن يتابع مواقع التواصل الاجتماعي يلمس حاجة الناس للمزيد من الطعام، ولولا هذه المواقع التي تُفرج عنهم وتنقل شكواهم لكانت

أحوال الناس في هذه العُزلة أكثر سوءاً، فالهواتف كسرت العزلة، وحدّت من ضخامة الضجر، وذلك ما جعل شركات الاتصالات تمنح المشتركين مزيداً من حُزم الإنترنت المجانية، وأنا من الذين قبلوا تلك الهدية باحترام شديد، ساعات طوال يسرقها الهاتف منا، لا تشعر أنَّك وحدك في هذا الفضاء الإلكتروني، فنظرةٌ واحدة لإشعارات الاتصال الخضراء تُريك التصاق الناس بهواتفهم، الأمر الذي جعلني أُدرك أهمية هذه المنصات وضرورة دعمها بمحتوى جيد يخفّف من زخم الفيديوهات والصور الساخرة التي يتناقلها الناس.

من ساعة لأخرى أُعيد قراءة ما كتبت قبل نشره على صفحتي، سطورٌ مُترعة بالتفاؤل أردتُ من خلالها إذكاء فتيلٍ قد يكشط شيئاً من عتمة النفوس، لا مرام لي من ذلك إلا بثُّ الأمل وتفتيت ما استطعت من أسوار السواد التي أنشأها البعض. عند المساء التصقت كلماتي أمام أعين المحدقين بشاشاتهم، نزعُ الدسم من هذه الجائحة والتقليل من خطورتها ليس أمراً يسيراً؛ فعُشاق الحد الأعلى من التهويل يتصدون لمحاولات التهدئة ولا يرغبون إلا بمزيد من الإثارة، والحق أنني أعلم خطورة هذا الفيروس، لكنني نظرتُ إلى الضفاف البعيدة لا إلى الدوّامات العميقة.. نظرة رُبّانٍ لا يُفكر إلا بالنجاة.

تضيقُ النفس أكثر بمرور الأيام، كم طلبتُ العون للمساجين الذين يعيشون أشد من هذه الأحوال شهوراً وسنوات! يا إلهي، كيف

يصبرون على تَخلِيل أجسادهم في ملح السجن؟ أما أرواحهم، فهي بالتأكيد هائمة كجثة حوت يتقاذفها الموج بكرة وأصيلاً.

تقرّر الحكومة توزيع الخبز على المواطنين يوم غد الثلاثاء، إنّ توزيع الخبز على أكثر من مليون عائلة مهمة شاقة، لكننا بانتظار ما سيحدث غداً، وقد جعلتنا الأيام الطويلة الرتيبة ننتظر أي حدث لعلّ فيه جديداً يُسرّع من وتيرة الأيام، لم أكن متشجعاً لشراء الخبز في اليوم التالي، فليس معي ما أشتري به أصلاً، وقد أعلنتُ منذ بدء الحجر عن وجبات لا تحتاج إلى الخبز، أردتُ أن نُقدر قيمة الخبز الذي كنّا نقوم بإتلافه، كثيرٌ من العائلات تتراكم بجانب بيوتها أكوامٌ من الخبز الجاف، وقد جاء الوقت لنعرف قُبح إسرافنا وفوضى استهلاكنا.

تتشابه الليالي ويصبح الخلود إلى النوم عادةً لا حاجة، ليس هنالك تعب يجُرّك إلى الفراش، وقد باتَ جسدي يتعب من النوم ولا يرتاح به، وبصعوبة كبيرة أنزلقُ إلى كهفه المقيت آملاً بغدٍ أكثر رحابة، فهل يكون؟

## «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان»

**«ثلاثاء الخبز» 24 آذار.**

استيقظتُ في ذلك اليوم على ضجة الناس المنبعثة من «الفيسبوك»، رائحة الجوع تفوح من «البوستات» والتعليقات، تتطاير الاتهامات

بالتقصير وسوء الإدارة من هنا وهناك. «أين الخبز»؟ «أين سيارات البلدية؟» «لم يصلني نصيبي من الخبز». لم أسمع تذمّراً شاملاً من أجل الخبز كما سمعت اليوم! حتى حينما كانت الثلوج تتساقط بكثافة وتُغلق الطرقات لأيام لم يكن الناس يكشفون عن جوعهم بنداءات كهذه، يُنقل الخبز بالحافلات وسيارات البلدية كأننا في مجاعة، إنَّ رؤية أكياس الخبز المتراكمة على مقاعد الحافلات تبعث على التفكّر في هذا الإنسان الضحل الذي يتحول في حالة الضعف إلى دجاجة تبحث عن معلفها فقط. ربما هذه الفترة خير وقت تنسلُّ فيه إلى دواخل الإنسان المغلفة بقشور رخوة، تلك الدواخل التي تبحث عن البقاء وإن تهشمت صورهم المُتعالية، تنداح القشور الخادعة جميعها في تلك اللحظة، ويعود الإنسان إلى رغبته العارمة للبقاء.

بدأت الصور تأتي من العاصمة وغيرها من الأماكن، حشود كبيرة تنتظر بضعة أرغفة أُعدت على عجل. الخبز أشغل القنوات الأردنية كافة، الكثير من التذمّر والقليل من الثناء على طرائق التوزيع، كبار المسؤولين يحاولون تطويق غضب الناس دون جدوى، «الطحين، المخابز، ملايين الأرغفة، سلاسل النقل، ازدياد الطلب».. كلمات مُضغت كثيراً من روّاد التلفاز، كنتُ واقفاً ظهيرة ذلك اليوم الدافئ في ساحة البيت أراقب دوران الأرغفة، أصبحت ساحة بيتي ملاذي ومنظاري، لا شيء يشي برائحة الخبز المميزة، بعد العصر سمعتُ أحد

الجيران يصرخ على حافلة مُتثاقلة لم تتوقف إلا حينما لفّها نداء حاد من جارٍ آخر، اشترى منها ثلاثة أشخاص بينهم طفل بالكاد استطاع حمل ما اشتراه، ثم قفلت عائدة، لم يكن في بيتي خبز وليس معي ما يكفي لشراء رغيف واحد، قلتُ في نفسي: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». وحينما رأت نور ما حدث سألتني: «بابا ليش ما تشتري زي باقي الناس» ؟ أجبتها أنّنا سنشتري غداً إن شاء الله، ولم يكن في ذهني حدٌ لكلمة «غداً»، أحد الجيران مرّ بالقرب مني وسألني والخبز بين يديه:

ـ «أدّك خبز»؟

قلتُ له وعيناي لا تفارقان كيس خبزه الأبيض:

ـ بارك الله فيك. عندنا خبز.

أعترفُ أنها كانت كذبة موجعة، لكن ليس من إجابته مهرب، لا يستحق ثمن الخبز أن أُريق ماء وجهي من أجله، الصبرُ مرهمٌ يحفظ ماء الوجوه، ودَّعتُ ذلك النهار التعيس، ثم دخلت إلى البيت باحثاً عن شيء يُنسيني طعم الخبز المُرّ.

## القاااانونية

**الأربعاء 25 آذار.**

بعد فوضى توزيع الخبز يوم أمس، سمحت الحكومة للمواطنين بالنزول إلى الأسواق اليوم على الأقدام فقط من أجل شراء حاجاتهم

من البقالات والصيدليات القريبة، وقد حدّدت وقت التنقل من الساعة العاشرة صباحاً إلى الساعة السادسة مساءً، مع التأكيد على عدم التدافع وترك مسافة آمنة بين المواطنين لا تقلّ عن متر.

حياة مختلفة تعود إلى الأسواق بعد أربعة أيام من حظر التجوال الصارم، الصور الآتية من العاصمة عمّان تنقلُ صفوف المواطنين المنضبطين أمام البقالات الصغيرة التي جاءها الفرج بعد ركود اقتصادي منذ أكثر من عام، ها هي الآن تكاد تبيع كلَّ ما فيها من شدة الطلب، استهلاك نهم لم يُبقِ في محال الخضار والفاكهة سوى بعض البصل التالف، صفوف طويلة من المواطنين تقف في هذا اليوم المُشمس يرافقها رجال الشرطة، مشهد غريب ومفاجئ كأنما بيننا وبين حياتنا قبل «الكورونا» سنوات طويلة، ما يحصل أمامنا اليوم يؤكد أنَّ حياة الإنسان تقف دائماً على الحافة ولا يمكن الوثوق بها ولا التنبوء بجديدها، وقد صدق الشاعر «الطُغرائي» في لاميّتهِ العظيمة حين قال:

**وحسنُ ظنِّكَ بالأيام معجزةٌ**

**فظُنَّ شراً وكُن منها على وجَلِ**

لم يختلف الأمر كثيراً في بلدتي، من بعيد نرى بعض الراجلين والقليل من السيارات التي تسلك طرقاً فرعية تجنباً لسيارات الشرطة، وعند السادسة مساءً جاء نداءٌ حاد النبرات بعد صافرة الإنذار، وعلى الرغم من قصره لم يخلُ ذلك النداء من الأخطاء اللغوية:

«الأخوة المواطنين، تنفيذاً لأمر الدفاع، اعتباراً من الآن ولغاية الساعة العاشرة من صباح يوم غد، تُمنع كافة أشكال الحركة والتنقل، وفي كافة المواقع، يُرجى الالتزام وعدم الخروج من المنازل، وتحت طائلة المساءلة القااااانونية».

في حارتنا سمعنا من زاويا عدة ترديد الأطفال العفوي لكلمة القانونية الممدودة، وكالمعتاد، انتظرنا مؤتمر إدارة الأزمات والأمل ألّا تزيد أعداد المصابين كثيراً، وقد أُعلن الليلة عن تسع عشرة إصابة، وهو عدد قليل وغير خطير مقارنة بالدول الأخرى، فعدد الإصابات الكلي في إيطاليا مثلاً لغاية اليوم (69000) إصابة، أما عدد الوفيات فيها فقد بلغ (6800)، بينما في الأردن لم يتجاوز العدد الكلي للإصابات حتى تاريخ اليوم (172) إصابة، ومنذ بداية الأزمة «الكورونية» وأنا أخبر من حولي أنَّ هذا الفيروس غير مُقلق، إنِ التزم الناس بالشروط الصحية، فالتقديرات العالمية تتحدث عن نسبة وفيات لا تتجاوز(2%)، ولو نظرنا إلى الأمراض الأخرى لوجدناها أكثر فتكاً وأشد خطراً، ولعلّ القادم أجمل.

## الرقم الأكبر

**الخميس 26 آذار.**

**الثامنة مساءً.**

«سُجّلَ في هذا اليوم أربعون إصابة». قال وزير الصحة ذلك مُستاءً. كان شاحب الوجه مهزوز الملامح وهو يُقِرّ بانتكاسةٍ ما كانت لتحدث لو التزم المواطنين بالتعليمات كما يجب، أظنُّ أنّ الناس جميعاً شعروا بخوفه وقلقه، وخاصة أصحاب المصالح الذين تتعمّق عثراتهم المالية مع كل يوم لا حياة فيه.

والحقيقة أنَّ الملتزمين بالقانون كُثر، لكن هناك من يتمرّد ويرى في الالتزام ضعفاً، وأولئك بحاجة إلى تثقيفٍ عالٍ لكي يحترموا القانون، وهذا من أهم واجبات الدولة؛ لأنَّ سيادة القانون رافعة اجتماعية لا بُد من وجودها من أجل مزيد من التقدم، والدولة أيضاً مُطالبة بتحليل سلوك المواطن خلال هذه الجائحة التي كشفت عن ثغرات مسلكية عديدة لدى المواطن الأردني، الأمر الذي يساعد صُناع القرار على التعاطي الجيد مع المواطنين خلال الأزمات القادمة. ولو عُدنا إلى «أزمة الخبز» لوجدنا أنَّ الحكومة لم تُراعِ اختلاف أنماط الشخصية الأردنية من مكان لآخر، ولم تراعِ أيضاً الحالة السكانية للمناطق المختلفة، فالفكرة التي قد تنجح في لَواء لا يتجاوز عدد سكانه عشرة آلاف نسمة، من الصعب أن تنجح في لواء يتجاوز عدد سكانه مئتي

ألف نسمة، وذلك خطأ لا يمكن تكراره في قادم الأيام، ونأمل أن تكون أجهزة الدولة المختلفة قد تعلّمت من ذلك الدرس.

ينتهي هذا اليوم تاركاً في الأجواء مخاوف طائفة تلامس نفوس الساهرين المفكرين في جديد هذه الأيام العجيبة، ومن منا لا يفكّر في هذا المساء الكئيب بقادم الأيام؟

## فُسحة طفولية

الجمعة 27 آذار.

بداية التوقيت الصيفي.

من الجوانب الإيجابية لهذه الجائحة أنّها قرّبتنا من الأطفال، فالانغماس بالعمل أبعدَ الآباء عن أطفالهم الذين استعاضوا عنهم بالتلفاز والأجهزة الإلكترونية، وذلك كما يقول خبراء التربية مؤذٍ لعقلية الطفل ومشاعره، ويخلقُ سداً يمنعهم من التواصل الجيد مع أقرب الناس إليهم.

إلى تلّة قريبة مُطلة مشيتُ مع «نور» و«بانة»، لا حد لفرحتهما حين أخبرتهما عن نيتي لأخذهما إلى «الجبل» كما يسميان تلك التلة. مشينا معاً متجاوزين الأشواك الوليدة والأعشاب الرغيدة. الشِيحُ هنا أغزر من أيّ مكان آخر، ورائحته القوية تصعد إلى الرأس مباشرة. تتقدمنا نور بثبات بينما تتشبث بيدي بانة ذات الأعوام الأربعة خوفاً

من «الشُوتةِ» كما تلفظها. ما أصفى الحياة حينما تكون الشوكة عدواً! كانتا هادئتين فرحتين على غير ما تكونان عليه داخل البيت، تعانقان هنا النسمات النقيّة بعيداً عن هواء البيت المُكدّس، ولا يفصلهما عن الحشرات والزواحف الصغيرة شاشات تؤذي العين، فجأة تركض نور نحونا وهي تزفُّ لنا خبر عثورها على «دعسوقة»، يا لفرحتها التي غيّرت ملامح وجهها! ثم عادت لتلتقطها كأنما عثرت على خاتم سليمان.

الساعة التي خرجنا فيها من محيط البيت انهمرت فيها على رأسي مئات الأسئلة الفضولية والمتسلسلة من كليهما، إنّ تجاوز الأطفال لجدران البيت الخرساء علاجٌ لتمردهم وغضبهم ونشاطهم المفرط، ولم نسمع عن حالات النشاط المُفرط وغيرها إلا حينما حبسنا الأطفال داخل البيوت وحرمناهم متعة الاستكشاف والاقتراب من الطبيعة، لقد رأيتُ فيهما تأثير الوقت الذي استقطعته لهما، حتى عندما عُدنا إلى البيت كانتا أقل إزعاجاً بعد الاندماج مع الطبيعة، وحين آوينا إلى النوم طلبتُ منهما أن تخبراني عن صعودنا اليوم إلى «الجبل»، والعجب من ذاكرة الأطفال وإدراكهم لأدق التفاصيل!

جزء كبير من أطفالنا في هذا الزمن حُرموا التفاعل مع الأهل والطبيعة بسبب نمط حياتنا القاسي، لكن علينا إدراك عواقب ذلك التغافل العنيف.

من على تلك التلة أيضاً بَدت لي الحارات المقابلة والبيوت البعيدة أكثر وضوحاً، حينما ترتفع تتعمّق الرؤية، تنقادُ عيناي للمرور على المباني المتصلة مثل مسبحة، أعرف بعضها وأجهل البقية، ومن المؤكد أنَّ في كل بيت حكايةً مختلفةً ونسيجاً مغايراً للبيوت الأخرى.

في ذلك اليوم الدافئ انخفضت الإصابات بالفيروس إلى ثلاث وعشرين إصابة، شيء من الأمل عاد إلينا بعد انقضاء «الخميس» الموجع، وليس لنا سوى التعلّق بالآمال.

## «التأمُّلات»

**السبت 28 آذار.**

أصوات جديدة أيقظتْ ذلك النهار، مضى زمنٌ على سماع ضجّة الفؤوس وهي تنبش الأرض الرطبة، أكثر من ثلاث فؤوس تنهال بعنفٍ على تلك البُقع التي غزاها العشب، تختلط تلك الأصوات ويضطرب صداها في حارتنا، لا أرى أحداً من أولئك الُمنهمكين في تشذيب أرضهم، لكن من فرط الهدوء أكاد أسمع اعتراض الصخور على أنياب الفؤوس، ذلك التناغم المتتالي يشبه تكّات ساعة الحائط في ليلة عصية على النوم. يواصل الوقت الرخو إشغال الناس، فأحدُ الجيران يغسل مركبته يومياً كأن به وسواساً، وآخر يخرجُ من بيته ثم يعود إليه باستمرار كطائرٍ يحرس عُشّه، بضعة أطفال يلعبون بالكرة

في ساحة ترابية قريبة من بيتنا، بالنسبة لهم هذا الحظر فرصة ذهبية للانغماس في اللعب، صحيح أنّ التعليم أصبح إلكترونياً وعن بُعد، لكن فُجائية هذا الأسلوب التعليمي قد تمنح بعضهم فرصة للفرار من الدروس بحجة عدم توفّر الإنترنت أو عدم كفاية الأجهزة التي بحوزتهم، ولا شك أنّ عوائق التعليم عن بُعد كثيرة، لكنَّ الحكومة أُجبرت عليه.

تنفع هذه الساعات الطوال لنشاطات عدة، لكنني أنحاز للتأمل لقضاء الوقت بالإضافة إلى القراءة والكتابة، تظهر لي من ساحة البيت الجبال البعيدة والتلال القريبة وتشعبات الشوارع، وأحياناً أتدثّرُ في «فروة» ثقيلة» حين تسري نسمات شتائية المنبع، ومن خلال فُرجة صغيرة أتابع النظر إلى الأفق كطفلٍ خائف من الظلام، يقفز بي حصان التأمّل فوق أفكارٌ شتى، ويعدو ولا يتوقف إلا حينما أشدُّ لجامه، من بعد عصر ذلك اليوم أوقفَ حصان تأمّلي شاب يمشي في الشارع وحيداً، وحين اقترب من بيته تعثّر فوق منحدر وانزلق كأنما عضت الأرض إحدى قدميه، تلفّت حوله ونهض بسرعة، ربما ظن أن لا عين رأته، لكنني شاهدٌ على عثرته المضحكة، رجعت إلى تأمّلي الذي أشعلَ لي حكمة من ذلك المشهد، حينما يأوي الإنسان إلى كهف الفراغ فإنه يصبحُ رقيباً على أخطاء الآخرين وعثراتهم، أما عندما ينساب مع جدول الحياة فإنه يَعمى عن قُبح الضفاف ولا يرى إلا سبيل نجاته.

ومن زاوية أخرى، ينبغي للإنسان ألّا يظن أنَّه بمنأى عن العيون الراصدة، فليحذر من مراقبة دائمة لا يمكن توقع مصدرها.

ممارسة التأمّل ذكرتني بشيخ المتأملين الإمبراطور الروماني «ماركوس أوريلوس» صاحب كتاب «التأملات»، رغم الأحداث الصعبة والمعارك الطاحنة كان يلجأ للتأمل في كل فسحة من الوقت، في الماضي البعيد ركنَ «أوريولس» إلى ضفة قصية من نهر «الدانوب»، وفي الحاضر الطازج أركن أنا إلى ساحة ضيقة مُسيجة بشبك حديدي أزرق في جنوب الأردن، أن تشترك في مهمة مع أولئك العظام تجعلك ترى نفسك زميلاً لهم، تشعر بأنفاسهم وآهاتهم وأوجاعهم، وتتخيل هيئاتهم ولو كان بينك وبينهم آلاف السنين، هذا الوقت الكبير الفارغ من أي مَهمة يدفع الإنسان لاكتشاف نفسه إن أحسن اغتنامه.

لا يواجه الإنسان خطراً أكبر من إضاعة الوقت، ولو قُدر لنا البحث في أحوال المتأخرين من الشعوب والأفراد لوجدنا الوقت المُضاع عاملاً مشتركاً بينهم، يا إلهي كم نضيّع من الوقت!

لقد أُتيحَ لنا في هذه الأزمة أن نلتحم مع أنفسنا بعد أن هجرناها في عصر «الديجتال».. أُتيح لنا أن نتعارك مع دواخلنا كي نستحضر الروح التي خمدت فينا تلك الجذوة التي تنتشلنا من مستنقعات الجسد وتسمو بنا نحو هامات الفكر الباسقة، لا بد في هذه الحياة من روح

وقّادة لا تنطفئ، ولم ينسَ صديقي الإمبراطور الفيلسوف «أوريلوس» أن يُذكِّر بهذا الأمر:

«من العارِ أن تَخذُلكَ الروح في هذه الحياة قبل أن يخذلك جسمُك».

بدأ مفعول التعوّد يسري في الأجساد بعد اليوم السابع من الحظر، ليالٍ متشابهة ننسلُّ فيها إلى النوم دونما رغبة، حتى الوجوه بدت شاحبة ذابلة كأنما اعتادت الولوج إلى دوامات الحياة المُتعبة، ومن اللافت أن تسأم الأجساد الراحة، ما أغرب الإنسان!

## في زحمة السوق

**الأحد 29 آذار.**

ظهر اليوم يمّمتُ نحو السوق لشراء بعض الحاجات بعد أن حصلتُ على دفعة من «جمعية» اشتركت بها قبل شهر، كما أن أخي الأكبر الذي يُعطي بغير سؤال أرسلَ إليَّ مبلغاً جيداً من المال، كانت المحال شبه فارغة من شدة الطلب، وخاصة محال الخضار والفاكهة التي باعت كل شيء بالرغم من ارتفاع الأسعار، المُهم أنني اشتريتُ لوازم الحلوى، فربّات البيوت لجأن إلى إعداد الحلوى كنوع من التدريب والتسلية، وقد تلذّذتُ بحلوى «خلية النحل» أكثر من مرّة بعد أن أتقنت زوجتي صنعها.

عصراً تابعتُ مع نور وبانة سيارات الإسعاف النشطة، ومنذ اليوم

الأول من الحظر وهما تتابعان بشغفٍ مرور سيارات الإسعاف التي لم تتوقف عن الحركة، والحقُّ أنَّ رجال الدفاع المدني ما هدأت لهم نسمات ولا تباطأت لهم همم خلال فترة الحظر، تتلاحق سياراتهم عابرة الشوارع ليلاً ونهاراً بلا كلل أو ملل، وإنني خِلتُ أن تخبو أضواء سيارات الإسعاف من كثرة اشتعالها، إنهم ثروة وطنية لا تقدر بثمن فهنيئاً لنا بهم، والحديث عن الدفاع المدني يجعلني أستذكر جهود الجيش، والشرطة، والأطباء، والممرضين، وفرق التقصّي الوبائي.

عند المساء، وبينما أنا معتكفٌ في غرفة «اللاب توب»، تهادت إليّ أصواتُ زحف على الشارع، فما انتظرت طويلاً لاستكشاف الأمر، رأيتُ مئات الأغنام التي ينقلها أصحابها من غرب قريتنا الدافئ إلى شرقها البارد، رحلة الشتاء والصيف التي لا تتوقف، تسير الأغنام في هذا الليل المتأخر عبر الشوارع الرئيسة تحفّها الكلاب وتحيط بها سيارات أصحابها، في العادة لا ألتفت لهذا الرحيل الليلي البطيء، لكنَّ انبعاث الخطى ليلاً على الطرقات جعلني أنساق دون وعي لهذا القطيع المتحرّر من القوانين، تلتقطُ العينان أيَّ حركة لعلها تُسرِّي عن النفس المنقبضة، فقد تابعتُ بالأمس آليات البلدية وهي تقوم بتعقيم الشوارع.. تابعتُها وأنا أتساءل عن جدوى تلك العملية.

أيُ فيروس هذا الذي نلاحقهُ!

## أضواءٌ تُشقشِق

تلاحقت الأيام وليس للشَعرِ من يضبطَ انفلاته، انتفشت الرؤوس وطالت اللحى وصالونات الحلاقة مغلقة، لكنني عثرتُ أخيراً على حلاق متجوّل أعادني إلى ما كنتُ عليه.

في الرابع والعشرين من نيسان حلّ شهر رمضان، طقوس رمضانية عديدة تخلّى الناس عنها مكرهين، صلاة التراويح، الإفطار الجماعي، الموائد الرمضانية، وحين أتى العيد لزمنا البيوت، وربما هو أغرب عيد فطر في تاريخ الإسلام، حيث كان يوم العيد يوم حظر شامل، فلا تكبيرات ولا حركة ولا بهجة، كان عيداً منزوع النكهة مبتور الفرحة.

جائحة كورونا غيّرت وجه العالم، وفي بلادنا تغيّرت كثيرٌ من العادات لا تغيّرها إلا السنوات الطويلة، فقد ابتعد الناس عن التقبيل أثناء السلام، كما أُلغيت فعاليات الأعراس المُكلفة، واقتصر حفل الزفاف على عائلتي العروسين فقط، وفي حالات الوفاة لم يعد هناك ثلاثة أيام للعزاء يقدم فيها الطعام والتمر، بل أصبح العزاء من خلال الهاتف وعبر وسائل التواصل الاجتماعي، ولعلّ الناس تستمرّ على ما أحدثته كورونا في هاتين العادتين اللتين أرهقتا الناس كثيراً.

لقد أكّدت هذه الجائحة أن الأردنيين نسيجاً قوي الحبك مشدود الوشائج، رأينا المبادرة بالتبرعات للحكومة، وتقديم المساعدات من

المواطنين أنفسهم للأسر الفقيرة، والتنازل عن أجرة المحال التجارية وغيرها. وشاهدنا الورود التي يقذفها الأطفال على دروب الجيش ورجال الأمن فرحاً بهم. إنّ هذا التمازج الشعبي والتآلف مع الجيش صورة مشرقة تساعد الدولة أن تتقدم سريعاً في المجالات كافة.

ظلّ الجنوب بعيداً عن رماح الفيروس التي شرّقت وغرّبت، فلم يُعلن عن إصابة واحدة داخل محافظات الجنوب الأربعة، ومع الأيام تراخت في بلدتي مخاوف الناس وانخفضت فيها حدّة إجراءات منع التجوال.

أخيراً، ومثلما تأمّلت النفوس الخضراء، رُفِعَ الحظر مع التشديد على أخذ الاحتياطات اللازمة، فقد صدر الأمر بعودة القطاعات جميعها للعمل باستثناء صالات الأفراح، وسُمح التنقُّل بين المحافظات اعتباراً من يوم السبت الموافق 2020/6/6 ومن الساعة السادسة صباحاً حتى الثانية عشرة مساء.

## إبحارٌ من جديد

**السبت. 6 حزيران.**

نُعلي أشرعتنا لنبحر من جديد، عادت الحياة وفي ذاكرة الناس تجربة استثنائية انبعجت لها نفوسهم إلى الحد الأقصى، تُثبت الأيام مُجدَّداً أن النجاة حليفة المتفائل، لصيقة العزائم الصلبة، ونحن بانتظار بُشرى

الدواء الذي سيجعل من هذا الفيروس ذكرى غابرة، ومهما كانت التعرجات حادة، فلا بُدّ من المرور.

**ولْتَسْلَمُوا**

# يوميات كورونيّة

صفاء أبو خضرة

*لن أعدّ الأيام.. بعدَ أن تحوّلَ شهيقُها*
*وزفيرُها من مخرَجٍ واحدٍ، هو الذاكرة.*

**(حوار مع النفس):**

«المُنحدَر حيث يهوي البصر إلى القاع، بينما اليد تمتدّ إلى ما فوق، هُنا يُصابُ القلبُ بالدُّوار من جراء إرادتهِ المزدوجة هذه»، بينما أقرأ هذه الجملة لنيتشه في كتابه المترجم «هكذا تكلم زرادشت»، إلى طاولةٍ مستديرة، كما تخيّلتُ، أحاورُ نفسي التي تجلسُ أمامي، حيث النهارُ طويلٌ، وكذلك الليل في وضع الحجر الكوروني، تتثاءبُ الأسئلةُ على شفتيّ، ربما كسلاً أو خجلاً، ربما فقدت كلماتي قدرَتها على التعبير، لا أدري، كل ما عرفتهُ أنّ نفسي بحاجة لإجراء حوار معي شخصياً، أرادت استحضار الطفلة الكامنة فيّ التي لم تكبر بعدُ، ولم تملّ من طرح الأسئلة:

ـ لماذا يا شبيهتي ولدتُ، بل ولدنا نحنُ البشر؟

هل ولدنا لنعيشَ الخوف والتعب والموت..؟

أتمهلُ قليلاً قبل الإجابة، ليسَ لأني لا أعرفُ جواباً، وليسَ لأني أعجز عن تركيب الحروف، بل لأنها استفزّت جرحاً غائراً في صدري منذ زمن، ولم أجرؤ على طرحهِ كيلا يصدمني أحدُهم بجوابٍ غبيّ.

ـ ثم أستنفرُ الكلمات من بينِ شفتيّ.

ـ بل يا عزيزتي، ولدنا لنأخذَ نصيبَنا من الطبيعة، نستهلكُها بحبّ، ونمضي إلى حيثُ لا يدري بشر بكلّ هدوء..

ـ إذاً، لماذا نتعذّب؟

ـ لأننا نبحثُ دائماً عن الخلاص.

ـ لماذا نكدّ ونتعب؟

ـ لأننا نعيش في قلقٍ دائم، وهو ما يجعل التوازن يختلّ ويفقد الحياةَ بهجتَها.

ـ متى نستطيع أن نحسنَ الاختيار؟

ـ عندما نطفو على السطح.

ـ متى نشعر بالرضا؟

ـ إذا أدركنا الانتماء لإنسانيتنا.

ـ كيف نستمتع بالحياة وندركُ أن نهايتنا الموت؟

ـ كما خرج الوجود من العدم، متعةُ الحياةِ في الموت.

ـ إيييييييييه يا نفسي، أريدُ أن أنام، لأصحو وقد تلاشت كورونا بعيداً عن فلسفاتي معكِ.

ـ سؤال أخير، كورونا أنثى أم ذكر؟

ـ لا يهمّ..المهم أن نقضي عليه/ عليها.

**(العلاج بالرقص):**

أليسَ من الغَريب أن تتحققَ الأُمنيات على طريقة جائحة؟ قلتُ في نفسي، وابتسامةٌ ماكرةٌ رسمتْ نفسَها على وجنتيّ.

نحنُ شعبٌ قويّ، أجل، سننتصر على الكورونا، ولن تفلتَ من عِقابنا، أواسي نفسي بينما أطلُّ من النافذة، ثمّ أعيدُ النظرَ إلى مكتبتي، حيثُ تتصدّر روايات جوزيه ساراماغو الرفّ العلويّ، أنظرُ بعينٍ مرتجفةٍ لروايته «العمى»، أتذكّرُ تفاصيلَ غصتُ فيها مع العميانِ والقاذورات التي تحوّلتْ في الشوارع مثل سيولَ جارِفةٍ، أنظرُ إلى قدميّ خائفتين أن يعلقَ شيءٌ فيهما، ثم أعيدُ النظرَ إلى النافذةِ لأتأكدَ أنني ما زلتُ على قيد الابصار..

«كورونا»، همستُ، خفتُ أن تسمعني الجدران فُتصاب بالعدوى، أسرعتُ إلى المعقّم، عقمت يديّ ووجهي وولَجَتْ إليّ رغبةٌ بأن أُعقّمَ أذنيّ، خفتُ أنّ العدوى تنتقلُ بالسمع كما كان يحدث معي في كثيرٍ من الأحيان حسب اعتقادي حينئذٍ.

ثمّ خطرت ببالي فكرة أن أعالجَ خوفي الطارىء بالموسيقى، لديّ أشرطةٌ عديدة، ولا أعرفُ أيّ موسيقيّ سيتناغم معه مزاجي،

سأستمع إلى بيتهوفن، سمعتُ مقطعاً أوّلياً، لكنَ الشغف الذي كان يتتابني عندما أسمعه لم يدخل إلى قلبي، هل غيّرتنا كورونا؟ هل عبثت بأمزجتنا؟ ثم أخذتُ شريطاً آخرَ، كانَ عزفاً لباخ، ثمّ بدّلتُ وبدلتُ، واكتشفتُ أنني في مزاجٍ يريدُني أن أحلّق، أن أتفجّر، أن أصرخُ، حتى صرخت، حظر، حظر، حظر.

باءتْ بالفشل رغبتي بالعلاج الموسيقيّ، يبدو أنّنا في الحظر، تبدّلنا، صرنا آخرين لم نكُنهم من قبلُ، لكنني امرأة لا تعرفُ المستحيل، قررتُ أن أفعلَ شيئاً فعلتهُ سابقاً، لكن ليسَ كثيراً، جمعتُ أطفالي، أخبرتهمُ أنّ الرقص يعالجُ المرض، يعالجُ الكآبة، علينا الآن جميعاً أن نرقص، ونضحك كثيراً، نتهافت صعوداً ونزولاً بأجسادِنا التي تحجّرتْ في المنزل، نظروا إلى بعضهم البعض، هبّت طفلتي قبلَ شقيقيها وقالت: هيا نبدأ..

اشتعلت الموسيقى الصاخبة، بدأت أولاً بالقفز والتمايل، وتركتُ المدى لشعري أن يتناثر في جوّ المكان، أمسكتُ بيديّ طفلتي، ضحكنا كثيراً، رقصنا كثيراً..ونسينا إن كانت كورونا تقفُ طويلاً إلى الباب، أم تلاشتْ من القهر.

(كلّ شيءٍ يمضي):

أفقتُ باكِراً هذه المرة، بعد أن طالتْ مدة الحظر النهار كلَّهُ أمامي، أنامُ طويلاً، وأسهرُ طويلاً، أحدقُ في الباب وما زلتُ في فراشي أتأهبُ للخروج من غرفتي باتجاه المطبخ، أردتُ أن أفاجيء أطفالي بفطورٍ مختلفٍ، خاصة أنهم لم يحفلوا بالاختلاف والتجديد قبلَ ذلك، «ربّ ضارةٍ نافعة».

أتلقّى اتصالاً من والدتي، تسألني كيفَ الحظر معكم؟

«كلّ شيءٍ يمضي»، أجيبُها، وثمةَ حسرةٌ صغيرةٌ تتربعُ على عرشِ روحي، تعرفُني عندما أتنهّدُ طويلاً، تعرفُ أنَّ ثمةَ حزناً تدفّقَ إلى قلبي..لكنّها بقدرتها الأمومية تأخذني إلى حيثُ يجبُ أن أكون، ويجب أن نكون، في فسحة الأمل..

قالت لي: الحياةُ عُبور، إذا ما اكتشفنا تلك النقطة الخفية التي تجعلنا سعداء لا أشقياء، سنكون لا محالة استثناء، وبقدرتنا على ذلك الاكتشاف، سنهزم المرضَ ونستمتع بالحظر، نجلسُ طويلاً إلى أطفالنا بعد أن شغلتنا الأعمالُ الخارجية عنهم، نراهمُ بأعيننا وقلوبنا معاً، نتحدث معهم نصاحبهم، فلمَ هذه التنهيدةُ الحزينةُ؟

أقفلتُ الهاتفُ بعد أن منحتني أمي دافَعاً قوياً للتفاؤل، وقررتُ أن أستفيدَ من المرض والحظر، أجعل الأمر أكثر بساطة مما كنتُ أفكرُ فيه،

بل وصلَ الأمر إلى اعتبار اليأس فكرة طائشة، بل فكرة من الشيطان ذاته.

بعدَ ما أمضيتُ من أفكار مع نفسي، أشاهدُ الأخبارَ على الفيس بوك، أتابعُ عدد الإصابات، أقرأُ التعليقات، لستُ وحدي مذعورة، أرى صوراً كثيرةً عن تهافُت الناسِ على الخبزِ، كانَ طابوراً كبيراً من الناس، يكتظون من أجلِ أرغفةٍ معدودةٍ من الخبز، هل الجوع يُفقدُ المرءَ بصيرتَه، يتحكّمُ به يجعلهُ سلوكهُ وطريقهُ؟ عندَها اكتشفتُ أنني لا أملكُ الخبزَ في المنزل وقد وعدتُ نفسي بأن أجهّزَ فطوراً مختلفاً، ركضتُ باتجاه المطبخ، في إناءٍ خاص، خلطتُ الطحين والماء والملح والخميرة بيديّ، تساءلتُ في نفسي: ماذا لو أنّ حياتَنا مثلُ هذه العجينة، نكوّنُها، نعجنُها بأصابعنا قدرما نستطيع وكيفما نريد، نحن من نستطيع التحكم بمقدار الملح ومقدار الماء وبأصابعنا نستطيع جعلَها ليّنةً أو يابسة، فقط علينا أن نعرفَ مقدار كلّ شيء، فالنقصان خلل، والزيادة أيضاً.

بعدَ ربع ساعةٍ من تجهيزِ العجين، كانت رائحة الخبزِ تفوحُ في المكان، لكنّ الجملة التي سمعتُها تهمسُ في أذنيّ صباحاً «كلّ شيء يمضي» أعادتْ لي خوفاً مكتوماً في صدري.

أخذتُ رغيفاً ساخناً، شممتهُ، وتذوقتهُ، كانَ مختلفاً وشهياً.

تسللتُ إلى مكتبتي بينما يلهو أطفالي بألعابهم، أردتُ أن أعرفَ لماذا

على الأشياء أن تمضي، الأشياء الجميلة وحدَها تبقى، أقنعتُ نفسي والأشياء البائسة تمضي حتى لو تركت بعَض علاماتها، فهيَ ضرورية لنتعلّم من بؤسنا.

فتشتُ فيها، لا أعرفُ عن أيّ شيءٍ تحديداً أبحث، عثرتُ على ألبوم صور قديم، وبعض المخطوطات والأوراق الممزقة والمحفوظة في مغلفٍ بنيّ كبير، كانت المخطوطات عبارة عن روايتين قديمتين بخط يدي، ومخطوط آخر بخطٍ حاسوبي رديء وغير متناسق، تذكّرتُ أنها كانت بداياتي في تعلّم الطباعة على الكمبيوتر، وتذكرتُ أيضاً أنهُ لولا فسحة الإجازة التي منحني إياها الحظر، لما تمكّنتُ من النبش في الماضي الجميل، وتفقّد أشيائي الجميلة التي تحملُ في طيّاتِها الكثير من الذكريات، والكثير من الملامح التي افتقدتُها عبرَ السنوات الماضية.

عندما حدّقتُ في الصور، صورة تلوَ صورة، عرفتُ تماماً معنى تلك الجملة «كلُّ شيءٍ يمضي»، الشباب يمضي، الأصدقاء يمضون، الأماكن تتبدّل، المسافات تبتعد.

لا تصدّقوا..أنّ كلَّ شيءٍ يمضي ويموت..تبقى الذكريات تفوحُ حيثُما نكون.

**(حقيقة لاذِعة):**

للمرّة الأولى أقفُ أمامَ مرآتي، أسألُ نفسي سؤالاً اعتبرتهُ فيما بعدُ غبياً، لكنّي عدتُ عن ذلك أيضاً.

ماذا لو كانَ هذا الفيروس يدفعُ العالم إلى النهاية؟

النهاية!

كلمةٌ قاسيةٌ جداً.

ولأنني أردتُ أن أنزعَ عنها قسوَتَها، وجبَ عليّ نفيُها خارج نطاق منزلي، وعبر مواقع التواصل الاجتماعي ببثّ الطمأنينة والحذر للأصدقاء والأحبة شرعتُ بكتابة رسالةٍ:

إذا ما نظرنا إلى المستقبل بعينِ الواثق، ستعفينا تلكَ النظرة من القلق الذي يهدمُ خلوَتنا الجميلة، وإذا ما نظرنا إلى بعضنا كعائلة نتسامرُ معاً، نأكلُ معاً، نضحكُ معاً، ولو من خلفِ شاشاتِ الهاتف والحاسوب، سندخّرُ أكبرَ قدرٍ ممكن من الطاقة الإيجابية التي تمنحنا قوةً وحافزاً أكبرَ للبقاء.

نحنُ ما نحنُ عليه اليوم، نسمعُ مصطلحاتٍ جديدةً، حظراً، حجراً صحياً، تعقيماً، إلى غير ذلك مما طرأَ عليه الواقع، لماذا لا نعتبر ذلك تغييراً، تجديداً؟

إذا ما ذهبنا إلى الجوهر، سنخرجُ من لعبةِ الهزيمة، سننتصر لا محالة،

وإذا ما تيقّنا أن الأكثر خطورة من المرض، هو اللامبالاة التي نقترفها بحق أنفسنا، سنصل بهذا إلى ما لا يُطاق.

التعقيم لا يكونُ بالمطهرات فقط، بل بالحذر، والحظر لن يكونَ حظراً إذا ما استطعنا أن نعتبرَهُ اختباراً علينا النجاح فيه، لماذا لا نقنعُ أنفُسنا بالتالي: «أنا سعيد لأنني أتنفَس، أنا سعيد لأنّ أبنائي حولي آمنين، أنا سعيد، لأنّ والدتي بخير وكذلك إخوتي وأصدقائي، أنا سعيد لأنَّ بلادي بخير، أنا سعيد وستنتهي هذه السحابة السوداء وتمضي بعيداً».

لماذا لا نتذكّر أننا لا نعيشُ بغيرِ دوافع ودافعُنا القوي الحياة، وأنّ الحرية لا يقمعْها حظرٌ، الحرية تكمن داخلنا، نحنُ نقمعها بالاستسلام والنزوح صوبَ الهزيمة.

لماذا لا نسخرُ من آلامنا؟ نعتبرُها تجربةً جيدةً للمُضيّ، نصنعُ منها دويّاً قوياً يخبرنا بأننا على قيد الحلم والحبّ والحياة، لماذا نتركُ الرعبَ يتسللُ إلينا من ثقوب الحيرةِ؟ لماذا نحتارُ أصلاً ونحنُ نحيا لساعات وأيام وسنوات لا ندركُها ولا علمَ لنا بها؟، هذا يجعلنا نتمسك بها أكثر، ونحياها بشكلٍ أفضل.

عليكم أن تعلموا، أنّ رغبتنا المتناهية بالعيش وفقَ معايير حياتية مستقبلية، هو الذي يغذي رغبتنا بالتفكك عن كلّ ما يصيبنا من أذى، لماذا نحيا كالآلات، نصحو بكبسة زرّ، وننام كذلك بكبسة زرّ؟ لماذا

نعلّقُ المستقبلَ على أهدابِ الماضي؟ لماذا لا ندرك أن الحياةَ هيَ عبئنا الذي علينا حملَه جيداً كيلا تسقطَ من أيدينا..ونهوي معها؟

لماذا لا نخجل أن نموتَ خوفاً، فيحدق بنا الموت، ولا نستطيعُ مواجهته؟

لماذا نجعل أنفسنا مساحات فارغة، يطلقُ فيها الخوفُ ريحَه، فتلوثُ أرواحنا؟

لماذا لا ننجو كبشرٍ لا يهزمُنا فيروس، كما لم تهزمنا فكرة أننا نحيا في المطلق؟

لماذا لا ننصتُ إلى خلايانا وهي تسقطُ من أعلى الريبةِ، تصرخُ في وجهِ الليل، أريد أن أعيش بلا منكّهات، بلا منغصات، بلا ردود أفعال غريبة، أريدُ ولادةً جديدة، أعلو معها، أقذفُ معها ثقلَ الأمس، وأخلدُ إلى عرشي آآآآآمنةً.

**(قرفصة):**

كنتُ في العمل، عندما أعلنوا أمر الدفاع، أفرغنا ما في جعبتنا من حمولات زائدة في الدماغ، بين وساوسَ، وأفكار غريبة، هُرعنا جميعاً إلى الشارع، بعضهم إلى سياراته الخاصة، والبعض الآخر وجدَ وسيلة نقل أخرى..

أمشي في الشارع وحيدةً، للوهلة الأولى شعرتُ أنَّ الشارعَ ينبح،

لستُ خائفة، لكني مستغربة، ثم فجأة رأيتهُ يتسعُ سيبتلعني، لكني نفضتُ عني الوساوس هذه، وانتظرت أيّ حافلةٍ تمرّ لتقلّني إلى أقربِ نقطة أصلُ فيها المنزل..كان الجوّ ما بينَ مشمسٍ وغائمٍ مثل قلبي.. الأفكارُ تقرفصُ في مخيّلتي، شعرتُ بوخزٍ قدميها، شعرتُ بنبضاتها المتسارعة، كانت تشكو ضيقاً في التنفس، وتسارُعاً غير صحي في دقات الوقت، وارتفاعاً في درجة حرارة الخوف، كان عليّ أن أهدّيء روعَ تغلغلها في القرفصة، لكنّها كانت تبالغُ أكثرَ في قرفصتها حتى سمعتُ طقطقةً غريبةً في عظامها، كانت تتكسّر، وتتساقط على لساني كلماتٍ وكلمات..

هذي الكلمات.

مرت الحافلة التي كنتُ بانتظارها، كنتُ الراكبَ الوحيد، والسائق المرتجفُ يضعُ كمامةً ويتلفظُ بكلماتٍ غير مفهومة من خلفها، لم أركز حينها إن كان ذلك بفعل الكمامة، أم أنَّ الرجلَ كان يهذي.

عندما وصلت الحافلة المكان المخصص للوقوف، اتجهتُ صوبَ السائق لأُعطيه الأجرة، لكنهُ تمنّع قائلاً: ما يمنع النقود أن تكون ملوثة بفيروس كورونا..احتفظي بها.. لا أريدُها.

إحساسي بالسوء الذي قرفص أيضاً إلى جانبِ أفكاري، جعلني أشعرُ بدوار غريب، تنبهتُ أنهُ وجبَ عليّ إجراء اتصال هاتفي: أرجو أن تحضر إلى مكان عملي لتقلّني..ما من حافلات متوفرة.

**(اعوجاج):**

الثالثــةُ صباحاً.. أشهقُ ثانيةً، وأزفرُ دقيقةً، والساعةُ ما زالت على حالها، لا تُقيمُ وزناً لأفكاري.

أحدقُ في السقفِ، تجتاحُني أسئلةٌ كنتُ أسألها لأُمي في طفولتي المبكرة، لماذا ولدتُ؟

يعيدُ السؤالُ نفسهُ مرةً أخرى، يهمسُ في رأسي، أجيبي..

ولا أجدُ إجابةً شافيةً..

ربما ولدتُ لأشهدَ اللحظةَ التي يمتقعُ فيها الحيُّ بأكملهِ بالهدوء على غير عادتهِ، ففي مثل هذا الوقت من الليل، لا تسمعُ سوى مواءِ القطط، الكلّ نيامٌ، أما في مثل هذه الأوقات

ـ مع الجائحة الكورونية ـ الليلُ والنهارُ تبادلا المواقع الزمنية، وصارَ ليلُ الناسِ نهارَهم.

أنظرُ إلى مكتبتي القابعة في زاوية الغرفة، أكتشفُ في اللحظة ذاتها أنّها مائلة قليلاً؛ لأنّ ترتيبَ الكتبِ الكثيرة لم يكن متناسقاً، ثمةَ جهةٌ تحملُ عدداً أكبرَ من الكتب مما تسبّبَ لها بذلك الميلان، أتنازلُ عن كسلي قليلاً، أخرجُ من سريري متثاقلةً متثائبة، ليس بفعل النعاس، بل بفعل الاستغراب والاستهجان، فليسَ من عادتي عدمُ انتظارِ الغدِ.

أفرغتُ حمولةَ زاويةٍ كاملةٍ من المكتبة، لأصلحَ الميلان والاعوجاج الذي حصل، لكنّ الاعوجاج بقيَ على حالهِ رغم إفراغ عددٍ لا بأس

بهِ من الكتب، وقفَ الصمتُ حائراً على عتباتِ شفتيّ اللتين زممتهما حيرةً، ماذا سأفعل لأصلحَ هذا الاعوجاج..؟ سألتُ نفسي، ثمّ عثرتُ على كتب ـ بينما تجول عيناي بحثاً عن طريقة الإصلاح ـ لم أكن قد قرأتُها سابقاً، شعرتُ حينَها بالفضيحة، كيفَ لكتبٍ مثلِ هذه مرت عليها سنواتٌ في مكتبتي لم أقرأها سابقاً، يا للعار..قلتُ لنفسي، حملتُها بينَ ذراعيَّ، ضممتُها كأنني أضم روحي التي ستفرّ بعدَ قليل، جلستُ إلى سريري، احترتُ بأي كتابٍ سأبدأ ليلتي، ولا غدَ لهذه الليلة، ثم أعدتُ النظرَ إلى مكتبتي، كانَ الاعوجاج قد اختفى.

**(زومبي):**

لأول مرةٍ آخذُ قسطاً من الحبّ والخوف معاً، فالتحامهما بمثابة إكسير لتقفَ الحياةُ منتصبةً للأبد، دونَ شُحوبٍ روتيني، ودونَ ترهّلاتٍ زمنية، أن تحب يعني أن تتنفس، وتخاف، يعني أن تفكر، فكيفَ نحيا دونَ حبّ وخوف؟.

أطلُّ من النافذة، الهدوء الذي طرأ فجأةً على الحيّ على غيرِ عهدهِ جراء الحجر الصحي وحظر التجوّل، وعندما خرجتُ بكيس النفايات لألقيَهُ في الحاويةِ القريبة، شعرتُ أنني الكائن الوحيد على الأرض، أخذني التخيّل كعادتي إلى أبعدِ نقطةٍ ممكن أن يصل إليها آدميّ، حافيةَ القدمين، أجرّ أذيالَ خيبتي، أتقصّى الروائح، أتقصّى

الظلال والأحلام، لا بدّ أنَّ الجميعَ أسرى في مكانٍ ما، وعليّ أن أتخذ موقفاً حاسماً لإنقاذهم جميعاً، هيَ مسؤوليتي الآن، كوني الوحيدة حرةً طليقةً، لا أرى طيوراً في السماء، لا أرى غيماً يغطي عورةَ الشمس، لا أشمّ روائح تنبعثُ من خلفِ النوافذ، لا أرى قططاً أو كلاباً، تذكرتُ ديكَ جارِنا، كانَ مسعوراً بطريقةٍ مُريبة، كانَ يطعمهُ لحماً، فصارَ متوحشاً، كلما مررتُ قربَ منزلهم ينقضّ عليّ، وأُهرَعُ إلى منزلي وقد نتشَ ملابسي وتمزقت أطرافها، كم أفتقدهُ اليوم، أمشي في شوارع نظيفة من كلّ شيء، حتى من ذرات الغُبار التي كانت لا تتلاشى إلا عندما تمطر، يا لروحي المغلوبة على خوفي، أقول في نفسي، أمشي في الشارع على أُهبةِ إطلاق قدميّ للريح، ماذا لو تحوّل الناسُ إلى زومبي، وخرجوا إليّ فجأةً من خلفِ جدار؟ ماذا لو تحولوا إلى وحوش مسعورة؟ إلى أيّ مدى تحتمل أقدامي الركض؟، لا بدّ أنني سأسقط من أول ميل، وسينهشونَ أفكاري وذاكرتي، يا لسخافتي! أقول لنفسي، ثمّ أنصتُ للصمتِ، أبحثُ عن أيّ دليلٍ يصلُني بالبشر الذين اختفوا فجأةً، أضحكُ فأسمعُ صدىً لبكائي، أدورُ حولَ نفسي، أصرخُ بملء فجيعتي: أيّها الناس، أينَ أنتم، أينَ أنتم؟ولا أسمعُ إلا صوتاً آخر في البعيد يقول: أينَ أنتِ، أينَ أنت؟.

**(صفارةُ الانذار):**

الأملُ فكرة نعوّضُ بها ما فاتَنا أو ما سيفوتُنا، هكذا كنتُ أحدثُ نفسي، عندما أُطلقتْ صفارة الإنذار للمرةِ الأولى، أعدُّ العشاءَ بريبة ذلك الصوت الذي يذكّرني بالحرب، اللهم احم بلادَنا، همستُ وسقطتْ دمعةٌ غريبةٌ على وجنتيّ، أخفيتُها مباشرةً كيلا يلحظَها أبنائي فيرتابوا مثلي.

ثمّ أُعيدُ دقّةَ الأسئلة التي تُداهمُني في الأوقات العصيبة، ماذا لو انتهزنا فرصة الحظرِ هذه في أشياءَ مُفيدة، العطلة كانتْ حلماً بعيداً، ومنع الزيارات ومنع الاكتظاظ أيضاً كانَ منالاً بعيداً، لكنهُ باتَ اليومَ فاعِلاً.

إذا اعتقدنا أن السعادة تكمنُ في البشر، فنحنُ على خطأ، ثمةَ أشياء كثيرة حولنا تكمنُ فيها السعادة، لكن علينا أن نُغيّر نظرَتنا للأشياء، وكانت هذه نظرتي تحديداً لوضع الحجر الصحّي، والاستفادة من وباءٍ نطردهُ خارجاً إن مكثنا في بيوتنا آمنين.

سأكتبُ، قلتُ، سأكتب، صرختُ، لكني في لحظةٍ ما عجزتُ، كانَ صوت صفارة الإنذار لا يخرجُ من أذنيّ، بل يسبقُ أيّ فكرةٍ أحاولُ ترجمَتها على الورق، كنتُ أشعرُ أن القُبور تفتحُ فاها تودّ ابتلاعَ الكون، أتشبّثُ بي وبأبنائي وكتبي، أودّ لو بإمكاني ضمهم جميعاً والفرار بعيداً عن هذا العالم، لكن إلى أين..؟

يعيدُني السؤال، إلى أين؟

العالم اليوم يتنفسُ عبرَ كمامة، يتنقلُ وسط المعقّمات، والحدود مغلقة، والسماء مغلقة، والأرضُ باتت مثلَ صفيحةٍ معدنية، أو سجنٍ ضخم، أو دائرة ملغومة بالأخبار والشائعات، والأصوات المرهقة والابتهالات الكثيرة والخوف والعبث..

تُعيدُ صفارةُ الإنذار كرّتَها، تنعقُ الأنّاتُ في صدري، بينما أعدّ العشاء، كأنَّ الزمن يتوقّف عند هذه اللحظة، يكرر نفسهُ كل يوم، يتكرر المشهد، لا جديد..القبور تفتحُ فاها...أتمسكَ قدرَ خوفي بأبنائي وكتبي، أحكي لهم حكاية المساء: كان يا ما كان في قديم الزمان، انتهزَ فيروس غاشم أرضنا الجميلة، وعندما توحدت الأيدي بعضَها ببعض، شكلوا دائرةً ضخمة حصروه فيها، وداسوه بأقدامهم حتى تلاشى، عادت الأرضُ سليمةً معافاة، الأيدي ما زالت على اشتباكِها الجميل، والأفواهُ جميعها تبتسمُ.

**(البيت):**

هل تتألم البيوتُ حينَ نهجُرها؟

وكأنّه أجابني على هذا السؤال في فترة الحظر الطويلة، رأيتهُ مثلَ وجهٍ مستديرٍ نضجتْ وجنتاهُ واحمرّتَا، لأنّ صوتَنا جميعاً جعلَ الحياة تتدفق في عروقه..

وكأننا لا ننتبهُ لأبسطِ الأمور إلا حينَ تيقظنا فجيعةٌ أو جائحة مثلُ هذه الجائحة، فلم أكن أسمعُ صوتَ البيتِ يئنّ من الوحدة، ولم أشاهدهُ يتمزّقُ على غيابنا، ولم أرَ دموعاً تنهالُ من نوافذهِ.

في فترة الحظر، صارَ البيتُ صديقي الحميم، فنحنُ لا ندركُ متعةَ الأشياءَ إلا عندما نخلو إليها.

في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، الكلّ غيّر مساراته، في الغرفة الأخرى يتسامرون، وحدي أهيمُ في الأسئلةِ كعادتي، أطربُ على ضحكاتهم وهمسهم، ولكني أغرقُ أكثر كلما لامسَت العتمةُ الجدران، وانطفأت الشوارع إلا من ضوء القمر، أرى نسيجَ الغيوم عبرَ النافذةِ يسحبُ خيوطهُ في الأفق، فتندلعُ الأسئلة مرةً أخرى، وأبحثُ عن إجابات..

هل البيت كائنٌ مكاني..أم زمني..؟

أم خليطٌ زمكاني؟

على الأرجح أنهُ كذلك، فمن يعيدُنا إلى زمن الطفولة؟ حيثُ كنا نجتمعُ عند انقطاع الكهرباء حول شمعةٍ، منا من يطفئها ليشعل خوفنا، ومنا من يشعلها رغبةً في اللعب بالنار، ومن يزرعُ فينا شجرةَ الروائح؟ هذه الشجرة التي تكبرُ معنا، وتتنقلُ معنا من مكان إلى مكان، من بيتٍ إلى بيت، هي شجرة زمنية لا محالة..لهذا نجدُها حيثُ تشعلُ الذكرياتُ قلوبَنا، حينَ نتذكّر.

أقذفُ نفسي على السرير، كتابٌ بينَ يديّ تشردُ حروفهُ إلى سقف الغرفة، أقرأُ باشلار، أحاولُ استجداءَ كلماتهِ عن المكان، وروح المكان، أراها متبعثرة هنا وهناك، أفككّها كأنها طلاسم؛ لأنّ جسدي الذي أخذَ فسحةً من الراحة في أجواء الحظر منحَ مخيّلتي أن تفكر في أبعادِ كلّ شيء، هذا البيت ليسَ مجرد تكوينٍ هندسي وآثاث وفراش، إنهُ كونٌ بحدّ ذاته.

الكون كبير، والبيت قلبُ هذا الكون.. البيوت تتنفس، لكن علينا أن نحسنَ الإصغاء.

**(وسواس قهري):**

أتجوّلُ في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل وكأني تحوّلتُ في هذه الجائحة إلى خفاش، أنام نصفَ النهار، وأفيقُ طيلة الليل.

ماذا لو كانَ الفيروس المشؤوم يتجوّل معي الآن، يدخلُ غرفةَ أطفالي، يغفو على وسائدهم، يقفزُ إلى كأس الماء الموجود إلى جانبِهم، يعبثُ بشعرهم، يعبثُ بألوانهم وكتبهم؟

أحضرُ دلو الماء، أسكبُ فيه مقداراً جيداً من الكلور والديتول، الرائحة قوية ولاذعة، لكنّ الخوفَ لاذعٌ أكثر، من أينَ أبدأ؟

كنتُ أكرهُ هذه الروائح من قبل، ولم أكترث إذا ما كانت المنظفات التي أستعملها لغرض التعقيم، بل لأغراض الرائحة العطرة، أما

الآن، لا تهمّ رائحة الكلور النفاثة، المهم أن تقضي على الفيروس الذي يعبثُ بالمنزل، ويعيثُ فيه فساداً.

أغمرُ قطعة القماش بالماء المختلط بالمعقمات، أتأكدُ أنها امتصّت أكبر قدرٍ منها، ثم أعيدُ الكرةَ مراراً ومراراً، أبدأ بمسح النوافذ فالأثاث، أقف وسط البيت أدورُ حولَ نفسي، بين الجدران، أقول: ماذا لو كان الفيروس يتمطّى على الجدران؟ أمسحُها برفقٍ وتأنٍ، أثرثرُ كلماتٍ يغلبُ عليها الدعاء بالقضاء على الفيروس الملعون، أحذرهُ من الاقتراب من أطفالي، والابتعاد عن أنفاسهم وألعابهم وأشيائهم، سأقضي عليك، أقول وأنا أثابر على المسح، وبعد الانتهاء أجلسُ إلى أقرب كرسيّ ملّ من ذهابي وإيابي منهكةً، لكني في الوقتِ ذاته أغفو مرتاحةَ البال.

أخرجُ من غفوتي مسرعةً نحو ألعابهم، لم أعقم ألعابَهم، أهذي، مسحتُها لعبةً لعبةً، وقطعةً قطعةً، ثمَ دخلتُ إلى الحمام، تذكرتُ أنني لم أعقم نفسي بعد كلّ هذا العناء، وبدأتُ رحلتي الجديدة في التعقيم.

**(اعتراف):**

التواصل مع الآخرين نعمةٌ لا يُدركِها إلا من كان سجيناً.

فكيفَ لو كانَ سجيناً بإرادتهِ.

بضعُ كيلوات تفصلُني عنها، وكنتُ أكتفي بسماعِ صوتِها عبرَ

الهاتف، لأطمئنّ عليها، أعطيتُ لنفسي العذر بانشغالي الدائم ما بين العمل والبيت.

هذه الجائحة أيقظتْ فيّ الذنبَ، كيفَ لي في هذا الحجر أن أكفّرَ عنهُ؟

في وضحِ الخوف نكتشفُ أنفسنا، وفي العتمةِ نعترف بكل شيءٍ دون أقنعة أو محسنات..أو مواراة..

أن تختار العزلة والاكتفاء بذاتكَ هو مرض، علينا إيجاد العلاج السريع له، فالعزلةُ الاختياريةُ أخفّ وطأةً من العزلِ الإجباري، لكن الأخير لهُ فوائده، تعرفُ أنكَ مجبرٌ على التواصل مع العائلة عبرَ الهاتف فقط، بل تعطي العذرَ لنفسكَ، تراهم صورة متحركة، لا تشعر بأنفاسهم، ولا تدركُ أصواتهم المتعبة لأنهم يجيدون إخفاءها، تراهم بغيرِ هيئة، بغير حقيقة، كأنهمُ وهم سقط تواً من الغيب.

وددتُ لو أنني عشتُ سنواتي كأنّ العالم سيغلق الآن، أضمّ أحبّتي، أتنفسُ رائحتهم وأتذوق صوتهم، أضحكُ لانتقاداتهم وأسعد بها.

هل كنا نحتاجُ إلى جائحة ملعونةٍ لتيقظنا من عزلتنا؟ هل كنا نحتاجُ حظراً مثلَ هذا الحظر ليمنحنا فرصة التآخي مع ذواتنا؟ هل احتجنا مدة أطول لنعرفَ أن المسافات لا تقاس بذبذبات إلكترونية؟ وأنَّ نبض الهاتف لن يغنينا أبداً عن لمسةٍ واحدةٍ تنبضُ في لمسة الأم، ونظرة الأب، وحنوّ الأخ، وجمال الأخت..

لقد خلصتُ أخيراً أنني في هذا الحجر نتيجةٌ خاملة، ما بين العمل والبيت، كل ما كان عليّ فعله أن أبذل قصارى جهدي لأحيا من جديد.

# الفهرس